





THE LIBRARIES  
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY

طبعة  
المكتبة المركزية  
جامعة بغداد



عظفي نعمان حسين البدري

الأمّام

مصطفى صادق الرافعي

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

مطبعة دار البصري تلفون - ٨٩٢٧٩

PJ  
7860  
A34  
Z59

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا  
لحبطنا عنهم ما كانوا يعملون \*  
أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفروا بها  
هولاء فقدوا وكفنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين \*  
أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »  
الآيات ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ من سورة الأنعام







إرسموا شخصاً الوفا ثم انظروا من بعدُ رسمي  
لو يسمي في الأنام الحب ما اختار سوى اسمي

للنزهة والفرح



# الأدب

للإمام مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله



من الأصول الاجتماعية التي لا تتخلف ،  
أنه إذا كانت الدولة للشعب ، كان الأدب أدب  
الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوان  
عيشه ، وزخر الأدب وتنوع وافتن وبني على  
الحياة الاجتماعية!.. فإن كانت الدولة لغير  
الشعب ، كان الأدب أدب الحاكمين وبني على  
النفاق والمداهنة والمبالغة الصناعية والكذب  
والتدليس ، ونضب الأدب من ذلك وقل  
وتكرر من صورة واحدة .

وفي الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها  
في كل من حوله ، .. إلى الاحساس بالكون ومجاليه وأسراره في كل ما حوله .  
أما الثانية فلا يحس فيها إلا أحوال نفسه وخليطه ، فيصبح أدبه أشبه بمسافة  
محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يعمل ذهابه ومجيئه .  
والعجب الذي لم يتنبه له أحد الى اليوم من كل من درسوا الأدب العربي  
قديمًا وحديثًا ، نك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للأدب في أسمي  
معانيه إلا في اللغة العربية وحدها ، ولم يغفل عنه - مع ذلك - إلا أهل هذه  
اللغة وحدهم!..

فإنما أردت الأدب الذي يقرر الأسلوب شرطاً فيه ، ويأتي بقوة اللغة

صورة لرقة النفس ، وبدقته المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة الى الحياة ، ..  
ويريك أن الكلام أمة من الألفاظ عاملة في حياة أمة من الناس ، ضابطة لها  
المقاييس التاريخية ، محكمة لها الأوضاع الانسانية ، مشترطة فيها المثل الأعلى ،  
حاملة لها النور الالهي على الارض .

.. وإذا أردت الأدب الذي ينشيء الأمة إنشاء سامياً ، ويدفعها الى المعالي  
دفعاً ، ويردها عن سفاسف الحياة ، ويوجهها بدقة الابرة المغناطيسية الى  
الآفاق الواسعة ، . ويسددها في أغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة  
خرجت من مدفعها الضخم المحرر المحكم ، . ويملاً سرارها يقيناً ، ونفوسها  
حزماً ، وأبصارها نظراً ، وعقولها حكمة وينفذ بها من مظاهر الكون الى  
أسرار الألوهية ..

إذا أردت الأدب - على كل هذه الوجوه من الاعتبار - وجدت القرآن  
الحكيم قد وضع الأصل الحي في ذلك كله !..  
وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدساً ، وفرض هذا التقديس  
عقيدة ، واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير ..

ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ، ولم يحدوا بالأدب حدوه ، وحسبوه  
ديناً فقط ، . وذهبوا بأدبهم الى العبث والمجون والنفاق ، كأنه ليس منهم إلا  
بقايا تاريخ محتضر بالعلل القاتلة ، ذاهب الى الفناء الحتم !..

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه لا يستخرج منه للأدب إلا تعريف  
واحد هو هذا : إن الأدب هو السمو بضمير الأمة .

ولا يستخرج منه للأدب إلا تعريف واحد هو هذا .

إن الأدب هو من كان لأمته وللغتها في مواهب قلمه لقب من ألقاب التاريخ ؟

# الأسماء

## مصطفى صادق الرافعي

لرافعي شخصية فريدة ، تتمثل بروح عربية مؤمنة ، تفيض شاعرية ، وتشرق بياناً ، وتتألق فناً ، وتعمر القول بوجدان سليم ، وتقبل في نفس عصامية حازمة ، تنطلق مع الحياة الانسانية المثيلة بقيم رفيعة ، وأخلاق ثابتة وأهداف سديدة ، بمحاولات تغني بالتجربة ، وتشرف بالوسائل وتنضح بالحكمة . وقد اتخذ من السمو بضمير الأمة صراطه القومي ، الى المثل الأعلى الذي جهد من أجله حياته الأدبية كلها ، الشعرية الوجدانية ، والنثرية التقويمية والنقدية منها ، التي تصدى للعصر : تهدمه من جوانبه الضعيفة لإعادة بنائه على أسس سليمة من المثانة والقوة ، والاستعداد الوثيق لحملة التطهير الماضية على أشدها في إرادة التغيير من أجله ، .. وكأنما جعلها كالمدار الفلكي من حوله ذلك المثل القويم .

ذلك أن الرافعي - رحمه الله - كان قد انتظم الأدب الاعتقادي في معاناة واجدة ، عند بيان ملتزم ، ينتصر للعروبة وقيمها وخصائصها في مجالي لغتها وفنون آدابها ، وما تضمنه من مقومات الفكر ومبادئ العقيدة ، والسمات التي تطبع الأمة بطوابعها وتفردتها بين سائر الأمم ، في هذا العصر المتحول العصب الذي يقذف بالأفكار ، ويوزع المذاهب ، وينوء بالآراء ويكاد

وهو في سبيل ثبات القيم العالية ، وغناها بالمثل الرفيعة وعمران الضمير  
يتمزق بوجهات النظر التي تنذر بالأخطار ،.. أو يتحدث مع الأيام ، أو ينبهم  
في أحداث غلبت عليه صفته من التاريخ .

القومي بالإيمان ، والسمو بالوجدان العربي .. قد أثر فلسفة خاصة ، وتحرى  
الفهم المستوعب ، وقصد حدية هادفة ، يرقى إليها بروح آسية ، وقلب طب ،  
وعقل متدبر حكيم .

ومن أجل هذا وذلك كان يجتهد أن يفرد آراءه وبؤنق وجهات نظره ،  
ويجلب بذات أفكاره ، ويطبع فنون قوله ،.. وقد يلزم نفسه بما لا يلزم أحياناً ،  
من نفحة شاعرة . وعبارة تحفل أسلوباً وتشرق في بيان عربي ميين ، وربما تقطر  
ظرفاً وهي ترفل بالمعاني وتنظم مع الحياة الوليدة في العصر عند شبه كلية فيها  
رأي يذهب ، وخلص نية يثبت ،.. ولها تقوى مضمثنة ، وبها انتصار مبدأ  
وعنوان عقيدة ، ومنها ينطلق هدف رفيع ، ويصطف سموً بالإيمان يرقى به  
في اعتقادية عالية الى أبعد ما يشرق إليه قلب عربي شهيد .

ولعل في هذه المقالة التي تقدمت الكتاب بسماحة ، بعباراتها الرقيقة التي  
تتساق في نعم النثير الرافي ، والتي وافت مسابقة البيان والتمهيد ، لتوجز من  
ثم هدفاً في الرسالة ، وتستنجز غاية في التوجيه ، بما تشف به عما وراءها من حلول  
النداء ، وطيب المضمون وجملة المحتوى ، وبما تعمره في الأدب العربي من متانة  
الأساس ، وقوة البناء وتصوير النفس الراضية في خلجاتها الدقاق ، وزهو المعاني  
بالصور الجميلة التي يلدها البهاء في جلال ، فيستوعبها الضمير قبل الخيال وتطمئن  
إليها الأرواح .

وبما فيها أيضاً من تقرير علمي يتصف بالاتزان المنصف ، والعدل الواضح  
الحكيم ، .. وبما يسلكها فيه من المذهب المتسم بالصدق والصراحة والحجة القائمة  
على الحثيات التي لا تبخس الناس أشياءهم .

ولما لها من دقة الأداء بالسحر الحلال ، وإقبال الغنى بالمثل ، وحلاوة  
البلاغة مع الجمال ، .. على ما جاءت به من معروف المفردات ، وانساق العبارات  
وعلمية الأسلوب ، وبراعة إنفاذ الحكم .

ولعل في ذلك بعض ما يصور لنا من شخصية الرافي ، وبظهور روحه  
الانسانية ويعرض أدبه الاعتقادي ، ويشف عن ضميره القومي النبيل .

كان لا مثل الرافي الأديب الفند والحجة ، الثبت من دراسات منهجية  
تكون بمنناول أبناء الأجيال اللاحقة كالدليل ، .. فتبعث فنه حياً ، وتمضي بأدبه  
سويًا ، وترقى بشعره ومعانيه ، في ازدهاء ، وتحلق معه في خياله العظيم تخترق  
الآفاق !..

وكان لا بد من إعادة النظر في تقويم آثاره ، واستعراض فنون قلمه ،  
أمام التبدل الحضاري ، والتحول في المفهومات والقيم ، والتغيير الذي تعانیه  
الانسانية بعامة ، والحياة العربية بخاصة ، .. ولا سيما بعد ذبوع المذاهب الآتية ،  
وشيوع المنهجية التي تتحرى التوثيق العلمي ، وتقتصد في البحث والمقارنة .

وكان لا بد من تجلّ أمام هذه الكثرة الغشاء من محاولات الانتهازية  
الخرقاء في التلفيق والتصدي ، وما تعانیه من مساومات التزييف والتحريف ، التي

رانت على الفكر العربي بخاصة ، فأرهقته بالتعلّات ، وآذته بالنظريات المترجمات ، .  
تحسب أن تجمله تبعياً في أحسن أحواله ،.. ولا سيما بعد الذي أقلق الحياة  
الوجدانية للعرب ، ومسّ مكامن الشجن من شعورهم النفسي ، وهزّ ضمائرهم  
في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري وبعد مأساة العروبة في الانفصال  
بالأقاليم ، والضياع في فلسطين ،. ذلك أن هذه الانتهازة الأدبية المناقفة  
ما تبرح تحاول بغفلة وبسوء منقلب نفس القيم ، وتبديد الاعتبارات ،.. ثم  
المسخ المشوه للتجديد والتنظيم .

ولما كان من بين الحركات الهادفة ، النهوض بالدراسات المنهجية القويمة  
لجوانب الضمير القومي للأمة العربية : ثباتاً أمام هاتيك المحاولات الغزوية  
الكاثرة ، والأساليب الملتوية بالتقليد العائر ، والطرق التي تلتف بالمكر والتضليل  
وهي تسعى لحجب الروح العربية عن الجهاد والحياة ، وألحولة دون بعث قوة  
الابداع فيها ،.. فلا تنأى لها الاندفاع العبقريّة المتميزة التي تأخذ لها مكانها  
في صفّ الحضارات .

فكان لا بد من تقويم علمي لمثل هاتيك الحركات الهادفة ، ومدارسة  
منهجية بقيم جديدة ترقى بالتراث الفكري للأمة إلى ما يجعله متميزاً على سواه  
من آثار الأمم الأخرى .. بالفضل والسعة .

والامام الرافي بما ينفرد فيه من الشخصية العلمية للأدب والفكر العربي  
الاعتقادي ، وبما يتسم به من السجية القومية الواضحة ، وبما يتسامى فيه من  
الروح المؤمنة العالية ، وبما يسمو عنده من الوجدان الذي يرقى بضمير الأمة إلى  
التجلي والامتياز ،.. يُمثل مجالات متسعة لمثل هذه الدراسات ، ومعنى لا مثيل



له بين المغاني، .. لما يتمتع به فنُّه وأدبه وشعره من طاقات الفكر، وآثار الاعتقاد،  
وثمرات الايمان تنتظم دُنَى قوليةً أثيرة على الأمة.

وكم كانت أمنيته مشرقة أن تسبقني موافقات دراسية لجوانب الرافعي  
الأديب، أو رحاب الرافعي الشاعر، أو آفاق الرافعي الناقد، أو مجالي الرافعي  
المفكر وصاحب الرأي الإمام ..

ولكنني وجدت - والأسمى يحزُّ في نفسي - أن بيننا وبين هذه الدراسات  
مرحلة إعدادية رائدة، كان لا بد أن أتولاها بنفسي، أما محاولاتي الدراسية  
الأخرى في شعره ونثره، .. بعد أن رأيت أكثر من تصدوا للرافعي في دراسة  
أو نحوها - في حياته ومن بعد وفاته - لم يتعدوا تعريف الدكتور محمد صبري  
وبضع صفحات لطيب الذكر الاستاذ صديق شيبوب، ومصنّف المرحوم محمد سعيد  
الريان في « حياة الرافعي » .. عليها يدورون، ومنها يجترئون مع بضع سطور  
أخرى في رثائه تقول: برحه الله !

وهكذا وضعت على عاتقي مهمة أن أتجشم العناء، واختلف على المغاني،  
واضطرب مع الأحوال .

وقد وجدت الانتظار في الأستاذ الفضيل عمر الدسوقي رأس الدراسات  
الأدبية في دار العلوم المحروسة . وكأني وإياه على موعد مع القدر، كان يُجَيِّل  
فيه لنفسه أن يتولى مهمة الكشف الصادق، ويفقش بين تلامذته الكثير عن  
يقوم بهذا العمل الأثير .

وحين قدمت له نفسي لحل هذه التبعة .. أخفي غبطته السامية، وراح  
يحاورني في عظم المسؤولية التي قد ينوء بها كاهلي في مثل هذه المخاطر الدراسية ..

وكاد يُظهر لي شيئاً من التردد بصرفني عنها أو يختبر ، وقد أحسست بومها أن  
الدسوقي يحاول معي ترجمة الحماسة إلى عزيمة فيها ثبات مقدره وجلاء عنوان ،  
وصبر جهاد . . فدعوت الله مخلصاً أن لا يخيب لي ظناً معه ، وأن لا يحزنني أمامه  
عند الرافعي العظيم .

ولم أكد أمضي خطوات في القراءة والتتبع والاستيعاب والمطالعة التي  
تعوض لي ما فأنني دراسته في مرحلة سابقة ، . . حتى وقفت بعد عام في شبه  
امتحان - إن لم يكن قد سماه لي ، فقد عرفته وأدركت مراميه وأبعاده ، . .  
ليوافق من ثم على إختياري الموضوع وتترك لي محاولة منهجته بتوفيق ، فكان  
هذا الكتاب المدخل الذي يعرض نفسه ، وكتابان آخران بعده أحدهما يعرض  
للاشعر عند الرافعي مذهباً وفناً ، والثاني بهم أن يحصر التجديد والمحافظة للنثر  
العربي عنده بتعريف جديد . . . وبذلك أرجو أن أكون قد أدبت عن الأمة  
العربية الصابرة بعض فرض الكفاية الذي يرفع الاثم عن أبنائها - والله ولي  
التوفيق م

مصطفى نعمان حسين البدري



صورة فريدة تجمع بين الإمام مصطفى صادق الرافعي  
والأستاذ الكبير محمد بهجة الأثري - عند زيارته له في طنطا  
في ربيع آذار ١٩٣٦





للاستاذ الكبير

## محنة بهجة الاثري



في الوطن العربي الكبير ، من  
ضفاف الخليج الى شواطئ المحيط ،  
حركة في التأليف والترجمة والنشر  
ناشطة دائبة ، تبشر باسراق فجر  
وضيء لنهضة عظمى تنتظم آفاقه .  
وليس بضائر هذه الحركة ما يلاحظه  
النقاد السوداويون المغرقون في التشاؤم  
على بعض إنتاجها الشاب من ضعف  
وهزال ، فإن ذلك سيختفي ولا ريب  
مع مرور الزمن كلما قويت واشتدت

وتعاظمت شأننا ، ولكن يضيرها ألا يكون في الإنتاج الشاب الذي تنتجه  
الجزلُ الحظوظ من المادة الثروة المعطاء ، والحسن الجميل الموسوم بطابع الاجتهاد

والتجويد والإيقان ، أو يكون فيه من ذلك القليل ولا يزداد نوعه باطراد .  
وجود هذا الطراز الجيد متحقق وموفور ، لا جدال في ذلك ، ولا سبيل لأحد  
الى إنكاره ، وإنه ليزداد يوماً بعد يوم ممتاً فوق ممت ازدیاداً يبعث التفاؤل  
بقيام النهضة المرتقبة ، ويشيع الرجاء في نملها وازدهارها في مؤتلف الأيام .

وهذا البحث الذي بين يديك ، وأنت ستقرؤه فترتاح الى حظوظه من  
الجد والاجتهاد والصدق ، هو وأمثاله في هذه الحركة الناشطة الدائمة من  
الإرهاص الذي يتقدم بين يدي أنواء الخير بشيراً يقوّي هذا الرجاء . وإنه  
ليسرك أن ترى الشباب يتقدمون الموكب رافعين الرايات بالأيمان ، ويقدمون  
الشاهد تلوّ الشاهد من بنات مشاركتهم الجادة في هذه النهضة ، ومنها هذا  
البحث الموعب .

وهو من صنعة شاب نابّه من طلائعهم في العراق ، يؤرخ به أديباً عظيماً  
من أفذاذ الدهر .. أدبه فكر نائر مشبوب ، وعقيدة أصيلة مُثلى ، وعلم يتوارث  
ويتدارس ، وفن خالد يترى به العقل والقلب .

صنعه بأعين « دار العلوم / جامعة القاهرة » ، ووقف من نقاشها له  
موقف الواثق بنفسه ، المُدلي بحجته ، المطمئن الى صدق بحثه وصدق اجتهاده فيه ،  
وخرج من ثم ظافراً بما طمح إليه من درجة علمية ومن تقدير واستحسان . ثم  
ودّع هذا الجهد في إعداده ، ليستقبل جهداً آخر مثله أو أعنف منه وأثقل  
تكاليف في إخراجه وتقديمه الى العربية وقرأها أثراً مرموقاً .. شاهداً على جده  
ودؤوبه في هذا الجد دؤوباً أناله بعض آرايه في المجد العلمي ، ومثالاً من تعلقه  
بأسباب القوة وبالمتمتع اللذّ المفيد من شؤون الأدب والحياة .. هذا التعلق الذي

تراه في اصطفاؤه موضوعه وتوفيقيه في هذا الاصطفاء ، ثم في حرصه على بلوغ  
الغاية منه بتقصيه مواد وموارده ، وضربه في نواحيه ، وإيغاله في أغواره ،  
فماذا الى تبين سماته وتحقيق وجوه خصائصه ومزاياه .. وصورة لنفسه ، جميلة  
الملاحح ، يستعمل فيها إخلاصه لأتمه ولغتها وبيانها ، كما تستعمل فيها أوضح  
الوعي والفهم ، وتشف عن طيب الطوية وصفاء الضمير .

وأحسب أن هذا التوفيق الذي أصاب منه الباحث ، هو وليد الحب  
والصدق فيه والصدور عنه . والحب إذا صدق أتى بالأعاجيب ، فهو إذ يصيب  
شغاف قلب يصب في صاحبه الارادة والعزم والمضاء ، ويريه الحزن الوعر  
سهلاً من الدماث اللينة فيعتسفه ، والعصي الجاح طيعاً حيناً سهل المقادة فيقدم  
عليه إقداماً يذله ويجمل عسره الى مياسرة .

ولقد أحب صاحب هذا البحث ، إذ هو طالب ناجم في أفق عربي  
إسلامي خالص ، أدب « الرافعي » حباً أخذ عليه أقطار عقله وقلبه ووجدانه  
وهام به هيام الوجد والفناء الصوفي ، فعاش به وفيه وله .. مستقرئاً له وقارئاً مدمناً  
قراءته ، حافظاً روائعه عن ظهر القلب ، متحدداً به ، ومتجاوباً في أعماق نفسه  
وشعوره مع بلاغته وما تحمل من فن وفكر وعقيدة وفلسفة ، وتجلو من حق وخير  
وحب وجمال ، حتى تشر به وتمثله وهضمه . ثم هتف به هاتف من نفسه أن يكتب فيه  
ويؤرخ صاحبه ، فعزم وأمضى العزيمة ، ودأب الى الغاية رويداً رويداً غير  
متلبث ولا وان ، وجهد جهده في ذلك في السنين الطوال ، الى أن بلغ مما أراد  
منه ، واستولى على الأمد ، واستوى له هذا البحث الموعب في « سيرة الرافعي  
وعصره » ودراسات أخرى في « الشعر عند الرافعي » وفي « الرافعي الكاتب »

تجلي خصائص هذا الانسان العبقري ، وتكشف عن وجوه أدبه وعن براعته في الخلق والابداع وما تفرى بهما من فري ، وتصف تجديده في بنية الأدب الحديث وصبه القوة والحياة في تركيبه الفني والنفسي والفكري ، وتدل على أثره العميق في ذلك وفي بعث الثقة بأصوله وبنابيعه ، وعلى جهاده حين تناوح حول الأمة العربية إعصار هذه الشعوبية الرعناء في محاولتها إسقاط أدبها بالنيل منه ومن تاريخه ومن أصوله وبنابيعه ، وإيهان معانيه في القلوب بالتشكيك في لغته وفنه وبلاغته ومثله ، وبما يلقي عليه من زور القول وفساده وباطله ، قصداً إلى انتزاع الثقة به من نفوس الأجيال الناشئة ، لتتسلخ من نوازه وسلطانه ، وتدخل تحت سلطان آداب أمة أخرى تحقق الاستسلام لما وراهها من أغراض طواعية وخضوعاً .

على هذا النحو مثل الباحث هذا الأديب العظيم إنساناً وكتاباً وشاعراً ، وصورة في كامل صفاته وخصائصه ومزاياه إماماً يقتدى به . وهو قمين بأن يتدارس ليعرف كيف يكون العبقري ، وأدبه أحق أدب بأب بُراجع ويحتفل له ، ويولى ما يستحقه من عناية ، ويجعل في موضع الرعاية من الجامعات ومن الأدباء المفكرين : يصلون آفاقهم بأفقه ، ويجددون دراسته ، ويمحضونه من خالص جهدهم واجتهادهم ، ويكشفون أسرار قوته ، ويعثون فنه العبقري ، ويضعونه في مكانه الطبيعي من حقائق هذا العصر ، الذي استعلن نوره بينها جهراً ممتد الشعاع عاليه ، وفي نصابه الحق من الأدب الحديث ومن الأدب العربي كله ومن الآداب العالمية أيضاً ، كما يفرض البحث المنهجي ، وكما يتقرر تحت مجهر النقد والتحليل والموازنات .. بعيداً عن متناوح العواطف



والشهوات والأهواء ، وفي مُنتأى قصي عن نزعات العصبيات وعن سلطان التوجيهات المستترة وراء الضباب .

وأدب القوة والصدق في الأداء عن الوجود القومي ومقوماته من فن وفكرة وعقيدة، أول شيء تشتد الدواعي الى التماسه وتمثيله وبعثه في المحنة الحاضرة، إذ الوجود القومي كله يصطلي الحجره ، ويستعد للكرة بعد الفرة المنكرة ، ويحتاج أشد الاحتياج الى حشد كل أسباب الثبات ، بل الونوب بقوة وشموخ الى « معركة المصير » .

ويوم يتهيأ هذا لدراسات الباحثين الجادين ، ويكون ارتياد القوة المعنوية والتماس مصادرها هوى النفوس، وتبرز من ذلك معالم الحق والصدق في « تقويم » أقدار الأدب الصحيح والادباء الاصلاء ، يختفي هذا « الأدب » الضاوي السقيم الذي يتسلل الى الفكر العربي ، وينقطع دابر الدراسات الهزيلة بما تلقاه من الصدود : ما قام منها على الخطب والقش من هنا وهناك ، وضمرت فيها شخصية الكاتب تحت ركام النقول ، وما كان منها مظهراً للعصبيات صادراً عن التوجيهات المتخفية الرامية الى تغليب هذا « الأدب » المتهافت المريض روحاً وبياناً ، بالانفاق عليه ، والسعي في إذاعته ونشره ، والكتابة في أربابه من كل من خف ميزانه وشال ، وحفهم بهالات الاكبار وألقاب العباقرة العطاء ، قصاداً الى هذا التغليب .. وتظهر مكن ذلك ، بشعور عميق من تقدير القيم المثلى ، هذه الدراسات الجادة للأدب الأصيل القوي المتحرك الاوثاب ، وللادباء الكبار الذي يرفون راياته في الوطن العربي ، ويمثلون أصالته الفنية والنفسية والفكرية، ويعشون به الشخصية القومية الواعية التي تستوي قائمة مستقلة بفكرها وعقيدتها

وإرادتها حرة طليقة من عبودية التبعية وإسار التقليد والمحاكاة، وهما من صفات القروء، ويكون من المثل التي يرسمون شباب القرة والتماسك وثبات الضمير في رسوخ وشموخ أمام التحديات، كما يكون النزوع الدائم إلى الكمال والسمو والتطلع إلى منازل الكرامة وعزة الحياة.

وأنا إذ أضع أدب الرافي في الصدارة من الأدب، قديمه وحديثه، وأراه حقيقة بالمرآة الدائمة والدرس الموصول، فذلك بأنه الأدب الرفيع الذي يتحقق هذا كله به، وهو يوجد به في سخاء عظيم وعطاء كريم لا حدود له. ولا ريب في أن العناية به وبما يكون من مثله من أدب، ويجري مجراه في التيار القومي الدافق، وهو تيار إنساني حضاري نبيل، إنما هي عناية بالوجود القومي، وتثبيت له، وإبقاء عليه، وإبراز لشخصيته في الأسرة الإنسانية، ولمثله بين أمم الأمم إبرازاً يعين على فهم حقيقته، ويدعو إلى الإقبال على قيمه والاعتزاز بمشاركته بها في البناء الحضاري العالمي.

وهل بك من حاجة، وهذا البحث بين يديك يحدثك عن صاحب هذا الأدب الرفيع، أن أسلف لك بعض القول في أدب الرافي هذا، يقرّب صورته إلى ذهنك، ويصاك بمثله ومدركاته، قبل أن تقبل على البحث وتمضي فيه؟ لعل في نفسك شيئاً من حب هذا وحب توفيره لك، وأنا في هذا التقديم إنما أستطيع أن أؤدي لك خطوط الصورة العامة لهذا الأدب، وأجزها بما يشبه الرمز والإيماء.

وأذكر من شأن هذه الصورة العامة ما يبدهك منها أول وهلة، هذا المزاج الخاص في أدب الرافي الذي تحسّه في جملة بنيته وتركيبه الفني والنفسي

والفكري مهيئاً على بلاغته ، جاريًا في عروق ألفاظه المتخيرة ، وجمله المحكمة  
الرائعة المحبرة وما تخلقه حولها من جو يتحير على أسرته وقسماته ماء الوضوء  
وإشراقه الروح النبيل . ثم ما تراه فيه من هذه الخصائص الفنية ، وقد اجتمع  
له منها ما تفرق في سواه من الأدب المتعارف ، ومنها ما لا سابقة له في الأدب القديم  
ولا نظير له في الادب الحديث مما تميزت به أوضحه وكان منه مذهب متفرد  
في الأدب ، على ما حفلت به مذاهب الادب في قديم الزمن وحديثه من مزايا فنية  
وفكرية ، ومن أساليب بيانية متنوعة أرى لها كما يرى غيري شأنًا ، وأجد في خاصية  
كل فن منها كما يجد غيري لونا باهراً له بهجة وعليه رواء ، ومذاقاً حلواً وطعمًا لذاً  
ونكهة طيبة .

والأدب الصحيح الصحة كلها هو ما اجتمع له الفن والأسلوب والطبع  
والفكر والروح ، واثلت في هذه العناصر اثتلاف العشق ، وصيغت صياغة  
مؤثرة نافذة . ولكل عنصر من هذه العناصر أسباب ووسائل لا مناص من  
توفيرها له ، وخاصيات تميزه .

وقد اجتمع هذا كله في أدب الرافي فكانت له خاصية العلم وخاصية  
القوة والتأثير بفضل قوة الطبع وسداد الفكر وسطوة الروح . وكل هذا إنما  
يدين بفضل أدوات الادب الكاملة التي اجتمعت له على نحو ما اجتمعت لقراءح  
المطوبعين من عطاء أدباء العربية كالجاحظ والتموحيدي وأبي نواس والبحثري  
والمتنبي والمعري وأضرابهم ، وهم كثيرٌ لا يأتي عليهم العد والحصر ممن أوفوا من  
البلاغة والتأثير على الغاية ، واستولوا على الأمد بأيدي وقوة ، وأبرزوا عبقرياتهم  
في أروع معارض البيان وأقواها وأخلدها بفضل ما مكنت هذه الأدوات الكاملة

لهم منه . وهي كما مكنت لهؤلاء أن يصوغوا عبقرياتهم على هذا النحو الرائع ،  
وكتبت لها أن تسعى إلينا على أعناق الدهور ، وضمنت لها الخلود بين جملة آثار  
الأدب الانساني الرفيع . مكنت الرافي بما ارتوى منها وملك من ناصيتها أن  
يسمو بفنه ، ويخلد أدبه وفكره في أبلغ سطوة بيانية وأرقى أسلوب يزخر بقوة  
الأداء ، ويحفل بالمعاني الحية والأفكار النسيّرة ، وبالتوليد والخلق للصور  
والابتداع للمثل ، وأن يذهب جملة أدبه من شعر ونثر وبحث ونقد وتأليف  
مذهباً عزيزاً في بلاغة الأدب موسوماً بالسحر والجمال .

أما الفكر الذي وعاه هذا الفن الرافي ، وخلدته كتبه - وهو فكر يؤزره  
العلم والعقل والقلب - فقد حدد الرافي نفسه مذهبه فيه ، وانجأهاته العامة ،  
وطبيعته ، والقبلة التي يتجه إليها ولا يفارقها عقله وقلبه ووجدانه ، وأجل صورة  
ذلك كله فأحسن في إجماله التعبير عنه ، وصدق الصدق كله ، وذلك إذ يقول :  
« أنا لا أعبأ بالمظاهر التي يأتي بها يوم ، وينسخها يوم آخر . والقبلة التي  
أنجى إليها إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ،  
ويزيد في حياتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب  
كلها إلا نواحيها العليا . ثم إنه ليخيل إلي دائماً أني رسول ، بعثت للدفاع عن  
القرآن ولغته وبيانه » .

وأنت إذ تقرراً فكر الرافي حيث طالعك به في كتبه ومقالاته نحس  
وراء هذا الفكر قوى تتآزر معه ، وتشد من عضده ، وتظهر سطوته . وهي :  
روح قوي يهيم عليه ، وعقل فلسفي مبدع يفرض سلطانه ، وقلب رقيق فياض  
يملي أشواقه وعواطفه ونبله .

ولقد أستطيع أن أجمال ذلك في معارض ثلاثة :

معرضٌ تتجلى فيه الشاعرية وفلسفة الحب والجمال ، ويبدو مظهر آرائها لشيء جديد تتعرفه العربية لأول مرة على هذا النحو في « حديث القمر » و « رسائل الأحزان » و « أوراق الورد » و « السحاب الأحمر » وكثير من مقالات « وحي القلم » . وهو يرينا الحب عند الرافي الأصيل الذي بنى عليه أدبه منذ عُلقه وعلق هوى « عصفورة كفر الزيات » ، ونفض عليه عبقر من ألوانه وخياله وسحره وهو في نحو العشرين من ربيع حياته . وهو عنده - كما يلاحظ مؤرخه الأول ( العريان ) أسبغ الله عليه غلائل رضوانه - غير ما عند الناس . « هو عند الناس حيلة الحياة لإيجاد النوع ، ولكنه عند الرافي هو حيلة النفس الى السموم والإشراق ، ومادة الشعر ، وجلاء خاطر ، ونبوع الرحمة ، وأداة البيان » . والرافي بهذا الإدراك السامي لمعاني الحب وانتفاعه به في أدبه مدين لطبيعة مراهبه ووراثته واكتسابه من جدوده وبيته . وهو حين أخذه من معناه الواسع ، خرج به الى السموم والإشراق ، وأدار من حوله في روايته فلسفته الخاصة في الحياة والدين والاجتماع حتى جعلها فلسفة الحب والجمال ، وصح له أن يرسل بيته المشهور ، يصف نصيبه من هذا الحب الفلسفي الصوفي العفيف :

قلبي يحب ، وإنما أخلاقه فيه ودينه

ومعرض ثانٍ يجلو نوازه النفسية والاجتماعية وإنسانيته ورحمته وعطفه وطلبه الإصلاح ، كما يجلو مدارك القومية ومراميه العليا ونوازه الحرية . وتستعلن الوجهة الأولى في « الساكنين » ، وتستعلن الوجهة الثانية في معاركة الأدبية المشهورة ولا سيما ما دار منها حول أصول الأدب العربي والتاريخ الإسلامي

والقرآن ولغته وبيانه، ومثّلته مقالات «تحت راية القرآن» أو «المعركة بين القديم والجديد» وكثير من أناشيده وأغاريده.

ومعرضٌ ثالثٌ تبرز فيه وجوه معرفته وعلمه الواسع بعلوم العربية والعلوم الإسلامية وإطلاعه على الآداب الأوروبية وآيات الفكر الإنساني في الفلسفة والأدب والاجتماع والتاريخ، وتمثله وهضمه ذلك بوعيه وإدراكه المستقل، وآثار ذلك منبثّة في كل ما كتب ونظم وألف. وتبدو قدرته العلمية في ذروتها في كتابه «تاريخ آداب العرب» كما يبدو فيه ابتكاره في تناوله له من نواحيه الفلسفية وأصوله العليا مما لم يسبقه إليه سابق ولا وُجد له ضريب يدانيه لا فيما كتب الأوروبيون ولا فيما كتب أدباء العربية.

وهكذا قام أدب الرافعي فناً وأسلوباً وفكراً على حقائق خالدة هي من عبقرية الأمة كل الأمة كحقيقة الحياة في الجبلة (PROTOPLASM): جبلة الأنواع من إنسان وحيوان، وحقيقة النسخ في عروق الشجر والثمر والنبات، ونهض بها بناؤه المحكم الرائع شاهقاً شامخاً بين أدب العصر الحديث وأدب عصور العربية جمعاء.

\* \* \*

وهذا البحث، مدخلٌ إلى أدب الرافعي، وليس هو في صميم هذا الأدب، وإن استبانته ملامحه وأوضحه في ثناياه.

إنه يتحدث عن «الرافعي» الإنسان العبقرى الذي وهب العربية هذا الأدب الرفيع، وأجددٌ عليها خلال سبعة وثلاثين عاماً فذة المتميز الجديد. وإنه لعبٌ ثقيلٌ باهظ هذا الذي اقتحمه الباحث الفاضل، فعنى نفسه

حملة فلم ينسوّ به ، وأمر شاغلٌ هوى الشباب عن مثله : يستبد بالوقت ، ويذهب بالراحة التي يتوسد ذراعها الشباب في العادة إخلاداً الى الكسل وفراراً من العمل . ولكن إذا عظمت النفس ، وعصف الطموح بالرأس ، استخفّت الأثقال ، وطلبت الجد ، وسعت له ، واستطابت فيه الجهد والنصب .

ولقد اجتمع لصاحب هذا البحث في نفسه هوى في العمل ، وطموح الى المجد ، وحب للبيان حاكت في صدره ، فضى مجاهداً في الطلب ، وأقبل على بحثه بهذه النوازع التي تتصرف به هائماً فيه : يتقصى لبنائه كل شاردة وواردة من أمره ، يطلبها في بغداد ، ويسعى لها الى مصر ، يسهر ليله يديرها في فكره ، ويمضي فيها نهاره في المكتبات العامة معتكفاً في زواياها بين مخزن الكتب والصحف والمجلات ، ينفذ غبارها ، ويدمن تقليبها وقراءتها ، ويمد عينه هنا وهنا لينتزع من ثناياها ما تقع عليه من شيء يتصل ببحثه فيثبته . ثم يمضي الى بيأة الأديب العظيم ودارة عشيرته الأقربين وأهله ، يتسقط فيها أنباءه من أفواه خلطائه ، ومن أهل بيته وأولاده وحفدته : يحاييهم بالمودة الخالصة ، ويستنبئهم أخباره خبراً خبراً مما غاب في صدورهم سرّاً لم يُفضّ به ، ويطلب المطوي من كتبه ورسائله وأوراقه ليكشف فيها خبيثاً غاب عنه ، فتفتح له الأبواب الموصدة والقلوب ، ويعطى مناه ، ويمضي حقيقياً بما ظفر به من أرب ، قل أو أكثر ، ويضمه الى أشباهه ونظائره مما اكتسب ، ثم يمكف على ذلك كله يصنّفه ويوبه ، ويتدارسه فناً فناً ، ليخلص الى تسوية بحثه . ويتخذ لهذا البحث طريقة منهجية يجريه عليها جهد طاقته ، لا مما أطرافه ، موغلا في أعماقه ، يقارن

الخبر بالخبر ، ويثبت الرواية الصادقة ، ويكتب الرأي الذي يراه ، ويقيم على هذا وذلك ما ينشئ من بحث .

وقد كتب صديقي الأستاذ محمد سعيد العريان ، طيب الله ذكراه ، قبل ثلاثين عاماً كتابه « حياة الرافي » ، وهو أول كتاب يؤرخ الرافي ، فأدى عنه خبره في رؤية رآها أو رواية رواها ، ولم يكتب فيه رأياً رآه .

أما المؤرخ الجديد ، فذهب فيما كتب فيه له شأن آخر غير هذا كما نهبت عليه ، فلم يستطع سرد الخبر ، ولكن بحثه ونقده وتوجيهه والإستنباط منه والتعقيب عليه بالرأي . هذا ، إلى أنه استقل بجهد الخاص في تقصي الروايات ، وقد وقع إليه منها ما لم يقع إلى العريان ، واستقرى ما كتبه الكاتبون في « الرافي » له أو عليه ، وأجاله في ذهنه ، ثم كتب عالماً بالموارد والمصادر . وهو يتحدث أول ما يتحدث عن « عصر الرافي » فيطيل حديثه إطالة تستغرق زهاء ثلث البحث ، ويكثر فيه الاستطراد ، ويتناول بطريقته الخاصة ، ويعرض حقائق التاريخ ، وينقد منها ما يرى نقده ، وينفض على نقده من الحماسة في بعض الأحيان شواظاً ، وهو يقف « بالرافي » عند كل جانب من جوانب عصره - وقد تناول منه الحالة السياسية ، والبيئة الاجتماعية ، والحياة العلمية والثقافية ، والحركة الفكرية والأدبية وما سماه انطلاقة الشعر الحديث - ويثبت في ثنايا كلامه شواهد من نظيمه ونثره ، ومن رأيه وفلسفته ، ليستبين تفاعله مع عصره ، وارتفاعه بعبقريته وعلمه ووعيه فوق ما اضطرب في آفاقه واختلف عليه من مظاهر الضعف ، وفوق ما تحبط فيه كثير من معاصريه من تقليد وما تورطوا فيه عند الأخذ والنقل والتأثر وقلة التمثيل والهضم لما



يقبسون من آداب الأمم الأوروبية : من زيف وضلال وانحراف ، أو كما يقول . ويعاود الحديث في هذا الشأن بعد حين فيعقد فصلاً مقتضباً يذكر فيه ما أفاد الرافي من عصره من أطايب العلوم والآداب وآيات الفكر الإنساني في الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، ومن معطيات الحضارة الجديدة ، وكيف كان يلقف ذلك بنههم ، ويلتمسه من سبيل الترجمة عنها إذ تحيِّفه الزمان فلم ينله شهادة من جامعة 11 ولم يمكن له من تعلم لغة أجنبية 11 فيمثل ذلك ويهضمه بوعيه ، وتبرز آثاره في فنه ، ولكن في مزاج خاص يرتفع عن التقليد ، ويمده بالطاقة التي تقوي ملكاته ، وتعذي وعيه واستقلاله الفكري ، ولا يطويه التأثير به في سلطانه ، وإنما يتسامى إلى المرتبة الاجتهادية العليا ، ليطلع أدبه وفكره وعقله الاجتماعي بطابعها الخاص .

وحين يفرغ من عصر الرافي ، يعمد لأسرته وهي موصولة النسب بالخليفة العظيم « الفاروق » ، فيؤرخها في قديم وفي حديث ، ويذكر من يذكر من رجالها ويسرد أسماء العدد العديد منهم ، وهم يتصفون بمختلف الصفات من العلم والفقه والأدب والشعر والسياسة والصحافة والقضاء ، ويفضّل القول في ذلك ويمتد نفسه فيه ، ليضع يده على سر عبقرية « الرافي » ، ويكشف عن أثر الوراثية وفعل الاكتساب في ملكاته ، ويصف الطابع الذي ألقاه المرابي والقيم المتوارثة في الأسرة على وجهته في الحياة ومذهبه الاعتقادي في رسالته الفكرية التي صار بها إماماً .

ثم يخلص إلى « الرافي » نفسه ، فيتحدث عن سيرته من ولادته إلى وفاته : يصف نشئته وتعليمه وتربته ، ويتحدث عن سيرته في البيت وفي الوظيفة .

وعن حياته في دنيا الأدب والفن ، ويصوّر صورته الخلقية والنفسية ، ويتناول روافد ثقافته ويذكر أثرها في اتساع آفاقه وعمق معانيه وقوة بصره بأدب العرب وبالآداب الأوربية ونزعات الكتاب الاجتماعيين من الأوربيين ، ويعرض لفصص حبه وعرائس أحلامه من أدبيات العصر البارعات الأدب والحسن ، وهي أعجب شيء في حياة الرافعي ، ويوثقها بمجديد الكتب والرسائل ، فيورد منها الشيء الكثير مما يوافي بأضواء جديدة تكشف سرائر هذا الحب وسرّحات خياله فيه التي انتهت به الى ما قدمت من تساميه به وإدارته عليه فلسفته الخاصة في الحياة والدين والاجتماع حتى جعلها فلسفة الحب والجمال .

ويصل هذا بالتحدث عن آثار الرافعي الشعرية ، وآثاره النثرية ، فيتقصّها أثراً أثراً ، ويعرّف بها ، ويصف فنونها وصفاً جامعاً ، ولا يخليه من نقد ونقاش لبعض المعاصرين في شأنها ، ولكنه يرى ذلك يستوعب كتاباً برأسه ، فيرجي التفصيل فيه الى طبعة جديدة .

هذا كله مما أصبته في هذا البحث ، قد حجب إليّ الاستجابة لرغبة كاتبه أن أكتب هذا التقديم له على عُرف العصر .

ولست أدري إذ أنثيت في ثنايا هذا التقديم على جده واجتهاده فيما كتب أكنت مقتصداً في الثناء ، أم كنت مسرفاً متجاوزاً حدود القصد والاعتدال ؟ ولكنني على كل حال مطمئن الى أنني أصدر فيما قلته من شيء عن غير الصدق واليقين . وعن هذا المورد الصافي الذي يرويني نبعه ، سأصدر فيما وددت أن أفضي به الى صاحب البحث من رأيي مجمل في كليات البحث وفي شيء من جزئياته التي أراها مهمة جداً ، ليستوفي الحسن من أطرافه ، والسكّال

كله ، ما استطاع صاحبه إليه سبيلاً .

وأنا معجب بأسلوبه وقوة أدائه ورصانة تعبيره وإحكامه ، وليته - إذ بلغ هذا المستوى - احتاط له أكثر فلم يأذن لهذا الترخص في أشياء من ألفاظ اللغة ، ومن شوائب « المطبعة » أيضاً أن يتسرب إليه .

وأنا معجب كذلك بالتزامه العمود المنهجي في البحث . ولن يذهب بطلاقة إعجابي هذا ما ألاحظه عليه مما يغلبه من الاندفاع والحاسة في بعض الأحيان فيما زج بين البحث الموضوعي والنقد التاريخي والنبر العاطفي الذي يخرج به إلى الشدة فيقسو بعض ألفاظه ويعنف ، ولا سيما حين يتصل الشأن بالعقيدة أو بالقومية أو بالرافعي نفسه . ولست أجادل في أن عصرنا يحمل في طبيعته من نوازع العدوان والبغي ، ومن ظلم للعروبة والاسلام وتعمد لرجالها العطاء بالإساءة شيئاً عظيماً لا يطاق احتماله ولا يُصبر عليه ، ولكن مواجهة ذلك بسكينة العلم ووقار الحلم وجلال الحجّة أشبه بالبحث المنهجي ، وألصق بالحكمة ، وأدعى إلى الفلج ، وأدنى إلى إحداث التأثير المطلوب . ولو تورط « الرافعي » رحمه الله في أشياء من هذا العنف حين واجه خصومه وخصوم عقيدته مكرهاً لا بطلاً ومدافعاً لا بادئاً ، وكالمن عفوا عليه الصاع صاعين وانتصف منهم وأبلغ ، وليته إذ حشد طاقاتها كلها وقذفهم بيناته الدوامغ ، وقف عند ذلك ، ولم يخرج إلى مثل ما جبهوه به من أسلوب ، وقد كان هذا أشبه به .

وألاحظ على البحث شيئاً آخر ، ذلك هو اتساعه في الجزئيات ، وإقحام الباحث أشياء عليه يبدو بعضها ضعيف المناسبة في سياقه ، ويبدو بعضها غريباً عنه أو كالعريب . ومن هذا ما يلقي ظلاً من الجنف عن الحق كالإشارة إلى دراسة

حب المتنبي في « المقتطف » وانهم مبدعها بصدوره بهاعن « الرافي » انسياقاً  
من الباحث مع المحكي له من ذلك افتثاناً وظلماً ، وكم للمعاصرين من أشباه هذا  
التجريح الظالم بعضهم لبعض . ومن نوافل الأشياء أن أدل على مكانة كاتب  
هذه الدارسة البارعة بين الأدباء ، فما مثله وهو هو علماً وبياناً وبصراً بالنقد  
والتحقيق بالذي يصدر عن غيره وإن كان الرافي العظيم . وعهدي بباحثنا  
ورصانته وارتياذه الحق أنه سيفعل ما أشير به عليه من اطراح هذا وأشباهه  
فيما يستأنف من طبع بحثه .

تلك ما أخذ طفيفه ، بجانب إحسان الباحث ، سهل خطبها ويسير تلافيه ،  
وما أراها تثقل على كاتب له في الإجادة آثار وحسنات ، أزجها اليه مشفوعة  
بالتقدير أن أتاح لي فرصة أنتهزها للوفاء لذكري صديقي العظيم .

تحية لروح « الرافي » وذكراه .. إنه نفحة من نفحات الله في الانسانية ،  
وحناناً إلى أدبه فهو ضمير حي خالد في عقل الأمة وقلبها ووجدانها ، وإلى  
جهاده نبراساً يشع النور ، ومصدر قوة يستمد منه الضعفاء والمستضعفون ما  
يرحمه الله تعالى .

محمد بهجة الأثري

بغداد - ١٣٨٨/٥/٩ هـ

١٩٦٨/١٢/٥ م

# الباب الأول

## عصر الرافعي



لم يزدحم قرن من الزمان بالانفوان السياسي ، والتحول المصيري ، والانقلاب  
الاجتماعي ، والتوزع القيمي ، والافتراق الاعتقادي والبحران الفكري ، .. كما  
ازدحم عصر الأمام مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله .  
لقد كان عصر آ عصيباً ، مفعماً بالمآسي ، وضائقاً بالأحداث ، زها فيه وليد  
الثورة الفرنسية (\*) ماشاء له زهو وخيلاؤه ، وعانت منه البشرية عامة ، ودنيا  
العروبة خاصة ، مالم تعانه حتى في عصورها السحيقة الموغلة في القدم ، والمندثرة مع  
النسيان والضيعاء ! ..

---

(\*) ما تزال هذه الثورة تتمتع بنفوذ في الدراسات التاريخية والفكرية ، ..  
وقد استطاعت الغزوية الأوربية العائدة أن تمتد بها الى مناهج التعليم في الديار  
العربية ، حتى أشبعت أفكار الناشئة بشعاراتها ، وصير رجالها ، .. بحيث انزلت  
أحد الكتة - اب ينعت النبي محمد « ص » « بنا بلي - ون الساء » !  
وقد تنبه أحد الأدباء العرب الى هذه الحقيقة بعد ان رأى أبناء الأمة يعرفون  
عن « فولتير » ما لا يعرفون عشر معشاره عن الأمام الشافعي مثلاً !  
ولكن لم ينظر الموضوع أحد من ناحية النقد التقويمي ، الذي يتحرى  
الأساس ! .. ذلك ان الصليبية الخائرة والصهيونية الماكرة قد اجتمعتا في هذه =

مسخت في هذا العصر جغرافية العالم وخرائطه ، واعدت تلوينها غير مرة بتواريخ جديدة ، واجتمعت أمم ، لتحيل أخرى سواها أمماً ! .. وتفترق ، ولتحاول بعض من سواها من ثم الحياة القومية بجهاد ومعاناة ! ..

---

= في هذه « الثورة » وكان من لقاها « الاستعمار الذي سوغت فيه دول أوروبا لنفسها الاستيلاء على الشعوب باسم هذا الوليد المتمدن ! .. وانظر روما والقدس - لموشي هيمي ( حايم ) الذي نشر عام ١٨٦٢ م . ذلك الذي تعشق الثورة الفرنسية هذه وذهب يقول : ان ما علينا عمله اليوم لإعادة تأسيس وطن اليهود القومي أن نحفظ دائماً بالأمل الذي بدأ في الثورة الفرنسية ، في بعثنا السياسي وان نوقظ هذا الأمل كلما نام ، ..

فاذا مكثنا الحوادث التي تتأهب للوقوع في الشرق من البدء عملياً في إعادة إنشاء دولة يهودية ، فان الخطوة التالية ستكون انشاء مستعمرات في ارض الأجداد وهو عمل لا شك في ان فرنسا ستمد له يد العون « أه ثم راجع أدولف هتلر في كتابه كفاحي - حول حقيقة هذه الثورة



# الفصل الأول

## الحالة السياسية

لقد اصاب الخارطة السياسية للوطن العربي عدوى الألوان التي صبغت الأقطار الأوربية ، منذ كانت المطامع الصليبية العائدة بصورتها الاستعمارية الأخيرة (١) تلتف حول الجزيرة العربية في وقت سابق لهذا القرن (٢) ولا سيما بعد ان تمكنت إنجلترا من ترصيع تاج ملكتها بألمع درة ، وهي ماسة الهند . . وامتدت يد فرنسا في الهند الصينية (٣) . . وكان لا بد لها من تأمين طريقها الى هناك ، ولو بالاستحواذ على شطآن الوطن العربي (٤) ومن ثم دياره وأمصاره . . وقد استطاعت بريطانيا - من ناحيتها - عقد معاهدة لندن ، التي حصلت لمصر بموجبها على « استقلال ذاتي » في الإدارة يمكن لحكم أسرة محمد علي (٥) في

---

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ - التبشير والاستعمار ص ٤٥ ، ص ١١٤

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية - ص ١٥٤ وما بعدها .

(٣) مصطفى الخالدي وفروخ - التبشير والاستعمار ص ١٢٨

(٤) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٢٤ وما بعدها

(٥) جورج أنطونيوس - يقظة العرب ط ٢ ص ٨٠

سابقة انفصالية خطيرة ؟ .. مبيتة في ذلك جريمة تاريخية منكورة ، تظهر بعد هذا بقرن ونيف في مأساة فلسطين ! ... ثم واصلت - من ناحية ثانية - إتصالاتها بالمنطقة العربية على يد وكالاتها التجارية والقنصلية ، ومواضع أقدامها التيشيرية - البروتستانتية - الإنجليزية - ، التي تسابق أقدام فرنسا « الجزويتية » (١) .. في التسلل الى جسم الدولة العثمانية ، التي أرهقها الزمن وغلبت عليها رقعة الأرض (٢)

وقبيل هذا التاريخ كانت فرنسا قد جربت التحرش بالدولة العثمانية لجلس النبض ؟ فألقت بكلكلها ومباذير « ثورتها » على جزائر المغرب العربي استعماراً غاشماً وغادراً (٣) وكانها كانتا تسابقان الأرثوذكسية القيصرية - الروسية في هذا المحاولات الدنيئة .

وبعد ذلك بربع قرن مدت أصابعها - فرنسة - الى لبنان - حيث الموارد والكاثوليك : لتسبب في احداث فتنة طائفية رعناء بين المسلمين والنصارى عام ١٨٦٠ م فتتخذها ذريعة تفسح فيها لنفسها المجال الذي تزعم فيه حماية النصارى ، وتأخذ لمتصرف ( محافظ ) بيروت من الدولة العلية نصرانيين - أولاً ، وتفرنسه اليسوعي من ثم بسابقة خطيرة (٤)

ثم التفتت حول المغرب في تونس .. بقروض دفعت الى فتنة داخلية

---

(١) الخالدي وفروخ - التبشير والاستعمار ص ٤٥ ، ٥٤

(٢) ساطع الحصري - الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٢٤

(٣) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية - ص ١٥٦

(٤) نفس المصدر ، وانظر جورج أنطونينوس - يقظة العرب ص ١٢٦ ،

وانظر عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة .

عام ١٨٦٤ م ، وانتهت بتدخلها السافر (١)

وكان محمد سعيد « الخديو » قد منح نائب قنصلها بالاسكندرية - فردناند دليسبس - إمتياز حفر قناة السويس قبل هذا بعقد من السنين ! ..

وقد استطاعت فرنسا وانجلترا من ثم ان تلتقيا بشباك القناة معاً على مصر - الصيد الثمين - يوم فرغت خزائن « الخديو » - المستقل بمصر حوزة عن الدولة -

وارتكس بحمأة الديون عام ١٨٦٩ م (٢)

وحوالي هذا التاريخ كانت - شركة الهند الشرقية - في البصرة وبغداد تحاول مع القنصل البريطاني أن يعملوا معاً على زيادة عدد المترددين على مكاتبهما من اليهود المنتفعين ، وغيرهم من ضعاف الخلق الأعاجم والنصارى .. وحتى المسلمين (٣) وخلال ذلك الفصل من أيام الأمة ظهرت حركة انفصالية في اليمن يقودها إمام الزيدية ، .. ولا تستطيع الدولة العثمانية قمعها ، .. وإنما تظهر بواقعها الذي تضطر الدولة العلية الى الاعتراف به عن عجز غير خاف (٤)

وفي الوقت الذي كانت فيه إنجلترا تتحين الفرصة للأفراد بمصر حوزة ، كانت يدفرنسة تمتد لاستكمال أسباب الحماية تلقياً على تونس والمغرب .. حيث حاصرت قصر الباي ، وأرغمته على توقيع معاهدة تيسح لها ما تشتهي من أطايب

---

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٧١ ، وكذلك الخالدي وفروخ - التبشير والاستعمار ط ٢ ص ١٣٥ الخ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - عصر اسماعيل ج ٢ ص ٩٠

(٣) عبد الرزاق الحسيني - تاريخ العراق الحديث ج ١ - المصالح الاجنبية

ص ٤١ ، وكذلك - محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٤٦

(٤) أمين سعيد - ثورات العرب ص ١٤٢ ، الهلال مجلد عام ١٨٩٢ م

البلاد عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ م (١) .

فقد استغلت فرنسا حوادث حدود في تونس ، وانتهزت إنجلترا فرصة عند ثورة الجيش العربية ، التي كانت قد فرضت على الخديو توفيق وأركان حكمه - نظام الشورى ، وتسليح الجيش بعد ان اضطر الثوار الى مظاهرة عابدين في ٩/٩/١٨٨١ م ، إذ ان الخديو لم يستجب لمطالب أحمد عرابي التي قدمها باسم الأمة في ١٥/١/١٨٨١م (٢) ثم خيانة توفيق الظاهرة ، وطلبه حماية الإنجليز ...! (٣)

فكان يوم ١٢ آذار - مارس في تونس ، و٥ حزيران - يونية في مصر ١٨٨٢ م . وافتعال حوادث معينة تسوغ لها مثل ذلك التدخل السافر ، كالذي حدث في ١١ تموز - يولي ، وما أدى من ثم الى تسمية « المسألة المصرية » في مؤتمر الأستانة المنعقد بعد هذا التاريخ (٤)

وما كانت مصر على استعداد تام للمعركة ، ولا كان في بال الثوار مثل هذه الخيانة .. فباغتهم الإنجليز غدراً بمعركة التل الكبير في ١٣ أيلول - سبتمبر ١٨٨٢ م - التي دخلوا بعدها القاهرة في اليوم التالي دون كبير عناء (٥) بالرغم من التشبث في

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٧١

(٢) يصادف هذا اليوم ولادة الامام الرافعي في الأول من رجب ١٢٩٨ هـ

(٣) كرومر - ترجمة عبد العزيز عرابي - الثورة العربية ص ٨ - وعبد الرحمن

الرافعي - الثورة العربية ص ٢١٠

(٤) عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر الحديث - المسألة المصرية ص ١٨٥

(٥) عبد الرحمن الرافعي - الثورة العربية ص ٤٤٨ وما بعدها

محاولة الأعاقبة ؟ التي كانت ربما تكلفهم ردم القنطرة عند الأسماعيلية (١) وليس من توارد الحوادث - أو من قبيل الصدف كما يعبر عنه خطأ - ان يكون احتلال مصر في هذا التاريخ ، الذي ظهر فيه كتاب الصهيونية الأول الموسوم « التحرير الذاتي » الذي أصدره « بنيسكر » على أثر ما أحاق باليهود في دول شرق أوروبا - روسية ورومانية وبولندية (٢) . . . وانما كان ذلك الحلقة الثانية في السلسلة البريطانية المتتفة حول مصر بالذات من الدنيا العربية ، منذ أن مهد أمثال نوبار ( باشا ) في عهد اسماعيل للانتكاسات المالية والاقتصادية التي جاءت فيها تتمتع الحلقة لما كان قد بدأ بتكليف البلاد طاقاتها كما مر . . .

لقد كان ذلك بالرغم من مظاهر البعث الثقافي والفكري التي أشار إليها المؤرخون في ذلك العهد (٣) \* \*

ولا يفوتنا أن المقاومة ، والاتحاد العام بين قوى الأمة لم يقتر في انتفاضات ، تتخلل ذلك التاريخ في حركات وطنية ، وأخرى ثورية متلاحقة . مثل التي قادها الأمير عبد القادر الحسيني في الجزائر ١٨٣٢ - ١٨٤٧ م ضد فرنسا الثورة (٤) . . . وعلي بن خليفة في تونس ١٨٨٢ - ١٩١١ م (٥) وأحمد عرابي في مصر (٦) وحركة محمد أحمد الذي «تمهدي» في السودان ١٨٨٥ - ١٨٩٦ م والتي

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) كمال رفعة - الاستعمار والصهيونية ص ٥

(٣) الياس الأيوبي - تاريخ مصر في عهد اسماعيل ج ١ ص ٢١٨

(٤) ، (٥) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٠٨ ، ٤١٧

(٦) انظر في ذلك - عبد الرحمن الرافعي - أحمد عرابي ومحمود الخليف

- الزعيم المقترى عليه ومذكرات احمد عرابي .

كان بسببها ومضاعفاتها إضاعة الكثير من أجزاء الوادي لقمًا في أشدق الاستعمارين  
الايطاليين في الحبشة ( أثيوبيا ) والبلجيكين في الكونغو ، والإنجليز في أوغندا (١)  
ولا سيما بعد هزيمة خليفة عبد الله التعايشي ، الذي أرسل باللواء النجومي الى  
وادي حلفا في رمضان ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩ م - في معركة « توشكي »  
الشهيرة (٢) .

.. على ان ظهور الزعيم مصطفى كامل ١٨٩٠ - ١٩٠٨ في حركة  
« الحزب الوطني » كانت فتحاً مباركاً في كبريات نقاط التحول بالحركة القومية ،  
للمقاومة الانجليز فحسب ، بل إضاعة لخطوات العمل المباشر في النهضة الحديثة (٣)  
ولا سيما بعد ذلك « الاتفاق الودي » الذي عاد بين فرنسا وانجلترا عام  
١٩٠٤ م (٤) وقد بذرت فيه بذور اقتسام الوطن العربي من ثم في الحرب الكبرى .  
هذا في حين كان المشرق العربي - في الجزيرة والشام والعراق - ورجالاته

---

(١) (٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٣ - تم القضاء على  
الحركة المهديوية الأخيرة في السودان بقيادة انجليزية وحملة مشتركة مصرية -  
انجليزية ، .. عقدت على أثرها اتفاقية الحكم الثنائي في السودان عام ١٨٩٩ م ،  
والتي ارتضخ لها الخديو عباس حلمي الثاني مهادنة منه للانجليز ، .. وكان من  
أسوأ هذه الاتفاقيات تصوير المصريين بالمستعمرين مشابهة للانجليز واقراءاً بهم - م ،  
ورفع العلمين المصري والانجليزي في السودان معاً ، .. مما أدى اليوم الى مثل هذه  
الانفصالية الرعناء التي يعيش فيها شطر الوادي الجنوبي في اضطراب ، وغير  
قليل من قلة الاستقرار .

(٣) انظر عبد الرحمن الرافي : مصطفى كامل ، وكذلك - ذكرى مصطفى  
كامل - جمع وترتيب صادق عنبر .

(٤) انظر عبد الرحمن الرافي - مصطفى كامل ص ٣١٤ .

يلتفون حول دعاة الاصلاح في الادارة العثمانية ، عند جمعية الاخاء العربي - التركي أو داخل جمعية الاتحاد والترقي نفسها ، ويكادون يذوبون في صفوف العثمانيين . إذ لم تكن تجول في رؤوسهم فكرة التحرر الاقليمي - على الاقل - ضمن الكيان الاسلامي كما هي حركة الحزب الوطني في مصر ١ . . . وحتى الدعوة الى « الامر كزية » لم تكن عندهم في مثل الوضوح الذي كانت عليه في صفوف المصريين من رجال جمعية العروة الوثقى ، والجمعية الخيرية ، . . . وحتى جمعية « شمس الاسلام » التي نهض بها في مصر - واجبة علنية لحزب الامر كزية - الشيخ محمد رشيد رضا ، . . . بالرغم من الفواجع الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تكلف أبناء الديار العربية بعامة نكالا مما يقترفة الحكام الاتراك (١) .

ذلك أنهم كانوا يحسبون مثل هذا التحرك أو الأنعطاف في مسألة الحكم ، . . . انفصالا (٢) لا تستعد له الامة بحال ، . . . ويرون فيه خروجاً على وحدتها في الصورة الاسلامية التي كانت عليها دولة بني عثمان ! . . .

ومن أجل ذلك يذهبون مع الاتراك في محاولة تسوية مواقف هؤلاء الحكام من قضايا الامة بعامة ، وديار الوطن العربي الذي راحت بعض أقطاره تنفصل في

---

(١) ساطع الحصري - البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٦٨ ، وكذلك جورج

انطونينوس - يقظة العرب ص ١٨١ .

(٢) الدكتور محمد بديع شريف - دراسات تاريخية في النهضة العربية

ص ١٧ ، ١٠٠ وما بعدها .

وانظر كذلك محمد سعيد العريان - احاديث قومية - فصل الحركة

الانفصالية الاولى ص ٢١٥ .

استقلال داخلي مزعوم ، لتستضعف من ثم وتستخذي أمام لبوات الاستعمار . .  
كما في اليمن والجزائر ومصر . .

وقديلتسون التعلات لمثل الموقف المتفرج الذي اتخذته الدولة العثمانية بغفلة وسوء  
طوية من مأساة ما يحدث أمام عينيها، كالذي أصاب العرب في الأندلس ، ويمكن  
للاقوام الرومية من مكدونية وقبرص «١»

ولا بد من الاشارة هنا الى الحركة العربية الثائرة في الجزيرة العربية ، التي  
قام بها الحنابلة بزعامة محمد بن عبد الوهاب في وقت سابق لهذا التاريخ ، والتي حسبها  
بعض المؤرخين بمثابة موجة عربية جديدة تطلع في دنيا الجزيرة العربية «٢»  
فقد تعاون محمد بن عبد الوهاب مع محمد بن سعود رأس الاسرة السعودية على  
ان يمتد سلطانه ويشمل الجزيرة وما حولها ، . . حيث وقفت الدولة العثمانية  
من الحركة . حائرة باثرة ! ..

ولو لم تكن في مصر يومها حركة عربية - مصرية أخرى يقودها عسكرياً  
إبراهيم «باشا» ، لكان لتلك الحركة الوهابية - شأن آخر في التاريخ العربي الحديث «٣»

(١) راجع محمدرشيد رضا - العرب والاتراك النار مجلد ١٢ ص ٩١٣ وكذلك  
توفيق علي برو - العرب والاتراك ص ٣٨ .

(٢) محمد أسعد طلس - تاريخ الامة العربية - الجزء الاول -  
الموجات السامية ص ٧ .

(٣) ابراهيم «باشا» من افراد القيادة للقلائل في التاريخ ، وهو ابن السيدة  
أمينة علي زوج الخديو محمد علي ، من زواجهما الاول بالتاجر الحلبي ، . . وقد  
سمي ابراهيم على الخديو محمد علي تبيناً في بادئ الامر ، ثم غلب المؤرخين احتسابه  
الابن الأكبر لمحمد علي مع ما كان يظهر من تقارب عمريهما - أنظر مذكرات النبيل  
عباس حلیم في المصور ١٩٥٥ م



وبلوح لنا أن الدولة العثمانية كانت قد نظرت الموضوع من زاوية حادة ، تملها  
عليها طبيعة تكوينها العسكري ، وقيامها في العالم الحضاري آنذاك - فعمدت أن تضرب  
الحركة السعودية - الوهابية بالقوة المصرية ، ليضعف كلاهما أو أحدهما ، . .  
ولكنها خابت آملا . .

فقد لحق إبراهيم ( باشا ) بالحملة التي قادها طوسون بن محمد علي في آذار  
١٨١١ م ، وتبعه بعدها الخديو محمد علي نفسه حاجاً عام ١٨١٢ م - وبتجهيز آخر  
عام ١٨١٦ م ، قضى فيه على الامير عبد الله ، وأوقعه في الاسر ، وتم له النصر  
حتى أضحت الجزيرة تابعة لمصر من الناحية الادارية والعسكرية « ١ »

وبذلك تم إيقاف الموجة النجدية الجديدة ، وتعاظمت قوة إبراهيم العسكرية ،  
وظهرت بوادر زعامة عربية فيه من ثم ، . . ولا سيما بعد وضوحه قومياً في الديار  
الشامية ، وتقربه من العرب - الذين هم أحق بالحكم في رأيه . وبهم وحدهم يستطيع  
بعث الحياة في الحكم الاسلامي « ٢ »

فقد كان تحرك هذا القائد العظيم نحو الديار الشامية لامر عسكري يعيد فيه  
هيبة السلطان ، ثم تطور الحال ، فزحف الى دمشق وجلب ، ووصل أطنة - ولولا  
تدخل الجهات الاجنبية التي سعت للصلح بين الخديو والسلطان ، . . ولولا خشية محمد علي  
نفسه من طموحه فلربما استطاع ان يعيد بنيان الدولة العربية « ٣ »

---

(١) جليل الخانكي - أعلام النهضة الحديثة - الكتاب ٩ - ٣ ص ٥٤٧

وكذلك - « - « - « ١٠ - ٤ ص ٥٧٦

(٢) نفس المرجع . (٣) جورج انطونينوس - بقطعة العرب ص ٨٢ وما بعدها

في ما سبق ص ١٦ ، وكذلك المقدسي الانجماوات الادبية ص ١٦ .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً ويتصل بسبب من هذا، أن التحرك السعودي الثاني عام ١٩٠٤ م، الذي أحدث فتنة نجد، والمساجلات الملحمية ما بين آل رشيد وآل سعود قد ترك الدولة العثمانية ساكنة لا تحرك شيئاً.. حتى أطمع فيها الحلفاء «١» ومع ذلك كله وكثير آخر غيره مما لا يتسع المجال لذكره، .. بقي المشاركة العرب على رأي الولاء أو قريباً منه طيلة عهد السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله - «٢» لا يرون له بديلاً،

قال الامير شكيب أرسلان من قصيدة:

دولة حجة الزمان على الخلق بها دون مصرية لإزام  
ليس للشرق غيرها فبنوا الشرق طراً بدونها أيتام  
لا ترى دولة هزالاً وضمناً حولها المسلمون والاسلام  
وعلى رأسها خليفة عصر دهره تابع له وغلام  
وقد التفت نحو هذه الظاهرة جورج انطونيوس في كتابه «يقظة العرب»

حين قال:

«لم يكن من شأن الدور الذي اتخذته السلطان عبد الحميد لنفسه وهو دور الخليفة الورع - ان يكسب ولاء الملايين من رعاياه عن رضى منهم فحسب، بل كان من شأنه أيضاً الفوز باجلال ملايين كثيرة أخرى من المسلمين المقيمين خارج مملكته - كذا - والتابعين لبريطانيا العظمى - كذا - وفرنسة وروسية - تأمل !  
وربما كان يستهدف الفوز منهم بأكثر من الاجلال، .. لقد كان يطمع

(١) انظر الهلال - تموز - يولية ١٩٠٥ .

(٢) الدكتور محمد بديع شريف - دراسات تاريخية في النهضة العربية ص ١٧

أن يصبح رأس العالم الإسلامي بالاسم والنفوذ، .. ومما لا شك فيه أن أي نجاح  
تصيبه هذه السياسة كان لا بد من أن يزيد مركزه قوة في الميدان الدولي» .  
ويضيف الى ذلك قوله « .. وعلى المبدأ القائل بأن القداسة تبدأ في البيت  
أحاط حياته الخاصة بأطار من التقى والتعسف، فكان يقوم بجميع «الطقوس» - يريد  
الشعائر الاسلامية - بمثابرة شديدة، وقد قضى على العادات الفاسدة التي غلط فيها  
أسلافه، إذ مارسوها - بحزم ومهارة، وأحاط نفسه برهط من الفقهاء كان يتمتع  
بعضهم بشهرة و نفوذ، فعمد إلى تسخيرهم لتوزيع الصدقات، والوعظ والدعوة اليه»<sup>(١)</sup>  
وهذه عبارات لولا ما اندس فيها من نظرة صليبية تعمدت كلمات خاصة .

لجاءت صورة تدق في التعبير الواقعي لمعاونة السلطان. (٢)

فقد كان من سياسته التودد التي أبداهها للعرب، وكون شرفائهم محل عنايته،  
وأهل رعايته في عاصمة الاسلام «إسلام بول» حتى لقد أضحت الخلافة وكأنها ممثلة  
بسلطانه وعلم النبوة كأنه يد صولجانه : قال شوقي فيه :

ليه عبد الحميد جل زمان	أنت فيه خليفة وإمام
ما رأته مثل ذا الذي تتبنى الـ	أقوام مجد أولن ترى الاقوام
رافع المضاد للسهي هل قبوله	فيباهي النجوم هذا النظام
قامت المضاد في في لك حبا	فهي فيه تحية وإبتسام

«١» جورج انطونيبوس - يقظة العرب ص ٦٨ . «٢» انظر في ذلك - مصرع  
الخلافة لعبد القديم زلوم فصل خلع السلطان وكذلك جواد رفعة - الخطر المحيط  
بالاسلام ص ١٤٢

وقد نقل عنه أنه كان بسبيل إحياء سنة السلطان سليم بتعريب الديوان وجعل العربية اللغة الرسمية للدولة «١» ومن ثم السعي لتعريب الخلافة نفسها وصرافها عن الاتراك المحدثين الذين ما رعوها حق رعايتها، . . وينسب ذلك كله إلى أرومته العربية التي يرتبط بوشائجها عن أمه الزكية . وإلى ذلك يشير شوقي في قوله:

ان عبد الحميد سيف فضته آل عثمان هاشمي المضاء

ومن أجل ذلك أيضاً كانت حظوة الشريف حسين بن علي ، ومكانة أبي الهدى الصيادي ، وغيرهم من فضلاء العرب ، . . وكذلك محاولته تعهد الشريف فيصل بن الحسين واخوته لديه في العاصمة (٢) فلا بدع أن نرى الزافعي يقول من بعد :

يامالك الشرقين يارب النهى يا أمراً في العالمين وناهي

يا صاحب الحرمين يا مولى الأنا موحامي الدين الخفيف الزاهي

ياراغماً أنف المداة بحكمة قد غادرت ركن الممالك واهي

ولكن سرعان ما اصطدم العالم الاسلامي بأنتقلاب جمعية « تركيا الفتاة » الى جمعية الاتحاد والترقي التي سارعت بالانقلاب في العاشر من تموز - يوليو ١٩٠٨ وعودة « الدستور » وكأنه المشكلة الرئيسة (\*) وظهور التتريكية الطوزانية من ثم ولا سيما بعد مجزرة الاستانة في ٣١ آذار - مارس ١٩٠٩ م وخلع السلطان عبد الحميد وحل جمعية الأخاء العربي - التركي (٣) .

«١» محمد شيد رضا - المنار ج٦ م ٢ - المحرم ١٣١٨ هـ - نيسان ١٩٠٠

«٢» جورج انطونيوس - بقظة العرب ص ١٣٩

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٨٢

(٥) من النزعات السياسية التي ظهرت في العصر الحديث - شرعية الانقلاب =

فعندئذ راح العرب يفتشون عن أنفسهم ، ويتنادون للانتظام في جمعيات أدبية وسرية ، ومنتديات عسكرية ومدنية ما بين عامي ١٩٠٨ م و ١٩١٤ م . كالجمعية الفصحطانية ، والعربية الفتاة ، والعهد وغيرها (١) .

وهذه الأنعطافة في الحركة القومية هي التي انتظمت العرب من ثم وقربت الامة العربية من الثورة ، بعد أن أدخلت الفكرة في حيز النشاط والعمل لأبتناء « الدولة العربية » بعيداً عن العثمانيين ، . . ولا سيما بعد أن يئس العثمانيون العرب - أو كادوا - من تعريب الخلافة أو إيجاد الكيان العربي ضمن الدولة العثمانية الاسلامية نفسها (٢) ، وبعد أن أضحي تعريب الخلافة ضرباً من المستحيل مع جماعة الترقى - الماسونية - التي أرادت صرعها من أول يوم (٣)

= من اجل شعارات ؛ لا تلبث ان تكون فصولاً للمأساة حكم مستبد آخر أفضع وأنكى باسم هذه الشعارات . ومن ذلك ما حدث في تموز ١٩٠٨ م من الانقلاب العثماني ، وعودة الدستور ، وظهور الثالث الصليبي - الماسوني «حرية . عدالة . مساواة» التي طمست الطورانية معانيها من ثم ، بحيث ما زال الناس يترحمون على ما سبق من عهد رغم ما صوروهول من أسوائه! قال الفاروقي من قصيدة يصور بها المآل:

كنا نعلل بالدستور أنفسنا      بفارغ الصبر ذلك اليوم نرتقب  
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً      ولا استجيب لنا في مطلب طلب

- (١) انظر في ذلك أحمد عزة الاعظمي - القضية العربية ، ومصطفى الشهابي - القومية العربية ، وساطع الحصري - نشوء الفكرة القومية ص ١٦٤  
(٢) أنظر - جورج أنطونيوس - يقظة العرب - الفصل الرابع والفصل الخامس - ففيهما تفصيل كبير .  
(٣) انظر عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة - فصل - جمعية الاتحاد والترقي .

ومن ناحية اخرى كان العالم نفسه يعاني من تحركات عسكرية ، ومحاولات  
وطنية جرّتها الحروب عبر القارات ولاسيما بعد الحرب الروسية - اليابانية ١٩٠٣م  
وما سببته في عرقلة المواصلات البرية والبحرية ، وشيوع الغلاء والجوع (١)  
وقد أرسل الرافي في ذلك اشعاراً عديدة منها ما يقف مع اليابانيين باعتبارهم  
شركيين حتى ليقول :

يا منهضي الشرق نصر الله يتبعكم وإن كفرتم .. فما للكفر من خذلا  
سرّ الأنام عقول في رؤوسهم والله أكرم من ان يخذل العقلا  
ويقول بعد الصلح بينهما في عام ١٩٠٥م :

وغىّ وسلام للمطامع والهوى وان قيل أوثان وقيل صليب  
حتى لقد قال في قصيدة أخرى يصف من حال الناس في تلك الأيام :

ومن نكد الأيام في حتف صرفها لذي الحكم أن يبلى بمن يتحكّم  
صغار وأوباء وبؤس وقد أتى لشقوتنا هذا الغلاء يتمم

وفي هذا المضطرب العالمي الرهيب والاحتدام العربي الغريب ، والذي يكاد  
ينغلق في دورانه حول نفسه ، كان « الاستعمار » ماضياً في أشواطه الباقية ، ممتداً  
بجبروته على المشرق والمغرب ، يلقف من أفريقية البلدان ، وبزرد في آسية الموانيء  
والخلجان ! . . ولاسيما بعد أن أطارت صوابه أمريكا ودولتها الناشئة ،  
وتركته في غيرها من التخوم والاصقاع يفتش له عن اماكن أخرى ! . .

إذ نجد - بالرغم من إرتقاء عباس حلمي الثاني خديوية مصر بعد وفاة أبيه

(١) انظر صحف تلك الايام ، ومنها المقتطف والهلل - نيسان - ابريل ١٩٠٤م

(توفيق) عام ١٨٩٢م، ومحاولته التقرب من القوى الوطنية في البلاد غير مرة - لا يستطيع في ذلك حولا ولا قوة، لأنه لم يكن يملك من الأمر شيئا، . . . بعد أن غدا «كرومر» المندوب السامي البريطاني في مصر ١٨٨٣م - ١٩٠٧م . . . الحاكم الأول مع وجود الخديو والوزارة المحلية والتشكيلة المدنية الأخرى . . . ماضيا في السياسة التي رسمها للنهوض بمصر وتحويلها الى دولة حديثة بأسلوبه القسري الذي ضمنه من ثم كتابه (مصر الحديثة) (١)

وكانت الحركة اليهودية قد مرت بمراحل، زار خلالها (مونتيفور) أرض فلسطين عام ١٨٣٨م، وحاول هايمي ربط «روما وأورشليم» بالدولة اليهودية التي اعتبرها مبتدأة بالثورة الفرنسية . . . (٢) وأخذ ينسكرك يدعو اليهود للتحريض الذاتي -

وفي تلك الأيام الغائمة نشر الصحفي النمساوي تيودور هرتزل كتابه «الحل الصهيوني» - ١٨٩٥م الذي رأى فيه قيام دولة اليهود على أرض تكفي أمه محترمة (٣) كما انعقد المؤتمر الصهيوني العالمي عام ١٨٩٧م الذي أجمع على أن تكون فلسطين هي أرض الدولة اليهودية (٤) وقد حدث بعد اتفاقية الحكم العثماني - الإنجليزي - المصري، في السودان عام ١٨٩٩م ووقوع حادثة «فاشودة» (٥) أن حصل «اتفاق ودي» بين إنجلترا وفرنسة عام ١٩٠٤م . جاء فيه العمل على فصل العروبة في آسية عنها في افريقيا ببقاء خاص مع الصهيونية، حيث اقترحت

---

(١) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ١ ص ٨٠ وما بعدها . . . وقد ترجم الكتاب الى العربية . (٢) محمود كامل - عربتنا ص ٧٤، ٧٥ (٣) كمال رفعة - الاستعمار والصهيونية ص ٦ «٤» المصدر نفسه . «٥» فاشودة : في جنوب السودان، كانت فرنسا قد احتلتها متسابقة مع =

بريطانية تأسس مستعمرات لليهود في سيناء عملية أولى في هذا الفصل (١)  
غير أن بريطانية عادت بعد هذا - لسبب غير واضح بل لعله مناورة محكمة  
اليهودية - تحاول أن ترى على الصهاينة أن يجعلوا من أوغندا محطة تجمع أولى  
لليهود (٢) ولكن المؤتمر الصهيوني الذي اجتمع عام ١٩٠٨ م رفض هذه المناورة  
- المتباطئة - وأصرّ على تعيين (ارض الميعاد) في فلسطين (٣) .

وهنا وقع الانقلاب العثماني في العاشر من تموز ( يوليو ) ١٩٠٨ م بحركة  
الأتحاديين المعروفة (٤) فقد يش هرتزل من الحصول على امتيازات دينية لليهود

---

= حليفها في الوقت الذي كان فيه كتشنر يقرّد الحملة المصرية للقضاء على دولة  
الدراويش في السودان فثارت الحادثة حفيظة بريطانية ، . . ثم جرت التسوية  
المشار إليها باطلاق يد فرنسا في الجزائر والمغرب كما تحتفظ إنجلترا بوادي النيل  
- انظر محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٤  
(١) كمال رفعة الاستعمار والصهيونية ص ٦

(٢) ، (٣) كمال رفعة الاستعمار والصهيونية ص ٦ - وقد يكون السبب هو في  
بأس هرتزل من الحصول على اراضي في فلسطين يقر السلطان عبد الحميد بيعها !  
(٤) بدأ الانقلاب بتيار أثار هياجاً عاماً في بعض الولايات العثمانية ، اضطرت  
السلطان عيّد الحميد أن يتلافى الحرب الأهلية ، فأصدر أمره باعادة الدستور الذي  
كان قد عطله بعد تشريعه بستين عام ١٨٧٨ حفظاً للدولة من الضياع في الديمقراطية  
السياسية السائبة كما أمر بالاعداد للانتخابات وأطلقت المدافع اجدى وعشرين  
إطلاقة في العاشر من تموز ١٩٠٨ م .

ويظهر ان مثل هذا التدبير الوقائي لم يرض المجموعة المحافظة من سواد الأمة  
وقد خشيت منه على الصورة الإسلامية للدولة ، . . فاهتبلتها العناصر الدسيسة  
فرصة للايقاع بار كان الدولة الذين لا يرون في التغيير الدستوري فائدة ما ، ان لم  
يكونوا يرون عكس ذلك ، . . وقد ثار الجنود وبعض الفقهاء وعدد غير قليل  
من العرب العثمانيين في آذار ١٩٠٩ م مطالبين بإلغاء الدستور والاجراءات الأخرى =



= و اعلان الشريعة المحمدية ، .. محاولة منهم لإعادة هيبة السلطان والحيلولة دون  
تمكن الدول الكبرى من العهد الجديد .

ولم يجد الخليفة بدأ من الاستجابة فسارع الى تأليف حكومة جديدة ،  
وأطلق المدافع مئة إطلاقاً وإطلاقاً .

ولما وجد الاتحاديون أنفسهم أمام حقيقة كبرى ، تحاول أن تأخذ بخناقهم ،  
ونلتقي بهم في مهاوي الرذيلة مع الخونة والمجرمين ، .. سارعوا الى بذل جهودهم  
أخيرة يعاونهم بها « الماسون » بتفتيق ذهني يهودي ، يخشون معه انتكاسة حركتهم  
الانقلابية وافتضاح أمرها ! .. فسدوا بين الجماهير النائرة مجموعات من أنصاف  
المجاهدين والخونة والمأجورين - تعمل على تلطيف الحركة الإسلامية المضادة  
للإتحاديين الماسون ، بأعمال ليست منها في شيء ، .. مع أولئك الذين عناهم  
الشاعر بقوله :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم      حطم المتكاتب كل يوم زحام  
كما تلفتوا فيما بينهم ليجلدوا ضابطاً ( عربياً ) يقود فصائل أخرى من الجيش ،  
ليزحف على العاصمة في نيسان ١٩٠٩ م ، ويدخل القريق محمود شوكة ومعه عارف  
حكمة و « كارسو » قارصو اليهودي على السلطان عبد الحميد في قصره بيلندز يطلب  
اليه النازل حقناً لدماء الأمة وباسمها ، .. وتوطيداً للمشروطة « العهد الجديد »  
.. وقد أطال عبد الحميد النظر اليهم ، .. وسألهم عن مهمة قارصو في الأمة ! .  
وهكذا جاءوا بأخيه محمد رشاد وقد جاوز الخامسة والستين من عمره ، وهو  
بعيد عن السياسة ليكون ألعوبة بأيديهم ، وليقوموا من ثم بمجزرتهم الرهيبة التي  
ما أنصفها المؤرخون حتى اليوم ! ..

وانظر في ذلك جواد رفعة - ترجمة وهيبي عز الدين - الخطر الخيط  
بالاسلام ص ١٤٦ .

وكذلك عبد الكريم زوم - في مصرع الخلافة ، وساطع الحصري - البلاد  
العربية والدولة العثمانية ص ٩٥ وما بعدها .

وكذلك جورج انطونيوس - يقظة العرب ص ١٧٥ وتدبر !! ..

في فلسطين يقرُّ بها السلطان عبد الحميد، حيث استطاع العرب - رغم جميع المغريات  
المادية - تبصرة السلطان بحقيقة المؤامرة ، .. وكان من فضائله محبة العرب ومسامح  
آرائهم والأستئناس بأفكارهم كما قدمنا (١) وكانت قد جرت محاولة اغتياله غير مرمة ..  
ومن هنا اكتنف الغموض حركة الأتحاديين أولاً ، وأشارت اليهم أصابع  
الأتهم - بالرغم من التهريج السياسي والأعلامي الذي ما يزال يظاھرهم  
الى اليوم ! .

ذلك أنه لم يكن خافياً أن للدول الأوربية يد وراء الأحداث التي سميت على  
الدستور في الدولة العثمانية ، فقد سبقتها محاولات إحلال القوانين المدنية ، .. التي  
فجّتهم فيها الدولة بمجلة الأحكام العدلية التي بوبت الفقه الاسلامي على الطريقة  
المحدثة في المواد القانونية ، مما لا مجال للافاضة في الحديث عنه هنا .

كما ان « الماسون » (\*) كانوا يؤلفون القسم الأعظم من أفراد جمعية الأتحاد  
والترقي هذه ، ولهم اليد اليهودية الطولى فيما أصاب الدولة من ثم بما في ذلك  
التريكية الطورانية ، التي أبعدت العرب العثمانيين أنفسهم عن الجمعية ، وحلت  
منظمتهم الأخرى « الأخاء العربي - التركي » .. الخ مما أسلفناه (٢)

على أن من مضاعفات ذلك الأتقلاب ما كان بدءه في تلك المجزرة الرهيبة التي  
أعقبت أحداث آذار ١٩٠٩ م ودخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب الألمان  
وما تلى ذلك من أحداث مزقت الوطن العربي والاسلامي (٣)

---

(١) أنظر جورج انطونيوس - يقظة العرب ص ١٣٩ - وعروبتنا ص ٧٧

(٢) أنظر إبدیع شریف - دراسات في النهضة العربية الحديثة ص ٨٨

(٣) الماسون : او البنائون الأحرار - كما يحلو لهم ان ينعتموا أنفسهم ، .. =

ومن ناحية أخرى نجد الحركة الوطنية في مصر تنمو بموازاة هذه الخطوط  
المبطنة ، وكان لظهور الزعيم مصطفى كامل ، وحركة الحزب الوطني الذي ما فتئ .

= ويزعمون انهم اقدم جمعية في العالم نشأت منذ عهد الرومان الذين كانوا يضطهدون  
عمال البناء .. وانتظم معهم من ثم المضطهدون الآخرون الذين كانوا ضحايا  
الفتح العربي الاسلامي ! .. ومن هنا كانت « انسانية » هذه المجموعات تجتمع  
في الأحقاد للعروبة ودينها ، .. فهي تقتل في منتسبها التفكيح المنتج ، والعقل المدرك  
وتسيرهم في درجات .. حتى الثالثة والثلاثين وتترك الدرجة الرابعة والثلاثين  
لرئيس المنظمة الصهيونية العالمية يتربع عليها ، فيكون الأفراد الماسون من سائر  
الملل والديانات تحته في الرتبة ، وتبعأله في العمل والتدبير وانظر في ذلك  
ما أخرجه أبو صادق من مصنفات في الموضوع عن دار البصري .

(٣) يزعم بعض المؤرخين أن الانقلاب العثماني كان قد فاجأ الدول الكبرى  
« الأوربية » بغرابة أربكتها سياستها ! ولكن المتأمل فيما أعقب الانقلاب الأثيم  
من حركات الانفصال والاقطاع في الولايات العثمانية ، يدرك مدى هذه - المفاجأة  
المربكة !! - التي تضحك من مؤرخيها .

وتأمل في استقلال بلغاريا انفصالا بعد عودة الدستور العتيد مباشرة ، وكذلك  
الحاق البوسنة والهرسك بالنمسة ، واستيلاء اليونان على جزيرة كريت ، ثم قبرص  
.. وزحف ايطاليا على طرابلس الغرب وضياع جزر البحر المتوسط في الأرخبيل  
وما تلى ذلك من الانفجارات الداخلية ...

- ١- الثورة العربية في الحجاز والشام والعراق ؛ وما أدت اليه
- ٢- الحركة الكمالية التي استغلت الروح الوطنية والاسلامية بدء في جبهة  
قومية عريضة .

٣- مصرع الخلافة ا . وما صنعه في ذلك اهل الردة من اليهود المتمسكين

يناوي، الانجليز بأقرار السيادة العثمانية، وعدم الاعتراف بشرعية الاحتلال، ثم إقرار  
الانجليز مذبحه (دنشواي) (\*) حتى غدا الشخص مصطفى كامل شأن عظيم، أصبح فيه أمل

« الدونمة » مع مصطفى كمال .

ففي وقت سابق كانت الدولة العثمانية قد آوت إليها عدداً من اليهود بعد الذي  
أحاق بهم بعد مأساة العرب في الأندلس ولكنهم لم تكف تستقر بهم الحياة غرب  
الأناضول حتى بدأوا يعدون المتاعب للدولة العلية ؛ فأرادت إجلاءهم ، . .  
ولكنهم سرعات اعلنوا اسلامهم وعصموا دماءهم وأموالهم ؛ . . وكتبوا يهوديتهم  
سرآ ، لتظهر آثارها من ثم في المحافل الماسونية ، والجمعيات السياسية والسرية  
كجمعية تركية الفتاة ( الأتحاد والترقي ) فيما بعد . . ثم انهم أندسو في الجبهة الوطنية  
ووقفوا من خلف مصطفى كمال وحماقاته ؛ التي صرع بها الخلافة الاسلامية -  
وانظر مصرع الخلافة لزوم .

.. إذ لم تكف توقع معاهدة لوزان مع إيطاليا حتى كانت ولايات البلقان  
- في اليوم نفسه - قد انفردت ، وزحفت إيطاليا على ليبيا عام ١٩١١ ، وسقطت  
ادرنه في آذار - مارس ١٩١٣ - حتى بكاهها شوقي في قصيدته :

يا أخت اندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

وبذلك قضى مؤتمر لندن على الدولة العثمانية - الدستورية - المشروطية ؛ التي  
فاجأت أوربة ودولها الكبرى بانقلابها - الدستوري و - اربكت - سياستها ودولها  
كما يتورط أن يوهم نفسه أمثال ساطع الحصري - البلاد العربية والدولة  
العثمانية ص ٩٧ ، وجورج انطويوس بقظة العرب ص ١٨٠ وما بعدها . .  
راجع في ذلك - عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة ، وضياء الدين الريس -  
المسلمون ٢-٣ ص ١٢٣ . .

(٥) دنشواي قرية في شبين الكوم ؛ يكثر فيها الحمام ، وقد قصدها نفر من =

مصر القومي لا منازع ولا سيما بعد أن أخذ هذه الحادثة أروع مثل ، وشنها حرباً شعواء على المستعمرين لا هوادة فيها ، وسمع صوته الانجليز في بلادهم . . وأجبر « كرومر » على الاستقالة أمام شعور قومي متدفق بدأ مرحلة جديدة من مراحل الجهاد والمقاومة (١) .

ومن هنا نفهم أيضاً لماذا قاوم الانجليز دعوة الحزب الوطني الى سن دستور خاص لمصر (٢) ، ولماذا كانوا قد طاردوا زعيمه الثاني محمد فريد من ثم ، وحكوا عليه بالسجن غياباً لكتابته مقدمة ديوان الشيخ علي الغاياني « وطنيتي » يومذاك (٣) حتى اضطروه أن يؤثر المنفي الى أن توفاه الله عام ١٩١٩م (٤)

---

= الضباط الانجليز في ١٣ حزيران - يونية ١٩٠٦م لصيد الحمام ، فأصاب رصاصة منهم امرأة ، وأحرقت اخرى بيدراً (جرنا) فأثار هذا الطيش حقيظة الاهلين الذين تصدى لهم الضباط بأسلحتهم ، وقتلوا شيخ الخمراء ، فدافع الناس عن أنفسهم بالحجارة والطوب حتى جرح أحد الضباط في رأسه ، ولاذ ومن معه بالفرار ؛ فأصابتهم ضربة الشمس التي تسببت في موت احدهم .

وقد هول الانجليز من الحادثة ، وقبضوا على عدد من الاهلين ؛ قضت محكمة عسكريه باعدام أربعة منهم وسجن سبعة عشر . انظر عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل ص ١٩٧ وما بعدها .

(١) عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل ص ٢٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٢

(٣) عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد ص ٢١٩ وانظر ما كتبه محمد سيد كيلافي في كتابه طه حسين الشاعر والكاتب من تفصيلات في الموضوع نقاها عن صحف ذلك العهد .

(٤) عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد ص ٣٦٨

وفي غمرة الأحداث المتتابعة التي أعقبت الأقلاب، الذي تكشفت فيه حقيقة القوة السياسية ، والعسكرية للدولة العثمانية أمام تلك العنويات التي كانت تهابها دول أوربة - استطالت دولة الطليان بعدوانها على الصومال، وزحفت جيوشها على ليبيا ( طرابلس الغرب ) عام ١٩١١ (١) .

وكانت هنالك مقاومة باسلة للشيخ الشريف الإدريسي وعمر المختار .. حيث لم تستطع تركية الثبات وتركت جيوشها الجبهة لتتشغل في مكان آخر (٢) وكذلك أنهكت المتطوعة المجاهدون من عرب المشرق (٣)

وقد خلد الشعر العربي تلك المقارمة الضاربة ، فكان الرافعي أسبق الشعراء في القول والاستنفار ، حتى ليكاد - وهو يستلحق أنفاسه من توالي المفجائع والاحداث - أن يرسم طريق الثورة المؤمنة التي تعيد الأمة سيرتها من الكرامة والقوة فيقول :

لا بدّ من ثورة رجافة حنقاً      هوجاء لا نظراً فيها ولا فكر  
يمشي بها الموت مجنوناً وكيف خطا      فليس إلا قبوراً ثم تحترق  
لا بدّ من غضبة إن ثار ثأرها      على الشياطين من جن الفلاذعروا  
.. وبصرخ الثأر في دمه ، ولكنه يحتز مفاقد يلحق به من معانيه الجاهلية

فيقول :

ثأر تعاضم فيه أن يقبال له      ذنب - مخافة أن الحلم يغتفر

(١) ساطع الحصري - محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ٤٦

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٠ - وقد كلف الأديب، وظل المختار في المقاومة حتى عام ١٩٣٠ م ، وبالقبض عليه غدرأ انتهت المقاومة .

(٣) شكيب ارسلان - شوقي - ص ٣٥

نأر العربن إذا جاءت ثعالبه فلم ير السهل فيه الضيغم الهجر  
نأر اليتامى ونأر الثاكالات ونأر الخدر يفضى ، ونأر العرض يشتهر (١)  
وأكثر الشيخ محمد عبد المطلب من شعره في هذه الحرب ، وقال الزهاوي ، ..  
وأرسل شوقي قصيدته الرائعة في عمر المختار التي يقول في آخرها :

في ذمة الله الكريم وحفظه جسد ببرقة وُسِّد الصحراء  
.. ثم كانت الحرب التي اندلعت في أوربة أولا بسبب مقتل الأرشيدوق  
فردنان وزوجته في حزيران - يونية ١٩١٤ م فقد زحفت جيوش النمسة على  
الصرب (٢) وتوالى دخول الدول الى ساحاتها ، .. حتى قامت على النطاق العالمي  
المعروف ما بين الحلفاء والألمان ..

وكان من حماقات أنور وطلعة وغيرهما من اركان الحكم الجديد في الدولة  
العثمانية أن دخلت الحرب الى جانب الألمان ، .. ومكنت للدعاية الألمانية من  
أفئدة الناس حتى ليكدوا يحسبون غليوم الثاني امبراطور المانية حامى حمى المسلمين  
وناصرهم ، حيث قال الرافعي :

.. ومزقت للأسلام والشرق دولة تملى بها ملكٌ وسرَّ سريرُ  
لقد كان عون الله فيها ونصره ففارقها مذ قيل أنت نصير

\* \* \*

تمكنت من عرنيها فاستقدتها بحبلي بلاء ، « قائدٌ ووزير »  
وأطقات ماضيها « بطلعة أنور » فيا أنور لم يبق في اسمك نور .. (٣)

- 
- (١) الرافعي - السيف العثماني - المقطم ، الهلال ديسمبر ١٩١١ .  
(٢) محمد عبد الله عنان - مأساة مايرلنج - طبعة دار المعارف وفيه تفصيل كبير  
(٣) الرافعي - غليوم الثاني - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩١٩ م .

.. وقد تمكنت بريطانيا من استغلال هذه الحرب أبعث استغلال ، فواصلت هي وفرنسا تطبيق إتفاقها الودي لعام ١٩٠٤ ، وراحت هي توقع بسلاطين وأمراء وشيوخ الجنوب والخليج العربي في حبالها بمعاهدات واتفاقيات تتجدد فيها الألتزامات مع طواريء الظروف والتفسيرات ، وتبيح لها طرق المواصلات التجارية والحربية وتحمي اساطيلها وتمون جيوشها (١)

وفي وقت سابق للحرب كان جواسيس فرنسا وسفراءؤها يحاولون التحرش بالدولة العثمانية ، كحادثة الارصفة المشهورة التي اشار اليها الرافي بقوله :

وغرّ فرنسا أن ترى الليث باسمًا      فلم تدر حتى لجّ فيها « سفيرها »  
 وجار عليها الدهر شعثًا خطوبه      فهب لها عبد الحميد يجرها ..  
 بصير بنور الله في كل أزمة      تردّ عيون الصيد حسرى شعورها  
 أيجلوك يا غضب الشبا ما هدت به      وقبلك ما ضر النبي هديرها (٢) .. الخ

وكذلك محاولة إغتيال السلطان عبد الحميد بعد فشل هر نزل من الحصول على وعد منه يمكن اليهود من فلسطين أو أراضيهما (٣) وفي تلك الأيام جرت محاولة للأجهاز على روسية القيصريّة بثورة شيوعية. (١٩٥٠)

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٢٤

(٢) الرافي - الديوان ج ١ ص ٣٤

(٣) أنظر ما سبق - وقد قال شوقي :

هنيئاً أمير المؤمنين فأتمنا      نجائك للدين الخفيف نجاة



وهكذا التقت قوى الشر والخيانة فأ وقعت الدولة العثمانية في دوران الحرب والضياع بالتجزئة والاندحار ، بعد ما كادت لها بالمؤامرة المستمرة حتى أجهزت عليها من ثم .

وكانت الحلقة الوسطى في هذه السلسلة الإجرامية لدول الاستعمار ان انتهزت بريطانيا فرصة قيام الحرب ، فسارعت في ١٨ كانون الاول - ديسمبر ١٩١٤ م الى إعلان الحماية الإنجليزية على مصر ، وزوال صفة السيادة العثمانية الشرعية عنها (١) ومن أجل تهيئة ذلك عمدوا في اليوم التالي الى خلع الخديو عباس حلمي الثاني - وقد كان في أوربة خشية أن يعود إلى محاولة التقرب من القوى الوطنية ثانية ، .. وأقاموا حسين كامل باسم سلطان مصر (٢)

وليقف الإنجليز بالمصريين من ثم ضد محاولة الدولة العثمانية استعادة مصر الى الحضيرة العثمانية عام ١٩١٥ م في حرب الترعسة المشهورة ، حيث حاول أحمد جمال ( باشا ) والي الشام أن يعبر قناة السويس فاختق مرتدأ الى فلسطين (٣) . .. وكانت آخر أيام العثمانيين في عهد عبد الحميد تحاول أن تلد الحياة العلمية والعملية في ديار الاسلام فاستقدم الخبراء من أوربة لدراسة أحوال البلاد وكيفية

---

(١) أنظر بلاغات الوكالة البريطانية في الهلال ٢٣ - ٣٢٦ ؛ ومما هو جدير بالذكر أن المرحوم أمين الرافعي كان قد أوقف جريدة - الشعب - التي كانت تنطق بلسان الحزب الوطني - كي لا ينشر نبأ إعلان الحماية ، فيعتبر كالمقربها واقعاً ! .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - ثورة ١٩١٩ م ، مقدمات ثورة ١٩٥٢ ص ١٥٦ وعزة دروزه - الوحدة العربية ص ٢١٠ .

(٣) مذكرات جمال باشا السفاح ص ١٦٣

أعمارها واستثمار كنوزها وخيراتها وكان في من استقدمتهم الدولة العثمانية  
المبشر المهندس الانجليزي « وليم ولكوكس » ، . . الذي درس مشروعات الري  
في العراق والجزيرة ما بين عامي ١٩٠٣ - ١٩٠٤ م ، . . وقدم تقاريره الضافية في  
هذا الشأن مما أسال لعاب الأستعماريين الأنجليز الى مثل هذه الكنوز في  
أراضينا البكر .

كما كان للأرساليات التبشيرية والقنصلية، واليهود وغيرهم من الخونة والجواسيس  
كثير مما تحتاجه الدراسات الأجماعية لأحوال البلاد . .<sup>(١)</sup>

حتى وأنت ظروف الحرب من ثم ومكنت لبريطانيا أن تنزل جيوشها في البصرة  
وتبدأ عمليات احتلال العراق والجزيرة الى الفرات الاعلى لثقتي وحليفها فرنسا،  
في تجديد الأتفاق الودي بمعاهدة ( سايكس - بيكو ) التي مزقت الوطن مناصفةً  
بين الحلفاء ؟ . . وما يزال يعاني من مخلفات الأحتلال والحماية والتبعية الى اليوم  
ما يعاني من مشكلاته التي رافقت تلك المراحل الغزوية ، . . والتي تظهر اليوم  
في العقد الفكرية ، والأنتكاسات السياسية والأنواء الأقتصادية ، والأسواء  
الأجماعية ، . . التي تستهلك جهد الطاقة الثورية الأمة .

وقد تمكنت فيه جيوش الاحتلال البريطانية المختلطة من البصرة والعمارة ، . .  
ولكنها توقفت عند الكوت تجاه مقاومة ضارية أبدأها المحاصرون العرب في الجيش  
العثماني ، وضربوا فيها الأمثال في البسالة والروءة ، حتى أعاقوا قوات الجنرال  
تاويزند عن التقدم ، ثم أسروه في حركة التغاف بارعة أفقدته صوابه حيث

---

١- محمد رشيد رضا - المنار ١٨ رمضان ١٣٢٢ هـ

أعلن إستسلامه .

ولولا خيانة من بعض ذوي النفوس الدنيئة ، والخور الذي دب في عزائم الضباط الأتراك وألقى في روعهم أنهم يدافعون عن غير بلادهم ، لكان في انتصار العرب في الكوت فاتحة عهد للتحويل في الجبهة .. ولكن !

وعلى أثر هذه الهزيمة الشنعاء بالذات التي عانتها جيوش بريطانية ، وإندحار الحلفاء في معركة « غاليبولي » في الأناضول <sup>(١)</sup> .. تلون الحلفاء، وتفتقت الذهنية الإنجليزية عن لعبة جديدة يجرون فيها أحلام العرب <sup>(٢)</sup> إذ لم يبق أمامهم غير أمير مكة - الشريف حسين بن علي - وقد عرفوا عنه موقفه من إنقلاب الأتحيادين وخلافه لزعماء الدولة العثمانية في دخولهم الحرب الى جانب الألمان ، .. فهبأوا له « ستوزر » ثم « مكهاون » في القاهرة يرسلانه ، ويلبس الأخير منهما مكامن الشجن من أحلامه في الاطلاح القومية ، .. فيستحوذ عليه من ثم (٣)

ولا سيما بعد الحماقات الطورانية التي أقدم عليها أحمد جمال « باشا » السفاح في نقل الفرق العربية من الديار الشامية، ومحامكاته التي أصدر فيها أحكام الاعدام في القوميين العرب <sup>(٤)</sup> غير مفرق بينهم وبين من اندسوا في صفوفهم من جواسيس

---

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٣٥

(٢) نفس المصدر - ومما يجدر ذكره أن الرأي العام في مصر كان منصرفاً

عن هذه الاحلام الثورية للعرب ، ومشغولاً باحواله الداخلية الخاصة في الاحتلال والحماية ، وكان هاتيك حالة مقصورة لذاتها !

(٣) أنظر ملحق جورج انطونبوس - يقظة العرب ، وكذلك عمر أبي النصر

- جهاد فلسطين العربية لترى هاتيك المراسلات .

(٤) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٤٠ وما بعدها

فرنسا « المجرمة الحرة »<sup>(١)</sup> وبالرغم من تعهداته للشريف فيصل بن الحسين بعدم تنفيذ الاحكام ولكنه فعلها (٢)

وهنا بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحد إلى الربى ، وكان الشريف في ضيافة الأيوبيين في الشام فثارت ثأرته وخطب كوفيته وعقاله على الارض ، وقال كلمته التي سارت مثلاً للروح العربية الثائرة : لقد طاب الموت يا عرب ! .. (٣)

وما كاد يعود الى والده في الحجاز ، حتى انفجرت الثورة العربية رسمياً في التاسع من شعبان ١٣٣٤ هـ ( ١٠ حزيران - يونيه ١٩١٦ ) بمرحلة قومية تستهدف استعادة السلطان العربي في الحكم ، وإقامة الخلافة العربية وبناء الدولة الاسلامية الجديدة رداً ثأراً على تلك الأجراءات التعسفية ، والتصرفات الهوج ، التي عاد يمارسها « الاتحاديون » الأتراك «٤»

وقد تمكنت الثورة من الحامية التركية في الحجاز وسارت حتى العقبة التي أطار سقوطها بيد الثوار صواب الحلفاء ، فسارعوا الى عقد معاهدة «سايكس-بيكو» السرية ، وجيش الانجليز المصريين بقيادة الجنرال آكنبي للزحف على الديار الشامية ومساندة قوات الامير فيصل - ظاهراً - وموازة الجيش العربي ومسابقته في دخول دمشق عاصمة الأقليم ليجعل لهم مثل هذا السبق صفة الاحتلال التي ثبتوها بمصر «٥»

---

(١) عبد العزيز رفاعي - أصول الوعي القومي ص ٨٤ وأنظر مذكرات جمال

(٢) جورج انطونينوس - يقظة العرب ص ٢٨١ وما بعدها ، ..

(٣) المصدر السابق

«٤» المصدر السابق ص ٦٨٥

«٥» محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٣٢١

ولكن يظهر أن الأمير الهاشمي كان من الحبيطة بمكان ، فقد سبقت طلائعه وراء الجيش التركي المنحدر في أفضع هزيمة وانسحاب عرفها في تاريخه ، ودخل الأمير دمشق ، واعلن من هناك قيام الحكم العربي ، . كما طلب إلى الضباط الإنجليز مغادرة البلاد بعد انتهاء مهامهم . ولما أدرك الإنجليز ما وراء ذلك من عزائم - وقد رأوا زخم الثورة القومي يمتد لبيهاً يكتسح كل ما يعوقه . . فتفتت ذهنيته عن أسفين يكون لغما في قلب الثورة .

وهكذا أعلن بلفور وعدة المشنوم في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧م لليهود بنظرة العطف البريطانية التي عهد لهم بأعداد فلسطين وطنا قومياً . . (١) . وذلك فتماً في عضد الثوار العرب ، الذين أهملوا ذلك في بادئ الامر ، حتى أذاعت الثورة الروسية عام ١٩١٧م بعض أوراق الاستعمار ومنها معاهدة سايكس - بيكو فاقام العرب المؤتمر السوري والعراقي من ثم في تموز ١٩١٩م معلنين قيام الحكم العربي في جميع أنحاء الديار السورية بما فيها فلسطين ، مع الاتحاد الكامل السياسي والاقتصادي بالقطر العراقي وبحدودها التي كانت أيام الولايات العثمانية وتسمية الملك فيصل (٢) مغفلين بذلك النظر في « الوعد » برفضه جملة وتفصيلاً ومعتبرين إياه غير ذي موضوع ! .

وقد تم إعلان هذه الدولة في ٨ آذار - مارس ١٩٢٠م بصفة واقعية . وكانت هناك فرحة طائرة ملأت قلوب العرب أجمعين في مشهد قومي رائع

(١) كمال رفعة - الاستعمار والصهيونية ص ١١

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٢١ كذلك جورج انطونيوس

- بقظة العرب ص ٣٢٨

لا مثيل له (١) .. بالرغم من بعض العوائق والمنغصات التي لا تخلو منها  
حركة ثورية جادة (٢)

وكانت يد فرنسا مطلقة في المغرب العربي ، تستضيف الجزائر مستوطنين  
فرنسيين من شذاذهم ومتعطلهم (٣) وترى فاس زحف قوات لتأمين التجارة  
وحماية السلطان ! .. وبعد ذلك في ١١ آب ١٩١٢م قبل يوسف الامثال لفرنسا  
بعد تنازل أخيه عبد الحفيظ ، .. فأقتسمت مراكش هي وأسبانيا حماية (٤)  
ولم يكد يولد الظرف الصهيوني الأخير حتى سارعت أميركا الى دخول الحرب  
مع الحلفاء ، متدعة بمباديء « ويلسون » الشهيرة القائلة بحرية الشعوب في تقرير  
المصيرخشية امتدادالايام في الحرب، وانقلاب ميزان القوى ، وضياح المكتسبات  
والفرص التي تهبأت للحلفاء في الغرب حتى هاتيك الساعات .

وفي تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٨م انتهت الحرب ، وكانت ديار العروبة  
ومواطن الاسلام قد اوضحت نهبا مقسما بين الحلفاء ، مستعمرات أو محميات أو هي

---

(١) محمد عزر دروزة - الوحدة العربية ص ٣٥٩

(٢) كان جمهور الموارنة والكاثوليك في بيروت قد قابلوا رفع العلم العربي على  
سارية دار الحكمة في بيروت بالامتعاض الشديد ، ولم يهدأ لهم روع إلا عندما  
رأوا الجيش الفرنسي يحتل لبنان ! .. فأستقبلته نساؤهم بالأحضان ؛ ورحل البطريرك  
الماروني الى باريس يثبت أقدام الاحتلال ! .. ليتسبب من ثم بمأساة ميلسون ٢٤ تموز  
١٩٢٠ وانهميار الحكم العربي في الشام - انظر دروزة . ص ٣٤٩ وما بعدها

(٣) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٦٠

(٤) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٨٥ وما بعدها .

في انتظار بقايا التصفية !.

وما كادت الحرب تضع أوزارها، حتى كان الوطن العربي وديار الدولة  
أجمع تن من وطأة الاحتلال الذي أناخ بكلكله وكل قواه، يبدد ثرواتها، ويقسم  
أقاليمها، وينغص عليها فرص الحياة والاجتماع والوحدة !..

وإزاء هذا المال الذي إنتهت إليه الامة بعد الحرب كان لابد من اندلاع  
المقاومة المحلية، .. استكشافاً لحقيقة وجود أبناء الأمة في هذا العالم الجديد ..!

فكانت مصر أسبق الأقطار في إعلان السخط على المحتلين، والانطلاق بالثورة  
الوطنية - ولا سيما بعد فشل العرب في اللحاق بمؤتمر فرساي يستعرضون فيه ما لهم  
من أوراق العهود والمواثيق مع الحلفاء - .. لتأخذ مكانها من معاهدات الصلح  
والتصفية، .. ولكن هذا المؤتمر أصمّ أذنيه عن سماع الاصوات الضعيفة والمغلوبة  
وأوصد الأبواب في وجوه الشعوب المنكوبة، واقرّ الحالات الجديدة، وسعى  
الى تسمية الدول المستعرة والحامية للبلدان العربية والاسلامية (١) بما لا يتعارض  
مع إتفاق الحلفاء الودي في عام ١٩٠٤ م.

فقد حاول سعد زغلول وبقية من زعماء مصر الذين كانت علاقتهم بالانجليز  
غير علاقة الحزب الوطني النافرة والتي تأتي إلا الجلاء (\*) - السفر الى مؤتمر الصلح  
للدفاع عن قضية « مصر » فأبى عليهم السير ونجت ان يزودهم بجوازات سفر

---

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢١٢، ابراهيم شريف - الشرق

الاوسط ص ١٠٤ وما بعدها .

(\*) عند إعلان الحماية البريطانية على مصر، التي القبض على أركان الحركات  
الوطنية، ولم يصب سعد منها شيء!! فتأمل .

« مصرية » واستخف بهم الى الدرجة التي ساء لهم فيها عم يتحدثون ؟ وبأسم  
من ينطقون ؟ ١ .

ثم كان ما كان من السعي لا عتقهم ونفيهم الى مالطة ، حتى انفجرت الجماهير  
في القاهرة بمظاهرات تعلن فيها غضبتها على المحتلين ، .. وامتدت بها الى أنحاء  
القطر حتى البستها ثوب الثورة الوطنية في آذار - مارس ١٩١٩ م .

وكانت شرارة التهب فيها الشعور القومي ، وعم الأضطراب البلاد .. حتى  
لم تعد قوى الحماية البريطانية تستطيع المحافظة على النظام ، .. فاضطر الإنجليز  
الى مناورات يطلقون فيها سراح سعد ويسمحون له ولرفاقه بالذهاب انى  
شائوا (١) .

في الوقت الذي سعت فيه حكومة « لندن » الى أن تؤلف لجنة « ملتر »  
تدرس فيها الحالة في البلاد وتقدم مقترحاتها بهذا الخصوص ، .. ولكنها اخفقت  
أيضاً امام ثبات الشعب وتمسكه بمطالبه المشروعة . وانفجار الثورة ثانية في نيسان  
ابريل ١٩٢١ م . (٢)

وقد أسهم الرافي بهذه النهضة الوطنية في إرساله النشيد القومي على لسان  
الجمهور ، والذي كان له أبعاد الأثر في جمع صفوف الأمة ، وفيه يقول :

الى العلاء .. الى العلاء بني الوطن      الى العلاء كل فتاة وفتى  
الى العلاء في كل عصر وزمن      فلن يموت مجدنا كلا ولن

---

« ١ » عبد الرحمن الرافي - ثورة سنة ١٩١٩ ص ١٠٤ وما بعدها .

« ٢ » أمين سعيد - تورات العرب ص ٢٢ .



والذي يصور فيه الوحدة الوطنية بقوله :

إيماننا كنيسة ومسجداً      دين اتحاد للبلاد وهدى  
وكل ما في العمر يوماً وغداً      وكل ما نملك للمجد ثمن .. (١)  
على ما سوف نفصل القول فيه عند الكلام على آثاره الشعرية .

ولكن حدث عقب عودة سعد زغلول في نيسان .. أبريل ١٩٢١م أن ظهرت بوادر الانقسام في الحركة الوطنية ، .. وكاد يتحول فيها غضب الأمة وثورتها على المحتلين الى شعارات حزبية حمقاء تنسب بالأشخاص وتشعل نار الفتن الداخلية . (٢)

وقد أشار الرافعي الى ذلك بقوله « .. اما الحالة السياسية فقد أفسدها اهلهما ، .. لأنه لا فلاح لامة يعلن بعضها بعضاً لصاً مقدساً (٣)

كما ادت مواقف سعد الفردية الى إنقسام الوفد نفسه (٤) ولا سيما حين تألفت ( ميلشيا ) اطلقت على نفسها اسم « جنود سعد » تتصدى لكل من يخالفه الراي وقد آذى بها مناوئيه من أعضاء الحزب الوطني خاصة الذين رفضوا قبول مبدأ المفاوضات من غير جلاء القوات المحتلة ، .. وقد جاء نعت هذه الكتائب على لسان صادق الرافعي - بعد تصديها لأمين الرافعي لسان الحزب الوطني بقوله :

« استفاض بين الناس ان معالي سعد باشا ذو جنود .. وانه هو وقبيله يطلقون اسم « جنود سعد » على فئة أمده الله بها تنصره بالرعب وتبتلي خصومه بالأذى

(١) أنظر الرافعي - الرسائل ص ٦٧ ، ٧٠ ..

(٢) عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ١٠ ، ٣٠ وما بعدها

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٧٩ .

(٤) عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ١٦

وتتدسس الى مكروههم بأنواع البلاء ..

ولقد كان العرب من جاهليتهم الى إسلامهم إلى عجمتهم يطلقون لفظة «جنودسعد» التي يفخر بها الرئيس! على الحشرات والهوام المؤذية ، التي يجيء بها الصيف وينشر بها اللدعات والاسعات والمؤذيات ، .. الى ما يجلب الأمراض ويدني العلل وما عسى أن يكون سبباً في وباء محتاح ، أو بلاء يخلق الناس حلق الشعر .. الخ) (١)

وبالرغم من ذلك كله فقد مضي سعد على شاكته ينتهز فرص إخفاق الاتفاق بين الانجائز والمنشقين عليه ليجمع الجماهير اليه ، ويؤلف لنفسه قوة شعبية تقلل من شأن معارضيهِ وتعزلهم عن طريق الكفاح الوطني ، .. ولكن لم تكد تفشل حكومة عدلي يكن في مفاوضات لندن (٢) حتى اعتقلت السلطات المحتلة سعد زغلول ونفته الى جزيرة سيشل - شمال شرقي مدغشقر ثم نقلته الى جبل طارق (٣) وقد حاول امين الرافعي ان يوحد الصفوف إزاء هذه الحالة المتردية ، وكادت تعود الوحيدة الى الوفد، .. ولكن (الني) اقبل يفاوض عبد الخالق ثروة لاعلان تصريح ٢٨ شباط - فبراير ١٩٢٢ م قاضياً بإلغاء الحماية على مصر والاعتراف بها (مملكة مستقلة ذات سيادة) في مناورة (يقصد بها التعبير بالامة

---

«١» الرافعي - الأخبار - نوفمبر ١٩٢١ ، رسائل الرافعي ص ٧٧ .

على أن أمين الرافعي هو الذي كان وراء سعد في ظهوره السياسي أنظر عبد

الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة ج ٢ ص ٢٨٦

(٢) عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٢٤

(٣) نفس المصدر ص ٣٠ .

وامتالة نفر من أبنائها للأستعانة بهم على تنفيذ سياسة الأأنجليز على حد ماجاء  
في بيان الحزب الوطني آنذاك .

وهكذا إنقلب السلطان احمد فؤاد الى ملك في آذار - مارس ١٩٢٢م وصدر  
بعد ذلك ماعرف بدستور نيسان - ابريل ١٩٢٣م الذي جرت بموجبه الانتخابات  
العامة في كانون الثاني - يناير ١٩٢٤م بعد عودة سعد ورجال الحزب الوطني من  
منافيتهم،، والتي جاءت بأغلبية وفدية ساحقة، أظهرت فيها الأمة نضجاً سياسياً واعياً  
تلطف به من حول الزعيم سعد زغلول ، قال فيه الراقعي يوماً مشيراً الى دعوته في  
في تربية الضمير القومي للأمة :

يا سعدُ ما حلَّ مصرًا قبلها بطلٌ	كانت قلوبًا وأرواحًا عساكره
قد كان ظاهر هذا الشعب باطنه	فاليوم باطن هذا الشعب ظاهره
تركته بالضمير الحسَّ مندفعاً	أمر الهدى.. ما الضمير الحر أمره
ولن يهون بشعب أو يعز به	في كل ما ناله إلا ضائرُه
إن الضمير جناح حين تحبسه	يرى السما كلها في الحبس طائرُه (١)

كما وضع على لسان سعد نفسه نشيده القومي الثاني الذي يقول فيه :

إسلمي يا مصرُ إنني الفدا	ذي يدي إن مدت الدنيا يدا
أبدأ لن تستكيني أبدأ	إنني أرجو مع اليوم غداً
ومعي قلبي وعزمي للجهاد	ولقلبي أنت بعد الدين دين

(١) نشيد سعد زغلول الراقعي ص ٢١٢

لك يامصر السلامه

إن رمى الدهر سهامه

واسلمي في كل حين

ولكن وزارة سعد لم تعمر طويلا ، فسرعان ما اصطدمت بالمندوب السامى - النبي - عقب مصرع السردار ، .. فقدمت إستقلالها بعد عشرة شهور لتخلفها حكومة زيور ( الأتقلاب الأول ) التي أظهرت الأستخذاء امام السلطات المختلة بحيث سارعت الى حل المجلس النيابي ، وحاولت تأسيس حزب (الاتحاد) زيادة في أسباب التخاذل والانهزام - لتزعم من ثم الولاء للقصر (١)

\* \* \*

اما الدولة العثمانية فقد كان الحلفاء قد إستعادوا قوتهم بعد هزيمة «غاليلولي» وتحول الحرب الى جانبهم، .. فاحتلوا الأستانة في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٨م، .. ودخل جيش اليونان أزمير بعد انتهاء الحرب في ايار ١٩١٩م، . فرأى الوطنيون الترك أن بلادهم مهددة بالتمزق ، .. فتولوا تنظيم الجهاد الوطني وانشيء المجلس الكبير الذي انقاد له الشعب التركي بعد ما تقدم إليه الفقهاء ورجال ابطال مثل كاظم بكير وعلى إحسان ونور الدين وعمر فوزي قبل أن ينظم إليهم مصطفى كمال فقطعت هذه الجمعية علاقتها بالأستانة وقد كانت مستسلمة لمطالب الحلفاء بتوقيعها معاهدة سيفر (٢) التي اعتبرتها الجمعية الوطنية فاشلة ، ونشبت الحرب بين

(١) عبد الرحمن الرفعي - في اعقاب الثورة ص ٢١٢ وأنظر سعيد العريان -

حياة الرافعي ص ١٦٨ .

(٢) راجع الدكتور ابراهيم شريف - الشرق الاوسط ص ١٠٤ و١١٩ وما بعدها

القوات الوطنية التركية والجيش اليوناني ، فظفر الترك باليونان في عدة معارك أهمها « أين أونو» في كانون الثاني- يناير ١٩٢١م و «سقارية» في آب ١٩٢١م و «دملوبيتار» آب ١٩٢٢م التي قذف بعدها الترك بالأروام (اليونان) إلى البحر واضطر الخلفاء إلى إبرام معاهدة «لوزان» للصلح مع تركيا الجديدة وتسوية الحالة في الشرق الأدنى عامة (١)

وكان لأخبار الحرب الاستقلالية التركية هذه صدى في الشعوب العثمانية - ومنها الأقطار العربية . فكان الأدب والشعر يستبقان الأحداث في القول . . ومن ذلك قصيدة أحمد شوقي :

الله أكبر كم في الفتح من عجب      ياخالد الترك جدد خالد العرب  
يوم كيدر (١) فخيّل الله راقصة      على الصعيد وخيل الله في السحب  
هزت دمشق بني أيوب فأنتهوا      يهنئون بني حمدان في حلب  
ومسلموا الهند والهندوس في جنل      ومسلمو مصر والأقباط في طرب  
ممالك ضمها الإسلام في رحم      وشيخة وحوهاها الشرق في نسب  
ولا أزيدك بالإسلام معرفة      كل المروءة في الإسلام والحسب (٢)  
وفي البيت إنباهة عبقرية ، تذكر وتحشى لم يتنبه لها سواه - حقاً لقد كان

(١) شكيب أرسلان - شوقي ص ١٢٢ ، وعبد الرحمن الراجحي - في اعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٧٥ ، وانظر مقدمة الشوقيات لمحمد حسين هيكل ، على ان المؤرخ عبد القديم زلوم له وجهة نظر تستحق التأمل في كتابه « مصرع الخلافة » (٢) أحمد شوقي - الشوقيات .

شوقي شاعر العصر الحديث ، .. وقال الرصافي في بغداد :

سمي المصطفى لازلت تعلقى الى أوج يطاول كلَّ أوج  
نصرت على بني اليونان نصرأ أقام الغرب في هرج ومرج  
فدُر كالشمس في فلك المعالي وحل من الكمال بكل برج (١)

أما الرافعي فيجمع به الخيال في شطحة يخيل فيها له أن مصطفى كمال هذا سيف من سيوف الله فيخلق في ذلك الخيال المجنح الوثاب ، ويملا محتوى قصيدته معاني ، ويتفلسف قوة وضعفاً .. ويعود الى مفهوم القوة العسكرية التي كانت طابع الدولة العثمانية المميز ، فيتنفس فيه . وكأنه يترجم عن ثورة قومية تستعر في صدره . ولم يكن يعرف موقعها من العالم العربي - الإسلامي . فتشبه له الدعوات السياسية القائمة يومها في « اللامركزية » وتعريب الخلافة . وتجديد الدولة الإسلامية .. غير الذي يهمن .. فيقول :

يد الله مدت - وهو فيها مهندٌ على عنق اليونان تغري وتعمد  
نضته فهزته فبثت فرنده فأهوت به فهو القضاء الجسد  
ولله مثلُ الأنبياء صوارمٌ روح وتمضي حينما الحق يكسدُ

رما هم به رمي السماوات رجمها على المارد العاني مضى يتمرد .. الخ (٢)  
ولكن لم تكد توافي الظروف مصطفى كمال وتظهره على بقيسة رفاقه ، الذين سمى الى طمس أخبارهم وبطولاتهم من أول يوم .. يأخذ ميثاقاً من الحلفاء

(١) الرصافي - ديوان الرصافي .

(٢) الرافعي - الاخبار - ٨٠٢ - ١٩٢٢ م .

في «لوزان» حتى مكن لأهل الردة «الدوئمة» من نفسه وللماسون من سياسته .. فأقدم بحماسة طورانية أخرى على إلغاء الخلافة، ونفي الخليفة وحيد الدين من البلاد. واقتصر بالحكم على الأناضول .. وبذلك صدقت نبوءة الرافعي من أن تركية «لا تحكم على رجل واحد من غير الترك، .. وأنها ضاقت بحماسة أنور» (١) وزاد مصطفى كمال هذه الحماقات بأقدامه على قطع كل ما له صلة بالعرب حتى الدين الأسلامي الحنيف وحروف اللغة، ويوم الجمعة الفضيل (٢) في شعوية مرذولة عزل بها تركية عن عالمها الطبيعي مع المسلمين ! .  
وقد ترجم شوقي خواطر الأمة الإسلامية إزاء هذه الأحداث برأعته التي رثى بها الخلافة حين قال :

عادت أغاني العرس رجع نواح	ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه	ودفنت بين تبلج الأصباح
ضجت عليك منابرٌ وما آذن	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهبة ومصر حزينة	أحما من الأرض الخلافة ما؟
بالرجال لحررة مسوءودة	قتلت بغير جريرة وجناح .. (٣)

(١) الرافعي - الرسائل ص ٥٦

(٢) ومما يؤسف له ان هذه الحماقات الكبالية ما تزال تتشبث بالترك الى اليوم حتى لتكاد تسيطر على قوى التفكير المؤمن عندهم بالرغم مما أصابهم بسببها من الانقطاع والفجعية وسواهما ..  
(٣) أحمد شوقي - الشوقيات .

وأرسل الرافعي غير حديث منظوم و منشور . جمع بعضها الجزء الثالث من وحي  
القلم في مقالات : تاريخ يتكلم بعد كفر الذبابة وكلمة وكلمة .

\* \* \*

وكان مكر الحلفاء في المشرق العربي مكرآ كبارآ . وتبنيتهم كان أفضح وأشنع  
وإجهازتهم على عربته كانت أنكى وأمر . . بحيث لم تستطع واقعية الحكم العربي  
الجديد في الحجاز والشام أن تتلافى ذلك المكر والتبنييت والأجهاز - ما دام مؤتمر  
الصلح يقف وراء الحلفاء يمكن للأستعماريين من البلاد بالأنتداب والحماية والتعاهد  
بعد الأحتلال والتبعية . . وكأنهم الأوصياء على تقرير مصائر الشعوب . .

وبالرغم مسن مباديء « ويلسون » التي جرته بها بريطانيا ليدخل طرفآ في  
الحرب الى جانب الحلفاء . . فان هذه المباديء ما لبثت أن انكشفت على العالم  
بمقررات مؤتمر الصلح الذي أقر للحلفاء بكل ما سبق لهم الأتفاق عليه ، لتوزيع  
مناطق النفوذ فيما بينهم ، بعد تصفية الدولة العثمانية ، ودحر المانية ، ومن ثم تقويض  
الحكم القيصري في روسيا ! وإلهائها عنهم بأوضاعها الداخلية أمام الثورة البلشفية :  
وهكذا وجدت فرنسا - المجرمة الحرة - نفسها ثانية في متصرفية  
بيروت . . وجيوش الجنرال غورو تزحف على دمشق ، وتنسف الحكم الفيصلي  
في وقعة « ميسلون » التي استشهد فيها وزير الحربية يوسف العظمة في  
٢٤ تموز ١٩٢٠م (١) .

وما زال السوريون الى اليوم يعيشون في حنين الى تلك الأعراس القومية

---

(١) راجع الحصري - في « ميسلون » .



التي دامت سنين من الحكم العربي ١٩١٨ - ١٩٢٠ .. كجنينهم الى عهد بني أمية  
الظهير ! .. وربما زادوا عليه الآن حيناً آخر لا أيام الجمهورية العربية المتحدة  
التي كانت فيها سورية الداخلية إقليماً ! ..

لقد أضطر الملك فيصل إلى ترك البلاد بعد مقاومة يائسة ، واتجه مع وزير  
خارجيته عبد الرحمن الشهبندر الى مصر . ثم سافر من الإسكندرية الى أوربة  
محاوياً أن يقتحم مؤتمر الصلح ، ويذكر المؤتمرين بمواثيق وعهود قطعها الحلفاء  
على أنفسهم للعرب .. ولكنهم تركوها وراءهم ظهرياً ! .. (١)

وبعد ذلك توالت الثورات في سورية الداخلية ، يقودها صالح العلي في  
اللاذقية تارة ، وينفجر بها ابراهيم هنانو في حلب تارة أخرى ، .. وتعود فتندلع  
في وادي حوران ، فيقتل رئيس الوزراء - علاء الدروبي - وكل من تعاون مع  
فرنسا في تقويض الحكم العربي (٢) .. حتى كانت الثورة الكبرى في تموز  
- يوليو ١٩٢٥م التي امتدت من جبل العرب وعمت الديار السورية كلها سنتين  
من المقاومة الباسلة ، .. كادت أن تؤتي ثمار الاستقلال ، .. وهكذا بقيت سورية  
في مدها القومي ، وجزرها أمام وطأة الاحتلال الفرنسي الأثيم حتى قيام الحرب  
الثانية ، وسقوط فرنسا أمام زحف القوات الألمانية ، .. ومن خلال ما اضترى

(١) عبد الرحمن الشهبندر - ذكريات العهد الفيصلي في الشام المقتطف -

١٩٣٤م وقد طبعت اخيراً بعنوان مذكرات الشهبندر، ودروزة - حول الحركة

العربية الحديثة ج ١ ص ١٣

(٢) امين سعيد - الثورات العربية ص ٧٠

فرنسا وإنجلترا من مناوبة الاحتلال لسورية أيام الحرب، خرجت سورية من ثم ظافرة باستقلالها (١).

أما القسم الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين، فنظراً لمكانة الآثار التاريخية المقدسة عند اليهود والنصارى، فقد كانت هنالك خطة صليبية جديدة لأقطاعه من الوطن العربي الاسلامي بالاحتلال والانتداب ثم تمكين الصهيونية منه بعد حين .. وفي عام ١٩١٩م عقد المؤتمر الفلسطيني القومي رفضاً إجماعياً لوعده « بلفور » ثم ألقاه بمؤتمر آخر في الثامن من آذار ١٩٢٠م عقد البيعة للملك فيصل الأول، باعتبار فلسطين جزء لا يتجزأ من الديار الشامية.

ولما نسف الفرنسيون الحكم العربي في دمشق، عاد المؤتمر نالته لينظر في حدود فلسطين التي ظهرت آنذاك - بأنقسام الديار إنداباً - وجدد رفض الوطن اليهودي، وبدأ الشعب المقاومة في آب عام ١٩٢٩م، .. فكانت حوادث العنف، التي اتسمت بالحزم والثورة، ومن أشهرها حادثة البراق والتي توالى بعدها كتب الأنجليز البيض والملونة؛ لحل المشكلة الفلسطينية الناشئة، حتى كانت الثورة الكبرى ما بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٩ (٢) التي أوقفها إندلاع الحرب العالمية الثانية وتمكن الأنجليز من مصر والعراق بمعاهدات تحالف مهدت لهم سبيل السيطرة التامة على فلسطين.

(١) راجع في ذلك - كفاح الجيش العربي السوري

(٢) راجع عمر ابن النصر - جهاد فلسطين العربية، صبحي ياسين - الثورة الكبرى وأمين سعيد - ثورات العرب، وعزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٨٩ وما بعدها ..

أما لبنان - المتصرفية والبلد - فقد حرص الموارنة والكاثوليك على الاحتلال الفرنسي ، وآثروه على الحكم العربي الذي قبلوه بامتعاض عند رفع العلم العربي على سارية المحافظة ببيروت (١)

ولكن مقاومة المسلمين والأرثوذكس للاحتلال الفرنسي برزت في الاستفتاء الأميركي عام ١٩١٩م والذي خرج بنتيجة الرغبة في الوحدة الثامنة مع سورية الداخلية . (٢)

\* \* \*

وأما في العراق ، فقد سبقت الإشارة الى الثورة العربية في الحجاز التي مكنت الحلفاء من استرداد أنفاسهم في الحرب واستجماع قواهم بعد هزيمة الإنجليز في الكوت ، فلما واصلت قواتهم وأنجدها بحملة مختلطة أخرى بقيادة الجنرال « مود » الذي إهترق نحو بغداد في ١٧ آذار - مارس ١٩١٧م فاتحاً « محرراً » للعرب من الأتراك !! .

وحاول الإنجليز استفتاء الشعب في موضوع الحكم عام ١٩١٨م .. وتكشفت نواياهم عن عزم بالحاق العراق بالهند أو حكمه بأمره برسي كوكس عميد الاستعمار في خليج البصرة ، ..

ولكن المقاومة القومية استمرت في طول البلاد وعرضها ، ولا سيما في شمال العراق (٣) ، ثم إندلعت بعدها ثورة عارمة في الثلاثين من حزيران - يونية

(١) محمد عزوة دروزة - الرحدة العربية ص ٤٧٣ وما بعدها

(٢) نفس المصدر ص ٤٨٢ ..

(٣) عبد المنعم الغلامي - ثورتنا في شمال العراق ..

١٩٢٠م بعد أن قتل الشيخ ضاري الحاكم السياسي « لجان » . . ورفع العلم العربي في أنحاء القطر ، . . وأصطدم الثوار بالقوات المحتلة في الثاني من تموز ١٩٢٠ م ، وأستمرت الحالة الثورية خمسة شهور كلفت المحتل الكثير في وقائع بطولية بلغ فيها الأندفاع والحاسة درجة التهور ، . . ولا سيما في معركة الرميثة ( الزارجية ) . . وقد عقد بعدها مجلس الوزراء المؤقت البيعة لفيصل بن الحسين ملكاً دستورياً على العراق من الموصل حتى الخليج <sup>(١)</sup>

هذا في الوقت الذي سارت محاولاتهم لتقوية الملك عبد العزيز آل سعود وتصفية حكومة الهاشميين في الحجاز !

وبالرغم من مناورات الأنجليز حول شكل المعاهدة ، فقد أستطاع فيصل وبعض رجاله التخفيف من صورة صك الأنتداب على طريقته السياسية المشهورة في جملته ( خذ وطالب .. ) . . حتى وصل بها صيغة معاهدة ١٩٣٠م التي دخل العراق بعدها عصبة الأمم باعتباره دولة العرب الحديثة المستقلة عام ١٩٣٢م (٢) وقد بعث أحمد شوقي قصيدته في هذه المناسبة التاريخية أنشودة على لسان محمد عبد الوهاب يقول فيها :

يا شرعاً وراء دجلة يجري بدموعي تجنبتك العوادي  
سر على الماء كلمسيح رويداً وامس في اليم كالشعاع الهادي .. الخ

\* \* \*

هذا في الوقت الذي سلكت فيه يد فرنسا العاتية سبلاتى في قطع الصلة بين

(١) عبد الرزاق الحسني - تاريخ العراق الحديث ج ١ ص ٤٢

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٦ وما بعدها .

المغرب العربي والمشرق وتاريخ العروبة (١) ، . .

فقد فتحت باب التجنس لدمج السكان العرب بالحياة الفرنسية نفسها ، . . وقد اعتبر المسلمون في الجزائر مثل هذا ردةً وكفراً ، وقاطعوا المتفرنسين فلم يعودوا يصاهرونهم ، ولم يسمحوا لموتاهم أن يدفنوا في مقابر المسلمين (٢) الى ألوان أخرى من المقاومة السلبية الحادة .

وفي تونس توائب على زعامة الحزب الدستوري على باش وعبد العزيز الثعالبي الذي أزعج مؤتمر الصلح (٣) وما بين عامي ١٩٢١م - ١٩٣٢م لعبت فرنسا أدواراً جهنمية في تبديد الثورة العارمة ، وفي الأطباق على البلاد بارهاب فظيع ، كذلك الذي مارسه في سورية (٤)

وفي مراکش ثار ماء العيينين ، ومع ان ثورته فشلت ، إلا أن روح التمرد والمقاومة بقيت حتى عام ١٩١٥م (٥) كما ثار في الجنوب موسى حمو ، وخالدا بوالقاسم الفنادي الذي استطاع أن يستمر في المقاومة حتى عام ١٩٣٥م (٦) هذا بالإضافة الى ثورات في جبال الأطلس حتى عام ١٩٣٣

---

(١) مر بنا اتفاق فرنسا الودي مع إنجلترا عام ١٩٠٤م

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٣٢٦ ، ٤٠٨ ، وما بعدها ..

وأنظر البشير الأبراهيمي في (أحاديث البصائر) ..

(٣) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤١٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤١٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤٢٥

(٦) المصدر نفسه ص ٤٢٦

ومن خلال الأحداث كانت تضطرب السياسة المصرية ما بين الاحزاب التي فرخها حزب - ذوي المصالح الخاصة - ( الامة ) في الوفد ، والاحرار الدستوريين ثم « الاتحاد » ، إضعافاً للحزب الوطني وتبديداً للبياديء القومية والوطنية التي ثبت عليها في مقاومة سلبية باسلة .

وكان لشخصية أمين الرافعي ومواجهه زمام الامان في اتجاه السياسة الوطنية كلما أحاق بها أو تمزقها عارف من الأحوال المتعاقبة ! ..

فقد رفع عقبرته إزاء ما ترتب من المحارر الحثالة السياسية في البلاد على عهد الانقلاب الاول (حكومة زيور) - ودعافي تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٢٥ الى وحدة الصنوف ، إنقاذاً للبلاد التي عطل فيها الدستور وتناحرت الاحزاب ، ..

ولم يكن أمين يتوقف عن إلحاقه في هذه الدعوة - وبعد صدور بيانات للوفد والاحرار الدستوريين تؤيد مذهب أمين الرافعي والحزب الوطني ، اجتمع المجلس النيابي ( المنحل ) في فندق الكوننتال ، وقرر عدم الثقة بالوزارة (١)

ولم تستطع الوزارة التثبيت بالبقاء مع تعنتها ومحاولتها الترفيع غير مرة ، .. حتى عقد المؤتمر الوطني برئاسة سعد زغلول نفسه في شباط - فبراير ١٩٢٦م (٢) واصدر قرارات أذعننت لها الحكومة ، وأجريت الانتخابات وفق مرسوم الانتخاب المباشر وفاز الوفد - وإن لم يخجل فوزه من أنانية على حساب الآخرين (\*) وتألقت وزارة

(١) الرافعي - في اعقاب الثورة ج١ ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٣

(٥) بالرغم من أن دعوة الائتلاف كانت للحزب الوطني وأمين الرافعي ، .. إلا أن الفردية السعدية والانانية التي أتصف بها حزب الوفد أبت إلا القصد في تصفيه « الحزب الوطني » على مراحل ، .. وفي هذه الانتخابات أصرت على إقصاء عبد الرحمن الرافعي عن دائرته في المنصورة - مذكراتي ص ٥٨

علي يكن الائتلاف الأولى - ، وعادت الحياة الدستورية ، التي يشير إليها قول  
الرافعي :

وبعثت دستور البلاد وكان من أوراقه قد لف في أكفان  
بعد ان نأجى سعد عن رئاسة الوفد كي لا يصطدم بالانجليز ثانية .  
وعندئذ أصبح سعد زعيم الامة لامنازع تشرئب إليه الاعناق من كل مكان  
ويقدم صادق الرافعي اليه كتاب « اعجاز القرآن » ليقول فيه كلمته المشهورة  
« بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قيس من نور الذكر الحكيم »  
وأمام هذا الائتلاف ، ومظهر وحدة الصف عرض محمد نجيب ( باشا ) وظيفة  
« شاعر الملك » الفخرية على الامام مصطفى صادق الرافعي ، فتقبلها عرفاناً بالجميل  
وأرسل في الملك فؤاد قصائده التي استهلها برائعه التي يقول فيها :

ما بين آن في الزمان وأن تهدى لمصر هدية الرحمن  
بموفق ملك عليها مصلح أو فاتح بطل لها معوان  
يأتي وفيه من الرحيم مراحم بعثت لما في مصر من أحزان  
في كشف معضلة ورد ملة ودفاع طارقة من الحدثنان  
الله يشهد أن مصرأ موطن متقدس في أفته النوراني (١)

وقد استطاع أن يعبر فيها عن وجهات نظره السياسية والأجتماعية ومقارناته  
التاريخية من خلال الأسم الملكي على ما سوف نعرض له (٢)

(١) المقطم - ١١٥٠٥ - ١ رجب ١٣٤٥ هـ .

(٢) أنظر محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ١٦٨

ولكن لم يكند سعد ينتقل الى الرفيق الأعلى في آب - اغسطس عام ١٩٢٧م  
 ويلحق به أمين الرافعي في ٢٩ كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٧م حتى عادت  
 الانانية تستشري في صفوف هاتيك الاحزاب (\*)  
 فقد خلف مصطفى النحاس سعداً في رئاسة حزب الوفد، ثم ارتقى الوزارة باسم حزب  
 الاغلبية النيابية في آذار - مارس ١٩٢٨م (١) مما دفع حزب الاحرار الدستوريين  
 الى عدم التورع عن خيانة الائتلاف والتآمر عليه مع النفوذ الانجليزي والقيام  
 بالانقلاب الثاني وتأليف وزارة محمد محمود (باشا) بعد إقالة النحاس في حزيران  
 يونية ١٩٢٨م . (٢) والى ذلك يشير الرافعي بقوله :

لا يلومن* مستبدا اذا ما	نفسه أخرجت له مستبدا
أعظموا البرلمان والشعب فيه	أن يعدوا الانصاف خصماً للدا
أكبروا البرلمان والشعب فيه	ان يسموا فيه من الشعب (وفدا)
ان فرقا ما بين انصار شخص	يتولا هم وأنصار مبداء (*)

وأعاد محمود صورة مأساة الامة التي لقيتها على عهد ( زبور ) وحزب  
 الاتحاد عام ١٩٢٤م ، .. فسارع الى حل البرلمان ، وتعطيل الدستور (٣) وحكم

- (٥) وقد لاحظ صادق الرافعي ذلك في المقالين البليغين الذين رثا بهما سعد  
 زغلول وزين الشباب أمين - على ما سوف نعرضه في مكانه من الدراسة
- (١) عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة ج ٢ ص ٤٣
- (٢) « « « د ج ٢ ص ٥٠
- (٣) « « « ج ٢ ص ٥١
- (٥) صادق الرافعي - الأخبار ٨ اكتوبر ١٩٢٨م .



البلاد بالحديد والنار (١) غير ملتفت الى الاستنكار الذي أذاعه الحزب الوطني ،  
والنداء الذي وجهه حزب الوفد (٢)

ومضى في هذا الاندفاع أكثر حين عمد الى تثبيت النفوذ البريطاني ،  
ومحاولته اصدار تشريعات من شأنها ان تضر بالمصلحة القومية للبلاد (٣) والى ذلك  
يشير قول الامام الرافعي :

في مصر من عنت السياسة عقدة في كل آونة نجر حبالا  
من شدة هازادت به عسراً ومن أرخى تزد من ضعفه استفحالاً.. (\*)  
ولكن محمود (باشا) اصطدم بالامة بعد مفاوضاته هندرسن وموافقته على  
مشروع معاهدة تبقى فيها جيوش الانجليز بمصر وتقر الحكم الثنائي في السودان (٤)  
ويظن أن اتصالا ما بين الوفد والانجليز ادي الى قبول شروط الوفد في النظر  
بالمعاهدة بعد عودة الحياء النيابية (٥) واستقالة محمود وتأليف وزارة عدلي  
الثالثة ،.. التي أجرت الانتخابات أواخر عام ١٩٢٩م وجاءت بأغلبية وفدية  
أيضاً (٦) أعادت النحاس الى الحكم ثانية (٧)

(١) عبد الرحمن الرافي - في اقباب الثورة ج٢ ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) » » » ج٢ ص ٥٤ و ١٠٠ بعدها .

(٣) » » » ج٢ ص ٧٢ وما بعدها .

(٤) » » » ج٢ ص ٨٣ .

(٥) » » » ص ٩٥ .

(٦) » » » ص ٩٧ .

(٧) » » » ص ١٠٠ .

(٥) المقطم - شوال ١٣٤٧هـ .

.. ولكن حدثت مشادة بين الوزارة والقصر أودت بها استقالة .. وهيأت

للأقلاب الثالث أن يعبر الأمة (١)

وهكذا جيء باسماعيل صدقي خصم الدستور الالذ ، والمستهتر الأول بحقوق الشعب الذي أعاد انماسة ، فألغى الدستور وعطل الحياة النيابية . كما ألغى الانتخاب المباشر ومجالس البلديات والنقابات وأعلن دستوراً آخر يكون منة من الملك للشعب (٢) وألف من وزرائه حزباً سماه على (الشعب) كما فعل حسن نشأت في حزب (الاتحاد) سنة ١٩٢٤. (٣)

وكانت سنوات عجاف ، زورت فيها الانتخابات، وعطلت الصحافة ، وكت الافواه (٤) وخلف على الحكم بعد صدقي عبد الفتاح يحيى وكان أضعف من الهوان (٥) وقد اضطر القصر بعدها الى أن يعهد لمحمد توفيق نسيم بتأليف الوزارة - نوفمبر ١٩٣٤ م ، التي حاوت رضىة الشعب بألغاء دستور صدقي (١٩٣٠) وحل مجلسيه الشيوخ والنواب (٦). ولكن دستور ١٩٢٣ م بقى معطلا !!

وقد بقيت الحالة كذلك حتى عادت المظاهرات تجتاح البلاد . ويصيب الطلبة منها نصيب الغرْم بالنار والرصاص ولا سيما بعد تصريحات صموئيل هور وزير الخارحية البريطانية بعدم صلاحية دستور ١٩٢٣ م وان دستور ١٩٣٠ م لا يحقق

(١) الرافعي - في اعقاب الثورة ج٢ ص ١٠٨

(٢) » » » » » ص ١٣٠

(٣) » » » » » ص ١٤٢

(٤) » » » » » ص ١٥٢ - ١٦٣

(٥) » » » » » ص ١٨١

(٦) » » » » » ص ١٩١

## رغبات الامة (١)

وهنا ظهر افتقاد الامة لصوت أمين الرافي في دعواته الى وحدة الصف ، ..  
ولكن أخاه عبد الرحمن الرافي ، سد ذلك الفراغ بسعيه وحافظ رمضان وندائه  
الموجه الى الامة بهذا الشأن (٢) بعد رفض النحاس للفكرة . . . (٣) بدافع من  
أناية خلفاء سعد . . . ثم عاد فقبل المشروع !

وهكذا تألفت الجبهة الوطنية من الوفد المصري والحزب الوطني والاحرار  
الدستوريين والشعب والاتحاد . . . وحتى المستقلين (٤) ، وقد نجحت في  
عودة دستور عام ١٩٢٣م (٥)

ولكن جزاء سعي عبد الرحمن الرافي لم يكن بأفضل من نصيبه في إئتلاف  
عام ١٩٢٦م (٦) فقد عاد « الوفد » بصر على إبعاده عن الحياة النيابية إمعاناً في  
تصفية الحزب الوطني ومبادئه . . .

وفي كانون الثاني - يناير ١٩٣٦ انتهزت الأحزاب « الاحرار والاتحاد والشعب »  
الفرصة لتنجية وزارة نسيم . ولكنها فشلت في تأليف وزارة إئتلافية . (٧)  
ثم ألف علي ماهر الوزارة التي أحرقت الانتخابات في أيار - مايو ١٩٣٦م

(١) الرافي - في اعقاب الثورة ج٢ ص ٢١٠

(٢) إنظر المقطم ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ ، وكذلك الأهرام ١٥ ديسمبر ١٩٣٥م

(٣) الرافي - مذكراتي ص ٨٦

(٤) الرافي - مذكراتي ص ٨٨ - في اعقاب الثورة ص ٢٠٣

(٥) الرافي - في اعقاب الثورة ص ٢١٠

(٦) « » « » « » ص ٨٩ وقد مر بنا ذلك

(٧) الرافي - في اعقاب الثورة ج٢ ص ٢١٢

عقب وفاة الملك فؤاد في ٢٨ نيسان - أبريل ١٩٣٤ م - وقد جاءت كذلك بالأغلبية الوفدية ! .. (١) التي سارعت بعدها وزارة النحاس الى عقد معاهدة ٢٦ آب أغسطس ١٩٣٦ م (٢) التي شابهت المعاهدة العراقية نوعاً ما و دخلت بموجبها مصر عصبة الأمم دولة مستقلة . . . وسمها النحاس - عفا الله عنه - وثيقة الشرف والاستقلال! .. بالرغم من معارضة الحزب الوطني لها الذي اعتبرها غير شرعية! .. وقد رغب ومهاشبان الوفدي الى الامام صادق الرافعي أن يؤلف للحياة الاستقلالية الجديدة نشيداً فكان نشيده العظيم الذي عرف بـ « النشيد القومي » :

حمية الحمى يا حمية الحمى هلموا هلموا نجد الزمن  
لقد صرخت في العروق الدما أموت أموت ويحيا الوطن  
والذي سبق النشيد الفائز بالجائزة الاولى شهرة وذوبوا لما اتصف فيه من  
الثورة والقومية بحيث استهلت الثورة العظيمة (٢٣ يوليو ١٩٥٢ م) عهدها بأعماله  
ثانية على المدارس والنوادي .. على ما سوف نفضله في مكانه

\* \* \*

.. وعلى هذه الحالة السياسية التي مرت بنا من الحماية والاحتلال والنفوذ ، الى الثورة والمقاومة ، والاستقلال واشكاله السورية والافليمية ، كانت خارطة الوطن العربي تلون ما بين الحريين العالميتين .

وقد أعادت الحرب الثانية ، التي اندلعت في خريف ١٩٣٩ م الكثير من هاتيك الصور ، بما أعقبها من مآسي وفواجع دونها مآسي وفواجع الحرب الأولى .. والتي ما زالت مستمرة إلى اليوم ! ..

---

(١) الرافعي - في اعقاب الثورة ج٢ ص ٢١٧

(٢) الوثائق والمعاهدات - اصدار الايام الدمشقية ص ٤٠٩

وكانت ايام العرب فيها توزع بين الامة واملهم ، . . حتى كانت ذبول  
المساة التي احدثت بخناقهم وحركتهم القومية ، في قيام دولة اليهود في فلسطين . . يوم  
اخذت بريطانيا وحلفائها سلسلة حلقاتها في استعمار الوطن العربي بما اقدمت عليه  
من انسحاب مبيت ليلة ١٥ أيار - مايو ١٩٤٨ م ، . . لتبدأ فصلاً جديداً في  
المساة القومية للامة العربية ، . . التي يعاني منها مليون فلسطيني يعيشون لاجئين  
بعدان سلمتهم « الأمم المتحدة » « ومبادئ حقوق الانسان » « وتقرير المصير »  
وطنهم الذي سكنوه عشرات المئات من السنين ! . .

.. ينظر هؤلاء . . وينظر وراءهم مئة مليون عربي ، وبضع مئتين من  
ملايين المسلمين . . انفجار الثورة الفلسطينية التي تستعيد الوطن الحق من برائن  
« الأمم المتحدة » وشرعتها ومبادئها ! . . !

على ان قيام الحياة القومية في السياسة العربية ، عقب تحول الانقلاب  
العسكري في مصر عام ١٩٥٢ م الى حركة ثورية أعادت وادي النيل الى الحضيرة  
العربية ، . . بعد ذلك الاضطراب السياسي والاقليمي ، . . قد أثار بوادر  
العروبة من جديد في اجتماع اعتقادي وليد عرف بالقومية العربية بين الأنحاء  
العالمية ، . . وهي تمتد في أنحاء الوطن العربي تستخلصه لنفسها من برائن الاحتلال  
والتبعية ، وصور الاستعمار ، وذبول المعاهدات والمواثيق ، - وأنواء التجزئة  
والاقليمية ، وأخلاق الحزبية ، وأوضاع الانحراف ، وأفضاع الشعوبية ، والوان  
السياسات المتهرثة ، لتمضي به نحو الوحدة والاستقلال على آمال من الحرية  
والاشتراكية ومبادئ من العقيدة والنظام ، تعيد بديان الكيان الاجتماعي للعرب  
من جديد ، . . ليوذي دوره في الحياة ، وبلغ رسالته للعالمين .

وأرى ان مشابهة ما تقوم الآن بين خطوات الثورة العربية المعاصرة ، وبين  
احلام الرافعي ، ولا سيما في قيام الجمهورية العربية ، تلك التي تحدث عنها بقوله :  
﴿ . . . وما أراها إلا استنهض في مصر وسورية نهضة من يستجمع ، وربما  
شهد الناس دهراً يصلح أن يسمى فيه ما بين العراق والأطلسنطق « جمهورية اللغة  
العربية » وما هو بعيد ، والله غالب على أمره ﴾ (\*)  
علي ان هذه النهضة ، وذلك الاستجماع ، وصلاح الدهر ، هي الشغل الشاغل  
لضمير الأمة وللحركة القومية العربية وبحرانيها الفكري في دنياها القائمة اليوم . .

---

(٥) الرافعي - الهلال - شباط - فبراير ١٩٢٠ م ٤٠٠ ص - وقد يعجب  
المرء كيف تجري لفظة الجمهورية على لسانه ، ومصر والافطار العربية الأخرى ،  
تتأرجح يومها بين الولاية والسلطنة وأحلام الممالك !

## الفصل الثاني

### البيئة الاجتماعية

كانت الأمة العربية قد عانت الأمرين من التسلسل الأجنبي والنفوذ الشعبي ، . . . ولاقت من صروف الأحن وتوالي المحن ، ما لو ابتليت به أمة لاندثرت في زوايا التاريخ ، ولأصابها من الإهمال ما ينسبها وجودها ، ويجعلها بخبر كل . . . ! ولكنّها بقيت خالدة على الحدّثان كأن في وجودها معجزة ربانية . . .

فقد اندم اللون الفارسي في الحياة العباسية حتى كاد يطغى على مظاهر الحياة العامة للناس ، ثم لحقت الشكل التركي بصورة من الفروسية أولا والتسلط من ثم ، . . . مما أدى في النهاية الى ضياع كثير من صفات الحكيم العربي ، بسين نفوذ دولات البويهيين والصفويين والسلاجقة والغزنويين والعباسيين ( الفاطميين ) والمماليك بأطوارهم حتى العصر الأخير .

وكان استسلام الامة للحكم العثماني كالمحصلة لتلك العهود التي سلفت فانحدرت

بها الى ما انتهت اليه من خضوع وضياع ا

ولكن كان من فضائل هذا العهد العثماني إعادة جمع الامة في وحدة يقبض

عليها السلطان ، وتهيمن عليها القوة العسكرية ، ذلك ان دولة نبي عمان نفسها

قامت بالاعتبار الحربي ، وما برحت عنها هذه الصفة تعتمد لتصفية الاوضاع التي

قطعت اقطار الاسلام وأوصال الوطن بحكم الطوائف (١) .

على ان الازمة لجوانب الحياة الاجتماعية الاخرى للامة ، قد أدى الى

ضعف النظام الحيوي لهاتيك الجوانب ، وأذى الاقتصاد القومي ، وأضر بموارد

العيش ، وأرکس البلاد في مضاعفات من التخلف والبدد وفقدان الرخاء ، .

فقد كان هم الدولة العثمانية الأول في الحفاظ على مظاهر الصورة العسكرية ، وعدم

الانتقاص من القوة الضاربة ، بل ترك الناس وشؤونهم يدبرونها بأنفسهم (٢)

وفي سبيل تهيشة الموارد للجند ، وعمون الجيوش راحت تضارب في

الاقتصاد والتجارة ، وتجازف بأنواع الزراعة التي هي عماد حياة الامة في ذلك

الحين (٣) ، وتهمل الصناعة ، او تنصرف عنها ! حتى لجأت الى قبول انظمة

الإقطاع ، غاضة النظر عن اسوائها ، فهي تجزئ الاراضي المنزوعة من اهليها ،

(١) محمد رشيد رضا - الوحدة العربية - المنار ج ٦ - م ٣ - المحرم

١٣١٨ هـ وما بعده .

(٢) عمر الدسوقي - محمود سامي البارودي - ص ١٩ .

(٣) راجع عبد الرزاق الهلالي - قصة الارض في العراق والشام - العربي .

٦٧ ، ٦٨ . وكذلك عبد الرزاق الظاهر - الإقطاع والديون في العراق -



او الاميربة - منحهم باللازمة بالوف الاقدنة لرؤساء العشائر كما في العراق  
والشام (١) او تطلق فيها اليد لقواد الجيش من الضباط الاثراك او المماليك في  
حق التصرف (٢) ، ولكن من الناحية الثانية فقد تمكنت الدولة من مسح جميع  
الديار والأمصار بهذه الوسيلة (٣) .  
وقد كان من نتائج هذا ان توزعت صفوف الامة في طبقات واضحية  
تبدد الطاقات وضيع العبقريات وإفلات فرص التكافؤ . . . اشبه بالمسلمات  
الاجتماعية في تلك البيئة . ومما زاد في تلك الحال سوء اعتماد الاقطاعيين للارض  
واعتمادها « ممالك » لهم تتداول فيما بينهم بالهبة والشراء . . . فيها من ثروة  
حيوانية او طاقة بشرية . . .  
بما أدى من ثم الى تفاوت اجتماعي خطير بين صفوف الامة وطبقاتها  
ولم تعد هناك قيم عامة للانسان . . . وإنما تتحدد هذه القيم تبعاً للطبقة التي  
ينتمي اليها الفرد . . .  
فكانت مصر في عهد محمد علي وأولاده « مزرعة كبيرة خاصة بهم  
وبحواشيهم يديرها مشرفون من قبلهم يسمونهم « للمتزمين » يجبون لهم خيرات  
البلاد ويرهبون الفلاحين بالطلبات يأخذونهم بالقسوة والعمف حتى يحصلوا  
منهم على ما التزموا به . . . ويوفروا لأنفسهم أيضاً رغيد العيش (٤) .

(١) نفس المصدر السابق . ٨٢ ، ٧٤ .

(٢) محمد صبيح - قصة الارض في الاقليم المصري - .

(٣) عمر الدسوقي - البارودي ، ص ١٩٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧ .

والسكي يؤمن شر خروج العشائر على طاعة الوالي او السلطان في الشام  
والعراق كانت يد الشيوخ « السراكيل » والوكلاء . . . تمتد حتى الى اموال  
الفلاحين الخاصة (١) .

« وكانت الضرائب كثيرة تتجدد على الدوام وغرامات تفرض  
بغير نظام حتى بلغت حداً لا يستطيع معها الاهالي الاداء لشيء مما يفرض  
عليهم ! . . . ولم يكن هناك وقت معين لها ولا قاعدة وإنما هي على حسب  
اشتهاء الحاكم فتارة يجبرون على أداء أموال السنة كلها واخرى يطلبون  
فيها بضرائب السنة القادمة في منتصف الحاليه ولا يمحيص لهم عن الأداء ! ومن  
تأخر . . . عوقب بالحبس والضرب او انزع منه المال فهراً الى آخر ذلك من المعاملة  
الخشنة القاسية » (٢)

ومما يزيد ذلك سوء أن هذه الضرائب كانت تعطى بالزئمة ايضاً ،  
الموظفين الاداريين وكان الفلاح من جراء هذه الاجراءات التعسفية والبطش  
والجبروت - بين حالين أحلاهما مرّ فهو إما ان يلجأ الى من يقرضه بالربا  
الفاحش إذا آثر الاحتفاظ بأرضه وسرعان ما تنزع منه إجراءاً وتنفيذاً  
لعثور المراهبة وإما أن يتركها ناجياً بنفسه (٣) وقد تبع ذلك ظهور فئات من  
المرايين اليهود والنصارى من الاجانب الذين مكنتهم الحماية والاحتلال من رقاب

(١) عبد الرزاق الهلالي - العربي ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) محمد عبده - تاريخ الامام - ج ٢ ص ٧٤ - اخرجہ الشيخ محمد رشيد

رضا ، وهي من مقالة نشرت في الوقائع المصرية تصف حال مصر عام ١٨٨٠م

(٣)

الناس حتى غدت كلمة « خواجا » عند الفلاح كالبيع الذي يخيف الاطفال . . .  
وفي ذلك يقول الرافي في نشيده الذي وضعه على لسان الفلاحة :

إياك أن تذكر لي « الخواجا » فقد رأيت جارنا « المحتاجا »  
راح إليه ماله . . . وماجا وباع حتى البسط والدجاجا

\* \* \*

إياك والرهن على الغيطان فتنزل الدود على الاقطان  
وتفتح الابواب للشيطان وتجعل الهدم على حيطاني (١)

\* \* \*

وهكذا حتى اضحت فئات قليلة تستأثر بالثراء الفاحش وبحبوحه  
العيش وتسرف في اللذات وتسكن التصور وتزوج بالاجنبيات وتنظر الى  
السواد الاعظم من ابناء الامة نظرة السيد الى العبيد فلا تختلط بهم ولا تزاحمهم  
ولا تعمل لهم إلا بمقدار ما يهيء لها دوام الرفاهة (٢) كما أن اغاب هؤلاء  
السراة في هذه الغثات كانوا من غير العرب !

أما سواد الامة فلمتلمعون . . . منهم - وهم قلة قليلة - يمثلون العنصر الصالح  
في المجتمع وكانت تغلب عليهم المحافظة على التقاليد والالتزام بالقيم والامثال  
لاوامر الدين الحنيف . . . وهم الذين غدوا من ثم عماد الحركات القومية والوطنية  
وعدة الامة في حماها (٣) .

(١) الرافي - النظرات ج ١ ص ٦٩ .

(٢) مجل عطا - خمسين مطرات ص ١٦ .

(٣) عمر الدسوقي - البارودي ص ٣١ .

وأما غير المتعلمين - وهم الغالبية العظمى من أبناء الامه في الارياف والمدن يعينهم في ذلك كثرة ما اوقفه المحسنون لذلك من العقار والاملاك والموارد الاخرى .. وذبوع لون من التكافل الاجتماعي تعارف عليه الناس فيما بينهم فيه المعونة والنصيحة والمصاراة وجبر الخواطر .. وكذلك ما انشىء من تكايا وربط وزوايا تؤوي اليها الفقراء والمساكين وأبناء السبيل .. ولكنها من ناحية اخرى اضرحت بيئة صالحة لان يصبح الايمان بالكرامات والخوارق يقوم مقام الدين والعلم (١) .. بسبب من عسر تلك الايام وضمن البيئة الاجتماعية بمستوى العيش الكريم على الناس .

كما أوقفهم سوء الحكم والجهل والنرض فرائس بيد المحتالين والمشعوذين والمرابين من الاجانب (٢) كما ألقى في روعهم الابتعاد عن وسائل التغيير على انماط الحياة نفسها .

فوظائف الدولة مثلاً فلما كان يحظى بها احد من العرب (٣) لانها كانت نهياً مقسماً بين الترك وأبناء المالمك ، ولا سيما الوظائف العليا ..

والتخلف في المحاولات الزراعية ، وفي المضمار العلمي لتطوير وسائلها الحديثة او تصنيعها .. خلق نوعاً من التقاليد الاجتماعية البالية ، التي تأتي الانسلاخ او التبديل ، وحول الحياة نفسها الى حال من الجمود ، ادى الى التمزق

(١) عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار ج ١ ص ١١٣ .

(٢) احمد حسن الزيات - في اصول الادب ص ٤٣ .

(٣) محمد رشيد رضا - الوحدة العربية - المنار ، محرم ١٣١٨ هـ .

في صفوف الامة ، وتفاوت طبقاتها بشكل لا يرتقه او يجمعه غير لون من الاحسان والصدقات العابر ، التي لا تنسى الفضل (١) .

تقوم الحرب في اقصى الشرق بين الروس واليابانيين عام ١٩٠٣ م فلا تترك الشرق العربي يفلت من ويلاتهما ، حتى تعطل فيه التجارة ، وتشيع البطالة ، وتغلو في الاسعار ، وتكاد تجتاحه بالمجاعة ! .

ويظهر الطاعون في بورسعيد عام ١٨٩٩ م وينتقل الى الاسكندرية ، .. وينفذ الى البصرة في الخليج ! فلا ينقد الناس غير رحمة ربك ! وتحتاج الهبيضة البلاد طويلاً وعرضاً ما بين العراق والشام ومصر .. فلا نجد من يقف امامها في مكافحة او إقناء .. حتى تضع حرب الاوبئة أوزارها بنفسها .

والى ذلك يشير شوقي بقوله :

ذافت نواك وروعت بثلاثة بالدار بعد المحل بعد النار  
وأراد بالدار ذلك الحريق الذي شب في ميت غمر ونظم في تجيئته العظيمة  
أكثر الشعراء حتى قال الراجزي :

أنتهم وراء النار كل تجيئة تسوق لهم في « ميت غمر » جهنما  
إذا عصفت شددت مع الناس شدة فلم تبق بين البائسين منعا .. الخ  
وتنقل جنود الاحتلال - المختلطة من جميع الاجناس الافريقية والاوربية والآسيوية - من الأوبئة الاخرى ما تقدمه للفقر والجهل الذي يضرب بأطنابه - شر ما يحتاجان اليه من ثلثهما ! ..

---

(١) الراجزي - الإحسان الاجتماعي - المقتطف ، ايلول ١٩١٤ م

كل اولئك وكثير غيره من الانواء أوجد الوائناً من التعاسة ، وضروبا  
من هوان العيش التفت اليها العربي الحديث فسمها إنسانياً ، وقلما كان يطررها او  
يلتفت اليها من قبل (١) .

وفي قصيدة الرافي في « اطفال الشوارع » نبوءة تحذر ، وحقيقة تقرر  
في مثل قوله :

إنما شرذمة السلامة والامن      صغار رُبُوا على التشريد  
ما رأى الحق في الأبالس قوماً      كصغارٍ غدوا كبار الحمود ..  
الى أن يقول :

فانقوها من فتنة سوف تدوي      ببروق من جهلهم ورعود  
فتنة تهدم الفضيلة والايما      ن بالشر ماحقاً والجود  
و كأنه ينظر في لوح الغيب فيما لقيته الحياة العربية من ثم بالانقلابات  
السياسية والحزبية !!

وإننا لنجد ان ثلث أدب الرافي - على الأقل كانت مادته من صور  
ومخالفات وأسواء هائيك البيئة الاجتماعية ، .. التي أجمل صورتها بمثل قوله:  
صغارٌ وأدباء ربؤس وقد أتى      لشقوتنا هذا الغلاء يتمم (٢)  
وعسى ان نفي ذلك حقه في الفصل الذي عقدناه للموضوعية المحدثه في  
أدب الرافي .

فلا عجب ان نرى بعد ذلك كله سقوط هيبة المسلمين من عيون اعدائهم ، ..

(١) محمد لطفي جمعة - الانسانية في الادب - الكتاب ج ١ م ٣ .

(٢) الرافي - الديوان - ج ٢ ص ١٩ .

تلك الهيمية التي أخذوا صورتها معهم عبر التاريخ ، من لندن الفتح العربي المبين ، حتى الثباتة القومية الباسلة بوجه الغزاة الصليبيين التي دامت زهاء قرنين من الزمان ! . . .

فقد عادت أوربة تفكر في استعمال البحر المتوسط من جديد (١) وفي سبيل ذلك زعمت لنفسها تعة أن تنتقل بالشرق العربي - الاسلامي من عصر مظلم الى عصر إحياء ونهضة ، وتملكها الغرور ، وأخذتها العزة بالاثم والكبرياء ، . . . فركبت لذلك رأس العناد ومتن الشطط تؤثر ان تستبق بنفسها الى ذلك وباستعمال وسائل الاستعمار الحديثة بما فيها القوة الغاشمة (٢) .

ولعل من أوائل من سوغوا لأنفسهم مثل ذلك التدبير بعض حملات التبشير ، والمحافل الماسونية ، التي كانت تنتشر في الاقاليم لثلق المتعلمين فتقتل فيهم مواهب التفكير المنتج وبارق اللمعية والتوفيق ، . . . ممهدة ومظاهرة من ثم لجملة نابليون العسكرية على مصر وديار الشام بعد ان منحتة معطيات « الثورة الفرنسية » مسوغات التدخل والاحتلال والاستعمار بالمنطق التبشيري - الماسوني نفسه ! . . .

ومن ذلك ايضاً ، وبالخطوات إياها تلك « الأقدام » التنصليية والتجارية الفرنسية في لبنان ، والانجليزية في بغداد والبصرة والاسكندرية (٣) .

(١) أحمد عبد الكريم - تاريخ التعاليم في مصر ص ٣٤ .

(٢) أحمد حسن الزيات - الرسالة ٣٥١ ، وانظر عمر فروخ ومصطفى

الخالدي - التبشير والاستعمار - ص ١٩١ وما بعدها .

(٣) عمر فروخ ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار - ص ١٣٢ .

ولكن هذه الاجراءات والمحاولات للتدخل في شؤون الشرق الاسلامي قد  
أيقظت من الناحية الاخرى روح المقاومة الداخلية (٧) وأثارت المناقشات الحادة  
بين الدول الاوربية نفسها ومحافلها وكنائسها (٢) حتى ليجازف كثير من  
المؤرخين في إرجاع ذلك الى جلبة الحملة الفرنسية ، التي هزت الشرق ،  
بما وضعت فيه من آثارها الثقافية ، والنزعات الثورية القومية . وقد فوّجت عبون  
الامة عليها - وهي تحفل بالحياة وتهيم بها النفوس (٣) .

وهنا أدرك الحكم العثماني أن لا بد من التخطيط لسياسة إصلاحية تنتقل  
بالديار الاسلامية من الخراب والتخلف ، الى ما يبدنو بها من العصر والحضارة  
العمرائية الجديدة .

وقد حاول بعض السلاطين ، ولا سيما بعد محاولات الدول الأوربية  
التدخل بشؤون الدولة العثمانية الداخلية عند معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م .

كما نفذ بعض الولاة مشروعات في الاصلاح ، كالذي قام به مدحت باشا  
في العراق والشام ، وكذلك ما اقدم عليه محمد علي ومن أتى بعده في مصر .  
وكذلك محاولة أحمد جمال باشا في رسم خطة لبناء دولة حديثة في الشام والعراق

- 
- (١) عبد الرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية - مذكراتي ص ٦٧ .  
(٢) الوثائق والمعاهدات ص ٥٥ .  
(٣) اسحق موسى الحسيني - محاضرات الموسم الثقافي في الكويت -  
ص ٢١٠ وما بعدها .



## قبيل وأثناء الحرب الأولى (١)

وقد كان في ارتقاء السلطات عبد الحميد الثاني عرش الخلافة الإسلامية فاتحة عهد جديد يدرك العصر ، ويهيم بالحياة العمرانية والمحاولات الإصلاحية ، التي تجدد شباب الدولة ، وتعيد « للرجل المريض » ماضي قوته .  
وكان عبد الحميد - عفا الله عنه - قد رأى في الشكليات « الديمقراطية » كالمعوقات ، واعتد بنفسه ثقة ومخاطرة ، فذف الدستور الذي أعلنه بعد سنتين من تشريعه - ١٨٧٨ م ، وسعى بثبات وعزيمة الى دراسة موضوعية لبرامج إصلاحية شاملة ، لا تقف عند قطر ، واستعان بخبرات مهندسين وعلماء أجنبية ، واعتمد قوته المعنوية في دفع هذه الحركة الى هذا السبيل .

ولعل كثيراً من المشروعات العمرارية الضخمة التي قامت في الوطن العربي ، وتقوم بها القوى الثورية اليوم ... كانت خطوطها الأولى قد انتظمت في أيامه .. بما فيها مشروعات السدود والقنوات ، وطرق المواصلات البرية ، ومنها ما لا يزال فكراً حتى الآن .. كمشروع الخط الحديدي ما بين العقبة والبصرة ، والقناة الموازية له حتى جنوب العراق (٢) .

وربما كان يمكن أن تغدو هذه البرامج منطلقات إصلاحية جذرية - وفي أسرع مما تمت به حتى أيامنا الحاضرة - لو مد الله في حياة الدولة العثمانية ، ولم تجهز الدول الاستعمارية عليها بالانقلاب والحرب ثم التجزئة والتزيق! في الاحتمال ، والحماية ، أو التبعية والمخالفة ! . .

(١) أنظر الوثائق والمعاهدات ص ١٧ .

(٢) محمد رشيد رضا - المذاق - شوال ١٣١٥ هـ وكذلك رمضان ١٣٢٢ هـ

وذلك أن مثل هذه الدراسات المهمة ، وما تكشفته عنه من معلومات فريدة ونادرة ، . زادت في سعار الاستعمار ، ونهت أساطينه الى خطورة تنفيذها وعودة الحياة الثابتة الى الشرق العربي التي تفوت عليه مآربه ، . . فعمد الى محاولاته بغذ السير في أشواطه اليها على الشكل الذي أوجزنا فيه الذكر عند كلامنا عن الحالة السياسية .

ولقد كان لتمهيد الأرساليات التبشيرية أثر واضح و متميز في تطوير مظاهر البيئة الاجتماعية في مختلف الاقطار والمحيط الذي تنشأ فيه بخاصة . إذ تمكنت من طبعه بطوابع جديدة ، . . كما كان للبعوث التي أرسلت الى الاقطار الاوربية - وفرنسا بالذات - الأثر الاوضح في هذا النضار .

ومن بين آثار هذه وهاتيك كانت تمتد محاولات الدول النصرانية في المزيد من طلبات الحماية للنصارى في الدولة العثمانية ، والتمكين لارساليات التبشير الأرثوذكسية - الروسية ، واليسوعية - الفرنسية والبروتستانتية الامريكانية والانجليكانية ، . . ثم افنعال الأزمات فيما بينها ، مضايقة الدولة في التحكم فيما كان يشجر بينها ! . . (١)

ولم يكن بعض الولاة العثمانيين - في الديار الشامية بخاصة - حيث تكثر هذه الارساليات - يحسنون التصرف ، فقد كان يعوزهم النضج السياسي ، واللباقة في تناول مثل هذه الامور ذات الحساسية الحادة ! . . إذ أنهم قابلوا

(١) أنظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي في - التبشير والاستعمار - .

مثل هذا الاندساس الصليبي والمضايقة الغزوية بأبغار صدور المسلمين من الدروز ،  
فأثاروا حفاظهم فحفوا الى السلاح بعمولونه في رقاب النصارى ( جواسيس فرنسا  
والدول الكافرة ) (١) غير مرة ، . . وكان من أثر ذلك أن عمده النصارى  
بعامه الى تسليم أنفسهم ، نشداناً للتأر . . وأثاروها ففتنة عمياء سنة ١٨٦٠ م  
- بتوقيت خاص - امتد لهيها الى داخل سورية حتى لم تعد تفرق بين مسلمين  
ونصارى بل تطحن كل من كان أمامها (٢) .

ومما يؤسف له حقاً أن الدولة العلية لم تعد تدرك يومها مدى تصرف  
ولاتها هناك ، وما استطاعت أن تكبح جماح تهورهم الأحمق ، او تحاسبهم على  
تقصيرهم في حقوق أبناء الامة من الرعية . حتى دق قناصل فرنسا وروسيا الباب  
العالي نفسه مهددين بالتدخل المـلـح ومشرطين الشروط ! . .

وقد تمكنت موافقهم وتهديداتهم أن تسفر عن مثل نظام المتصرفية  
يفرض على لبنان لينكش في حدوده ببيروت ما بين الجبل والبحر . فلا شعر  
ولا سهل . وإنما تمتد المحاولة لتقصر صفة المحافظ نفسها على نصراوية متفرسة (٣) .  
وكان من أثر ذلك سوء الحياء ونكسك العيش وقسوة لواقع الاليم  
ونزوح السكان الى المدن : السواحل ثم هجرة الكثيرين منهم الى وادي النيل  
وأفريقية الغربية والى ما وراء البحار في الأصفاع الامريكية بحثاً عن مجالي  
الحياة ومصادر الرزق (٤) .

- (١) أنظر احمد جمال ( السفاح ) في مقدمة مذكراته .
- (٢) عبد العزيز الرفاعي - في أصول الوعي القومي ص ٥٧ .
- (٣) أمجد الطرابلسي - شعراء العروبة في الشام ص ٦ .
- (٤) جورج غريب - الهجرة وأسبابها - الأديب ، ايلول ، سبتمبر ١٩٤٩ هـ

وكانت مصر - حيث الجوار واللغة ووحدة العادات والتقاليد والقرب  
والعرفه بشؤون الحياة كاتي أهابت بأهل السعي من أولئك الى حيث الأمن  
والسعة والرخاء (١) .

وقد لقي حملة الافلام من النازحين - بخاصة - أهلاً وإخواناً لهم في وادي  
البيبل . فشاركوا في الوظائف والحياة العامة وصهرتهم المصرية حتى عاشوا  
أوفياء لها تخالج قلوبهم آمالها وآلامها وكان لهم في الصحابة والأدب شأن جليل -  
ولا عبرة بالشواذ (٢) .

وقد التفت الرافي الى ذلك فقل في « خيانة الوطن » وما هي عليه  
أخلاق الخونة وذمهم وما تنطوي عليه ضمائرهم من خواء :

يا من يخون الوان المفتدي يطلب أن يغنى وأن يغنا  
لو وازنوا الارض وأموالها بذمة ما بلغت درهمها

---

(١) أسعد طلّس - مصر والشام في الغابر والحاضر ص ٨ وما بعدها .  
(٢) عادل الغضبان - نجيب الحداد ص ٩ - ومن أولئك الشواذ أصحاب  
بعض الصحف التي كانت السنة للمحتلين الانجليز والطامعين الفرنسيين ،  
والغزويين الامريكان - كأصحاب الاهرام والمقطم والمقتطف وسواها .  
وقد حدثني الشيخ محمود محمد شاكر عن بعض هؤلاء « الشواذ » وكيف  
كانوا عيوناً للانجليز على الثوار المصريين والقوميين العرب من أبناء جلدتهم عام  
١٩١٩ م . ووصف لي حادثة بعينها يوم اقتحم جنود الاحتلال أحد المتاجر  
المقفلة - في ميدان ابراهيم باشا - على بعض المجاهدين ، فقتلوهم هناك جميعاً  
نتيجة دسيمة دنيئة من أولئك « الشوام » الشواذ ! ..

أول من يزري على خائن من يرغب الخائن ان يكرما  
ومن ير المظلوم يرجو هنا ظالمه . . فاعتده أظلمها  
كصاحب الشاء سطا الذئب في قطيعه بفيته ان يطعمها  
فجاءه ينصحه مخلصاً أن يطبخ الشاة لسكي تهضما !  
كما انتظم الحركة الوطنية في مصر زعماء من أبنائهم ولادوا فيها . . وفي  
مقدمتهم زين الشباب أمين الرافي وعبد الرحمن الرافي مؤرخ الحركة القومية  
الحديثة في مصر (١) .

كما رفع راية الاعتقادية القومية فيها أديننا العظيم مصطفى صادق الرافي  
ليجعل من مصر منطلقاً عربياً جديداً ، و مناراً إسلامياً تعشو اليه الأمة من شتى  
أقطارها .

ذلك أن السفر الى أرض الكنانة والسكن فيها لم تقتصر على النصارى  
فحسب ، بل شمل الكثيرين من أبناء الديار الشامية من المسلمين ، منهم من ينشد  
التجارة كالحليين والخليليين ، ومنهم من يطلب العلم في معاهد الأزهر الشريف  
كالرافعيين ، . . ومنهم من ينال الخطوة والجاه والسلطان ، . .

على أن منهم أيضاً من كان يفر بحريته من اضطهاد الولاة العثمانيين له  
ولأفكاره كالحكيم عبد الرحمن الكواكبي والشيخ عبد الحميد الزهراوي ، ومحمد  
كرد علي وعشرات آخرين غيرهم ، . . يلتمسون الدعة والأمن في القطر المصري  
الذي يتمتع بشيء من الاستقلال الداخلي عن الدولة العثمانية ، . . زادت الأيام  
من ثم بصيغة الاحتلال والحماية الفرنسية فالبريطانية . .

(١) لاحظ فصل الرافعيين الآتي .

في هذه البيئة غير المتجانسة إجتماعياً كان لعاب الاستعمار يسيل لامتلاك أجزاء من الدولة العثمانية المترامية الأطراف ، وبسط نفوذ الدول الأوروبية عليها او اقتطاع بعضها ، .. فكان ما كان من التسلسل والاحتلال ونكبة البلاد بالأرزاء الأخرى ! ..

ومن ناحية ثانية فقد سعى المحتلون أنفسهم للقيام ببعض مظاهر الإصلاح على ما تمليه عليهم فكرة الاستعمار نفسها ، ولو بأعادة هيبة الحكم بالبطش .. لـصرف أبناء الأمة عن المقاومة ، التي كانت بسالتها تقض المضاجع منهم ، وتزيد من إحتياطاتهم أمام الحركة الوطنية .

ومن ذلك يقول « كرومر » في كتابه « مصر الحديثة » :

« لقد سرت روح جديدة الى سكان مصر : وتعلم الفلاح كيف يمعن النظر في حقوقه . وأدرك « الباشا » المالك أن لمن يجاوره من الفلاحين حقوقاً يجب احترامها . . حتى المدير ( المحافظ ) لم يعد يجرؤ على استعمال السوط المعلق فوق رأسه ، والذي كان يلهب به ظهور الفلاحين ! ..

وكادت تختفي السخرة المجانية وذهب الرق من الوجود : وانقضى اجل المرابين .. كذا .. وأصبح للقانون كلمة بعد أن كان القضاء يباع ويشترى ، .. كما أحكم توزيع المياه .. حتى عاد المصريون يحبون أرضهم بعد أن كانت مجلبة لنكدهم وضياعهم .. الخ (١) .

(١) عمر الدسوقي - عن كرومر - مصر الحديثة .

Eral - Cromer - Modern Egypt Vol - 11 - PP - 55 - 75 .

وكان قد افتتح سد اسوان على عهد الخديو عباس في ١٠ كانون الأول -

ديسمبر ١٩٠٣ م -

وقد أراد المحتل بذلك وسواه أن يتوحد للشعب ويظهر له أن الاستعمار  
رحمة للناس تخلصهم من ولائهم المستبدين وأوضاعهم المتخلفة وحياتهم النكدية .  
وزاد في ذلك أن سعى الى نقل مظاهر الحياة الجديدة في أوربة بغري  
بها أبناء الأمة العربية ليتطلعوا إليها ! فيأخذوا عنها .. فيستطيع بذلك أن  
يصرف طموحهم نفسه اليه من ثم ! ..

ولكن كان من الناحية الأخرى أن شاع إقتباس هاتيك المظاهر وتعلق  
الكثير بصور الاجتماع الأوربي وعاداته وتقاليده الوافدة .. وكان لما تنقله  
« الأوبرا » والأجواق التمثيلية والغنائية من صور الحياة في العالم الغربي أثره في  
نفوس الناس بعامه أمام مثل هذه الفنون .

على أن هذا التطلع لم يقف عند الأخذ والاستعارة بل سرى في جوانب  
الحياة الأخرى بمظاهر برافة ، وألوان حضارية جديدة ، وأنوار مدينة متألفة .  
فقد « غرقت البلاد في موجة من التفرنج امتدت الى أصول الأخلاق  
والتقاليد ، فعصفت بها ، حتى غدت المقامرة والرشوة والمجاجة والمضاربة بالمال  
- وسواها من الأدواء الأوربية - مستحكمة تنفث بسمومها في شرايين المجتمع .  
وعاد التقليد في المأكل والملبس ، وفنون البناء والتظرف ، والأخذ من  
الحياة الأوربية ما يصلح وما لا يصلح مفتونين بكل جديد . حتى العارات راحت  
تخترق السحاب بعيداً عن الدور والقصور وفنون العارة العربية الجميلة (١) .  
وتراخى ميل المحافظة على التقاليد ، .. وكان من أثر فتح النوادي  
المقاصف ، والألعاب الرياضية وسواها أن امتدت موجة أخرى من التقليد

---

(١) عادل الغضبان - نجيب الحداد ص ١٤ والمختارات .

تصيب اللغة العربية ، يخلط فيها مرتادو هذه النوادي ألقاظاً من اللغات الفرنجيات  
تظرفاً وتأتقاً ، ومحاولة لوك الكلام بلهجات خاصة لا تخلو من لوثة وميوعة إن  
خلت من التخثث والرقاعة والفساد .

فلا عجب أن يرى بعضاً من الأدباء يتصدى لهذه الظاهرة ، وينظر الى  
مثل هذا التغيير بغير قليل من الاشمئزاز والامتعاض ! فنجد نجيب الحداد مثلاً  
يخاطب فتي العصر بقوله :

بالله قل لي يا « فتي العصر » ماذا تركت لربة الحذر؟! (١)  
ولا يرى أمين ناصر الدين الرقي في الخلال الطيبة التي تجري مع الفطرة  
الاسلامية والروح العربية فيقول :

تسمونه عصر الرقي وما ارتقى سوى الشرّفة .. لا الخلال الاطياب  
ويستفهم محمد رضا الشلبي مستنكراً بقوله :

خداع وكذب واقتراف وقسوة وظلم .. أهذا العالم المتمدن؟!  
أما أستأذننا الرافعي فلا يرى الشرقي قد أخذ من التمدن العلمي شيئاً ،  
وبما سلك اليه سبيل التقليد الرقيع في « التمدن الانثوي » . وهو مصطلح ساخر  
حاول فيه نعت العادات المسهجة في التطرف في الأزياء والرقص والسباحة وما  
إليها ، فقال عن شبان الجيل :

تمدن وتمدن ما رأينا رذائل تشتري نقداً وديننا  
وأخلاق بها ضحكت علينا لدن ذكرت تمدنتنا الأنام .. (٢)

(١) عادل الغضبان - نجيب الحداد - المختارات .

(٢) الرافعي - النظرات ج ١ ص ٤٣ .



ثم يعود اليهم في قصيدة أخرى عن «التخث» يقول فيها:

أفي الشبان قد مسخ الشباب؟ أم الدنيا اعتراها الانقلاب؟  
رأيت لبعضهم أمراً عجائباً وليس كمثل له أمر عجاب  
يسيل «تخثاً» وينوب لطفاً فهل في أرضنا رجل مذاب؟  
وفيه من الذكورة نوع حسن تم به أنوثتها الكعاب  
وهمة الثياب فليس يمشي إذا ما سار بل نمشي الثياب  
ترام تابهين لكل أثنى وبين الشبه والشبه انجذاب (١)  
ولا عجب أن نراه بعد ذلك يدرك نقص التمدن الحديث، فيقول من

قصيدة:

مضى زمن كانت به حاجة الوري لبعث بني في يديه الرسائل  
وذا زمن مسّت به حاجة الوري لبعث في هذا التمدن فاضل .. الخ  
ومن هنا ندرك مثل الموقف المتزن الذي يقفه الرافي من الحضارة والمدنية  
الجديدة، فلا يرى لها نقصاً إلا من ناحية «الفضيلة».

ولعل في المقدمة البليغة التي كتبها لرسالة الأديبة الفاضلة (الزهرة) في

«الدخينة» والتي يقول فيها:

أبها الشباب إنما الحياة هي القوة على الحياة، وليس من شيء يعينكم على  
تهاويل هذا الزمن العصبي إلا قوة الأعصاب، فاحفظوها سليمة باقية على قانونها  
الطبيعي، وجنبوها المسكرات والتجدرات والمدخنات، .. واعتبروا هذه الرذائل  
في صورها الحية .. فأنكم لن تجدوا في أهلها إلا العبودية لعادة الضارة المستحكمة،

(١) الرافي - التخث - الحال - ١٠ تموز / يوليو ١٩١٩ م .

وأنتم تريدون القوة الغالبة لا الخول البليد ..»

.. وذلك ما يكشف لنا عن المفاصد التي غشيت البلاد، فاشتبهت فيها الحرمات، وأهريقت المسكرات، وفشت المخدرات، ولعب فيها القمار بغير دار ..! واجتريه على الفضيلة والقيم في أكثر من ناد! ..! ويفسر لنا ذلك حقيقة بعض المواقف من الحضارة العربية التي نعتت بالتمزمت والرجوعية، .. وكان الرافعي أقدر معاصريه في تحديد موقفه كما مر.

وأما المرأة فقد كانت هنالك بعض الأسر تتعهد بناتها بتعليم خاص، وتربية أسرية محدودة تتلقى فيها الفتاة مبادئ القراءة والكتابة، .. وقد تقدم في مضمار الأدب (١).

ولكن السواد الأعظم من النساء كان في زاوية من الإهمال لا تصلح فيه إحداهن لغير الرتبة في «مصلحة الكنس والرش» في البيت (٢).

وكانت الرسائل التبشيرية قد تنبتهت إلى ذلك، فسعت سعيها من أجل إنشاء المدارس الأهلية والخاصة في أنحاء مختلفة من الأقطار العربية، .. وسارع اليهود - في العراق - بخاصة إلى التعاون مع هذه الرسائل أو المسابقة معها، حتى لم تلبث أن انتشرت في الأقطار المصرية والشامية والعراقية مدارس الراعي الصالح والقديس يوسف وبطرس وغيرها من الأسماء التي ترتفع فوق

- 
- (١) جرجي زيدان - آداب اللغة العربية - ج ٤ ص ٢١٤ ، وماري زيادة (مي) - المرأة الشرقية - المقتطف ١٩٢٥ م ، وانظر كتابها عن عائشة التيمورية.
- (٢) حسن السقطي - نقد ديوان الرافعي - الجامعة ج ٤ أيلول / سبتمبر

١٩٠٦ م

لاقت تلك المدارس مشيرة إلى مذهب الارسالية نفسه وتبعتها ! ..

ولما كان من آثار الحكم العثماني التخلف في المضار التعليمي وتربية المرأة  
بخاصة ، فقد طغى اللون الغربي من ثم في مناهج التعليم ، .. وكانت هاتيك  
المدارس قد حملت الكثير من مدينية الغرب وحضارة أوربة تحت شعارات العلم  
والتقدم والتربية (١) .

ثم إنه كان للمرأة من بعد أدب ، وارتفع لها صوت في الصحافة الناشئة  
بين صدى التقاليد ومن لقاح الفكر الجديد (٢) .

ولكننا يجب أن ننظر الى حركة « تحرير المرأة » التي أخذت مكانها  
من التاريخ ، بوجهة نظر تحليلية جديدة تقارنها او تفرنها مع الأحداث التاريخية  
الموازية لها ، والتي وقعت في ايامها ، ..

إذ لم يكد صوت مصطفى كامل يرتفع بالحركة الوطنية الى مثالية نضالية  
جديدة ، .. وتنعطف دعوة الشيخ محمد رشيد رضا الى تعريب الخلافة ، . حتى  
كانت الصهيونية تسارع الى عقد مؤتمرها الأول والثاني في نفس الفترة الزمنية ! .  
ويخرج كتاب قاسم أمين في « تحرير المرأة » عقب المؤتمر الصهيوني الأول بعام  
واحد ! .. فنجد أن نقد كتابه هذا وما احتواه من دعوة الى مساواة المرأة  
في الحقوق والواجبات بالرجل - كما في أوربة - على زعمه - مستدلاً بذلك على  
نصوص من القرآن الكريم اعتمد في آيات لم يحسن تأويلها ، وأحاديث شريفة

(١) عمر فروخ - الخالدي - التبشير الاستعمار ص ٨٠ ، ٢١٨ .

(٢) أنظر مقالة الأنسة (مي) المشار إليها .

لم يقو على نخبها (١) .

وقد شغل كتابه هذا والذي أتبعه به ( المرأة الحديثة ) الفكر العربي في الرد عليه وعلى ما استطل فيه من دعاوى .. عن الالتفاف القومي من حول الحركة الوطنية أولاً ، او الوقوف بوجه المؤامرة الصهيونية في وقت مبكر ! .. كما نجد الدعوة الى السفور - وهو الطور الثاني من الحركة - تقوم وتشتد أيام الحماية البريطانية حيث تكتم الأفواه ، وينزل رجال الحركة الوطنية ضيوفاً على المعتقلات والسجون ، .. وحيث تتمخض الدنيا العربية كلها بثورة تستكشف فيها قوتها للحياة المستقلة العائدة .

وفي الوقت الذي كان فيه العرب بين نيران الحرب ومضاعفاتها ، .. وانفجار وعد بلفور في قلب الثورة العربية تظهر مجلة « السفور » لتشغل الناس بفتنة من الآراء والاجتهادات ، تتوزعهم في مذاهب وأحزاب ! .. وقد يكفي أن نذكر ما كان من أمر الاتحادات النسوية ودعوتها الى رفع « نون النسوة » وحقوق الانتخابات في البرلمانات المزيفة غداة المناحة القومية التي أعقبت الحرب الثانية وضياع فلسطين ، والتي كان من ذبولها خلق « اسرائيل » دويلة لليهود ..

ولم تخل هذه الحركة النسوية نفسها من التخليط (٢) كما أن دعوة قاسم أمين نفسها لم تكن تتسم بالنصريح ، .. وكان من أثرها ما تعانیه المرأة العربية اليوم من حياة يكتنفها الضياع من بعض أركانها، وتكاد تبعد بها التقاليد والتقاليع

---

(١) أنظر فلسفة الطائشة للرافعي بوحى القلم ، وهناك شبه كبير بين تناول الماسون لآيات الكتاب المبين، وبين الأسلوب الذي تتخذه اليها قاسم أمين!

(٢) انظر قصبدة الزهاوي - زقي يا ابنة العراق الحجابا ...

الجديده عن طبيعتها ، أو تصرفها عن فهم ماهية المرأة نفسها ، مما لا مجال للافاضة فيه هنا .

ومن ناحية أخرى فإن سير الحضارة الانسانية نفسها قد تقدم بالمرأة ، يغشى بها الميادين الاجتماعية والعلمية والفكرية ، . معلمة وطبيبة ومهندسة وموظفة ، حتى تزحم الرجل في بعض الأحيان في مجالي رزقه في العمل ، وحتى التجارة والتسويق ، . . بعد الذي انفسحت فيه أمامها أبواب الدراسة في الجامعات والبعوث مهينة لها الفرص جميعاً . . . . .

ولكن كما لا تلت التقاليد والعادات المستوردة والوافدة بالشبان ، . . فقد لا تلت أخلاق أخرى بالفتيات ، . . . وقد تجاذب الأدب الحديث هذه وهاتيك في آراء وأحاديث فيها وجهات من النظر ، تجتمع في ضرورة « تربية المرأة » وإعدادها للحياة في كرامة .

فوجد محمد حافظ إبراهيم يظاهر قاسم أمين في دعوته ، فيقول في

قصيدته :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي في حب مصر كثيرة العشاق  
.. من لي بتربية النساء فانها في الشرق علة ذلك الاخفاق  
الأم مدرسة إذا أعدتها أعدت شعباً طيب الأعراق  
وكأنما يتدارك نفسه بقوله :  
أنا لا أقول دعوا النساء سوا فرأ بين الرجال يجلن في الأسراق

.. فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا فالشر في التقييد والاطلاق (١)  
 ونرى معروف الرصافي يدعو إلى « تربية البنات » في قصيدته :  
 هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بما المكرمات  
 تقوم بإذاعة تعبهاتها المرابي على ساق الفضيلة مشمرات  
 ولم أر في الخلائق من محل يهذبها كحضن الأمهات  
 لحضن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات (٢)  
 ومن ثم نلاحظ الرافعي ، وقد خص المرأة من أدبه وفنه ما يعمر مؤلفاً قائماً  
 بذاته ، ففي الملاحظة الأولى ندرکه يبدأ من المسلمات الأولية في مثل قوله :  
 الطفل أول ما يفكر في التي هي أمه حتى يشب ويكبر  
 وراه يفكر بعد ذلك في التي هي قلبه حتى يحب ويشعر  
 ويظل يفكر بعد ذلك في التي هي زوجته حتى يزيد ويكثر  
 ثم نجده يفلسف رأيه في المرأة فيدعي أن « كل الإنسانية نصف

(١) حافظ ابراهيم - الديوان ج ١ ص ٢٨١ ط ٢ .

ويظهر أن حافظ كان قد أدرك خطر اندفاعته في تأييد دعوة قاسم أمين

وقوله قبل هذه القصيدة بعشر سنوات :

أقسام إن القوم ماتت قلوبهم ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه  
 إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه  
 .. الخ ديوانه ط ١ ج ١ ص ٨٣ .

(٢) الرصافي - الديوان

رقم ١١٩٠ في رتبة الرصافي

الانسان « (١) ويحكم عليها مسبقاً بمثل قوله :  
 فحسبك نيلاً قالة الناس أنجبت وحسبك فخراً أن يصونك باب  
 لك القلب من زوج وولدي ووالدي وملك جميع العالمين رقاب (٢)  
 وفي الوقت الذي يستنكر عليها « التبرج » (٣) و « الحسن المصنوع » (٤)  
 ويحذرهما بمثل قوله :

لمن تبترجين ؟! وذوي سبيل<sup>١</sup> وما هي أفق شمك او هلاك  
 أما تخشين أنك في طريق ؟! يرف بها الحرام على حلالك  
 وإن الناس قد شهدوا نساء<sup>٢</sup> سوا فط كلهن على المثال ١١  
 ويسخر لها من دعاة « تحرير المرأة » بقوله :

أهم أحرار هذا الدين فينا ؟! وما بلغوا عبيداً عند مالك ؟! (٥)  
 ثم إذا بنا أمام دعوة من أكرم الدعوات الانسانية والقومية ، تلك التي  
 جاءت متميزة في قصيدته « الشرق المريض » إنصافاً للمرأة ، ورافعاً لمكانتها  
 الاجتماعية الى الأمومة الراقية حياً وكرامة حيث يقول مسبقاً أكثر الشعراء في  
 الموضوع ، وكأما ينظر عن معاينة :

- 
- (١) الرافعي - النظرات ج ١ ص ١٠٤ .  
 (٢) « - الديوان ج ٢ ص ٣٩ .  
 (٣) « - التبرج - الحال - ٢٠ شهاط (فبراير) ١٩١٩ م  
 (٤) « - النظرات ج ١ ص ٩٢ .  
 (٥) مذهب الإمام الك في الحرية ، شهور ، وأظن قصة ( أمراء للبيع )  
 للرافعي .

ربوا لذا الشرق يا قومي ممرضة      تخنؤ عليه بأحساس ووجدان  
 تطبه روحها مما ألمَّ به      فإن أقتل داء الشرق روحاني  
 يرى عواطفها الأديان خالصة      إذا تلعب أهلوه بأديان  
 ربوا له الأم يا قومي فلو وجدت      في الشرق ما طاح في ذل وإهوان  
 تلك التي ترفع الدنيا وتخفضها      بطفلها فهو والدنيا بميزان (١)

الى آخره مما قصرت عنه سائر الدعوات الأخرى لتحريرها أو تجريبها وتحويلها  
 بذلك الصراخ المستيري غير المتزن الذي ظهر به (انصارها) المهلوسون  
 ومدعو المطالبة بحقوقها ، ممن لا تزال تجد أقوالهم لها سوقاً سياسية !

ولقد كانت دعوات الإصلاح الاجتماعي والحفاظ على القيم العليا، والخلقية  
 الإسلامية ، وتقويم التقاليد العربية قوميياً ، تجتمع أحياناً ، أو تنفرد في  
 صحبات أهل الذكر والفكر من الأدباء والشعراء ، كما تبرز في جمعيات ،  
 أو تظهر من شرفات بعض الأحزاب ، لتسير بموازاة الحركة الوطنية والقومية  
 جنباً الى جنب .

واعل من اسبق هذه الجمعيات في عصرنا الحديث تلك التي ضمت جمال  
 الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في « العروة الوثقى » ، والتي انتظم فيها  
 نخبة من أبناء الأمة في شتى أقطارها .  
 وقد كان لجريدها اثر بالغ في عرض الحقائق الواقعة في الديار الإسلامية ،

(١) الرافعي - المقتطف - كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ م .



والإشارة إلى مواطن البدء والمنطلقات في الإصلاح العام (١).

ثم لما قامت في الأناضول جمعية « تركية الفتاة » التي انقلبت فيما بعد إلى جمعية « الاتحاد والترقي » . تألفت في الكنائنة جمعية « مصر الفتاة » حتى أقام عبد الله النديم بمكانها « الجمعية الخيرية الإسلامية » ، والتي عادت من ثم ثانية على اسمها نفسه هذه الجمعية التي ضربت المثل في التعاونية الاجتماعية التي عملت عليها في سرينها وعلنيتهما ، مما يقدر لها بأعجاب بالغ ، ولا سيما فيما نجفل به آثارها إلى اليوم (٢).

وقد جرت من ثم محاولات عدة لتأليف الجمعيات الاجتماعية في مختلف أقطار الدولة العثمانية ، ولكن كان من أعظمها دعوة وميثاقاً تلك التي قامت بدعوة من الشيخ محمد رشيد رضا ، وعرفت بجمعية « شمس الإسلام » والتي انطلقت في العقد الثاني من القرن الرابع عشر الحالي .

وأحسبها قد جمعت بين ما عرف من الدعوة إلى « اللامركزية » من أجل قيام كيان عربي متميز في الدولة العثمانية ، وبين روح دعوة « العروة الوثقى » الإصلاحية ، .. كما ضمت إليها نخبة صالحة من كرام العرب ، الذين كانت لهم أصوات في اليقظة القومية مسموعة ، كالسيد عبد الحميد الزهراوي والشيخ رضا شرف ، .. وسواهم من شتى أقطار العروبة .

ولم تكن تقبل أحداً من حزب « تركيا الفتاة » ولا تبيح لغير أعضائها الحضور في اجتماعاتها ، قصداً في العمل المشتم ، وخشية من اندساس السفهاء . ..

(١) تاريخ الإمام محمد عبده ج ٢ ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٢) عمر الدوتي - في الأدب الحديث - ج ٢ ص ٢٨٨ وما بعدها .

وقد وُشِّحت مجلتها « المنار » بتاج يرمنى الى تتويج الخليفة العربي الجديد ،  
وإبتداء من السنة الأولى شرع رائدها الشيخ رضا بكتابة سلسلة مقالاته  
الجبارة عن « الوحدة العربية » (١) ، التي تميّزت بالعمق التاريخي والفقهى  
الموضوعية المحدثة في الحركة القومية ، ..  
ومما هو جدير بالذكر أن شائئها من « الماسون » والطورانيين والشعوبيين  
الآخرين ، قد تصدوا لها منذ أيامها الأولى ، وناصبوها العدا ، فزعموا  
تأمرها على السلطة العثمانية تارة ، وخصوصيتها في ( القومية العربية ) وانتقاصها  
للخديوية ( المصرية ) اخرى ، .. ولا سيما بعد ان امتدت فروعها في الاقليم  
المصري ، والديار الشامية والحجازية ، وكادت تؤقي ثمارها الاجتماعية والقومية ..  
حتى قيل أنها كانت تحيا باسناد من السلطان عبد الحميد نفسه ، في محاولته صرف  
الخلافة عن العثمانيين ! (٢) .

وقد وقعت لهؤلاء واولئك بالمرصاد تفضح إدعاءاتهم « البنائية الحرة »  
بما فيها تلك التي يستدلون عليها بآيات من الذكر الحكيم ، (٣) وتسفه آراءهم  
المختلطة والتي ليس فيها شيء من وضوح العقيدة او سلامة الهدف .  
ونجد الرافعي يبعث الى منشي المنار برسالة يعلن فيها افتتاح فرع لها في

---

(١) راجع هذه المقالات إبتداء من عدد المحرم ١٣١٨ هـ - نيسان

١٩٠٠ م .

(٢) حدثني بذلك خالي السيد علي البدري - رح - في معرض ذكرياته عن  
النهم التي ألحقها الإتحاديون به غداة تنازله عن عرش الخلافة . . .  
(٣) أنظر المنار - ذي الحجة ١٣١٧ هـ .

طنطا يطلق عليه « جمعية السنة الاسلامية » (١) إثارة قومياً لمصطلح السنة على وصف الشمس! .. يقول فيها: « نظرت في المسلمين فرأيت من ذكر قد اسقط في يده، وفت في عضده، وأقلع وأناب، .. ورجع وتاب، .. فأعلنت في الناس ان يجتمعوا لينتفخوا، .. وجعلت المقر مسجد البهي - قدس الله سره - والميعاد يوم الخميس .. ثم كتبت ورقة عليها « جمعية السنة الاسلامية » وأعطيتها لانسان، فأقبل في البلد وأدبر ونادى فحشر .. الخ

ومما هو جدير بالذكر ان جمعيات وطنية وقومية كانت قد قامت في الفترة التي أعقبت المطالبة بالدستور العثماني - في مصر وسائر البلاد العربية الاخرى، وفي العاصمة نفسها (الاستانة)، ومن اشهرها المنتدى العربي، وجمعية الاخاء العربي - التركي والعربية الفتاة، والجمعية القحطانية والعهد .. وسواها (٢).

ولكن الطابع السياسي كان يغلب على معظمها .. وقد استطاعت فيما بينها ان تعقد المؤتمر العربي الاول في باريس عام ١٩١٣ م الذي صارت فيه حكومة الاتحاديين بضرورة تطبيق نظام الحكم المحلي في الأقطار العثمانية ليكون للديار العربية كيانها المتميز واقعياً وضمناً المحافظة على الوحدة القومية للدولة .. الخ (٣).

(١) الرفاعي - المنار - المحرم ١٣١٨ هـ - أيار ١٩٠٠ م.

(٢) راجع في ذلك - جورج انطونيوس - بقظة العرب، وعزة دروزة - الوحدة العربية - ، وحدي طربين ومصطفى الشهابي وساطع الحصري وكلامهم عن هذه الجمعيات في مؤلفاتهم القومية.

(٣) راجع المؤتمر العربي الاول - طبع دار الكشاف ١٩٢٩ م.

ومن الجمعيات ذات الصفة الاجتماعية الصرفة ، تلك التي ألفها النازحون السوريون في مصر والتي سميت بجمعية ( الاحسان السورية المصرية ) .. والتي اشتهرت بأسواقها الخيرية السنوية واحتفالاتها التي كانت تجتمع فيها الكتاب والشعراء والخطباء ليتحدثوا في المجالي الاجتماعية والنعاونية ..

وكان الرافي كالمخيطب الدائم لها في كل احتفاء او مهرجان ..

ومن فوق منبرها ارسل آراءه الاجتماعية وميز دعوته الانسانية وكان يقارن بين ماوصلت اليه المذاهب الاجتماعية الكبرى في اوربة وبين ما نستطيع اخذه منها ونطبعه بطابعنا القومي الذي يميزه ، .. بدراسة احوالنا وأوضاعنا الاقتصادية والقانونية ..

ومنها كانت دعوته الى الاشتراكية العلمية والاحسان الاجتماعي .. وتعرية المساكين من المعذبين في الارض .. كما سنفيز به في دراستنا الموضوعية الحديثة في ادب الرافي (١) .

ثم لما كان من نتيجة الحرب ، فقد توقفت كثير من هذه الجمعيات واندثرت ولكن لم تكند تلوح في الافق انباء انتصارات الجبهة الوطنية - التركية في الاناضول حتى عادت بعض العناصر التي تنسبت بالولاء العثماني الى تجمع جديد في ( الرابطة الشرقية ) التي حاولت الاتصال بالخلافة - وكانت لما نزل

---

(١) راجع الرافي في الديوان ج٢ ص ٢٦ الهامش ، وسركيس - ج٧ تموز ( يوليو ) ١٩٠٥ م . وتاريخ آداب العرب ج٣ ص ١٣٦ - المقتطف ١٩٠٩ م ... الخ ، المقتطف أبار ( مايو ) ١٩١٢ م - المساكين ص ٧٤ ، المقتطف أيلول ( سبتمبر ) ١٩١٤ م .

قائمة في الاستانة التي احتلها الحلفاء ١ .

ولكن تنفيذ معاهدة سايكس - بيكو في تقسيم ديار الوطن (١) ، قد أوجد كيانات جديدة في الأقاليم قامت بمحدودها معوقة على الرابطة ما تهدف اليه من إعادة ربط الأوصال .. كما أن مصطفى كمال نفسه قد أقدم على إلغاء حكومة الخلافة ، والاكتفاء بحكومة انقرة ، مما خيب الآمال من جديد وبعثر قوى التجمع .. ولا سيما حين أتبع ذلك الاجراء الأحمق بسلسلة من الحماقات الأخرى تقطع كل صلة للترك بالاسلام ، حتى حروف اللغة العربية ، ويوم الجمعة الفضيل (٢) مما كان لها اسوأ الآثار في حياة الأمة وشعوبها الاسلامية بعامه .

أما الحياة الحزبية فهي ظاهرة اجتماعية جديدة ، حاولت القيام على الطريقة المتبعة لمثلها في فرنسا بخاصة ، .. وكانت مصر أسبق البلاد العربية في هذا المضمار . فقد نادى بعض التخلصين عقب فشل الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي للمقاومة والمطالبة بحقوق مصر في السيادة الوطنية ، .. وظهر مصطفى كمال ١٨٩٢ م - ١٩٠٨ م بحركته التي عرفت فيما بعد في تجمع الحزب الوطني والذي يميز بثبات مبادئه ، وإخلاص رجاله ووضوح اهدافه وغاياته طيلة ستين عاماً من وجوده

ولسكن فئات من المثقفين الجدد من « ذوي المصالح الخاصة » - كما كان يحلو لهم أن ينعوتوا انفسهم - ، تجمعت هي الأخرى لتؤلف حزباً سياسياً يسمى على « الامة » وليكون موازياً للحزب الوطني .

(١) راجع المعاهدات والوثائق ص ٦٢ .

(٢) « عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة - .

وكانت راحة الانفصال عن الدولة العثمانية . وموالاة الانجليز والانفراد  
بمصر . . لا تخفى عن بعض اتجاهاته ، ولا سيما عند بعض اعضاءه الذين كانت  
لهم صلات بالمخالف الماسونية والرساليات التبشيرية المنتشرة في البلاد ، . والتي  
كانت تغذيها الوكالات والقنصليات الاوربية بالاضافة الى نشاط دار الاعتماد  
البريطانية في صفوفهم ! . (١)

على ان الحزب الوطني ومصطفى كامل بالذات لم يكن ليشغل نفسه بمثل  
المرضعات الجانبية التي يحاولها هؤلاء ، . ومضى في دعوته قدماً ، مؤمناً بالجامعة  
الاسلامية ، ومقراً بالسيادة العثمانية وعدم جدوى الانفصال بالاقليم المصري ،  
ودعا - فيما دعا اليه يومها - الى إنشاء مدارس الشعب اليلية ، التي تطوع  
للتدريس فيها رجال الحزب وشبابه (٢) .

وكذلك دعا في جريدته (الواو) الى إنشاء (الجامعة) في (فكرة  
وطنية انشق لها مكالمها في الحوادث ، وبذلت لها الامة ما بذلت ، وشمرت لها  
وجدد بها الجد (٣) .

ولكننا نجد ان (حزب الامة) يلقف الفكرة ، . ويضع عينه عليهما من  
اول يوم ، حتى لقد خرجت (الجامعة) تهادى من المحفل الماسوني في القاهرة (٤)

---

(١) محمد محمد حسين - اتجاهات الوطنية - ج ١ ص ٧٣ .

(٢) عبد الرحمن الرافي - مذكراتي - ص ١٦ .

(٣) الرافي - تحت راية القرآن - ص ٦٨ .

(٤) عبد الطيف حمزة - الصحافة والأدب - ص ٧٨ .

يزفها المثقفون - المتمدون - من ذوي المصالح الخاصة باسم الأمة !  
ثم مرّت الحزبية بفترة ركود عقب الانقلاب العثماني وإعلان الحماية  
الانجليزية على مصر ، وأصاب زعماء الحزب الوطني الاعتقال والنفي .  
وما كادت الحرب تضع أوزارها - تى عاد بعض هؤلاء ليجتمع من  
جديد باسم ( الحزب الديمقراطي المصري ) ( ١ ) يزحمون به تجمع ( الوفد المصري )  
الذي كان مفروضاً أن يمثل الأمة في جميع اتجاهاتها الوطنية ، ومطالبها في السيادة  
القومية . ولا سيما بعد اندلاع الثورات في مصر والأقطار العربية .  
ولكن ما لبث ( الوفد ) أن اقتصر على فئة أخرى من ( ذوي المصالح  
الخاصة ) تعمل على حجب الحزب الوطني الذي يقاوم الاحتلال ويرفض  
الحماية ولا يقبل التبعية بدلاً عن الجلاء ! .

وما كاد دستور ١٩٢٣ يظهر حتى انفرط من هؤلاء وأولئك فئة أخرى  
تزعم الحرص على ( الدستور ) وتنعت نفسها بحزب ( الاحرار الدستوريين )  
وتلجأ الى الصحافة والنشر تديع فيها دعواتها بمجازفة وغير قليل من المبالاة  
حتى لم تخلُ واجهاتها في الحقيقة والواقع من محط لنزول الأفكار الوافدة .  
وكأنما فرّخ فيها الاستعمار فكراً بواردات أوربية متفرنجة تزعم تجديد الحياة  
والثقافة . والتغريب بمصر . أو شرنقتها عن الأمة العربية فرعونياً .  
ولم تقف مضاعفات الجمالة السياسية في مصر الى هذا الحد وإنما اتبع  
موقف الوفد وانفرد أديانه - ولا أقول انانيات زعمائه - الى الانشقاق في صفوف  
السياسيين غير مرة أدت فيما بعد الى ظهور احزاب وفئات أخرى كالاتحاد

( ١ ) راجع أدب الثورات لمحمود صادق ص ٢١ .

والشعب . ثم الكتلة السعدية .. الخ والتي ما برحت تتنازل عن أهدافها القومية  
وواجباتها الاجتماعية وتتعلق بالصورة السياسية حتى غدت، الحزبية نفسها مرادفة  
للمغامرات السياسية حسب ! .

ومما يلاحظ أن الحزب الوطني كان الوحيد بين هذه الأحزاب في الثبات  
على المبدأ ، والقيام على رسالته الوطنية والقومية ، وتمسكه بالأهداف العليا للأمة،  
وإن هبط مستوى نشاطه الاجتماعي على توالي الايام ..

وقد لاقى زعيمه الثاني - محمد فريد - النفي والتشريد ، كما تلقى زعماءه  
الآخرون الاعتقال والاهمال عقب إعلان الحماية ، ..  
وبسبب من ثبات أمين الرافعي وإخلاصه .. تلقى إعتدائه « مليشيا »  
الوفد المسماة بمجنود سعد ! ..

وما انفكت الحزبية والأحزاب في الوطن العربي اجمع تلتف حول نفسها،  
وتشقق صفوف الامة بمذاهبها وأفكارها وعجاجات رجالها، .. وقد تنبه الرافعي  
الى ذلك في سبق فكري لم يكن لمعاصريه من الأدباء والشعراء ، .. فقال  
من قصيدة :

تباين ما بين الرجال وكلهم      على زعمه بالأمر خير كفيل  
فيا عصابة الأحزاب ردوا حلومكم      وجروا على غير الثرى بذبول  
وما أنتم في أمر شيء من الهوى      فما بال واش بينكم وعدول؟!  
وأحييتموها سنة جاهلية      عداً أصيل فيكم ودخيل



الى أن يمحصهم النصيحة بقوله :

تحدوا بأمر العلم واستجمعوا له قواكم فإن العلم خير دليلاً (١)

وكانما كان ينظر من لوح الغيب حين يقول بعد ذلك بسنوات :

خلدوا عن الشعب حراً وانظروا تجدوا بمصر ميزان هذا الشرق يعتدل (٢)

... إذ ما كادت تندلع ثورة الجيش في ٢٣ تموز ( يوليو ) ١٩٥٢ م ..

حتى رفعت عن الشعب تلك السلاسل التي أكثرتها المذهبيات الحزبية ، بعد أن  
افتضحت حقيقتها أمام الأمة ، وكادت تصرفها عن حقيقتها الاجتماعية .

\* \* \*

وإزاء ما أحدثته حركة الأحزاب في الصحافة والفكر بعامة من هزة

لا تخلو من تشكيك إعتقادي ، وضلال مبين ، بقتاده بعض المتفرنجين من

واردات أوربة ، أمثال سلامة موشي ومبتسرته في الترجمة ونقل الآراء من

غير نضج ولا تمثيل ، وطه حسين وإنتحاله لأساليب البحث ، وإلباس أي شبكة

ودعواته المتفرنسة .. الخ حيث لم يكن يتصدى لهؤلاء ، وأولئك من ذوي الاتجاهات

الأدبية والفكرية المشبوهة ، والتي لا تستوي مع النضج في قيم علمية تصيب هدفاً ،

غير رجلين إثنين لم تكن أصلهما من مصر (١) .

أما أحدهما فهو الامام مصطفى صادق الرافعي ، الذي نازل دعوات رجال

حزب الامة الى العامية (٣) ووقف في وجه « تفرنجاتهم الديمقراطية » وما حيدته

(١) الرافعي - النظرات - ج ١ ص ٢٣ .

(٢) « - المقطم ١٩ ربيع الأول ١٣٤٨ م .

(٣) أنظر الرافعي - البيان - ١٩١٢ ، المعركة .

المرأة من الحياة الجديدة (١) ، . . . وسفّه كل مفتريات مواليدهم « الأحرار »  
في محاولة البحث والنقل ، . . . وأظهر الامة حقيقة الامانة العلمية في الترجمة  
والأخذ ، تلك الأمانة التي لم يكن يتحلى بها رجل منهم ولو بمقدار (٢) .  
وأما الثاني فهو الامير شكيب أرسلان ، وقد كان له من منزلته القومية  
بمجال الهيبة والرأي ، وقد مضى بظاهر الرافي في ثورته المؤمنة ، ومقاومته  
الباسلة .

وقد مكّن لها وانضم اليها رجل ثالث من الشام أيضاً هو الشيخ محب  
الدين الخطيب - حفظه الله - في مجلتيه « الفتح والزهاء » بخاصة ومسلسلته  
« الحديقة » .. وكان لوعيه العلمي واستيعابته للتاريخ ظهراً عظيماً . . .  
ومما يغبط عليه حقاً أنهم وجدوا في مصر نفسها المجال الأرحب لمواقفهم  
القومية النبيلة الرائعة .

ويصف لي أحد من عاصروا تلك الايام كيف أن الانسان المصري كان  
يقف مشدوهاً او كالمستفهم السائل أمام ذلك البحران الفكري ، والصراع الحاد ،  
الذي يستطيع المساهمة الفعالة فيه ، ولا المحاولة الجديدة في وقت ذلك الاتجاه المضلل  
المريب ، الذي احتسب عليه فرعونياً تارة ، ويونانياً أخرى (٣) .

(١) انظر الرافي - الرسائل ص ٥٧ .

(٢) انظر الرافي في - المعركة تحت راية القرآن - وردوده على موشي

وطه حسين .

(٣) راجع الحصري - الإقليمية - في مناقشته لطمه حسين وكتابه

- مستقبل الثقافة بمصر - .

حتى ليقول الرافعي :

إنا في زمن يجيش بفتنة في الدين تأتية من الأركان  
في كل دهر كان إبليس يُرى فرداً.. وفي ذا العصر إبليسان!! (١)  
ولكننا نجد من أثر هذه المواقف أن نشأت جمعية الشبان المسلمين في عام  
١٩٢٧ م التي حظيت بالالتفاف الاعتقادي من حولها، .. وانطلق منها نشيد  
الرافعي «شباب العالم المحمدي» وقد فاز بالجائزة الأولى ليصبح من ثم شعار  
الثورة الفكرية المؤمنة، والذي يقول فيه :

يا شباب العالم المحمدي ينقص السكون شباب مهتدي  
فأروه دينكم كي يهتدي دين عقل وضمير ويسد (٢)  
وكان من أثر مواقف الرافعي الانفرادية، وعضد أرسلان، ومساهمة  
الخطيب، واقتصار «الشبان المسلمين» على الحفلات التاريخية والنبوية، أن  
فكر معلم شباب في الاسماعيلية، بضرورة تنظيم دعوة كبرى للاسلام في العصر  
الحديث، وهكذا انتظمت جمعية «الاخوان المسلمين» التي عمرت الاعتقادية  
القومية، وظهرت على الملأ بصورتها العربية المؤمنة التي راحت تسابق انتشار  
جمعيات الشبان المسلمين في مختلف الأقطار العربية والاسلامية (٣).

ولسكن حدث أن أغربت بالعمل السياسي وساومتها الاحزاب ..

---

(١) الرافعي - المقطم - ١ رجب ١٣٤٥ هـ - ديسمبر ١٩٢٦ .

(٢) الزهراء - ج ٤ ص ٦١٢ .

(٣) أنظر الرافعي في قصة الأيدي المتوضئة - وحي القلم - ، وراجع

الدكتور اسحق موسى الحسيني - الإخوان المسلمون .

فكانت تنتقل من طور الى طور حتى كانت الحرب الثانية ومأساة فلسطين . .  
ولم يكذب الشهيد رائدها الشيخ حسن البنا عام ١٩٤٩ م حتى دب اليها الوهن  
وتحولت الى جماعة حزبية حملت نفسها ودعوتها بسلسلة من المحامات . يقدم  
عليها موتورون وحاقدون في صفوفها حتى انتهوا بها الى مالا تحسد عليه  
من مأساة !

ومما هو جدير بالذكر - بعد أن غدت الدعوة القومية العربية عنواناً  
اجتماعياً ضخماً في الحياة النضالية والاعتقادية - أن جماعة من الطلبة العرب كانت  
تنظمهم دار العلوم المحروسة في تلك الايام تنادوا فيما بينهم الى تأسيس جمعية  
يطلقون عليها اسم ( الوحدة العربية ) ذلك الشعار الوليد في الدنيا السياسية  
للأقاليم العربية بعد الحرب . .

وهكذا تألفت من صفوف الطلبة تنتظم فتحي رضوان وصالح جودة  
وعمر الدسوقي من مصر وكمال ابراهيم وبديع شريف من العراق وتيسير  
ظبيان وسامي السراج من سورية .

وقد اختارت هذه الجمعية المرحوم محمد علي علوبة ليكون رئيساً لها  
لعروبيته الظاهرة ولا سيما بعد اشتراكه بمؤتمر التوفيق بين السعوديين والزيديين  
عقب حرب عسير ونجاحه في المؤتمر .

وبقيت هذه الجمعية حتى انتقل صفوة أعضائها الى المملكة المتحدة طلبة  
بعثات علمية فعادوا يتجمعون هناك ويحبون مع « الوحدة العربية » هدفاً وفكراً  
ويناصبون الاستعمار والصهيونية حرباً لا هوادة فيها وكل يتناوب على منبر  
الخطابة في « هايدر بارك » كل من الاستاذ عمر الدسوقي وعبد الرحمن البراز

ويحمون أنفسهم بأنفسهم من اعتداء اليهود (١). وقد ضمت إليها عبد العزيز الدوري - أمين سرها فيما بعد - وعز الدين التنوخي وقاسم البزركان وإسحق موسى الحسيني... ولكن حدث أن تفرق شمل بعض هؤلاء الطلبة عائدين بعد اندلاع الحرب فانتهى بها الأمين إلى الحل عام ١٩٤٣ م. ولعل ظهور هذه الجمعية من الطلبة في دار العلوم بمصر أولاً في تلك الأيام هو الذي شجع المؤرخ القومي الكبير أمين سعيد والمجاهد عبد الرحمن الشهبندر ومحمد علي علوبة وغيرهم على الإقدام في إنشاء (الرابطة العربية) في مصر التي دعت فيما بعد إلى قيام دولة العرب القومية الموحدة. وهذه الرابطة هي التي أحييت ذكرى الامام الرافعي الأولى، فأقامت لها أروع احتفال (٢).

\* \* \*

وهكذا كانت البيئة الاجتماعية، وهي تتلقى الأنواء هائجة عاصفة حيناً وثائرة متمردة أحياناً، وضائعة بين التعاسة والشقاء، يخيم عليها الصغار والبلاء في كثير من الأحيان.

---

(١) عمر الدسوقي، وعبد الرحمن البزاز، وبديع شريف - في أحاديث خاصة، وانظر الرسالة - ٣٩٥ / ١٩٤١ م.

(٢) أنظر - الرابطة العربية - ١٠٠ - ١٨ ربيع الأول ١٣٥٧ هـ - ١٨ أيار (مايو) ١٩٣٨ م.



## الفصل الثالث

### الحياة الثقافية والعلمية

كان للفترة التي سبقت النهضة الحديثة في التاريخ العربي حسنة ، قصر المستشرقون عنها معرفة ، فغفلوا عن الوقوف عليها بأمانة علمية ، ولم يكلفوا أنفسهم بتعدادها على الأقل ، .. فبقيت « مظلمة » عليهم ، وشايعهم في ظلها غير قليل مؤرخي الحضارة وجوانبها في تلك الفترة أيضاً ..

فإذا نحن سلطنا في الحكم بجديتها في القرائح والأذهان ، .. ورأينا معهم وقوفها دون الاجتهاد والابداع والابتكار - من غير إعتبار بالظرف السياسي ، والحال الاجتماعية التي مرت بها واكتفتها من جميع جهاتها ... وأخذنا بوجهات النظر التي تنعتها بالجود وتنهتها بالتخلف ، وترمينا بالضياع !! .. فلا يمكن بحال أن ننكر ذلك الدور العلمي الذي قام في أثنائها بعمليات التجميع الخطيرة في العالم والتراجم والمحتويات ( الفهارس ) ! ... أو ننقصها بعض ما اتصفت به من الهمة في الحفاظ على التراث بالإيجاز والتلخيص ، .. أو أن نتحيفها فيما عانتها عملياتها هذه مع العلوم والفنون بين المتون والشروح مما كان بعض أسس التعليم

ووسائل الاعداد في النهضة العلمية القائمة ١٠٠

وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال الامام ابن حجر العسقلاني ، والامام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ من بين أعلامها الكثر (١) ، .. ونظر في أسماء مصنفاتها ، وجداول مؤلفاتها ، وثبت مختصراتها وتجميعاتها ، .. ندرك مبلغ المجاهدة التي عانتها تلك الفترة في الحفاظ على روح الحضارة العربية ، ومادة الشريعة الاسلامية وعلوم القرآن العظيم ، وما يتصل بالفقه بخاصة من علوم الحياة والطبيعة ، .. وكذلك فنون اللغة والآداب جميعاً .

وما زالت الى اليوم بعض هاتيك المصنفات في الطب والحكمة ، والكيمياء والفلك والحيل ( الميكانيك ) تتداول ، ويجسد فيها بعض علماء الاتقان العلمي ( التكنولوجيا ) مادة غنية بالمعرفة والمعلومات .

لقد كانت الحياة العلمية تسير في نمو داخلي تغلب عليه البساطة ، وتكلف له أصحابه من وسائل المعرفة تلك الخصيصة العربية في الحفظ والنص والمراجعة ، .. وإن لم تكن تخلو من تعقيد في بعض الأحيان .

وما كانت مدافع الحملة الفرنسية على مصر غير شارة الخطر الداهم (٢) الذي ينه الأذهان ، ويثير الشعور القومي ، ويشحذ الهمم للإيمان بكرامة الحياة أولاً ، .. على هدى من المجالي الحضارية ، وبصيرة من الجوانب العلمية ، وينهض بالأمة على أسلوب المقارنة بين ما تحياه بواقعها المتخلف ، وما تراه من الحياة

(١) راجع في ذلك معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة والأعلام للزركلي وغيرها من كتب التراجم .

(٢) أنظر عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ١ ص ١٣ .



الأوربية العجيبة ، التي تحفل بأطياب العيش والسعة والرخاء .  
فقد كانت تتجلى هاتيك الشاهد من صور الحضارة الأوربية بالحياة  
الثقافية ، التي يتملأها العرفان كما كانت تسعى بها جيوش الاحتلال في ادوات  
العلم والأعتدة معاً ، على الشكل الذي سوّغت به « الثورة » الفرنسية ، والحركة  
التبشيرية ، .. لعمليات الاستعمار عبر القارات (١) .

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضتها هذه الحملة الفرنسية  
( ١٧٩٨ م - ١٨٠١ م ) ، فقد تركت لها آثاراً في الشرق العربي ومصر بخاصة  
لا تمحى من الذاكرة التاريخية ، .. حتى لقد زعم بعض المؤرخين أنها كانت حملة  
علمية أكثر منها حربية للنفوذ والاستعمار (٢) .

ولسكن مثل هذا الزعم يقابله الرأي الحصيف الذي يقول « لا يمكن أن  
يكون للحملة الفرنسية - وصفتها عسكرية إعتدائية ، وهدفها الاحتلال - أن  
يكون لها المسة النبي أو مسحة الرسول في البعث » خلال ثلاث سنوات ما كف  
الشعب فيها عن صنوف من المقاومة (٣) .

فمن الناحية الأخرى نلاحظ ما كان من اتفاق الآراء عند ذوي الحبل  
والعقد في الأمة ، وسواء من العلماء والفضلاء .. على أن المعرفة هي سبيل النهضة  
والحياة الحضارية التي تلحق بركب الأمم المتقدمة .. فلا بد من وسائلها ، في

(١) عمر فروخ ومصطفى الخالدي - في التبشير والاستعمار - وكذلك  
جون غنتر - شخصيات عالمية - الجمهورية ١٧ آذار ١٩٦٥ م .

(٢) محمد رفعة - تاريخ مصر السياسي - ج ١ ص ٣٩ .

(٣) راجع اسحق موسى الحسيني - محاضرات الموسم الثقافي في الكويت

ص ٢١٠ .

إحياء التراث القومي ومدارسه ، والقيام بعمليات نقل الآثار الحضارية العلمية  
المحدثة الى اللغة العربية (١) .

ومن هنا بدأت تتعدد العوامل الاساسية للنهضة العربية الحديثة ، وتختلف  
السبل في قيام الحياة العلمية والثقافية عند العرب من جديد .

فوجد الاهتمام بالطباعة لانقاذ التراث من عمليات النسخ وما يلحقها من  
تحريف وتصحيف ، فيبتكر الشماس عبد الله زاخر في لبنان شكلاً فريداً للطباعة  
وطريقة الطبع والحبر . . وما يلحقها (٢) ، قبل أن تصل مطبعة نابليون الى  
القاهرة بسنوات .

ويجلب الوالي مدحت ( باشا ) الى بغداد مطبعة الزوراء . . . وتقوم من ثم  
المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة وإن ما صنعتها في إخراج أمهات الكتب العربية  
في العلوم والفنون والتاريخ والادب والشعر يعد من طلائع الثورة في الكتاب العربي ،  
مما كلن أثره بالغاً في عمليات إحياء التراث القومي ، والمسعى الحميد في توفير  
الكتاب لمجلات أوسع في صفوف الأمة وأبنائها .

وما لبثت أمهات الكتب النادرة ، وفرائد المصنفات بالعشرات أن  
أصبحت في متناول الأيدي ، كالمثمل السائر لابن الاثير والأغاني لأبي الفرج  
الأصبهاني و التاريخ لابن خلدون ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وإحياء علوم  
الدين للغزالي ، والتفسير للرازي ، والأملالي لأبي علي القالي ، ووفيات الأعيان

---

(١) راجع رشيد رضا - الوحدة العربية - المنار - المحرم ١٣١٨ هـ .

(٢) أنظر - الكتاب - أعلام النهضة - ٣٢ م ٦ ج ٦ .

لابن خلكان ، ومثات غيرها مما لا يمكن حصره عدأ ، .. الى جانب مثات اخرى من اللواوين لمشاهير شعراء العربية في شتى عصورها ، وكذلك كتب التراجم والطبقات (١) .. الخ مما سهل على الشادين في الادب والمطلبين للحكمة ، والمغرمين بالفنون الاطلاع عليها ، والحفظ منها ، والبحث في مختلف مجالها العلمية والتاريخية ، والقدية التوقيمية .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن تلك الطبقات الاولى لهذه الأمهات ، مازالت تتصف بالأصالة ، وتعهد صورتها كالأساس العلمي عند المراجعة والبحث ، .. مما يدلنا على أن علماء عاملين ، كانوا يقفون على عملية إخراجها ، متوخين القصد العلمي في حفظها من غير خطأ مطبعي أو تحريف أو تصحيف ، .. وتدنا إشارات الرافعي في مصنفه العظيم « تاريخ آداب العرب » على عظم ذلك التراث كمأ وكيفاً ، كما توضح لنا إرشاداته للشيوخ ابي رية في رسائله عن روح الانتقاد التي سار عليها طلب العلم عائداً !

ثم أنه نشأت مطابع أهلية اخرى كدار إحياء الكتب العربية للحلي في القاهرة والهاشمية بدمشق والعربية ببغداد ، وغيرها من أمهات دور النشر والطباعة القائمة اليوم كدار المعارف ، ودار الهلال .. ولكن كثرة هذه المطابع الأهلية وتحويلها الى محال تجارية ، قد أفسد مثل المهمات العلمية والقومية في بعث التراث ونشره ، .. فقد عاد الجشع المادي يؤذي أخراج الكتب ، ويبدل من صورتها العلمية ، وربما شحنها بأخطاء مطبعية تحتاج معه الى المراجعة والبحث والاعداد العلمي للأثر ، وهو ما يقوم الآن بركات بطيئة ، ودراسات جامعية ، وأخرى

(١) راجع الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ١ ص ١٣ .

علمية تنمى لها الحياة الأوفى والأسلم ١٠٠

والى جانب ظهور الكتاب العربي المطبوع ، وانتشاره ، توسعت حلقات  
الدرس والمتابعة ، وازداد السهم في التعليم ، والكيف في الاعداد والتوجيه ، ٠٠  
وتعددت وسائل المعرفة ، ومهدت سبلها ، فكان له أثره البالغ في النهضة التعليمية  
والحياة الثقافية بعامة .

وكان الأزهر قد لقي في الشيخ محمد عبده طاقة نفاذة ، وقد سعى لتطوير  
التعليم وتهذيب المنهجية التي سار عليها آماداً طويلة ، وذلك فيما اشترعه من سنن  
الأنظمة المحدثة ، والتي كان يؤمل فيها الأثر في المجال العلمي ، والاسراع في  
دفع عجلة التقدم العامر .

ويلحق بالأزهر كل معهد كان يجري معه في أشواط متشابهة ، ومناهج  
تكاد تكون متوافقة في المفردات ، كالمدرسة العادلية في الشام ، وحلقات الصحن  
العلوي في النجف ، وجامع الامام الأعظم في الأعظمية ببغداد ، وجامع الزيتونة  
في المغرب ، وسواها ٠٠

وقد كان لقيام « دار العلوم » في القاهرة عام ١٨٧٢ م ، التي رعاها  
الشيخ علي مبارك ناظر ديوان المدارس ، ٠٠ واهتمامها بعلوم الشريعة الاسلامية  
وآداب اللغة العربية والعلوم الحديثة - الأثر البالغ في الانقلاب بالمنهجية  
الدراسية مما أدى من بعد الى اتساق الوعي القومي في الدنيا العربية كلها ..  
على هدى من أهداف نبيلة وقصد فيها ، وبصيرة من التراث العريق وتطلع  
بمحاولات علمية مستحدثة في الدراسة ترتفع بالمستوى الثقافي عامة وتعد

ليقظة فكرية تؤتي أكلها العلمية بعد حين (١) .

وكان الامام محمد عبده يأمل أن يتم على طريقها توحيد التعليم وتجديد مناهجه وسموه . فقد كانت عنده « تصلح أن تكون ينبوعاً للتهديب النفسي والفكري والديني والخلقي .. » (٢) .

وربما حسب المسئولون يومها أنها المحاولة التي تسمو على المنهجية التقليدية في المعاهد الدينية الملحقة بالمساجد وتظهر في الوقت نفسه أمام غزو الانظمة والمناهج الجديدة التي جاءت بها معاهد التبشير والمدارس الأهلية التي قامت على الغرار الاوربي المحدث .

وحسبنا أن نذكر هنا أن السلطان عبد الحميد - رح - كان قد أشار بفتح دار بمائة لها في سامراء درءاً لخطر شعوبي كان يتسلل الى العراق في ذلك الحين (٣) . . وسعى الى عضد معاهد أخريات في الدبار الشامية تقف بأزاء مدارس النصارى التبشيرية التي تغذيها حكومات المذاهب المختلفة في أوربة والتي كانت تغذ السير في انتشارها وتدخل البرامج التعليمية المحدثه واللغات الاوربية وتحاول تدريس بعض العلوم بها (٤) بالرغم من وجود مثل « المدرسة الانجليزية » ببيروت التي اتخذت العربية لغة التدريس العلمية بها في بادئ الامر محاولة

(١) راجع يوبيل دار العلوم المطبوع عام ١٩٥٥ م .

(٢) محمد رشيد رضا - تاريخ الامام محمد عبده - ج ١ ص ٣٧٨ .

(٣) تاجي القسطيني - تاريخ المدرسة الحميدية (مخطوط) .

(٤) راجع لويس اليسوعي - الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ٢

سياسية في محاربة التركية والتودد للعرب (١) .

ولسكننا نجد - بعد التمزق السياسي الذي أصاب الوطن العربي فشتت العرب في ديارهم . . . أن هذه « المدرسة » وأختها الأخرى في القاهرة تسمى نفسها بحقيقتها « الجامعة الأمريكية » ، وتعود فتتخذ الإنجليزية لغة العلم والتدريس بها ، ولا تنسى أن تلقي في روع تلامذتها من أبناء العرب أن لغتهم العربية قاصرة عن الاحاق بالمصطلحات العلمية الحديثة ، . . . كأن لم يكن للتاريخ الحضاري والعلمي للعرب سبب أو صلة بهذه العلوم والمصطلحات ! . . .

أما من ناحية التعليم العام - الابتدائي والثانوي - فقد كانت هنالك خطط رامية الى فتح المدارس ونشر التعليم ملاحقة للمدارس التبشيرية والاهلية ومزاومة للمدارس العربية - غير النظامية - التي لم تزل منحة ببعض الجوامع .  
وفي هذه المدارس التي فتحت أواخر العهد العثماني في مختلف أنحاء الولايات كانت تدرس العلوم بالتركية والعربية معاً !

وهي التي ورثتها وزارات المعارف والتربية في الاقاليم المنفصلة عن الدولة العثمانية إحتلالاً أو حماية أو تبعية ! . . . وكان لهذه السلطات الجديدة الأثر الأول في توجيه التعليم بها وجهة غير قومية ، كالتي جاءت في مشروعات دنلوب في مصر ، وستيف في العراق حتى أثمرت منها أجيالاً علمانية ، فشلت في الحفاظ على القيم القومية للامة ، وما يزال الضياع السياسي ، والضلال المبين يحتوي حتى الذين تقدمت بهم الابام الى صفوف المسئولية التربوية والقيادة الوطنية ، والزماد

(١) عمر فروخ ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار ص ٩٥ .

النوحيهي، والحرية الفكرية . والمجال الاعتقادي في الحياة العلمية والثقافية بعامة !  
وعاد يحس به كلُّ مرءٍ واعٍ ويشعر بوطنه الانسان الفرد في صفوف  
الامة . حتى حـدا التفكير المتأمل المنتج بعض الهيئات التعليمية في الاقطار  
العربية . وبجامعة الدول العربية بالذات الى التنادي لايقاف ذلك الضلال ولو عن  
طريق المؤتمرات التربوية . التي توصي بمراقبة برامج التربية . والارتفاع بمستوى  
المناهج التعليمية والثقافية . . . التي نأمل في تطبيقها تحولاً علمياً في التعليم العام .  
حتى يتم لنا التغيير الجذري الذي يعود بالامة سيرتها الحضارية الاولى على  
هدى وبصيرة .

نقول ذلك بالرغم من عملية نشر التعليم على أوسع نطاق ، التي تعانها  
هذه المدارس . وكأنها تقوم بعملية مسح تعليمي بالقضاء على الجهل . . . بمعرفة  
فك الخط أولاً ! ..

\* \* \*

والى جانب هذا النشاط في النواحي التعليمية الرسمية والاهلية . كان لقيام  
بعض الجمعيات شأن جليل في محاولة العناية بالتعليم وتجاوز الشؤون الاجتماعية  
والشكلية الى الاقدام على تأسيس المدارس وإنشاء المعاهد مباراة لمدارس المدنية  
نفسها واستباقاً للامام في إنقاذ أبناء الامة مما يلبث في مدارس « الفرير »  
وسواها من مدارس الارساليات التبشيرية .

ولعل من أهم هذه الجمعيات التي ذهبت المذهب القومي في  
الاتجاه بالتعليم وجهة ترضاه المصلحة العليا للامة ، جمعية المعارف

بمصر (١) والجمعية السورية (٢) ثم الخيرية الاسلامية . التي انضم اليها الشيخ عبد الله نديم وأعاد الشيخ محمد عبده تكوينها بعد الثورة العراقية (٣) ثم العروة الوثقى .. وبعد ذلك جمعيات شمس الاسلام والرابطة الشرقية والهداية الاسلامية التي كانت لها فروع في مختلف أنحاء مصر وسورية والعراق .. وكذلك جمعية الشبان المسلمين والاخوان المسلمين في مصر والتمدن الاسلامي بسورية والتفويض في العراق .. الخ من ..

وكان اقيام لجان للتأليف والترجمة والنشر في هذه الأقطار ، و نواد ثقافية وقومية ، كاليان العربي والجمعية الفلسفية والجغرافية في مصر ، والنادي العربي بدمشق ، والمثني ببغداد . . دورها في النشاط التعليمي والحياة الثقافية وذلك عن طريق ما يلقى على منابرها من خطب ومواعظ ومحاضرات . وما يقوم في حركتها من حلقات دراسية واجتماعات سنوية وموسمية .. وكذلك فيما تنشره من المؤلفات والرسائل والدوريات .. وغيرها مما أثمر في الثقافة العامة وحب للناس القراءة والاطلاع ورتقى بالبعض منهم الى الأخذ والاستيعاب والمناقشة .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي - عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٥٦ .

(٢) محمود كامل - عروبتنا - ص ٤٣ ، وراجع بديع شريف - صراع العرب والموالي ص ٩٩٠ ، والموضوع نفسه في كتب القومية العربية لمحمدي طربين ، وطانيوس والحصري والشهابي .. وقد نشأت الجبهة السورية كذلك ! . .

(٣) عمر الدسوقي - البارودي ص ٤٤ .



وحسبنا أن نذكر ما كان لنداء الزعيم مصطفى كامل في « اللواء » لسان  
الحزب الوطني في إنشاء مدارس الشعب . وقيام الجامعة الأهلية - المصرية -  
لتكون عوناً على إنداد جيل مثقف يحمل تبعه الصراع السياسي والفكري في  
البلاد وينهض بالأمة الى المستوى اللائق بها بين الأمم .

وقد كان للادب العربي أثره في قيامها ومباركتها لها وهكذا كانت

قصيدة حافظ ابراهيم (١) :

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا      إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا  
ولا حياة لكم إلا بجامعة      تكون أمماً لطلاب العلا وأبا  
تبني الرجال وتبني كل شاهدة      من العالي وتبني العز والغلبا .. الخ

وكذلك نظرة الرافعي في قصيدته « نبأ مصر » التي عجب فيها من

تقاعس المهتم في إبراز كيان الجامعة (٢) .

ومما يذكر بهذا الصدد أن لدراسات المستشرقين في التراث القومي (\*)

كانت مكانة خاصة في هذه الجامعة ، . . . وبسبب قريب من نداءات الرافعي

إهتمت الجامعة بالدراسات الأدبية ، وتاريخ آداب العرب (٣) .

(١) ديوان حافظ - ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٧٢ .

(٢) الرافعي - النظرات ج ١ ص ١٤ .

(٥) راجع موضوع المستشرقين - لويس شيخو - آداب القرن التاسع

عشر ، وجرجي زيدان - آداب اللغة العربية ج ٤ ، ونجيب العنقبي - المستشرقون .

(٣) راجع الرافعي - المعركة تحت راية القرآن ص ٦٨ ، وسعيد العربان

- حياة الرافعي - ص ٦٥ .

ويضاف الى هذه الحركات التعليمية المحلية ، عمليات البعث العلمية الى الديار الأوروبية ، والأصقاع الأمريكية ، . وقد كثر عدد طلبة البعثات والتبادل الثقافي ، وتوالت الاعارات بين الجامعات ، وتبودلت الزيارات العلمية ، . . . وكثرت المحاولات في البحث عن كنوز الآثار العلمية والتاريخية والحضارية في مختلف أنحاء الأقطار العربية .

ويرجع بعض المرين الى هذه البعث والمحاولات العلمية الأثر في التوسع بالتعليم العالي في كل من مصر وسوريا والعراق ، . . ثم الأقطار الأخرى . . . حتى ليعدُّ بعض النقاد اليوم مثل الدكتور طه حسين خلاصة التيارات الدراسية التي سعى بها الى الحياة الأدبية في الأزهر ثم الجامعة المصرية فالسوربون بفرنسا ، والى عهده بالتدريس الذي أضحي به عميداً للأدب العربي في كلية الآداب (١) . وكان من أثر التوسع في التعليم أن وجد الجيل القاري ، . . والذي لم يعد الكتاب وحده ولا المحاضرة أو حلقات التدريس تكفيه ، . . وعندئذ أصبح للصحافة مكانها من سير الحياة الفكرية ، وانتشار المذاهب الأدبية ، واحتدام الآراء ، . . وتحرك اللغة وتعاضم قوة نموها وازدهارها ، . . حتى غدت العامل الاساسي في النهضة (٢) .

وكان للمسيحيين السوريين بخاصة أثر كبير في النهضة بالصحافة في لبنان ومصر ، . . وقد سبق لنا أن عرضنا لأسباب هجرة بعضهم الى الديار المصرية ، وبسطنا يوازها عند كلامنا عن البيئة الاجتماعية .

(١) مجل يوسف نجم - الأدب العربي في آثار الدارسين - ص ٣٢٧ .

(٢) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ١ ص ٨٩ .

ففي عهد محمد علي هاجر الى مصر من سورية تراجمه وطباعون ، عنوا بنشر التراث العربي الى جانب عنايتهم وعملهم في « الوقائع المصرية » وغيرها من الاعمال الرسمية الاخرى . .

كما أن الدعوة الى الهجرة كانت تصدر عن المثقفين السوريين ، الذين ضاقت بعض جماعاتهم ذراعاً بالاجراءات التركية ، فرأوا من الحكمة الانتقال الى مصر ، حيث الامن والدعة والحرية ، التي حاولت بها سلطات الاحتلال من ثم تكريس الانفصال بمصر عن الدولة العثمانية ، . . ولتكون للكلمة الجاسوسة والندسة مكانها في صفوف هؤلاء . . .

وما لبثت هذه الهجرات غير المنقطعة تحدث أثرها الواسع المدى في المجتمع المصري المثقف بالذات . . وفي التحول بالنظرة الى العاطفة العربية - القومية (١) .

وهكذا وجدنا فارس نمر ويعقوب صروف ينقلان مجلتهما « المقتطف » من بيروت الى القاهرة (٢) وينشئان هناك « المقطم » جريدة يومية الى جانب المجلة العلمية ، . . لتأييد الاحتلال وتكريس وجود الانجليز وتصوير وجودهم غير الشرعي في مصر بالصورة الانسانية التي كان يدعيها كرومر (٣) .

ووجود هذه الجريدة هو الذي شجع من كانوا يعتنون أنفسهم بـ « ذوي المصالح الخاصة » . . من أن يكونوا لأنفسهم حزباً يسمونه على « الامة » . .

(١) جورج أنطونيوس - بقظة العرب - ص ٧٩ .

(٢) كان ذلك عام ١٨٧٦ م .

(٣) محمد محمد حسين - الإنتاج الوطنية ج ١ ص ٧٣ وما بعدها .

ويصدرون بعد ذلك صحيفتهم « الجريدة » برئاسة أحمد لطفى السيد لتقطع  
أشواطاً أخرى مع المحتلين .. ما دامت مصالح محمود سليمان ( باشا ) ورفاقه  
مضمونة من المعتمد البريطاني والمحفل الماسوني (١) .

وكذلك سعى تاجر الصابون سليم تقلا وأخوه بشارة الى إصدار  
« الأهرام » - كبرى صحف الدنيا العربية اليوم ! - ولتغنى بأخبار الفرنسيين  
وتأخذ عنهم ! .. ولعل عنايتها بالخاصة الخديوية ولشعر شوقي بخاصة (٢) هي التي  
مكنت لها من الانتشار والاتساع في التوزيع ! ..

وإزاء ذلك كان لا بد من وجود صحافة قومية لا تداري المحتل .  
ولا تحاييه ، ولا ترى في وجوده شيئاً طبيعياً . ولا منطقة سليماً مهما كانت  
التعلات التي يزعمها أعمدة الاستعمار ! .. فظهرت « المؤيد » للشيخ علي يوسف  
عام ١٨٨٩ م التي ما لبثت أن غدت جريدة العالم العربي غير منازع وكان  
لها بالغ الاثر في الحياة العربية (٣) .

كأرحبت بمصطفى كامل - من قبل - وهو بعد شاب يتقد غيرة وحماسة  
ونشرت له المقالات الضافية والمتهبة وكانت تفرد صفحاتها الاولى لمثل هذه  
المقالات الوطنية والاصلاحية التي كان يكتبها كبار الكتاب في ذلك العهد

---

(١) محمد محمد حسين - الاتجاهات الوطنية ص ٧٨ ، وانظر كذلك  
- الدولة العربية المتحدة - ج ٣ ص ١٠٣ .

(٢) راجع شكيب أرسلان - شوقي - ص ٨ .

(٣) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٨١ .

كالشيخ محمد عبده وعبد الكريم سلمان - ثم عبد القادر المغربي ومحمد كرد علي  
ومحب الدين الخطيب وسواهم (١) .

وعلى صفحاتها الحرة ظهرت بواكير الأدب الحديث كما عنيت بالشعر ،  
ونشرت للبارودي وصبري وشكيب أرسلان ، . . ولأحمد شوقي ، . . وغيرهم  
وهي التي هلت بميلاد الرافعي شاعراً .

وكذلك قامت « اللواء » لتكون لسان الحركة الوطنية ، وفيها استقبل  
الزعيم مصطفى كامل ديوان الرافعي بقولته التي ذهبت مثلاً « . . وسيأتي  
يوم إذا ذكر الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من  
البيان » (٢) .

ولما توقفت هذه الجريدة بعد وفاة الزعيم .. تابع الحزب الوطني إصدار  
الصحف التي عرف بها في الثبات على المبدأ ، والقصد في الأهداف القومية ، . .  
فكانت جريدة الشعب ، ثم جريدة الأخبار وكان للمرحوم أمين الرافعي  
- الرجل الحر الضمير الكبير النفس (٣) قلم الصدق والصراحة والوطنية السابقة  
في هذه الصحف (٤) .

ثم لما تفرقت السياسة أهواء ، وتمخض حزب الأمة عن موالييد حزبية  
« أفسدت الحالة السياسية في مصر ، وجعلت بعض الأمة يلعن بعضها لعماد مقدساً » (٥) .

---

(١) عمر الدسوقي - علي يوسف - الكتاب - تموز - يوليو ١٩٤٨ م .

(٢) انظر سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٥١ .

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٣٩ .

(٤) راجع ذكرى أمين الرافعي - لصديق عنبر .

(٥) الرافعي - الرسائل ص ٧٩ .

كان للأحرار الدستوريين صحفهم وللفدائيين صحفهم والآخريين صحفهم ، ٠٠ فكانت السياسة ، وكوكب الشرق والبلاغ والجهاد .. الخ .  
والى جانب هذه الصحف اليومية قامت المجلات الاسبوعية والشهرية ،  
ويلاحظ لأول وهلة أن جل هذه المجلات كانت بيد الأدباء والكتاب السوريين ،  
كاليان والضياء للشيخ ابراهيم اليازجي ، والمجلة لتحليل مطران ، والهلال لجورج  
زيدان ، والمقتطف ليعقوب صروف ، والجامعة لفرح أنطون ، وسركيس لسليم  
سركيس ، والمنار للشيخ محمد رشيد رضا ، والزهور لأنطون الجميل والبيان للشيخ  
عبد الرحمن البرقوقي (١) ، والزهراء للشيخ محب الدين الخطيب ، والعصور  
لإسماعيل مظهر وأبولو لأحمد زكي أبي شادي ، والرسالة لأحمد حسن الزيات ،  
والثقافة لأحمد أمين . . وغيرها من المجلات التي كانت تظهر وتختفي كالنواكب  
في سماء الفكر العربي .

ولم تتخلف صحيفة من هذه عن فتح أبوابها لأبحاث العلوم ، ومصورات  
الفنون ، . . ومجالات الأدب .

---

(١) أنظر سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٣٢٢ - وقد ثبت لدينا أن  
الرافعي كان رأس التحرير فيهم - ١ ، ويحتفظ الشيخ أبو ربة بالمقالة الافتتاحية  
الأولى بخط الرافعي بالقلم الرصاص - وهي تعود اليوم وثيقة قومية  
سابقة .

كما يحتفظ بمسودات أخريات بخطوط الكتاب ، وقد جرى فيها قلم الرافعي  
الأحمر تهديباً وتشديباً .

وقد نشرت فيها فصول في الزراعة والصناعة ، مترجمة وموضوعة ،  
وأبحاث في التاريخ ومقالات في الفكر الانساني والفلسفة ، جنباً الى جنب مع  
الأخبار السياسية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، . وغيرها .. مما تفتقر اليه  
صحافتنا اليوم !.. بالرغم من التقدم العلمي في فنون الطباعة والاخراج ! ..  
كما فسحت المجال فيها لصراع فكري ، ومناقشات علمية ، من أشهرها  
تلك التي عرفت بمعارك الأدباء ، والتي أثمر فيها البحث والدراسة والتتبع بناء  
علمي موفق وكان الرافعي في هذه المعارك نصيباً كبيراً (١) .. حتى ليخيل إلي  
أنه لم يكن يكتب فصلاً من فصوله أو بحثاً من تأليفه ، أو رأياً من تصنيفه حتى  
يجد أمامه من يسائل ، أو يرد أو يحاول المناقشة وقد يصل أن يبلج في  
الخصومة واللدد (٢) .

ومع ذلك كله فقد استطاع أن يثبت وجوده العلمي وشخصيته الأدبية  
التميزة في هذه الصف جميعاً أمام مختلف التحديات والتصديات التي كانت  
تقف بوجهه . أو تحاول منازلته وغمز آرائه . أو نبز مؤلفاته . والأعجب من  
ذلك أنه لم يكن يقتصر على صحف معينة في القراءة والاطلاع أو الكتابة والنشر  
بالرغم مما كان يلحقه من أذى .

وعلى صفحات هذه الصحف قامت حركة التجديد . ونشطت في مختلف  
شؤون الأدب والفن .. أمام التحول والتأثر بالعلوم الحديثة . والفنون  
المترجمة .

---

(١) أنظر أنور الجندي - المعارك الأدبية - مادة الرافعي .

(٢) سنبت الحديث عن الموضوع في كتابنا التالي .

وعالجت هذه الصحف فنون الأدب بدراسات قيمة ، ما لبثت أن  
تعاظمت من ثم وأضحت كتباً ومراجع في الموضوعات التي تصدت لها ، . . كما  
فتحت صدرها للخطابة ، وتمت المقالة وجودتها ، وبسطت للمحاضرة ، ومكنت  
الأقلام أن تعبر على صفحاتها مختلف الآراء . دائرة بالفكر والمذهبية على أفلاك  
جديدة ، يكن للعرب عهد بها حتى في المناظرات الكلامية والمجادلات المعروفة  
في مصنفات آثارهم (١) .

وفيها أيضاً خرجت أول بادرة لنقد الشعر والأدب وتقويمه « تأثرت  
بالقديم تأثر ولاء وإخلاص ، وأخذت من الحديث كل مفيد ونافع » (٢) .  
ويلاحظ فيها أيضاً أنها فسحت المجال للعناية بالترجمة عن اللغات الأخرى ،  
وأفادت من هذه الترجمة في عمليات تصحيح الأخبار التاريخية ، وتهذيب السير ،  
والسمو بالتراجم والتمكين للنقد المنهجي والعلمي أن يأخذ سبيله في هذه  
المجالات . .

كما نلاحظ فيها أيضاً حظوة للقصص والروايات تزيد في تطعيم الآداب العربية  
بالمعاني وتقدم بفنونها الى التقليد والمقارنة ثم الانفراد بمذهبيات جديدة في واقع  
الحياة . .

ويلوح لي أن كان هناك كلاستباق بين الكتاب والعلماء في عمليات  
الترجمة والتلخيص عن اللغات الأوروبية الحديثة ، .. الى اللغة العربية ..  
ثم ما لبثت هذه الحركة الفريدة في الترجمة أن انتظمت في مجموعات من  
العلماء والأدباء أنست الناس ما كانوا يحفلون به من أخبار عصور الترجمة في  
(١) و (٢) محمد يوسف نجم - الأدب العربي في آثار الدارسين ص ٣٢٧ .



العهد بن الأموي والعباسي ، . . . ومما يلاحظ أيضاً أن الترجمة العلمية في المجالات الطبيعية والزراعية والاقتصادية والانتقائية الحديثة « التكنولوجيا » كانت أدق وأوفى منها في المجالات الفكرية والأدبية ، . . . وعندى أن العلوم آمن في النقل منها في الفنون ، التي قد تصيها الوجدانية بالفهم الخاص ، . . . فيؤثر بعض المترجمين الاختصار ، والتلخيص ، . . . ومن ثم يخلط بين ما يراه حقاً وما ينقله صدقاً ، كما نرى ذلك في الترجمات الأولى بخاصة .

على أن مثل هؤلاء المترجمين - حين أعيامهم فن الترجمة من الظهور عليه والتمسك من أداته . . . عادت بهم معرفتهم اللغات الأخرى الى إبتسار الآراء ، والسرفرة والتلفيق مما لا مجال في إفاضة الحديث عنه ! . . .

ومع ذلك فإننا نرى اليوم أعمالاً عظيمة ترجمت الى العربية ، . . . وكان الرافعي - رح - ملحاحاً على نقل روائع الفكر والعلم عند القوم ، . . . يستنجر عباس العقاد مرة ، ويلحف في الطلب على اسماعيل مظهر ، ويدلي لسواهما برأيه بترجمة الآثار التي فيها حرية الفكر ، واستقامة المنهج ، والقصد العلمي . . . (١)

وكان سليمان البستاني قد نقل رائعة هوميروس - الألياذة الى العربية شعراً ، ومن أصلها اليوناني ، . . . مما حدا بالرافعي أن يبارك له هذا العمل الجليل بموشحة غنائية راقصة (٢) .

(١) راجع اسماعيل مظهر - المقتطف ٩١ حزيران (يونيو) ١٩٣٧ م ، وأجوبة الرافعي على أسئلة مجلة الهلال ، تشرين الأول (أكتوبر) وتشرين الثاني نوفمبر عام ١٩٢٦ م .

(٢) أنظر الرافعي - الديوان ج ٣ ص ١٢٠ .

أما المجموعات التي انتظمها من الترجمة ، فقد كانت بحسب اللغات التي تنقل عنها ، حيث حظيت كل لغة أوروبية حديثة بفتحة من ترجمة الأدباء العرب ينقلون عنها بعض آثارها الشهيرة ، ويتأثرون أساليبها في البيان ، ويقدمون رواعها الأدبية بخاصة .. فيبدشرون بها ، ويدعون إليها تعلماً ومعرفة من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، ومن أهم هذه المجموعات :

أ - تلك التي نقلت عن الفرنسية ما كتبه أساطين آدابها أمثال لافونتين ، وفكتور هيغو ، ولامرتين وبودلير .. وسواهم ، .. وأشهر من نقل عنها أمين الحداد وفرح أنطون وشيلي الملائم أحمد حسن الزيات والدكتور طه حسين ومحمد مهدي البصير واسماعيل مظهر وغيرهم .

ب - التي نقلت عن الإنجليزية رواع شكسبير ، وملتون وكيكس وكبلنغ وبيرون .. وسوهم .

ومن أشهر أحبارها نجيب الحداد ، وخاليل مطران وعباس العقاد وسلامة موسى .

ج - التي نقلت عن الألمانية آداب جوته ، وشرلر ، وهابني ، ومن حواربيها عبد الرحمن بدوي ومحمد عوض محمد .. وغيرهم .

د - التي نقلت عن اللغات الأخرى كالروسية والهولندية والاسبانية ، وما يزال تراجمتها في ازدياد ، وتراجمهم في نمو وإطراد ..

ومما لا شك فيه أن ما ترجم من هذه اللغات يؤلف اليوم مكتبة ضخمة جداً ، ويدعو الى العجب والتأمل معاً .. ولا أعتقد أنه قد تيسر للغات العالم ما تيسر للعربية في هذا الصدد .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الفكر العربي بعد إنساقه الحديث وقيام الأدب المنبعث في طوابعه الجديدة التي نمّ فيها عن الأمانة القومية والعمق العلمي والانتساع في مجالي الثقافة .. قد أخذ هو الآخر دوره في الانتقال ترجمة الى اللغات غير العربية وقامت حركة مقابلة لترجمة الآثار العربية الحديثة . ومنذ أول القرن ترجمت مجموعات مختارة من الشعر العربي الى الفرنسية من بينها قصيدة اسماعيل صبري - لواء الحسن (١) .. وكذلك ترجم الاستاذ عبد الحميد سالم قصيدة الرافعي « النيل والطبيعة المصرية » الى الفرنسية ونشرت في صحف باريس عام ١٩٢٨ م (٢) كما ترجمت مقالته « الاحسان الاجتماعي » في وقت سابق .

كما نقل قصته « رؤيا في السماء » طيب الذكر الاستاذ فيليكس فارس .. (٣)

ونقلت الى لغات أخرى آثار عربية أخرى غير الشعر منها تاريخ التمدن الاسلامي لجورج زيدان وعودة الروح لتوفيق الحكيم والأيام لطفه حسين .. الخ ..

ومن بين الآثار التي نقلت الى لغات مختلفة ديران « أغاني الكوخ » لمحمود حسن اسماعيل و « بساط الريح » لفوزي المعلوف .

وكان من بين اتجاهات جامعة الدول العربية وحركة الجمهورية العربية

---

(١) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) أنظر رسائل الرافعي ص ١٣٩ .

راجع فيليكس فارس - رسالة المنير ص ١٢٧ .

المتحدة . . تنظيم العمل في نشر بعض الآثار القيمة الى اللغات الحية .

\* \* \*

ومما هو جدير بالذكر والمراجعة وربما دعا الى الإشفاق والألم أحياناً الى جانب إعناء المكتبة العربية بالآثار والروائع العالمية ما كان من أثر الثقافات المتعددة بهاتيك اللغات أن نشأت بين ظهرانينا مذاهب فكرية متفرجة (١) تتحزب وتتعصب لمذاهب فكرية وأدبية في هاتيك اللغات التي تقرأ فيها وتنقل عنها .

وقد انارت فيما بينها خصومات لم تخل من شحنة ولد وربما معارك جانبية مضحكة .

وعلى سبيل المثال نذكر أن أنطون الجميل كان قد نشر كتاباً عن احمد شوقي - رح - بأسلوب فيه طبيعة الجميل السمحة وسجيته الهينة اللينة ولكن العقاد - عفا الله عنه - كالذي إهتبلها فرصة ينال فيها من الاثنين معاً ويتحدث عن « طريقة الصالونات الفرنسية التي لا تصرح ولا نهاجم ولا تنقد ولا تكشف في وضوح عن العيوب الأدبية » .

وقد أثار بذلك سجلاً أدبياً بينه وبين الدكتور هـ حسين على صفحات الرسالة بين اللاتينيين والسكسون ٠٠١١ وكأفهما من أبناء السين والثاميز ولم يغترف أحدهما من النيل بلة ريق ٠٠٠١

وبلغ « التفرنج » الفكري والتبعة الأدبية حدّ الرقاعة عند البعض من

---

(١) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ٢ ص ٦٢ ، وكذلك

أنيس المقدسي - الإنجازات الأدبية - ج ١ ص ١٤٠ .

أدباء لبنان فقد تفرس إيلياس أبو شبكة في كتابه «روابط الفكر بين العرب والفرنجة» .. الى درجة يقول فيها «.. قد لا نخطئ، إذا قلنا أن فرنسا هي ندي العالم، وأن معظم الحركات الاجتماعية والسياسية والأدبية قد وضعت من هذا الندي» ١ .

وزاد فرج الله الحائك بقوله «نحن لا نستطيع أن بين محبتنا فرنسا، وبين تأثيرها الثقافي علينا، فنحن نعيش في وسط فرنسي في روحه ولغته» (١) .

\* \* \*

وبجانب هذا وذاك فقد استبق الصراط مؤلفون عرب فوضعوا جملة مؤلفات في مختلف الموضوعات باللغات الأوربية الحديثة، ولا سيما الإنجليزية والفرنسية والألمانية، .. ونذكر من هذه المؤلفات «يقظة العرب» لجورج أنطونيوس، و«تاريخ العرب» لفيليب حتى، و«ابن خلدون» لشارل عيساوي، و«حول الجزيرة العربية» لأمين الريحاني ١٠٠ الخ (٢) .

يضاف الى ذلك جملة صالحة من الرسائل العلمية، نال فيها أساندة فضلاء كبريات الشهادات من الجامعات الأوربية، .. وقد درسوا فيها موضوعات قومية وتاريخية وعلمية وفق أحدث المناهج في البحث والاستنتاج .

وقد تركت هذه الآثار العلمية، وتلك المصنفات والترجمات أثرها في الفكر

---

(١) الجمهور - اللبنانية، ١ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ م - كتاب متفرنسون، ويقابل ذلك مقال كتبه عبد الله المشنوق بعنوان «تعلمت من تلاميذي» في الحياة البيروتية عام ١٩٤٤ م .

(٢) أنظر أنيس المقدسي - الإنجازات الأدبية ج ٢ ص ١٥٣ .

العربي الحديث ، ومذاهب التربية والتعليم بخاصة ،  
منها ما يأخذ الشكل العلمي الذي انتهت اليه حضارة الغرب ، .. فيجنح  
الى الأخذ وتقليد القوم بطفرة ينسلخ فيها الشرق عن ماضيه وحاضره ، ليلحق  
بالركب الأوربي ، .. فيزعم الاتجاه الجديد ، (١) ومنها ما يزيد فيتهم العربية  
نفسها بالقصور عن الاستيعاب العلمي ، .. فيدعو الى التعليم بلغة أوربية (٢)  
ومنها ما يحاول الحياة العلمية التي تنصر الاتجاه القومي بمجهود جهيد (٣) .  
وإزاء هذه المجالي المتعددة ، والحياة العلمية المتسعة ، والوفرة في المعلومات  
الثقافية ، كانت اليقظة الفكرية تدبُّ في صفوف الكتاب ، وتسابق العلماء ، ..  
وتنتظر الشعراء في مناحي فريدة من جوانب الثقافة والاجتماع .  
ولعلَّ من أدق ما يلفت النظر ، وبثير الإعجاب ، أن يجد المرء سعيًا حثيثًا  
للمذاهب الفلسفية يعاصر الحياة ، ويتقدم من الجمهور ، يأخذ بيده تارة ، أو يدفع  
به أخرى الى ما يتشوف إليه من استبصار في جوانب الحياة كآها .  
كما يرى الانسان في نشاط الآراء الاجتماعية ، واتصالها بالناس في واقعهم ،  
واستهدافها معهم للغايات الكبرى في الكرامة الانسانية ، وما يأخذ بمجامع القلوب .  
وكان لشيوخ المناهج العلمية ، وذبوع النظريات التطبيقية ، والمحاولات  
التفسيرية والتحليلية أن انتقلت بعض هذه المناهج والنظريات ، حتى الفرضيات

(١) كالدكتور طه - حسين وكتابه « مستقبل الثقافة في مصر » راجع

نقاش الحصري له في كتاب « الإقليمية » .

(٢) هو سلامة موسى .

(٣) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ١ ص ٦٤ وما بعدها .

الى معالجة القضايا الانسانية التي تستهدف تغيير أساليب الحياة والعيش في معظم  
مجالاتها الحيوية عند الحضارة والاجتماع .  
وكان لانتقال هذه المعلومات الانسانية الى الشرق العربي عن طريق ما أسلفنا  
ذكره من الترجمة والبعوث والدراسات ، .. أن قامت حركات مشابهة وأخرى  
مقارنة ، وثالثة تحاول الانفراد بالأخذ والتثمين ، وطبع هذه المعلومات بطوابع  
قومية فيها تفاعل ودراسة ، وفيها استكمال أداة ومحاجة ، ومنها ينطلق أسلوب  
رشيد يتناول الأحداث بثقة وجدارة .

ومن أهم الأفكار التي ثارت في الشرق العربي خلال القرن الأخير  
فوسمت بقطعة الفكرية ، .. الروح القومية بما يتخللها من المبادئ . وما يقوم بها من  
الدعوة الاعتقادية والفلسفة الكلية والالتزامات الاخرى والنزعة الاشتراكية .  
التي تذهب بالعدل في صفوف الأمة الى غايات بعيدة ومرام كانت تحسب  
بعض المذاهب أن لم يصلها تشريع . . . وتضمن الحرية الاجتماعية للجمهور عند  
معظم مجالي نشاطه وفي أوسع آفاق ديناه .

وكان للفكر الأوربي في هذه الناحية مقام الرافد الذي يبعث الحياة  
ويوقظ النشاط ولا سيما في الفترات التي اندلعت فيها الحركة الفرنسية ، وقامت  
خلالها حرب التحرير الأمريكية حتى انفجرت الثورة الروسية . . .

أو بتقدير آخر كان للفكر الأوربي ما بين حرب السبعين ١٨٧٠ م  
وحى الحرب الثانية عام ١٩٣٩ م وما كان قد عاناه من صراع بين المذاهب  
الاجتماعية العديدة والفلسفات الكثر . ما أعطى الفكر الانساني بعامة ، والعربي  
بخاصة دفعا حيويًا يزججه بالمثاليات ، ويمضي به الى ما تهدف اليه كل أمة من

مصير عزيز ، و حياة كريمة .. نجد فيها الانسانية نفسها بعض غاياتها في الوجود .  
ولعل من أفعل النظريات القومية في الفكر العربي تلك التي عرفت عن  
المفكرين الألمان وفلاسفتهم ابتداءً من الفون هيردر وهيجل وفخته ونييتشه ..  
وانتهاءً بماكس نوردو (١) ، والتي إهتمت باللغة من حيث هي الأساس الاول  
في الثبات القومي . حيث تضم اليها تراث الأمة ، كما تحفظ بعاداتها وأخلاقها  
وتقاليدها المميزة .

وذلك مذهب يأتلف مع الروح الأدبية للعرب (٢) . لذلك نرى الكثير  
من أدبائهم ومفكرهم المحدثين يأخذون بها ويعرّبون مضمونها ، حتى لا نجد  
في أحيان كثيرة بعض صلة بين ما يذهبون اليه من آراء حديثة أحياناً ، وبين  
ما تأثروا به من الفكر القومي الألماني .

وبالرغم من اضطراب مفهوم القومية في أول القرن ما بين الاقليمية

---

(١) ماكس نوردو - يهودي مجري ، ولصكته كتب في الألمانية ومات  
عام ١٩٢٣م وما يزال كتابه «روح القومية» - الذي ألفه على شكل رواية ترجمها  
عادل جبرة منذ عام ١٩٢٢م - كالمعين لنظرية اللغة في القومية ، .. ومما لا ريب  
فيه أن لآرائه اللغوية والقومية أبعاد الأثر في بعث اللغة العبرية عند اليهود في هذا  
القرن ، .. والتي عادت تضطر الاستخبارات العالمية الى تعلمها ! .. فتأمل !  
وانظر عبد الرحمن البزاز - هذه قوميتنا ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) لا أرى أن للنظرية الألمانية بعامة كانت تغرب من مذهب الإمام  
الشافعي في اللسان - على ما سوف نفصل فيه القول عند دراسة الضمير القومي  
في أدب الرافعي .



المحدثه و « الوطنية » والجامعة الشرقية أو الدينية ، والصفة اللاغوية (١) ، فإننا نجد آثاراً فكرية في الأدب الحديث تدل على نضج مبكر في هذا الشأن .

فما كادت تشيع قصيدة الشيخ ابراهيم اليازجي في « إستنهاض العرب » التي يقول فيها :

تنبهوا واستنيقوا أبها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب  
.. فيا القومي وما قومي سوى عرب وان يضيع فيهم ذلك النسب  
حتى نجد الرافي كالذي يبادر فيعارضها في قصيدته « اللغة العربية والشرق »  
التي يستهلها بقوله :

أم يكيد لها من نسلها العقب ولا نقيصة إلا ما جنى النسب  
كانت لهم نسباً في كل مكرومة وهم لنكبتها من دهرها سبب  
لا عيب في العرب العرباء إن نطقوا بين الأعاجم إلا أنهم عرب  
ويذهب فيها ذلك المذهب القومي الحريص على الأساس ، .. حتى  
يختتمها بقوله :

إذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت

للعرب أي فخار بينها الكتب

وفي المعادن ما تمضي برونقه

بد الصدا .. غير أن لا يصدأ الذهب

وقد أحدثت هذه القصيدة يوماً حواراً بين الأدباء ، .. ذهب بعدها

(١) راجع عمر دقاق - في دراسته « الإنجاه القومي » في الشعر العربي

الحديث .. ط الشرق - ص ١٩٦٣ م .

فرح أنطون الى نعت الرافي بشاعر الشرق (١) وكأنا أراد أن يصفه بشاعر العرب القومي ، حيث كانت تختلط هذه المصطلحات مع معانيها (٢) ٠٠ وحاول غير واحد من الشعراء أن يقول في الموضوع نفسه .

ولعل هذه الوجهة الاعتقادية في أدب الرافي المبكر كانت بسبب من أرومته العربية العميقة ، وسوريته ولقائه بالشيخ عبد الحميد الزهراوي - أحد أعضاء حزب اللامركزية ، والذي رأس المؤتمر العربي الأول الذي عقده الطلبة العرب بباريس عام ١٩١٣ م ،.. والذي كان كالمهذب لأدب الرافي في ذلك الحين (٣) .

ولا يقف الرافي عند هذه البادرة القومية ، وإنما راه - في الوقت الذي كانت ما تزال الدراسات القومية في اللغات الأوربية نفسها تعاني من اختلاف النظريات ، واصطدام المذاهب واحتدام الآراء ٠٠ - ينقطع منذ عام ١٩٠٩ م للتأليف في جوانب منها ، بفكر ثاقب يدل فيه على الأصالة والعمق والاستيعاب . فيرتقي بالقومية نفسها من الفكرة والنظرية حتى يصل بها الى الدعوة الاعتقادية ، التي تهذب الروح العربية ، وتجمع العرب على لغة القرآن ، وتطبع

---

(١) أنظر فرح أنطون في مقدمته لهذه القصيدة - الجامعة ٦ ، ٧ - ايلول

(سبتمبر) ١٩٠٣ م .

(٢) راجع عبد الرحمن البراز - هذه قوميتنا - ولا سيما الفصول التي

تحدث فيها عن تحرير القومية ، والأرض والتاريخ والدين .

(٣) عن رسالة للشيخ الزهراوي بعث بها الى الرافي في ذلك الحين .

العقيدة الإسلامية نفسها بطابع الجنسية العربية (١) ، والقومية التاريخية (٢) .  
ويتبادر إلي أن الرافي لم يكن ليفصل القومية عن المعنى الاجتماعي العام  
للنظام العربي - الإسلامي فقد كان يتأمل المذاهب الاجتماعية الحديثة في الاشتراكية ،  
ويحاول أن يجد لها جذوراً في شعاب الحضارة العربية ، وآفاق الفقه الإسلامي ،  
وما أبقاه التاريخ من أخبار ، ومجالي الحديث عنها ، .. فنجد عرف مذاهب  
« أوفن » والاتحاديين وسانت سيمولن ، .. وراجع حكيم الشرق الشيخ عبد  
الرحمن الكواكبي وأخذ عنه وجهته في المقارنة بين سماه « الاشتراك العمومي  
المنتظم » والذي جعل أساسه الزكوات والكفارات المالية ، .. مما جاء في كتابه  
« طبائع الاستبداد » حتى لقد قال فيه الرافي :

.. فقد كان إن هره البراع رأيته يصل بأرض من فرند القواضب (٣)

وبين المذاهب الاجتماعية الحديثة .

وقد ذهب الرافي أكثر - ولا سيما بعد فشل ثورة المانشفيك - الشيوعية عام  
١٩٠٥م - في استغراق آثار العرب في جاهليتهم نفسها يبحث عن هذه الموضوعات  
حتى انتهى إلى القول « .. لا تكاد نجد مبدأ من المبادئ الاجتماعية التي قررتها  
الفلسفة الحديثة إلا وله ذكر في شعر هؤلاء الأعراب » .. واستشهد بقول زهير

ابن أبي سلمى المزني في مدح العرب : ..

على مكثرتهم حق من يترهم وعند المقلين الساحة والبذل

(١) انظر الرافي - إيجاز القرآن ط ٤ ص ٦٠ وما بعدها ..

(٢) الرافي - المعركة ص ١٠ ..

(٣) الرافي - رثاء حكيم الشرق - الديوان ج ١ ص ١٤٣ ..

حتى قال « .. فمهما أدت مذاهب الاشتراكية ، ومهما قلبت آراء علمائها ،  
لا تجد صوابه يخرج عن هذا البيت » (١) .  
وزاد على ذلك قوله في الاشتراكية العلمية (٢) ورأيه في « المائدة الخيالية » (٣)  
ودعوته الاشتراكيين أخيراً ليأخذوا مبادئ مذهبهم عن نبيهم الأعظم محمد بن  
عبد الله صلى الله عليه وسلم (٤) على ما سوف نفصل فيه القول في كتابنا  
الآخر ، الذي نبحث فيه الموضوعية المحدثة في أدب الرافعي .



- 
- (١) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٣٦ .  
(٢) الرافعي - الفقر والفقراء - المقتطف - أيار وحزيران ( مايو  
ويونيو ) ١٩١٣ م .  
(٣) الرافعي - الهلال - شباط ( فبراير ) ١٩٢٤ م - تحت راية القرآن  
ص ٤٦ .  
(٤) الرافعي -- سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم - وحي القلم  
ج ٢ ص ٧٠ .

## الفصل الرابع

### الحركة الفكرية والأدبية

كان للحالة السياسية التي فصلنا الحديث عنها ، وللهضة الاجتماعية التي عرضنا لجوانب منها ، ولتطور الحياة العلمية ، واتساع المجال الثقافي ، وكذلك تحول الفلسفات في اليقظة الفكرية .. أن ظهر أثر ذلك في العقل الأدبي للأمة ، وعمل على تحريك الفرائح ، وانبعثت الحيوية والنشاط في الحركة الأدبية ، .. كما كان ذلك الأثر واضحاً في الانتقال الحضاري ، والمحاولة المدنية ، والامتياز الثقافي .

فقد تقلصت بعض النظريات القديمة ، واندحر الكثير من الأوهام ، وظهرت نزعات حرة تأبى التقيد بالتقليد الذي يحول دون النمو الروي ، .. كما أحدثت حركة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبد الله فكري في مصر ، والشيخ القاسمي والكواكبي في الشام .. آثاراً تحسب للتفكير الصحيح حساباً (١) .

(١) أنيس المقدسي - الإتجاهات الأدبية ج ٢ ص ١٠ .

واستطاع العلم أن ينقل الدين الى آفاق ينشأ عنها أدب روجي جديد ،  
يقدم القيم الإلهية ، ويقوم بالمثل العليا للانسانية ، ويفتح أمامه آفاقاً جديدة  
من الايمان وينير له سبلاً لم يكن يعرفها من قبل لإدراك وجوده (١) .

وقدمر بنا ما كان لقيام دار العلوم من أثر في الحياة العلمية والثقافية ، ..  
فقد عملت أولاً على إخراج التأليف العربي في هذا العصر عن تقاليد في الأمالي  
والرواية ، وجمع الطرف والتنقح ، والدوران بها بين مصنفات الطبقات والنراجم ،  
الى لون جديد من الأخذ والاستيعاب ، يتصف بشيء من المنهجية الحديثة ، التي  
تعنى بتمحيص الآثار ، وتحليل المعاني ونقد الأساليب والتبويب والمقارنة .

وما يزال كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين الموصفي يعد كافتح  
الأول في هذا المضمار والمحاولة الموفقة الفريدة في هذا الباب ، والتي ألحقت العصر  
بالحياة دون أن تقطع به الأسباب عن سوابقه .

فقد تضمن القسم الأول من هذه « الوسيلة » إيجازاً للعلوم اللغة العربية ،  
وخلاصة لآراء الأقدمين في نقد الشعر وتقويم الآثار الأدبية .  
والختمى القسم الثاني على دراسة الفنون البلاغية ، واعتمد فيها على ابن

ابن رشيق القيرواني من أحكام في وحدة القصيد . . وكلامه الغامض في  
الموضوع بعامة . . .

على أن الجديد في هذا الأثر النفيس هو ما كان من استشهاد المؤلف  
بشعر تلميذه اللواء محمود سامي البارودي ، ونثر السيد عبد الله فكري ، . . ومحاولة

(١) محمد حسين هيكل - ثورة الأدب ص ١٣٠ .

تقومها وفق المعايير النقدية والبلاغية التي أوجز في صفتها (١). ولم يلبث هذا الكتاب - بل هذه الخلاصة المنتقاة - أن أضحى الزاد الأدبي الجليل الرعيل الأول من أدباء العصر، لا في مصر فحسب بل في سائر أقطار العربية، عليه يعكفون، وإليه يرجعون ومنه يأخذون فيمتدون في محاولاتهم التقليد والابداع في الآثار الأدبية (٢).

ثم كانت محاولة الأستاذ محمد توفيق الطويل، الذي تخرج في دار العلوم، والتحق بالمعاهد الألمانية، ليتم دراسته العليا، فقد تأثر في كتاب «بروكلمان» في تاريخ الأدب العربي، وراح يلمي على طلبة الدار كتابته، هو في هذا التاريخ على المنهج الحديث، وكان سليمان البستاني قد شرع في كتابة مقالات لمجلة الهلال في «تاريخ الأدب عند الافرنج والعرب» جمعها فيما بعد في كتاب أخرجه عام ١٩٠٤ م، وعاد الى إخراجها مهنياً ومنقحاً عام ١٩١٢ م.

ولما قامت الجامعة الأهلية بمصر عام ١٩٠٨ م، دعا الراجعي الى الاهتمام بدراسة الأدب العربي وما لبث أن كتب مقاله الأول في «الجريدة» (٣) للتأليف في الموضوع، وأتبعه بالمقال التالي يوضح فيه بعض ما التبس على الجامعة من

- 
- (١) راجع - الوسيلة الأدبية - ولا سيما ص ٤٧٤ وما بعدها .  
(٢) أنظر الراجعي في حديثه عن شوقي - المقتطف - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢ م ، - وحي القلم ج ٣ ص ٣٢١ ، ٣٥١ ، وراجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢١٢ .  
(٣) راجع الراجعي - المعركة بين القديم والجديد ص ٦٨ وما بعدها .

الأمس (١) ثم انقطع هو يجمع المادة ليخرج بها على الناس ، في الجامعة وفي غيرها من الأوساط بمؤلفه الفخيم « تاريخ آداب العرب » الذي درس في الجزء الأول منه اللغة والرواية وقد عدّه فتحاً مبدئياً في الدراسات الأبية ، التي تمنهج لنفسها من غير سابقة في التقليد ، أو محاولة في التأليف (٢) وكأنه كان يرشح نفسه لسدانة الموضوع في الجامعة ، بدلاً من « نالينو » الإيطالي وسواه من المستشرقين ، الذين لم تكن في دراساتهم ومحاضراتهم لطلبة الجامعة شيء لا يعرفه الرافعي . (٣) وكان من أثر دعوة الرافعي أيضاً أن تصدى جورجى زيدان لكتاب « بركلان » نفسه ، يأخذ عنه طريقته ويحاول تعريبه باقتسار ، .. حتى لم يكن يخلو عمله من نقل مفضوح في الصورة والتحوير (٤) .

وما زالت محاولة الدكتور طه حسين في « تجديد ذكرى أبي العلاء » تعدّ الأولى من نوعها وثمرّة الجامعة الأهلية ، التي توفر على إضاجها ثلاثة غير جهد صاحبها (٥) وقد وافت على منهاج أوربي غير متكامل .

وقد أعاد الدكتور طه حسين المحاولة حين تصدى للتأليف في الشعر الجاهلي عام ١٩٢٥ م . وبالرغم من أخذه عن الرافعي ، وإثارته لبعض القضايا ،

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ .

(٢) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث .

(٣) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٦٨ .

(٤) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث .

(٥) رسائل الرافعي ص ٢٠ .



فإنه قصر في الاستشراف الى آفاق علمية أخرى ، يوفق فيها (١) ، وما زال  
- عفا الله عنه - على حالته هاتيك حتى في تصديه للتأليف في « الفتنة الكبرى » (٢)  
إذ أن من عيوب طه حسين أن لا يعود الى مراجعة ما يحنح إليه من مغامرة يقذف  
فيها نفسه ويعتد برأيه محتجاً بأساس ما ..

وإذا كان من آفات الأديب العربي « المبالغة » والتهويل ، .. فلا يجوز  
أن تنسحب هذه على الدراسات المنهجية التي تعتمد التحليل والمراجعة والمقارنة  
الحديثة قبل التسليم برأي ما .

\* \* \*

ولقد توالى من ثم الرسائل الجامعية في موضوعات الأدب وتاريخية  
تطرد مع الحركة الأدبية نفسها في أشواط ما تزال تقطع فيها أسباب اليقظة الفكرية ،  
تتسابق علمياً ، .. ويظفر بعض النبغاء فيها بأعلى الشهادات وأوقى الدرجات ، ..  
حتى لتكاد الدراسات الأدبية تكون عنوان الحركة الفكرية والانبعاث الأدبي  
القائم اليوم .

وقد استطاعت المحاضرة التدريسية أن تتجمع في أماليها على طلبة المعاهد  
بخاصة ، أن تثمر في مؤلفات كلية تتناول الأدب العربي من عدة زوايا ، ..  
حتى ظهرت المصنفات المعروفة اليوم في « الأدب العربي وتاريخه » للأستاذ  
محمود مصطفى ، وتاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي ، والوسيط والفصل في

- 
- (١) سنبسط الحديث في ذلك عند كلامنا عن « عيال الرافعي » الموضوع  
الذي أدناه حول من أخذ عنه حديثة آرائه ، ولم يكن يحسن استعمال أدواته .  
(٢) راجع الشيخ محمود شاكر فيما كتبه عن الفتنة في الرسالة عام ١٩٤٧ م .

تاريخ الأدب العربي للشيخ أحمد الاسكندري ورفاقه ، .. وتاريخ الأدب العربي  
للأستاذ أحمد حسن الزيات .. ثم في الأدب الحديث وتطور النثر الحديث  
للأستاذ عمر الدسوقي ، والمجمل في تاريخ الأدب العربي للأستاذ محمد  
بهجة الأثري .

وكان لهذه المؤلفات أثرها البالغ في الرسائل الجامعية ، التي وافت في  
الصف الثاني من القرن الرابع عشر الحالي ، .. ونذكر منها على سبيل المثال تاريخ  
الشعر العربي للدكتور نجيب محمد البيهتي ، والحياة العربية في الشعر الجاهلي للدكتور  
أحمد محمد الحوفي ، .. وغيرها من الرسائل العلمية الموفقة .

وعادت كتابة التراجم والسير الى الحياة من جديد ، مستفيدة من  
المنهجية العلمية في التخطيط والتفصيل ، وإن لم تخل محاولاتها الأولى من التقليد ،  
فقد كتب الدكتور محمد حسين هيكل سيرة النبي العربي محمد بن عبد الله صلى  
الله عليه وسلم ، متأثراً الى حد كبير بكتاب المؤرخ الفرنسي « برنهام »  
في « حياة محمد » وبناه على هذا الأصل الفرنسي ، ولولا هذا الأصل ما كتب  
هيكل في حياة الرسول حرفاً (١) ..

كما كتب بالطريقة ذاتها الدكتور طه حسين « على هامش السيرة »  
في دياحة عربية يشرق فيها الأسلوب بالعبارة الرائقة ، ويرحل بالأصول التاريخية  
الى عربيتها ، .. ولكنه لم يكن يبدو فيه العربي المؤمن ، ولم يخل أسلوبه من

(١) محمود ابو رية - هامش رسائل الرافي ص ٢٢٣ .

« تهكم صريح » (١) . على أن الأصل الذي أخذ عنه طه حسين كان فرنسياً أيضاً وقد كشفه أحد أخوتنا الجزائريين الذين كانوا بدرسون معنا على الأستاذ نجيب البهتي في جامعة بغداد، وذلك أن « هؤلاء قوم مستعمرون من عقولهم » (٢) .

وكان الرافي قد هم في كتابة السيرة النبوية ، على نمط افترعه هو من المقالة البيانية والتأمل في الحوادث ، وتوليد المعاني ، وتفتيق الذهن على ما انعلق أو انبهم منها ، .. ولكنه لم يكتب منها غير صفحات ، ونشر بعضها في وحي القلم (٣) ، ..

واسكن العقاد - اهتبلها فرصة بعد وفاة الرافي ، فأخذ عنه بعض نهجه ، وراح ينحو منحى « ماروا » في الترجمة الأدبية ، فقطع أشواطاً في « العبقريات » (٤) .

وعلى أنها لم تخلق الى السماء الرافية في قوه العبارة ، وإشراقه البيان ، ونور الأسلوب وشدة الأسر ، .. إلا أنها استكملت بعض أدواتها التاريخية ، بالرغم من آفة العقاد في أخذه ما يوافق منه هوى أو يأتلف مع وجهة نظره ويطلب من مزاجه ! .

وكان هو والدكتور طه حسين بعد ذلك فرسي رهان في الموضوعات

---

(١) الرافي - الرسائل ص ٢٧٠ .

(٢) الرافي - ص ٢٢٣ .

(٣) اجتمعت لدي الآن ، وعسى أن يعين الله في إخراجها بالاسم الذي

أراده رحمه الله في « الكتاب النبوي » .

(٤) راجع إحسان عباس - فن السيرة ص ٦٢ .

التاريخية والاسلامية ، تحتاج الوقوف والنداسة وإطالة النظر ، ولا سيما في الظروف السياسية التي وجهتها ، .. وبخاصة في تلك الموضوعات التي تصدبها لها فأثارا غير معركة في المناقشة والرد .. والانهام (١) .

وكان الى جانب ظهور التأليف والترجمة والتصنيف في الموضوعات العلمية والأدبية بعامة ، .. ولوجود الصحافة اليومية والدورية ، والتي تحتاج الى السرعة والعناية معاً ، فقد ولدت « المقالة » في فن من فنون القول ، .. قد تكون تطورت - بسبب عوامل النهضة - عن المقامة أو الخاطرة ، .. أو تحولت عن الخطبة ، فكانت سبيلاً وسطاً بينهما ، .. وإنما تميزت عليهما بشروط التوفر والاستيعاب ، ثم الصدور برأي يوضح هدفاً وحجة تبلغ قصداً ١ .

وقد نما فن المقالة نمواً سريعاً ، وتنوعت هي وتوزعت في نواحي النشاط الاجتماعي والثقافي (٢) ولا يفوتنا أن نذكر أنها اعتمدت الترجمة أولاً ولا سيما في الناحية العلمية .. حتى كادت تنفرد على يد الدكتور يعقوب صروف ، وفارس نمر وشبلي شمیل ، وسواهم ، ..

ثم قامت من جديد عند اسماعيل مظهر ، والدكتور مصطفى مشرفة وكادت تنال الحظوة لدى الدكتور أحمد زكي ومحمد عارف البرفوقي وغيرهم . وهي اليوم تمضي بأشواط تبشر بكل خير في هذا المضمار العلمي الواعد .

(١) كان المرحوم محمد سعيد العريان ( ق ) قد تصدى لبعضها في الثقافة ، وكذلك وقف الشيخ أحمد والشيخ محمود محمد شاكر في الرسالة وقدم أكال محمود الكلام حتى لا يكون من المقيد أن يعيد كل منها النظر فيما كتب ! ..

(٢) عبد اللطيف حمزة - الصحافة والأدب ص ١١٤ ..

وكانت المقالة السياسية التي انطلق بها الشيخ علي يوسف في ( المؤيد )  
وسدد خطاها بفنه الخطابي الزعيم مصطفى كامل في « اللواء » وسار بها من بعده  
أمين الرافعي في « الشعب » و « الأخبار » وكتبها كذلك عباس العقاد ومكرم  
عبيد ومحمد حسين هيكل ، وثار بها في العراق عبد الغفور البدرى وأمين أحمد  
في « الاشتغال » ونازل بها الزعماء القوميون أساليب السياسة المتتوية عند  
حكومات الاحتلال والتبعية .

أما المقالة الاجتماعية ، فقد عاناها معظم الكتات والأدباء .. والسياسيين ،  
ولاسيما بعد أن أضحى الاجتماع القومي والانساني المعين الذي لا ينضب لما يحتاجه  
هؤلاء من معاني الحياة التي يهدفون إليها بقصد أو دراية ، أو مذهب واتجاه .

.. وقد كتبها المويلحي ، ونظر بها مصطفى لطفى انغلوطي في جريدة  
الشعب ، واستهدف فيها الرافعي في « الجريدة » و « البيان » والمقتطف والهلال  
والمضار ثم الرسالة . وضمنها من قوة حجته ، وروعة عارضته البيانية ما سماها بها الى  
أوج عال من الاتفاق والسداد ، .. ولا سيما تلك التي عالج فيها معضلات الانسانية  
الكبرى في الفقر والفقراء ، والجهل والطيش والخلط وتخانيث أوربة على ما  
سوف نعرض له في فصل خاص .

وقد برزت بها من ثم الآنسة « مي » ولاسيما في موضوعات المرأة ، ..  
وتنوع بها أحمد أمين وكتب بها غير هؤلاء وأولئك في معظم ما يزرخ به المجتمع  
الجديد من مسائل وقضايا .

وكانت كذلك المقالة الأدبية التي تميزت في أشكالها الثلاثة وهي ترقى  
في الأدب الحديث وتمتد به الى جمهور القراء والدارسين معاً .

حيث اصطلقت التقريرية منها الحديث عن الأدباء والشعراء تصف من  
أحوالهم وتنتع آثارهم وتجزئ القول في النعت والتقوم عن النقد  
والتحليل،.. وقد يكون إبراهيم المويلحي قد بدأها ولكن مصطفى لطفي المنفلوطي  
سار بها أشواطاً وهو يعرف بالأدباء والشعراء ثم تلاه محمد صبري فالعقاد  
وأما النقدية والتقويمية فإن الشيخ إبراهيم اليازجي يقف في مقدمة  
منشئها مع صاحبي المقتطف حتى تلامم الجيل اللاحق كالرافعي والعقاد ومي  
وفيلسكس وفارس ..

وبلاحظ عليها من ثم أنها راحت تتوزع مع مذاهب النقد التي قامت في  
الأدب الحديث من بعد .

ولكن المقالة البيانية قد أوتيت حظاً كبيراً من العناية والتجويد .. ذلك  
أن ما تحفل به من معانٍ تأتي على صيغ بلاغية خاصة وأساليب اللغة والانشاء  
تميزها وتقوم بها على وجوه من هاتيك المعاني وما تنفتح عنها ونماذج من الظلال  
وما ينير من حولها وأشكال من الأصداء ترن من بعدها، .. وهي ترتفع كلما  
ارتقى السكاتب في مجالي الثقافة العلمية واللغوية ويمكن من الحصيلة العلمية  
الواسعة .

وقد يكون إبراهيم المويلحي في طليعة من توثقها كما يكون الشيخ إبراهيم  
اليازجي في مقدمة من سار بها قسداً وغاية .. كما كان الشيخ محمد رشيد رضا  
والشيخ محمود شكري الألوسي في عداد من أخرجوها أطواراً أخرى . تنفصل  
فيها عن (المقامة) وتستقل بذاتها .

واسكننا نجد الرافعي قد وصل بها القمة . ولا سيما حين عرضها في مجموعة

« وحي القلم » وفصل فيها القول في المقدمة التي عقدها لها والتي قال فيها  
« لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها ، يقيمها الكاتب على  
حدود ، ويدبرها على طريقته . . . مصيباً بألفاظه مواقع الشعور ، مثيراً بها  
مكانن الخيال ، آخذاً بوزن تاركاً بوزن ، لتأخذ النفس كما يشاء وتترك . . الخ » (١) .  
وكان الرافعي ذا مذهب في الأسلوب له أتباع ومعجبون ، ومعظم  
أتباعه من هؤلاء الذين يرون رأيه في الحياة المعاصرة ، ويقسونها بمقياس المثل  
العربية العليا ، . . وقد حاولوا أن يقلدوه في أسلوبه ، ولكن أحداً منهم لم يصل  
إلى ما وصل إليه من الصور البيانية .

. . . وغاية ما وصلوا إليه ، هو محاكاة ذلك الأسلوب القوي الجزل  
الخالٍ من الأساليب الأعجمية (٢) .

وقد زاد عليها الاستاذ أحمد حسن الزيات من المترادفات ، وتقابل الصور ،  
واتفاق السجعيات ، ما كاد يطبعها بطابع خاص (٣) ، وعرفت له بالرغم من غمز  
مارون عبود له والمرافعي بمحاولة « قوقعتها » على حد تعبيره .

وكادت هذه المقالة البيانية أن تذوب وسط الأساليب المستعجمة والصحافة  
الأخرى ولا سيما بعد أن تحول عنها أحمد أمين وطه حسين وهيكال والعقاد  
والملازني وسواهم . . . ولكنها عادت فأشرقت عند الاستاذ عادل الغضبان ، الذي

(١) الرافعي - البيان - مقدمة وحي القلم .

(٢) الدسوقي - نشأة النثر وتطوره ص ١٠١ .

(٣) عمر الدسوقي - تطور النثر الحديث ص ١٠١ .

طلع بها من جديد في أفق جدير بالاعجاب والاحترام (١) .

\* \* \*

أما فن الفصاة والرأاة فإن أثر الترجمة والتقليد المذاهب الأءبفة فف أوربة ظاهر واضء ففها وقء ءفل العصر بمرءمات لمعظم روأاء القوم وقصصهم ، سواء منها ما تناوات التاريخ عندنا كروأاء تاريخ الاسلام لجورءف زفءان ، أو ءءءت عن تاريخ اللوراء والحركاء القومفة فف أوربة نفسها.. وسواء منها ما صورء قصص المءبفن والعشاق ، أو عرضء لمءموعاء الفقراء والبائسفن من أبناء الامم ،.. ووضء مؤلفاء ومصنفاء عءة فف القصة مرءمة وموضوءة ، فقء ءاول ءمروة الأءباء العرب فف العصر الءءبء كءابة القصة على مذهب من المذاهب الأءبفة ،.. إباءء من ءءبء عفسف بن ءشام للموفلفءف وعبراء المنفلوطف ، وقصص طسه ءسفن والعقاد ومءء ءسفن ءفكل .. ومءموء ءفمور وسوام .

وكان الرافعف قءمء فف مطلع ءفائه الأءبفة أن فكبء القصة ، وبؤالف فف الرأاة ، وبصوع مرءمة لاءءاءا.. ولكنءه قصر فف ءرك هذا الفن .. ءءف إءا ما عاء الفة فف آءر أفاءه .. كان فءلظ ففه بفن المقالة والمقامة ، ولا فنال من فن الفصاة ءفر ءءف الءكافة (٢) .

وكانء ءنالء ظاهرة فف الءركة الأءبفة ءءبفة بالوقوف ءفالفها والءأمل ففها بوعف وإءراك فقء ءار فن النقء الأءبف ، وامتء فف المناقشاء

---

(١) عسف أن فءرء ءمموعة منها فف « وءف الكءاب » .

(٢) سنفصل ذلك عند الكلام عن فنون الأءب الرافعف .



الى ما يكاد يوصله اليوم غاية في المذهبيات الحديثة . . . فكثرت الدراسات النقدية للأدب وفنونه كثيرة يأخذ بعضها من بعض أحياناً .

وتكاد كتب النقد ومناهج البحث في اللغة والأدب تؤلف مكتبة، يحار المرء فيها، من أين يبدأ، وماذا يدع ! . .

وهي ظاهرة إن دأت على شيء فإنما تدل على مبلغ اهتمام الأمة بالأدب وأهليه، . . ومحاولة تقويم آثاره بمعايير علمية جديدة، . .

وربما كان غير أديب أو ناقد يحاول أن يصنع لنفسه مذهباً فيها، . . سواء قلد فيه سابقين له أو أخذ عن مذهب ترجمت آثاره، أو حورت بعض إنجازاته، . . أو حاول أن يفترع له منهاجاً في النقد يبتدعه فيعرف عنه .

. . ويهدئ كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفي كالبالكورة الطيبة، ويمثل الدور الخطير الذي قامت به « دار العلوم » في سبيل الحفاظ على اللغة، وبعث الأساليب البيانية في الأدب من جديد مع الأخذ بسنة التطور والتجديد .

ثم كانت محاولات المنهجية الحديثة، تكاد تقتفي آثار المستشرقين، كما فعل الدكتور طه حسين في آراء مرحليوت في الشعر الجاهلي التي نشرها عام ١٨٨٣م، فطبقها على الشعر نفسه في كتابه « في الشعر الجاهلي » الذي ألقاه أمالي على طلبة الجامعة عام ١٩٢٥م .

أو تقرأ محاولات النقاد ونظرياتهم في أوربة والآداب الإنجليزية والفرنسية بخاصة، فتحاول تطبيقها على الأدب العربي، كمحاولة الأستاذ عباس العقاد ورفيقه المازني في « الديوان » .

ولكن محاولة الرافي في كتابه عن البارودي ، وصبري ، والشعر العربي ، . . وما ردد فيه على الدكتور طه حسين في المعركة بين القديم والجديد ، وما حلل فيه شاعرية كل من عبد الله عقيقي وعباس محمود العقاد - وقد وضعها « على السفود » وما أنصف فيه حافظ ابراهيم ، ورفع من قدر أحمد شوقي ، . . وانتهى الى منهاجه في نقد الشعر تعدد كالمذهب النقدي للتمييز به على جميع معاصريه ، . .

فقد كان يستوعب علوم العرب في الفن وبقوه مصطلحاتهم تحليلاً وتفسيراً ، يأخذ عن المترجمات ما يمتاز بالأصالة والقصد ، . . ويمثل ذلك كله في طبيعته الشاعرة ، وروحه الأدبية الثائرة ، . . حتى ليتمثل فيه « النقد الذي يربي الأدب ويسمو به » .

وقد حفل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الحالي بالكثير من هذه الدراسات النقدية ، وكان المرحوم طه ابراهيم قد سبق في هذا المضمار حين أجمل « تاريخ النقد الأدبي » عند العرب ، . . حتى بعثه من جديد الاستاذ أحمد الشايب في « أصول النقد الأدبي » امتاز فيه بشيء من المقارنة المنهجية ، وكأنه مهتد من بعد المرحوم أحمد بدوي ليخرج كتابه الفخيم « أسس النقدي الادبي عند العرب » الذي ربما كان وراء محاولة الدكتور محمد المنذور في دراسة « النقد المنهجي عند العرب » ، وكذلك عند حشده لمطالعاته في « الميزان الجديد » بعد شيوع التأليف بالمقص أو ما يعبر عنه سابقاً بالتلفيق . وكذلك محاولة الدكتور أحمد أمين في كتابه « النقد الأدبي » .

ولم تكف تترجم بعض الدراسات النفسية ، وتظهر بعض مصطلحات

التطبيقية في الفنون والآداب حتى رأينا الأستاذ الجليل محمد خلف الله أحمد يعمد الى دراسة مقارنة وموفقة يتناول فيها الموضوع « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب » .. الذي أعجب الكثير من الأدباء ، .. حتى لقد أخذ سيد قطب بعض منهجه ومضمونه ، وأدخل حشداً من مصطلحات جماعة علم النفس التكاملي ليكتب هو الآخر كتاب « النقد الأدبي - أصوله ومنهجه » .

وما برحت هذه المكتبة في نماء وإطراد ، .. وإن غلبت عليها في السنوات الأخيرة صفة الترجمة الكاملة لمثل هذه الآثار عند الغرب ، .. فظهر كتاب الناقد الامريكى ستانلي هايمن ( النقد الادبي ) مترجماً بقلم الدكتور إحسان عباس ، .. وكتاب إليزابث درو « الشعر كيف نفهمه ونتذوقه » مترجماً بقلم محمد ابراهيم الشوش ، وقبلها « منهج البحث في اللغة » لكرومي ترجمة المنذور .. الخ . .. ولعل مرد هذا التحول تهافت الدراسات النقدية ، وأخذها الواحدة عن الاخرى ، أمام العوامل والظروف التي طرأت على الحياة الادبية بعامة .

على أن أكثر المطالعات والدراسات النقدية في العصر الحديث ما زالت مقالات وأحاديث موزعة في شتيت من الصحف والمجلات ، لا يكاد يتوفر عليها الباحثون للغلبة التي تقع فيها هذه الآثار بين مكتبات الاقطار العربية ، .. ولعدم وجود النظام المكتبي - المهرس - الذي يعين الباحث على أداء مهمته ، .. فليس في وسعه أن يرى من بين عشرات الالوف من هذه المقالات غير التي تنهياً له في بضعة من صحف قطره ، أو القطر الذي يزوره ويدرس فيه ، .. وحتى هذه قد تكون ناقصة - إن لم تمتد إليها يد الحجب السيامي ، والسطو الذي يقطع الاثر بالمقص خلسة !

ومن هنا كان النقص كالملازم لكثير من الدراسات النقدية والادبية بعامة في العصر الحديث ، . غير التفسير الاخر في الاستيعاب والاخذ، وغير الزايفي التي تستولي على بعض الدارسين في التقرب من أديب كبير ، أو الخشية من بطش ناقد شهير ! .

وبذلك سارت هذه الاحاديث والابحاث يتو كأ بعضها على بعض - وعلى ما فيها من المسلمات التي لا ترضى إعادة النظر ، وهي تدور ، وفي دورانها نوع من التقرير !

ولو أردنا الاستطراد في هذا الموضوع لخرجنا من تلك الصفحات ندور أيضاً حول مفوماتها التي استقر بعضها في الاذهان .  
على أن الامر من الخطورة بمكان ، وبحاج الى عمليات مسح كبرى تعين أما كن محتوياته « ببليوغرافيا » قبل أن تنصدي له الدراسات الجامعية التي تتولى جوانبه جميعاً .

\* \* \*

وكانت جوانب الحركة الادبية قد امتدت الى المكتبة العربية فعمرتها من جديد ، ونمت نمواً كبيراً بفضل ما طبع ونشر من كتب ودراسات وأبحاث مما تقدم ذكره .

وقد لوحظ ميل الاشخاص الى افئناء الكتب ، وإعداد المكتبات الخاصة . الى جانب الهمم العالية التي تصدى فيها بعض الموظفين الكبار في الدولة لتأسيس المكتبات العامة ، كالتى أعدها الحكومة العثمانية في الاستازة . ودار الكتب المصرية التي تأسست عام ١٨٧٠م . ومكتبة الازهر الشريف ومكتبات الاروقة

والمساجد الاخرى .. ثم المكتبات البلدية وخزانات الكتب التيمورية والزكية  
التي وقفها أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا - شيخ العروبة .  
وكذلك مكتبات الديار الشامية كالظاهرية بدمشق والأحمدية بحلب  
والشرقية ببيروت والخالدية في القدس .. الخ .

والمكتبة المرجانية والخالدية والأعظمية وغيرها من مكتبات المساجد في  
بغداد ومكتبات مكة المكرمة وخزائن الكتب في المغرب والهند .. الخ (١) .  
بحيث أصبحت هذه المكتبات لا تقل أهمية عن مكتبات أوربة في متحف  
برلين وبون وكبرج والأسكوريال وايدن وبطرسبورج وباريس والفاتيكان  
والتي تضم من آثارنا الحضارية ما لا يزال نطلع الى معرفته ولو عن طريق  
التصوير والاستنساخ !

وحسبنا أن نذكر ثقافة الامام الرافي واختلافه على المكتبات العامة  
والخاصة ، نرى مبلغ العناية بالكتب والمصنفات ، فقد ذكر الاستاذ سعيد  
الريان أنه كان يستعين بمكتبة الجامع الأحمدي الى جانب مكتبة أبيه ومكتبة  
البلدية ودار الكتب المصرية ومكتبة احمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا ويعقوب  
صروف ( المقتطف ) وزيدان ( الهلال ) وسواها من المكتبات الخاصة .

وبناء على ما تقدم ذكره موجزاً ، وما لم يرد لافنصادنا في الحديث ،  
كانت الحركة الأدبية تنسم بالانبعاث وتحفل بالحياة الانسانية ، ونخلد آثاراً  
ممتازة ، وأزهاراً طيبة ، وثماراً يانعة .

(١) راجع في الموضوع - جورجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية

ج ٤ ص ٤٥٥ وما بعدها ..

ولعل من أهم مميزات الانبعاث الأدبي الحديث ، ما حفل به في وجهته  
الانسانية مع الاهتمام بالاجتماع العام ، وغيره الادباء والشعراء على البائسين ، ورفقهم  
بالكلادحين ، وإشفافهم على اليتامى والأيتامى والمشردين والمعوزين ، ونصرتهم  
للجمعيات والمنظمات التي تعنى بحياة الفقراء ومواساتهم والحدب عليهم (١) .

وربما كان في بروز فكرة الحياة الكريمة وحسبانها من لوازم الايمان  
الصحيح نقلة عظيمة في الأدب العربي تطعمه بالفكر . وتمضي به الى العلوم  
الفلسفية والاجتماعية يأخذ منها ويضع فيها حتى رأينا وكأن روحاً من التفؤول  
الكبير والتأمل الواعي والتصرف المتزن بقي الناس مغبة السقوط والتشاؤم  
والقنوط بأساً وتسليماً بالمقادير وأنوائها .. قد أخذ سبيله في صفوف الأمة عن  
عن طريق الادب وآثره .

ف نجد الرافعي يقدم لإحدى قصائده بمثل قوله : « تندفق الحياة بين  
شاطئين يمتدان من غياهب الماضي الى غيب المستقبل أحدهما شاطيء الانسانية  
والآخر شاطيء من رحمة الله وبينهما تجري الحياة الى غايتها متغيرة متجددة  
متدافعة لا تثبت قطرة منها على قطرة .

ومتى قرر الانسان ذلك في قلبه عرف أن ما يلهم به من أقدار الحياة  
إنما هو من الحياة نفسها وأن هذه الاقدار يحملها النهر عنه فيما يحمل » (٢) ثم

---

(١) سنعرض لذلك بالتفصيل عند بحثنا لجوانب الاجتماع في أدب الرافعي -  
وانظر محمد لطفي جمعة - العنصر الإنساني في الأدب الحديث .. الكتاب سنة ٢٠٢٠ م  
ج ١ يناير ١٩٤٧ م .

(٢) الرافعي - الهموم - المقتطف - تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٣٣ م .

يرسل قصيدته في الهموم .

ويتبع هذه الطريقة الشاعر عبد الرحمن الشكري ولا سيما في قصائده التي عاد ينشرها في الرسالة بعد صمته الطويل (١) حتى نراه يقول :  
إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلاً  
وكانما كان يقابل معروف الرصافي بهذه المعاني التي تحملها الكلمات - جريئاً غمراً ذليلاً - وقوله الذي يفرق في النشاؤم :

أرى الخير في الاحياء ومض سحابة

بدا مُخْلِيباً والشرء ضربة لازب

وما جاء فيه من ( ومض السحابة ) و ( ضربة لازب ) بحيث تكون الحياة ذات منطوق رائع . قد يفهم أحياناً - فيحتاج بذلك الى قوى أخرى ، تصور فيها الحياة ويعرف عنها ذلك المنطوق .

ولم يقتصر مثل هذا الاتجاه على الايمان بالحياة ولكنه تجرأ أيضاً مسائل تتعلق بالوجود نفسه - وامتد الى الغيب يتأمل النفس ويحاول تأويلها من جديد - وينظر في آلاء الله يدرك شيئاً من عظمة ذات الجلالة ويرى السعادة في مثال فلسفي يعي صور المعنويات .

وكان أحمد شوقي وما عرف عنه من المباريات الشعرية والمعارضات التي سابق بها الافدمين والمحدثين وسابق بها نفسه أيضاً .. من أوائل الشعراء في هذا المضمار . فقد عارض ابن سينا في عينيته المشهورة في النفس وتأويلها . فذهب

---

(١) راجع أنيس المقدسي - الاتجاهات الأدبية ج ٢ ص ٩٣ وما بعدها .

فيها مذهب الاقدمين من الفلسفة الافلاطونية المحدثة حيث قال ابن سينا :

هبطت إليك من المحل الأرفع حسناء ذات تعزز وتمنع  
فقال شوقي :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي هذي المحاسن ما خلقن لبرقع  
.. يا نفس مثل الشمس أنت أشعة في عامر وأشعة في بلقع  
فاذا طوى الله النهار تراجعت شتى الأشعة فالتقت في المرجع (١)  
وقال آخر :

يا نفس موطنك الخلود وإنما هذا القدوم على رحيل مزعم  
وقال آخرون قصائد أخرى ، اجتمع بعضها في الكتاب الذي أخرجه  
جامعة الدول العربية عن مهرجان ابن سينا المنعقد في بغداد عام ١٩٥٢ م .  
ولم يسم في تلك القصائد جميعاً شاعر كالأستاذ عادل الغضبان في مثل قوله  
يدحض ذلك المذهب الوثني في تأويل النفس وتفسيرها :

أسطورة النفس الأثيمة قصة نبتت على دمن الزمان المبهع  
أيام يرتع في الجهالة ذو الحجى ويدين بالأوثان كل سميذع (٢)  
وقد نقل صاحب الطلاسم - إبلبا أبو ماضي - هذه العينية الى « السعادة »  
فغار في تفسيرها أيضاً ، حتى لقد كان يحسبها « العنقاء » ذلك الحيوان الخرافي  
الذي لا وجود له ،.. حيث قال في قصيدته :

أنا لست بالحسناء أول مولع هي مطمح الدنيا كما هي مطمحي

(١) المقتطف - مجلد ٦٤ ص ٤ .

(٢) راجع « مهرجان ابن سينا » ومجلة الكتاب - أبريل - نيسان ١٩٥٢ م .



واسكنه يعود في آخرها مؤمناً بالانسان نفسه :

.. وعلمت حين العلم لا يجدي الفتى أن التي ضيَّعتها كانت معي ! (١)

ولما احتسب الدكتور شخاشيري ولداً له جرى على لسانه قول اليأس

الحزين شعراً :

أبين السعادة والأيام تأبأها مررت علينا فلم نشعر برؤبأها

فأجابهُ الرافعي بطيب خاطرة بقوله :

الله أوجدها للناس قاطبةً فما الذي عن جميع الناس أخفأها؟!

فسل صغار الورى عن همِّ أوَّلها وسل شيوخ الورى عن همِّ آخرها

إن السعادة أن ترضى بلا غضب .. وكيف ذلك بدنياً لست ترضاها؟! (٢)

وبذلك كاد يقترب من الحقيقة بنفس راضية وإن لم تطمئن .

وقد ذهب المهاجرة من العرب في الامر يكتين في حد الاغراق في مثل هذه

الموضوعات ، فلا تكاد نجد أحداً منهم لم يتعرض لها ، .. وإن أعيام التأويل ،

وحارت بهم سبل التفسير ، فيقول مسعود سماحة وكأنه يجلو صدأ السنين ويعيد

الأصدا :

حارت عقول الباحثين وقصرَّت وسواك كلُّ عاجز ومقصر

لم يعثروا إلا بما أوحيته وأذعته لهم ، ولما يعثروا ..

ولكن موجة من الشك ، والضياع - اللادورية - كانت تحتاج بعض

هؤلاء المعرفين في البحث عن الحقائق والدقائق في هذا الوجود .

(١) ايليا أبو ماضي - الجداول ص ٤٦ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٠٦ .

وما لبثت هذه الموجة أن تغدت بمجواث قلقة في الفكر الاسلامي نفسه ، فأخذت من شطحات بعض المنصوفة ، ونطحات أهل الفلسفة ، واستبطن دعاة التشييع ما انحرفت به الى الزبع ، وتجاوزته الى الاحاد ، وكادت تجر بالكفر والعصيان .

وقد أفادت من ذلك الشعوبية المحدثة في السياسة الافليمية بخاصة ، وما زالت بعض فترات التاريخ تحتضن هذه الحالة مع « اليسارية » المحسوبة على الجمهور ، .. تعشش فيها وتفرخ .

ومما لا ينكر أن توالي المحن على الشرق العربي ، وما اقيته الروح القومية من التضاد والتصادم مع الاستعمار ومجاليه السياسية والاقتصادية والفكرية ، وإثاره في الضياع والتمزق ، .. كان قد أثار موجات من الفزع أضعفت الشعور بالعدل الانساني ، والايمان بالقيم العليا ، .. وحدث بالادباء أن يلتمسوا الخير عن طرق أخرى ، ومنها القوى المادية (١) .

ولم تخل بعض الاتجاهات الفكرية في الأدب العربي الحديث من نظرات هادفة ، وأخرى تلتمس الاعذار عن الدهر ، وفساد النظام ، وثالثة تجر الفكر الى محاولة الاهتمام بالفطرة ، والعناية بالاجتماع عامة ، .. خروجاً بالحياة الواقعة نفسها الى منطلق جديد لا ينتظر مسح دموع البائسين بالاحسان فقط ، .

فنجسد الشيخ ، مصطفى لطفي المنفلوطي يرفع آهات الفقر في قصيدته « صوت الفقير » (٢) ، .. ويعود فيحاول أن يمسح « العبرات » من عيون

---

(١) أنيس المقدسي - الإتجاهات الأدبية ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) المنفلوطي - الهلال ص ١٧ - ٢٢٠ .

المحزونين ، ٠٠ ويرى « النظرات » للمتطلعين من المعدمين ٠٠  
وتكاد ظاهرة التناقض في الارزاق تستهلك عواطف الشعراء بلا استثناء ،  
وكانما كل الرافعي يرفع عقيرته بصيحة ثورية بهتاً لها طيب الذكر  
فرح أنطون ، وبعدها من الانطلاقات الاشتراكية في الأدب العربي عندما نشر  
له قصيدته التي يقول فيها :

أليس من النعابن - وهو ظلم - جزاء السعي يكتب للقعود ؟ !  
وبزفر « الامير » شكيب أرسلان مع « الفقير » في مثل قوله :  
أفي الحق أن يشقى الفقير بعيشه وذو المال في شر الغواية يسرف ؟ !  
ويقرر أحمد محرم حقيقة الواقع الذي يعانيه الفلاح - فيقول :  
يُغني ألوف المترفين بماله وبعيش في فقر وفي إسلاق  
ويعود فيخاطب « ابن الريف المصري » بقوله :

كم من غنى وافٍ ورزق واسع لبني البلاد على يديك متاح  
ولكن روحاً تشاؤمية كانت تطفئ أحياناً على الشعراء والكتاب في هذا  
الموضوع ، حتى لنجد السيد أحمد الصافي النجفي - وهو يعارض قصيدة محرم -  
يقول بإشفاق يتم عن مرارة وأسى :

رفقاً بنفسك أيها الفلاحُ تسعى وسعيك ليس فيه فلاح  
لك في الصباح على عنائك غدوة وعلى الطوى لك في المساء رواح  
وكانما استعصت عليه المسألة حلاً حين يقول :

باريف إن كتاب بؤسك مشكلٌ يعيا بحمل روزه الشراح ٠٠

\* \* \*

وإذا كلت قد اشتهر عن بعض الشعراء عنايتهم بالبائسين والأياشي  
واليتامى، .. وتقدمهم معروف الرصافي في هذه الشهرة في قصيدتيه « اليتيم في العيد »  
و « الأرملة الرضعة » .

قائي لا أعتقد أن أدبياً عربياً صرف فنه ، وأوقف شعره ، وثار في فكره  
وإنجابه بإيمان ثابت ، ودعوة هادفة ، ومبدأ قويم ، .. يؤلف بها مذهباً يعرف  
به مثل إمامنا مصطفى صادق الرافعي ! ..

وهذه قصائده ومقالاته ، وخطبه وأحاديثه ، ما اجتمع منها في ديوانه  
الأول ، وما لا يزال ينتظر الانضمام الى الأجزاء الأخرى ، وما تألف على بعضه  
في كتاب « المساكين » أو كان من « وحي القلم » في دراساته الاجتماعية ،  
وتحليلاته الواقعية ، وخطبه الاحسانية ، وروحه الاشتراكية ، وعقيدته القومية ،  
وخلقه الاسلامي ، .. ما يلقي لنا الأضواء التي تجعلنا نحكم له بالصدق في تمثيل  
الاجتماع العربي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الحالي ، .. وأنه التقى  
بالصفوة من نبغاء الفكر في العالم ممن يخططون للإصلاح الاجتماعي في سبيل  
الكرامة الانسانية .

ولسوف نعقد لذلك فصلاً خاصاً في دراستنا اللاحقة .

وإننا نجد إزاء هذه النظرات الانسانية المثيلة ، والروح الأدبية النبيلة  
في الفكر العربي المحدث ، أن مال الكثير من الشعراء والكتاب الى الحياة  
الريفية ، والقطرة القريبة منها ، .. محاولين الاتصال بالطبيعة بروح جديدة ،  
وتسام ينزع عنه كلغة الحياء الحضرة ومظاهرها ، ويجعل من أحدهم كائناتاً حياً ،

يعني من غير إجهاد ، وبحس من إثارة ، ويخالط أبناء الفطرة في الريف فيشار بهم  
مشاعرهم الفريدة ، ويتذوق أمرجتهم الطيبة ، .. ليعود فيصور من ذلك كله  
لوحات فنية ، ذات روح معنوية للطبيعة الحية التي لم تختلط بها الأدراة ، ..  
ويفيض في نزعات يسمو بها الوجدان ، وينبعث الضمير حياً بالايان .

ويحسب الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن الرافي « قد أحس الجمال في  
الأراضي والطبيعة الريفية ، كما أحس البؤس عند الفلاح فكأن كالذي يعطي  
إشارة البدء » (١) في هذا الاستباق .

فإذا كان أبو الطيب الكندي - المتني - قد أخذ بمفاتيح البادية حين قال:  
أفدي طلباء فلاة ما عرفن بها - مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب  
- نى ليرى عن فطنة وذوق أن :

حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البداوة حسن غير محبوب  
.. فإن الرافي قد أحيا هذا المذهب في الشعر العربي الحديث ، .. فهو  
يستبق الشعراء في وقفة متأملة في جمال الكون تبدو فيه القرية المصرية - الضيعة -  
عند الصباح الباكر فيقول :

دموع الفجر هذي - أم دموعي تفرق بين أجفان الربيع  
.. ولاح الصبح يسفر عن جبين عليه الشمس حالية السطوع  
فوردت الطبيعة وجنتيها ونضرت وجهها الحسن الطبيعي (٢)  
ويمضي بعد ذلك مأخوذاً بفتنتها ، ومعجباً بمشاهدها الساحرة ، ..

(١) محمد عبد الغني حسن - الفلاح في الأدب العربي ص ٢٥ .

(٢) الرافي الديوان ج ١ ص ٤٧ .

فيصف الفتاة القروية ، وقد بكرت تملأ جرسها ، .. جارياً على . مذهب أبي الطيب  
في المقابلة حتى يقول :

.. فذاك الحسن لا ما تشتره ضارها من الحسن المبيع  
وقد جرى الرافي في هذا النهج الجديد المرحوم أحمد محرم في قصيدته  
« الطبيعة وفتاة الريف » والمرحوم محمود الخفيف في « فتاة القرية » .. كما سار  
عليه أيضاً بعض تلامذته الآخرين ، كالمرحوم علي محمود طه الذي زاد عليه  
الخبز الى تلك الأصقاع بمثل قوله :

يا حبذا هو من مراح للصبا والكوخ من مشتي لنا ومصيف  
ويكاد الشاعر محمود حسن اسماعيل يكون إمام هذا الاتجاه بعد الرافي  
لا منازع ، منذ وضع ديوانه الأول « أغاني الكوخ » وعاد في الثاني « هكذا  
أغني » ليقول في الفلاح مثل هذه المعاني المبتكرات الجميلة :

كم صبا السنبل الحبيب اليه ساكباً بين راحه قبلاته  
عشق الدهر كفه فتمني خلد أطرافها على ورقاته  
ومما يتصل بهذا وذلك من تفنن الشعراء في الطبيعة وآثارها « صلوات  
في المحراب الأخضر » و « شجرات الشتاء » للرافي ، التي كتبها بأسلوب  
النثر ومعاني الشعر يحسب أن النثر لا يضيق بمثل هذه المعاني حتى عاد اليوم من  
يسمى مثل ذلك الضرب من الكتابة « قصيدة نثرية » .

ويلحق بذلك أيضاً قصائد الشعراء الآخرين كالبنفسجة لجبران ،  
والفراسة المحتضرة لأبي ماضي والبلبل والورد لكل من الرصافي وأحمد رامي ..  
الى آخر ذلك من عناوين هذه المقتوعات الأدبية .

ومن ناحية ثانية نجد أن الحضارة ووسائلها الحديثة كانت ذات تأثير كبير على الحركة الأدبية ، وقد كان للمخترعات الباهرة ، ومجالي العلوم الظاهرة ، . . والبيئات الاجتماعية الجديدة ، . . وما انفك بهذه وهاتيك من مسائل القيم والاعتبارات الوايدة ما دخل بالأدب العربي برزخاً آخر من جديد الموضوعات . ففي الوقت الذي يتخطى فيه الرافي وصف المخترعات ، نجده يتأثر بها غاية التأثير حتى لنكاد نرى عنده غيرة من القطار بمثل قوله :

كيف هام القطار حين رآها      أترى حسنها استهام القطاراً (١)  
 سار بطوي جوانب الأرض طياً      ولو اسطاع أن يطير لطاراً (١)  
 . . ويقول بدعوة عصرية واضحة تصرف الأدب عن تقليد القدماء :

يا سعد هذا عصرنا فدع النياق يشفها الاتهام والآنجاد  
 واهجر حديث الرقتين وأهله      بادت لينا لي الرقتين وبادوا (٢)  
 حتى إذا ما عاد إلى القطار أخذته منه روعة هندسته ، فحسبه بيتاً يتحرك :

كالقصر فيه لكل خود حجرة      ولكل صب مضجع ووساد (٣)  
 . . ويخرج الرصافي إلى الوصف في تأمل هذه المخترعات فيقول في « القاطرة » :

وقاطرة ترمي الفضأ بدخانها      وتنهب ظنر الأرض في سيرها نهياً  
 تمشت بنا ليلاً تجر وراءها      قطاراً كصف الدوح تسحبه سحبا  
 ويحفل الرصافي بالسيارة احتفالاً يقابل به بين وسائل العصر ، وما كان عليه الأقدمون من حال :

(١) الرافي - الديوان ج ١ ص ٧٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) الرصافي - الديوان ٢١٦ .

تلك المطية لا ما كان يذكرها أديب ذبيان من عيرانة النيب  
لو امتطأها لبيد قبلُ تها بها على الحواضر قدماً والأعريب  
ولا أطال ابن حجر وصف منجرد على السراة كميث اللون يعبوب (١)  
ويفترق شوقي عن حافظ في النظرة الى «الباخرة» فيينا يقول شوقي :  
همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء (٢)  
يشور البحر على باخرة حافظ فيتركه يقول :  
عاصف يرتني وبحر يغير أنسا بالله منها أستجير (٣)  
ولا يكتفي شوقي في وصف الطائرة ودهشته منها بمثل قوله :  
قم سليمان بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزماما (٤)  
وإنما يردفها بأخرى يجي فيها «فاتح الجو المصري» (٥) الطيار صادق  
الذي جاء بطيارته من أوربة في يوم مشهود كتب فيه الرافي للمقتطف في العنوان  
وأرسل شوقي قصيدته :

من فتي حل من الجو بهم فتلقوه على هام وراح  
ليس من يركب سرجاً آمناً مثل من يركب أعراف الرياح (٦)  
وزاد الرافي في احتفائه بالجيش يوم كتب مقالته في «أجنحة المدافع المصرية» (٧).  
ومع ذلك كله ، فقد كان للجانب الآخر من الحضارة على الحياة العربية  
شأن آخر ، وقد مر الحديث عنه

- (١) الرصافي - الديوان ص ٢٢١ .  
(٢) الشوقيات - ج ١ ص ٥٥ . (٣) حافظ - الديوان ص ٢٢٧ .  
(٤) الشوقيات ج ٢ ص ١٠٧ . (٦) المصدر نفسه - ج ٢ ص ١٩٤ .  
(٥) و (٧) مقالات كتبها الرافي - المقتطف - آذار - مارس ١٩٣٠ م .



## الفكر الثماني

### انطلاقة الشعر العربي الحديث

يحلو لبعض المفسرين أن يذهبوا في تحليل الحياة الحضارية عند الأمم  
مذاهب، يمتنعون فيها لدراساتهم في السلوك الانساني والاجتماعي العام، وما  
يكتنفه من أحوال البيئة والثقافة والعرفان، .. حتى لتغلو بعض هذه المذاهب  
أحياناً، وتضحي أفكارها كلسلئيات الجدلية عند المناطقة .

ومن ذلك قولهم في سبق العقل الأدبي للعقل العلمي عند كل أمة، ..  
وهم يذهبون في تأويل ذلك، أن أول ما يستيقظ في الانسان وجدانه، .. الذي  
ما يلبث أن ينشط به فيغشى ميادين الحياة المهيأة في جوانبها الاجتماعية والحضارية،  
فيتأثر بها في مجرى سواها، .. حتى تتمكن النهضة من ثم أن تلحق الأمة  
بالركب العلمي .

والعقل الأدبي السابق هذا الى جانب إحتفائه بالوجدان، كثيراً  
ما يبعث من ملكات التخيل ما يصور بها طموح الآمال، ويزين إشراق الأحلام،  
أو يسوغ ضلال الأوهام من الناحية السلبية الأخرى .

ولا تكاد ملكات التخيل هذه تنمو في الأفكار حتى تندفق بالمعاني ، وتلوح في الصور ، التي يأخذ بها الجمال الى مواطن الفن من التصوير والشعر والمحاكاة .  
ومن أجل ذلك يذهب هؤلاء المفسرون الى أن الشعور بالأحاسيس الوجدانية هو الذي يبعث الحياة عند الأمم ، .. وينظرون في ذلك النهضان الأدبية والانطلاقات الشعرية التي تستبق بها الامم حياة الحضارة المتدفقة فيما بعد .  
ولا يقف هذا التفسير عند حدود نشأة الأمم وصيرورتها ، .. وإنما يتجاوزه الى ما يصيب هذه الأمم من النكسات والمحن ، التي قد تعود بها القهقري الى ما قبل النشأة ، .. تلتمس لها سبيل الحياة من جديد ! ..  
على أن الذي أذهب اليه ترجيحاً أن الحياة الوجدانية ، والنشاط العلمي ، والنهضة الحضارة في شتى جوانب الاجتماع الانساني .. تأتي نتيجة تفاعل مع البيئة والعصر بأوسع معانيهما ، .. وعلى درجة هذا التفاعل يتوقف الظهور في الاستعداد والاختاد بأسباب الحياة في جانبيها الرئيسين الوجداني الذي يتصل بالعقل الأدبي ، .. والحيوي الذي يسعى مع الانقلاب والتطور العلمي .  
وهذان الجانبان هما جناحا الحضارة والمدنية عند كل أمة .  
نخلص من ذلك كله الى أن أمتنا العربية كانت قد عانت من ضياع التاريخ الحضاري لها ، ما أفقدها الكثير من أيامها مع ذلك التاريخ .. وقد خسرت في مسيرة حياتها روح الابداع في عقلها العلمي ، .. فتوقف الفكر في عقول أبنائها رديحاً طويلاً من الزمن ، .. وانحسرت حضارتها عن التقدم ، .. وما زالت كذلك تستبطن ذاتها وتجتزئ بقايا معارفها حتي غلبتها الاحداث على أمرها ..

ولكنها عادت في أخريات تلك العهود لتحاول استنشاق نفس الحياة ،  
واستئناف سيرها الحضاري في الوجود الانساني .  
وهكذا تنبث فيها خصائصها فسعت الى الطريق التي تكلف الامم ،  
فكان لها من وجدانها القويم حياة أخرى لعقلها الادبي .  
ومن أوليات هذه الحيات إنطلاقة الألسنة عند أبنائها بالأحاسيس  
العاطفية والشعور الانساني ،.. تجري بما تميزت به من فن القول والأداء الشاعر .  
حتى كانت نهضة الادب الحديثة ، وانطلاقة الشعر العربي التي نفردها  
هذا الفصل لأنها كانت من أظهر علامات التغيير في الامة على صراطها المصطف  
في سبيل الحياة العائدة .

ولم تكند أيام القرن الثالث عشر الهجري تدأف مطبقة على آخرتها  
لتختتم سذبه ، حتى كانت هنالك حياة لانسان عربي تصدق القدر في مواعده !..  
يجبو في منتصف عامه الثاني ، ليلتلف حلوى الالهام عند مراتع الجمال في  
قرى مصر .

وما بين طفولة هذا الانسان ، ونهاية القرن التاسع عشر الميلادي عمر  
يافع يمضي في صباه الى الشباب في مثالية مستوفزة ، ومعاناة قيمية تستهدف لها  
الحياة الكريمة شرعة ومنهاجاً ! ..

وفي مثل هذه السنوات الغضة من أيامه ، كان الشعر العربي لما يزل يعاني  
من سكرات القرون - رغم استنشاقه لنفس الحياة ،.. وما انفكت معانيه تعاني  
من السبابة ،.. وأخيلته تعودها الحمى الراجعة ، بالمرض .

وبالرغم من امتداد الشعر في بلاد العراق والشام - على ما كان يحسب الشيخ محمد وشيد رضا - أنها « لا تزال أقرب الى السليقة العربية من أهل البلاد الأخرى » حتى ليخال « أن الشعراء النابغين فيها أكثر منهم في غيرها » (١) . وأرجح أن كثرة من شعراء العراق والشام كانت أسماؤها ذات صدى في تلك الايام ، .. وكان في نظمها ومحاولاتها الشعرية كالاتداد للنفس الشعري العربي الذي تخافت منذ آخرة العهد العباسي ! .. وهي التي ألفت في روع الشيخ رضا مثل هذا الرأي في الحكم .

وعلى كل حال فإن ظهور أمثال عبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس وصالح القزويني ، وشهاب الدين العلوي ، وجعفر الحلي وسواهم في العراق ، وحسين بيهم واليازجيين والبستانيين وآل المرآش ، وإبراهيم الأحسب ، وزرق الله حسون وأديب اسحق ، وعبد السلام الشطي وعبد الفتاح اللاذقي وأحمد فارس الشديان وغيرهم في الديار الشامية ، .. قد أوجد لونا من إنبعاث الحياة في الشعر العربي ، بالرغم من المحافظة على الصورة الشعرية للقرون المتأخرة ، .. فلم تكن تظهر عليه ظاهرة تجديد في معانيه وأخيلته ، إلا بمقدار ، وكأنما كان حسبه من الأخذ والعطاء في هذه الحياة أن يعود بمرقعة جديدة تبرز أساليبه ، .. يجتري لها العربي نفسه من معين في الشعر ، المعاني التي لم تبليها الأيام ، ولا تنكرها البيئة الاجتماعية ولا يرتفع بها الخيال إلا على أجنحة من المزاوقات البلاغية .

ومع ذلك كله فقد كان هذا الشعر أعلى قدراً مما كان عليه الشعراء في

(١) أنظر مجلة المنار - الشعر والشعراء - م ١ ص ١٣٣ ، م ٦ ص ٧٩٢ الخ .

القطر المصري .. حتى كان جيل علي الليثي وعثمان جلال وعبد الله النديم ، وعبد  
الكريم سلمان ومحمود صفوة الساعاتي وعبد الله فكري والاياري ، الذين عناهم  
الرافعي بمثل قوله : « إن قصارى ما يكون من أبرعهم شعراً ، وأبدعهم صنعة  
إذا نفخ رأسه ، وزاد في حركة قلبه ، وضرب على جبهته بكلتا يديه .. أن  
يعطس بيت فيه نكتة من البديع أكثر ما تكون من نحو حسن الأخذ والتضمين  
والاقتباس .. الى ما يماثلها » (١) .

وبالرغم من انطلاق شاعرية الشيخ عبد المحسن الكاظمي بعد أستاذه ابراهيم  
الطباطبائي، والتي آذاها بالاطالة وأتعبها بالارتجال ، .. واعتسف لها أساليب القدامى ،  
ولاسيما في ديباجة الشريف الرضي ، ودوران الكميث ومحاوله دعبل الخزاعي ،  
وبالرغم من استرسال السيد محمد سعيد الجبوبي النجفي بموشحاته التي حاول  
أن يمتد بها في روح فنية تجري مع دار الطراز لابن سناء الملك ، وتكلف بفنون  
صفي الدين الحلبي ، وبعض خصائصه في الأساليب والمعاني ..  
وبالرغم من ثورة الشيخ ابراهيم اليازجي بقصائده القومية ، وحماسه  
العربية ، .. فإن برء الشعر العربي من تخلف اليهود لم يأت على الصورة المرجوة  
أو المنتقاة .

ولكن المعجزة كانت قد حدثت في أرض الكنانة بالذات ! .. فقد  
تغلب على عوائق الأيام ، وعواثر الدراسات الشاعرة الفحل محمود سامي  
البارودي بعد أن « خلع كلّ العقد التي كان يحجل فيها الشعراء من قبله ،  
ونفخ فيه روحاً جديدة من الأصالة ، وأزال عنه كلّ ما كان يعوقه من أعشاب

(١) الرافعي - شعر البارودي - المقتطف ، آذار - مارس ١٩٠٥ .

البديع ، . . فانفجر النبع وتدفق الأدب والفن « (١) .

« وكأثما هي عصا ساحر قلبت الميت حياً ، والضعيف قوياً ، والمعدم ثرياً ،

فيعيد للبناء قوته ومجده ، وزخرفته الطبيعية الجذابة دفعة واحدة » (٢) .

ليأخذ عنه من جاء بعده أخذ معاصرة ، ويعترف من نبعه اعتراف الظمان

يطلب الري ، . . حتى كان اسماعيل صبري وأحمد شوقي ، ومحمد حافظ إبراهيم ،

ومصطفى صادق الرافعي وسوام في أرض الكنانة .

ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي والشبيبي وسوام في العراق .

والأمير شكيب أرسلان ، وخير الدين الزركلي وفؤاد الخطيب وشبلي

الملاط وغيرهم من أبناء ديار الشام . أولئك الذين استبقوا الصراط في الابتداعية

المحدثة ، وعمروا فن القول العربي الشاعر بمآثر من فنون قصائدهم أعادت للادب

العربي مكانته ، وتجلت في هيئة الفكر ورهبة الحياة .

وما كان ذلك الجليل يعول على « الوسيلة الأدبية » ويتخذ البارودي

مداراً فلكياً معاصراً فحسب ، . . وإنما تنافس على السبق ، وتباري في السمو

والعرفان .

فلا يدع أن يرى الشيخ رشيد رضا وهو يحسب « كأن السليقة العربية

رجعت الى البارودي بالوراثة لأحد أجداده الأولين من غير عناء في كسب

ملكبتها » وأن « وجود البارودي نفسه هو من قبيل ما يسميه الحكماء بالرجعة » (٣)

(١) شوقي ضيف - شوقي شاعر العصر الحديث ص ٤٤ .

(٢) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ص ١٥٧ .

(٣) رشيد رضا - المنار ١٨٩٩ م - الشعر والشعراء ، م ٦ ص ٧٩٢ . الخ .

على حد تعبيره .

وذهب الاستاذ عمر الدسوقي أكثر حين جعل من البارودي محور الدراسات الأدبية الحديثة وكالعنوان لما قبله وما بعده في الشعر والنثر معاً (١) . وسرت بعد ذلك نزعة نحو الشعر وصقل معانيه ، والاعتراف من مناهل الفكر في العالم الجديد والحضارة المدنية ، وانتهاج أساليب الفرنجة في صوغه على أساليب من القصص والبيان .

وما كاد خليل مطران يدعو لبعض ذلك في مجلته المصرية حتى استجابت له طائفة منهم نقولاً رزق الله وداود عمون وأمين الحداد وسواهم . كما أخذ نحوه بعض الأخذ مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن شكري ، في الرعيل بنطلق معهم في حرص وإتقان عبد الحميد الرافعي ، وبشارة خليل الخوري - الأخطل الصغير - و خليل شديوب وأحمد زكي أبو شادي ، .. وعبد الرحمن صدقي وغيرهم .

ويتميز عنهم بالديباجة العربية والأصالة القومية ، والمذهب الشوقي ، علي الجارم وفؤاد الخطيب ومحمد بهجة الأثري ، و خليل مردم وعلي الجندي وزكي المحاسني وإبراهيم أدم الزهاوي وسواهم ، ..

ومن نهج هؤلاء ومذهب أولئك ولدت فئة أخرى ، أخذت مكانها بقوة وجدارة وملكت قلوب الناس بالإكبار والاعجاب معاً ، بما لها من ميزات الاتساق في الأسلوب والقصد في التجديد والعطاء . ومن أشهر هؤلاء الشعراء المحدثين ، محمود غنيم ، وعادل الغضبان وأنور العطار ، وعلي محمود طه ، وعمر

(١) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - .

أبوريشة ، ومحمود حسن اسماعيل و ابراهيم طوقان ، ومحمود الخفيف ، وحليم  
دموس ومحمد عبد الغني حسن . . . وغيرهم .

وفي آثار هؤلاء ، وأولئك الشعرية ما يفيض بالحياة من المعاني ، ويتقلب  
في صور البيان العربي الجديد ، وما يعد بحق جامعاً للاتباعية - من الناحية  
القومية الأدبية ، والابتداعية العصرية بما فيها من وجدان وحيوية في آن واحد .  
وقد انتهز العقاد فرصة صداقته للشاعر عبد الرحمن شكري ، وفسح الرافعي  
المجال له ولزميله المازني في الترجمة والكتابة بمجلة البيان . . . التي كان يصدرها  
نسيبه الشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي ويترك له مهمة الإشراف الفني عليها -  
فأراض قريحته على قول الشعر متأثراً بما يقرأ للشعراء الانجليز بخاصة ، . . . وعندما  
لم يجد صدى لدواوينه - التي أصدرها ابتداءً من عام ١٩١٦م - يقربه من طبقة  
الشعراء الذين طبقت شهرتهم الآفاق وفي مقدمتهم شوقي والزهاوي وحافظ  
والرصافي والرافعيان ومطران . . . أقدم على صنع حركة نقدية أصدر فيها  
وصاحبه المازني جزءين من كتاب «الديوان» عام ١٩٢١م من عشرة أجزاء  
كان يحسب فيها هدم هؤلاء وإشادة بنيانه الشعري هو ، . . . ولكنه لم يوفق الى  
غاية ، ولازمته شهوة الهدم ، فأجهز رفيقه المازني على شكري زميلها ، في  
الوقت الذي تصدى فيه هو لشوقي والرافعي بنقده المعروف ، . . .

وبالرغم من من جميع ما أثير حول الموضوع ، وما أفاضت به الاقلام  
في نعت أبعاد المذهب الشعري الذي دعا له ، لم يأت فيه بمجديد لم يفتن اليه  
ثقات الأُدب العربي كالجاحظ والجرجاني وابن قتيبة وسوام . . . وبالرغم مما



تكلّف له من النقل والترجمة للأفكار الغربية في هذا الشأن . حتى أمّ إخراج  
سبعة دواوين نعتها مارون عبود بالسبع العجاف (١) . . . ولم يفد العقاد بعدها شاعراً  
بقدر ما كان مترجماً ومثقفاً كبيراً ذا مذهب في الوعي الاجتماعي العربي المعاصر .  
ثم كان هنالك اتجاه آخر خاطر بالانطلاقة الشعرية في وجهات من  
الاستيطان الذاتي والأداء النفسي ، وما انبعثت فيه الروح العربية الوليدة من  
الضيق والالام وتخالف الحياة الاجتماعية والحضارية فيها عن ركب الامم الناهضة .  
وقد رأينا ابراهيم طوقان وفخري البارودي بخاصة يثوران في أناشيدهما  
الوطنية والقومية ويتيه « علي محمود طه » في ملاحظته عبر البحار ، .. ويصعق  
جبران خليل جبران من حالته المادية والمرضية وتطلعاته الحائرة ، .. ويطير  
فوزي المعلوف « علي بساط الريح » ويتزلزل أبو القاسم الشابي ، ويمنح  
محمود حسن اسماعيل في خيالاته ، .. وبدور آخرون هنا وهناك .

.. فلم يكتف هؤلاء بالتجديد البسيط ووحدة القصيد العضوية ، وأهداف  
الشعر النفسية والقومية ، وإنما امتدوا به الى الأساليب ينوعونها، ويتكرونها فيها،  
واستهدفوا المعاني نفسها بمجازات وكنيات واستعارات جديدة يثيرون حولها  
ضباب الغبش لتحلوا الحقيقة عندهم ، .. وفي آثار هؤلاء كانت بوادر اللقاح  
والأثمار في الشعر العربي ، والتي تغذت فيها فنون الشعراء على بعض مذاهب  
ومتجهات في الآداب الأوروبية .

ولم يكف ينقل عن الغرب بعض آثار هوثمن الأمريكي ، و ث . س إليوت

(١) زادت هذه العجاف الآن حتى بلغت ما « بعد البعد » .

الانجليزي وإدجار إلن بو الفرنسي ولوركا الأسباني .. حتى قامت بيننا زوبعة عاصفة لم تخل من تمرد فيه روح عبقرية ، .. وإن تفرق في مناهج وضل في مسالك ، .. ودار مع الضياع في توزع وانفلات .

فقد بدأ ذلك عبد اللطيف الشهابي عام ١٩٣٢ م « بحفنة رماد » من العراق وجمح من بعد صلاح لبكي وتابعه نزار قباني في « طفولة نهد » (١) وغاص سعيد عقل في أساطير وثنية وأخرى مسيحية ، .. حتى راح إلياس أبو شبكة يتعب نفسه في البحث عن « أفاعي الفردوس » ، وتاهت « عاشقة الليل » أن تدرك نازك الملائكة ، بعد ما غامر بشر فارس مع « ناصعة الجبين » واضطرب السياب « لأزهاره الذابلة » .

ولم تنزل العاصفة حتى استدارت فطارت من بين صفوف دعاة السهولة والانبساط والأدب الشعبي والعامي .. الخ ليعيث فيها عبد الوهاب البياتي « تمهيمًا بالاباريق » وليلتاث من حوله بالنزعات الشعوية ، والانحرافات الشيوعية من بعض اللاأخلاقين من زبانية الحزبية المقيمة وحرر الجاسوسية المرذولة ، وإمعات العمود ! .. (٢)

---

(١) من المرافقات المثيرة أن يدعي كل من الشهابي والقباني أنهما من تلامذة الرافعي في اتجاهاتها الشعرية ، ويعدان لذلك بدراسات تسوغ لهما مثل هذا الإدعاء ! .. وقد أطلعني الشهابي على صفحات منها .

(٢) انظر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٣١٤ وما بعدها ، وقد ذكرنا ذلك استطراداً .

ولعل من المفارقات التي تدعو الى التأمل الواعي أن يكون اللقاء تاماً بين هذه العناصر التي تحسب نفسها على اليسار « الجمهور » ، وبين وكالات الثقافة والنشر الصهيونية والاستعمارية على ما جاءت به الأيام من فضاخ وغيوب (١) . على أن للمؤتمرات السياسية ، والأحداث التاريخية والمصرية القاءة والقاعدة في أيامنا العالمية والقومية ، .. يد في هذه الحركات المذهبية الجديدة لم تكن لها فيما سبق من عصور .

ولا يفين<sup>٢</sup> عن البال أن ما قدمنا من إيجاز يكاد يكون مخطيماً لعنوان ضخماً ، .. قد لا يكون مصيباً في تسمية أحد الشعراء المحدثين بدقة ، وقد يكون

---

(١) .. وكان ذلك على مراحل ، منها الإستعانة بالقوة الدولية كما حصل لبعض الموارد والكاتوليك مع اليسوعيين الفرنسيين (أجزويث) . ومنها التنطع للمغانم كما هي اتجاهات « ذوي المصالح الخاصة » ، .. ومنها الإتجاه الى الحرية والتقدم كما هي عليه دعوات « التراجمة » من مثقفي العصر ، .. ومنها التحزب للآراء والأفكار الصادرة من بلد معين في أوربة ضد آخر ، كما هو الموقف الذي اتخذته بعض الكتاب ما بين الحربين ضد هتلر والنازية - الإشتراكية القومية ، وخلال الحرب الثانية بخاصة ، .. ومنها التنادي لإخوان الحرية ، واللقاء مع فلاسفة الوجود الجديد .. الخ . ومنها ما تكشف عنه علاقات الصحف التي كانت تنشر للشيوعيين بخاصة كمجلة شعر وحوار مع وكالة المخابرات الأمريكية .. ومنها أن يرث اليساريون في مصر مثلاً صحف الدعاية المعروفة .. الى آخره مما يحتاج الى تأمل ونظر ومدارسة !

هنالك شاعر يتقدم على صاحبه ، أو يتأخر عن رففته ، ولا يقف مع رتبته أو طائفته .

كما يكون هنالك شاعر تتمثل في شعره وصور من أدبه معظم هاتيك الاتجاهات والنزعات مثلما سيمثل أمامنا الرافعي العظيم .

لقد نقل بعض النقاد تسمية «مدارس» على أساليب بعض الأدباء العرب وتشابهها فيما بينها وأخذها عن غيرها ، تقليداً لما يقوم عند الغربيين والفرنجة بخاصة من مثل هذا التوزيع في دراساتهم النقدية والتقويمية عند أدب الترجمة . ولكننا لو تأملنا مدلول كلمة «مدرسة» وهي تجمع أو تنعت بعض الأدباء والفلاسفة والمفكرين عند أولئك ، لوجدنا في نقلها الى المتجه والمذهب أو الأفراد ، ضرباً من المجازفة لا تجوز على الفكر العربي بعامة ، والأدب من ثم والشعر بخاصة .

ذلك أن النزعة الفنية للأديب العربي ما تزال تعوّل على الذات ، والفرد هو الصورة المصغرة للأمة في صفتها الاعتقادية ، وهذه الفردية تكاد تكون طاغية على مذهب الأديب العربي .

وكلمة «مدرسة» عند أولئك ، وتعدد هذه المدارس كان وليد ظروف إجتماعية امتدت على مدى قرون ، كان خضوع الفنان فيها أو الأديب العربي خلالها لأحوال معاشية ، وأخرى سياسية بالإضافة الى ميراثه المذهبي الديني والطائفي ، ونزعاته الفكرية التي تتحزب فيما بينها .

فالمدرسة عندهم تدور في هذه الأفلاك فلا تكاد تخرج عليها إلا بمقدار ما تكشف

فيه عن وجهات نظرهما مهما اتسمت بالمخاطرة ، ومهما التف من حولها الضجيج ! ..  
وهذا ما لم يتهياً له المجال بيننا حتى اليوم ، .. حتى عند أصحاب النزعات  
الشعبوية التبعية والمذهبيات الطائفية ، أو غيرهم من الراكضين وراء سراب  
الأحزاب .. وإن سلمنا جدلاً بصدق المدلول المدرسي وانطباقه « لغوياً »  
عندهم ، ولم نقل بضيق تلك اللغات في هذا المضمار (١) .

وعلى ذلك فإن مثل القول بالمدرسة القديمة ، ونعتها بالاتباعية ، وتمييزها  
بالمحافظة على الأصول ، أو إعجمها بالكلاسيكية ، وحسبان البارودي وشوقي  
ومحمد عبد المطلب والكاظمي ومحرم وسواهم عليها ، ..

والرأى في المدرسة الوسيطة وتسميتها بالابتداعية ، ووصفها بالوجدانية ،  
أو حسبان العاطفة من ميزاتها والاختلاف في تعريب « رومانسية ورومانتيكية »  
من أجلها ، وإضافة المطران والرافعي وشكري وغيرهم إليها ، ..  
والمجازفة بمدرسة « الديوان » و « أبولو » والظن بمحدثتها ، .. وتلفيق  
أسماء الشعراء من الطبقات الأخرى لها .

والتجاوز بالصفة الى الاصطلاح بمدرسة شوقي ومدرسة العقاد ومدرسة  
الريحاني ومدرسة جبران ومدرسة فلان وعلان .. الخ .

إن هو إلا ضرب من الانسحاب الذي يتجاوز بالقدر على المقدار ، إن  
لم نقل من النقل غير الواضح ، والترجمة التي تدل على بلادة في الذهن لا يتجاوز

(١) للرافعي تحليل رائع في الموضوع - أنظره في - سر النبوغ في الأدب -

المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩٣٣ م - وحي القلم ج ٣ ص ٢٦٣ .

به الحرفية .. فهو من المبالغات التغلبيية التي لا لزوم لها بحال (١) .

وعلى سبيل المثال نجد الشاعر عبد الرحمن شكري وقد عُدد رأساً ناضجاً للتجديد بعد خليل مطران والرافعي، يختلف مع زميليه العقاد والمازني الى الدرجة التي تحدث جفوة يتحدث عنها بألم ومرارة كل من تصدى لهؤلاء الثلاثة بتاريخ أو دراسة ونحوها (٢) .

والفروق بين هؤلاء الثلاثة في فنونهم الأدبية والشعرية هي عندي أكبر بكثير من الفروق الفنية بين الرافعي والعقاد مثلاً ، أو بين شكري وشوقي ، حتى قبل أن يفترق شكري عن العقاد والمازني ، تلك الفُرقة التي ما يزال الزعم

---

(١) أخذ بهذه التسميات أنور الجندي في موسوعاته عن الأدب العربي الحديث ، ولم يجد الدسوقي ضيراً من تسمية بعض المجموعات والفئات الأدبية بالمدارس ، ج ٢ ص ٣١٤ ، .. وربما غدت اليوم من المسلمات الأولى والبدائية لكثرة ما تنشره الصحافة حول الموضوع من أحاديث ومقالات هي غير الدراسة المنهجية التي تستهدف .

(٢) راجع ابراهيم المازني - الديوان - صنم الألاعيب ، وعمر الدسوقي في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٤٤ ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي - الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٥٧ ، وعلي أدهم - المجلة - شباط - فبراير ١٩٥٧ م ، ونقولا يوسف - تقديم ديوان شكري ص ٩ ، والعقاد - الهلال - شباط - فبراير ١٩٥٩ م ... وأخيراً كتاب نعمات فؤاد - في أدب المازني - وبالرغم من تعلقه المرض التي التمسها العقاد ، وندم المازني الذي أعلنه عام ١٩٣٤ م وتخفيف الوطأة التي حاولها يوسف .

التاريخي يحاول جعلها أو تخطيها بالجهل !..

إلا اللهم إذا ما اعتبرنا المشابهة المذهبية بين الثلاثة في - نتحهم - من بئر  
الأدب الانجليزي المحدث بخاصة ! .

وقد سبقت إشارتنا الى ما كان للرافعي من يد في جمع العقاد وشكري  
والمازني في مجلة البيان التي كان يصدرها نسيه البرقوقي ، ويحمله مسؤولية  
الإشراف المباشر عليها .

فقد أعد العقاد للترجمة وشجعه عليها ، ولا سيما بعد الذي نقله فيها من  
مذهب نوردو في القومية ، وآراء برنارد شو في المرأة والاجتماع .

ومضى مع عبد الرحمن شكري في اختراق آفاق الشعر الجديدة ، وسلك  
سبيله معه الى جوانب الحياة المختلفة ، ومراميا البعيدة .

وعاد هو والمازني في محاولات تقويمية وأدبية تتصدى لآثار الأدباء  
والشعراء بالتعريف والنقد .

ولعل في المقارنة والسخرية التي عرف بها المازني في نقده لحافظ ابراهيم  
في مجلة عكاظ عام ١٩١٤م ولطه حسين في «حصاد الهشيم» شيء من تأثير الرافعي  
ومذهبه في النقد ، ولا سيما حين تصدى لصديقه حافظ ابراهيم بعد نشره  
«العمرية» ، ووقف في وجه طه حسين ومحاضراته في الشعر الجاهلي . . على  
ما سيأتي بيانه مفصلاً في دراستنا التالية .

وليس من نوارد الخواطر أن يقدم عبد الرحمن شكري بين يدي دواوينه  
وقصائده بتلك المقدمات التي تحدث فيها عن الشعر وفنونه ، وشروط الإجابة  
والإبداع فيه ، وصور التجديد في أخيلته ومعانيه ، . . أو محاولات التفسير

النفسي للأداء الفني في شعره .. فقد كان الرافي قد سبقه الى مثل ذلك في مقدمات دواوينه وقصائده في الصحف وأحاديثه في الشعر والشعراء .

فاذا كانت مقدمات الرافي قد جمعت آراء الأقدمين وشيثاً من مترجمات العصر ، وعرضت لما عن لها من فكر وخواطر ، لما تنضج في بعضها أول القرن .. فإن ما تقدم بعد ذلك من دراسات أدبية وما مثل من أفكار وما جيدة في النقل عن الأمم الأخرى ، ثم معرفة شكري نفسه وإلمامه باللغة الانجليزية .. قد مهد له في التوفيق الى المقدمات ، وتقديمه المادة الفنية لمحاولات زميليه من ثم في « الديوان » .

ولعل من أبرع التفاتات الشاعر حافظ ابراهيم وهو يحتفل بديوان الرافي أن يقول عام ١٩٠٦ م مخاطباً صديقه الرافي :

أراك - وأنت نبت اليوم - تمشي      بشرك فوق هام الأولينا  
وأوتيت النبوة في المعاني      وما دانيت حد الأربعينا!

وبالروح العالية هذه نفسها يستقبل ديوان عبد الرحمن شكري بعد ذلك بسنوات ثلاث عام ١٩٠٩ م فيقول :

أفي العشرين تعجز كل طوق      وترقصنا بأحكام الق-وافي  
شهدتُ بأن شرك لا يجارى      وزكيت الشهادة باعترافي ..

ومن ينظر في تقریظ هؤلاء الثلاثة لمؤلفات الرافي في تلك الفترة يدرك ذلك تمام الإدراك .. وبألم أشد الألم من بعد للتمرد الذي مارسه العقاد - عفا الله عنه - فألجأه الى ما تنكب فيه عن الطريق السوي مع الرفقة والصدافة .



حتى ليحسب بعض الأدباء بأن مقالات شكري في مجلة عكاظ ، والتي تصدى فيها شعر العقاد لم تكن تخلو من إيفار رافعي .. وإن حاول القاص منها (١) فقد ظن شكري أن المازني يحتمي بالعقاد في نقده له في الديوان ، .. فراح يسترضي شوقي والمجلة التي وقفت لشعره في نقد شعر العقاد رأساً ..! (٢) ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن المرحوم أحمد زكي أبوشادي كان أسبق هؤلاء الثلاثة في التجديد في الصورة الشعرية ، وقد تميزت له قصائد ومقطعات فيها من التأمل الواعي والاستبطان الذاتي ما يفوق به شاعرية هؤلاء الثلاثة من ثم (٣) ومع ذلك فإنه لم يكن يتنكر للرافعي طيلة حياته ، وإنما كان يفخر بأخذه عنه وإعجابه به (٤) .

.. ومع ذلك كله فإنني أعود فأتساءل هل في مقدورنا أن نسمي مدرسة الديوان؟! أو نقول بمدرسة شوقي ، أو نزعّم أن الرافعي وسواه مدارس؟! . لقد كان التأثير بينهم تشجيعاً أو مجاملة ولم يخل من منغصات ، بالرغم من إثارة الوجدان وشحن الأذهان ، وتنبيه الحواس ، وتفتيق العبقريات ..

(١) أنظر عكاظ ٥٨ ، ٦١ ، ٦٥ والرافعي - الرسائل ص ٧٢ ، .. وكان ذلك في آخر حديث مع العريان رحمه الله .

(٢) تحسن مراجعة العقاد - شعراء مصر وبيئاتهم في الجبل الماضي ، وم . ع الأول - مجلة السفور - آذار - مارس ١٩١٨ م ونعمات فؤاد - المازني ص ١٤٢ وما بعدها .

(٣) راجع كمال نشأة - أحمد زكي أبو شادي - رائد الشعر الحديث .

(٤) أنظر أنور الجندي - الحب والوجد في حياة الشعراء .

بعاطفة الصداقة والزمالة أو المحبة والإعجاب والمعاصرة، .. وحتى العتاب والمدبرة .. ولم يكن ذلك فيما بين هؤلاء وأولئك وسواهم من الفئات الأدبية والشعراء بمذهبية فكرية لها فلسفة كلية أو انتظام مثالي «أيدلوجيا» أو حزبية إجتماعية .

ولا بد أن نعيد الى الأذهان هنا أيضاً ما كان للضمير العربي من حركة قومية لها الأثر في انطلاقة الشعر، التي أخذت بالاتساق والانقاف مع المحافظة على الأصول البيانية، في إشراق العبارة الشعرية، والجملة الأدبية، .. وبماتهما في العصر من ضمانات الوجدان، وطاقت الفكر ونزعات التحرر، وأحاسيس الاجتماع، ومجالي القوة والابداع في ذلك كله، .. تنوثها مشاعر الآمال والآلام، وصور الأحلام والأيام، .. ويرفدها عطاء التاريخ على مفترق الطرق، .. وتقوم بها همة الانبعاث، وفطرة الإيمان وقوة الاستعداد .

وعسى أن نوفق في عرض ذلك عند عقدنا للفصل الذي نتحدث فيه عن الضمير القومي في أدب الرافعي .



هذا من ناحية القوام العام للشعر العربي الحديث، أما مضمونات القصائد والمقطعات والأغاريد فقد دخلتها معان جديدة، منها المترجم الذي أخذ عن آداب الأمم الأخرى، ومنها المبتكر الذي يرفده التفتيق الذهني لبعض الشعراء، .. واتساع الأخييلة مع الحياة الوليدة .

ومن ذلك نرى ضرباً من المذاهب الأدبية والفكرية التي نشأت في آداب الأمم الأوروبية، قد انتقلت بشكل أو بآخر الى الشعر العربي، واندرست

بين مضموناته .. في الواقعية والابتداعية والرمزية ، وما افترع عن هذه  
وسواها من مذاهب وأبجديات في كتابة الشعر ، وتنويع البيان ، ..  
فلا غرابة أن نرى من ثم محاولات تتناول الشعراء العرب فتوزعهم  
في مجموعات بحسب هاتيك المذاهب ، أو أن نقف أمام أديب يحسب أن أساليب  
الشعر والكتابة لم تعد عربية ، وأن كثيراً منها افتقد الخصيصة القومية ، واعتسف  
له طريقة مما في إحدى اللغات الأخرى .. الى آخر ذلك مما كان ينشر في مجلة  
« الرسالة » بخاصة ! ..

\* \* \*

أما الصورة التي بات ينظم الشعراء بها قصائدهم في هذه الانطلاقة ، فقد  
كانت في أشكالها العامة لا تكاد تخرج على المؤلف عند العرب من هذه الألوان ،  
مع القصد في عمود الشعر .

وقد بقيت الصورة التقليدية ذات مكانة في الشعر ، وإن لم تخرج على  
أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي وبجوره الستة عشر وقوافيه المعروفة ،  
وهذه البحور وإن كانت في ضروبها ومجزوءاتها قد تزيد على الحسين  
وزناً ، إلا أننا لنجد شاعراً قد ألم بها جميعاً ، أو حاول غير الأوزان الموسيقية  
التي تألف النفس ، .. كما ندر أن نجد قوافي في بعض الحروف كالذال والضاد  
والطاء الخ مما كان يعتسفه الشعراء القدامى ..

وعلى أن الراجعي كان « مكشوراً » في مطلع حياته الشعرية ، إلا أننا نجد  
من أوسع شعراء عصره في النظم على مختلف البحور ، حتى زعم يوماً أنه  
أخترع البحر الذي سماه بالمنفجر ، .. ومع ذلك فقد كانت قوافيه مأنوسة ليس فيها

ذلك القلق أو الشذوذ والاستغراب الذي نجده عند غيره .

وما تزال القصيدة العربية هذه بقوانينها الخليلية تنال خلوداً أديباً . رغم جميع محاولات مزاحمتها أو الانتقاص منها بالنقد والتشطير الذي يمس سيادتها .. أما الموشحة ، التي ابتدعت في الاندلس وازدهرت من ثم في المشرق والمغرب . . . واحتفى بها ابن سناء الملك في « دار الطراز » وتغنيت بها « العنارى المائسات » . . حتى استطابت في العراق عند صفي الدين الحلي ، الذي عني بأسمائها بعد أن أصبحت أسلوباً معروفاً يمارسه شعراء العربية في كل مكان ، وجاراه من ثم كل من السيد محمد سعيد الجبوبي ، والسيد حيدر والفاروقي وسواهم في النسيج على منواله .

وكان لشعراء المهجر بخاصة عناية بها ، وقد زادوا ما تتسم به من الادوار المتناسقة ؛ والاضغان المتساوقة ؛ والاسمط المترتبة ؛ . . واخذوا بها نحو بجزر وأوزان أخرى غير التي نقلت بها من الاندلس .. وقد استطاع المحدثون النظم على أشكالها ؛ كما تأثروا بأفانين النظم في اللغات الاخرى فانشأوا موشحات وأغاريد وانشيد فيها إبتكار وعليها مسحة من الجمال والروعة (١)

وفي « أغاريد الرافي » الديوان الذي جمعناه له نماذج من هذه الموشحة في الاغنية والنشيد ممتازة الصورة ؛ عالية المحتوى ؛ رائعة البيان .. ويلحق بالموشحة ما نظم بأشكال أخرى غير القصيدة ذات القافية الواحدة ومن ذلك ثلاثيات خليل مطران ؛ ورباعيات محمد السباعي وغيره ؛ وخماسيات محمد بهاء الاميري ؛ .. وسداسيات وسباعيات لسوى هؤلاء ..

(١) راجع مجل مهدي البصير — الموشح .

وقد أخذ الشعراء الشبان والمتأثرون بالآداب الافرنجية ينظمون قصائدهم على هيئة مقطعات تستقل كل قطعة منها عن الأخريات بقافية . . .  
 وكان لذبوع الغناء ، وانتشار الأناشيد القومية أثرها في إحياء هذه الصورة الشعرية وازدهارها ، وقد عادت الأغاني هي الأخرى تعتمد عليها في رقيها والقيام عليها ، . . . أداءً وموسيقى .  
 وكان السيد محمد سعيد الحبوبي قد بعث الحياة في هذه الموشحات ، وقد تابعه الرافعي في ذلك ، ووضع خليل مطران نشيداً على شكلها ، . . . كما حاول آخرون .

ومن يبصر في أناشيد الرافعي « اسلمي يا مصر » و « الشباب الحمدي » و « حماة الحمى » وينظر في مجموعة أناشيد « العروة الوثقى » لبشارة الخوري ، و ابراهيم طوقان وفخري البارودي . . . يجد نماذج حلوة ، وصوراً جميلة لمثل هذه الموشحات .

\* \* \*

أما الصورة الجديدة المحدثه للشعر في الاكتفاء بالسطر من غير عجز ، . . . أو الإخلال بالوزن بزيادة تفعيلة على هذه الشطرة ، أو نقصها من أطرافها ، . . . وإلحاقها بالنثر في شكل ما ! . . . أو تسميتها بالقصيدة النثرية ، والشعر المنشور ، أو النثر الشعري ، . . . فقد بدا على ما يظهر في سمة تقليد المترجمات النثرية للقصائد الشعرية في اللغات الأخرى ، . . . وصادف هوىً دينياً وثنياً أو صليبياً عند بعض الفئات ، . . . فألجأهم الاستساغة لهذا اللون الجديد الى القول بتجديد كتابة الشعر ، والزعم بتسميته .

وإن كانت تسمية الشعر المنثور « تدلُّ على جهل واضعها ومن  
يرضاها لنفسه ، فليس يضيق النثر العربي بالمعاني الشعرية ، ولا هو قد خلا منها  
في تاريخ الأدب » .

ولكن سرّ التسمية هذه أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة ، يظهر  
فيها الاختلال لأوهي علة ، ولأيسر سبب ، ولا يوفَّق الى سبك المعاني فيها إلا  
من أمده الله بأصحّ طبع ، وأسلم ذوق ، وأفصح بيان » ... « غير أن النثر  
يحتمل كل أسلوب » (١) لأنه لم يتهاى له فراهيدي آخر يضبطه في مجور ،  
أو يحدّه بأوزان غير الذوق البياني للكاتب .

ومع ذلك فقد ظهرت قصائد النثر في العصر الحديث بنماذج ثلاثة ،  
تنسب الأولى منها الى أمين الريحاني ، وإنشاده للثورة العربية ، ومرثاته للملك  
فيصل الأول (٢) : وهي كلمات منثورة فيها شبه لما روي من سجع الكهان ،  
ويكتنفها شيء من الغموض في الصورة والضباب ، الذي تنبهم به بعض المعاني  
فتبعث على التأمل ، .. وموسيقاها غير المنتظمة ..

وتنسب الثانية الى جبران خليل جبران في مناجاته للأرواح « البدائع  
في والطرائف » ويا بني أُمِّي في « العواصف » وقد جاراها منير الحسامي  
في « عرش الجمال والحب » وصاحب « نسمات وزوابع » وسواها ..

(١) الرافعي - الشعر في خمسين سنة - المقتطف - كانون الثاني - يناير  
عام ١٩٢٦ م ، وحي القلم - ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) الريحانيات وانظر عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٣٢٦ ،

والمقدسي - الإنجازات الأدبية ج ٢ ص ١٩٧ .

وقد يكون للشعر الانجليزي بخاصة ، والذي لم يكن يلتزم بعروض وفواف كالتي في العربية ، أثره في هذا المضطرب (١) .

أما الرافي فقد مضى من ناحيته يثبت رأيه في اتساع النثر العربي للمعاني الشعرية ، وقد جاء بنماذج من ذلك في السحاب الأحمر وأوراق الورد ، والتنهدات والربيع الأزرق ولحوم البحر وغيرها .. صوراً فيها ألواناً من المعاني الشعرية في آيات من الجملة النثرية .

وقد أسرعت القصيدة النثرية الريحانية في الاندثار ، ولم يكتب لها الحياة بعد صاحبها ، ولكن الجهرانية ، والرافعية ما تزالان تتشبثان بالحياة والبقاء .

\* \* \*

ومما تجدر الإشارة إليه أن حب التجديد والتطور بالشعر العربي عند بعض الشعراء قد بلغ محاولة استخراج أوزان من اللغات الأخرى كالفارسية والتركية ، والأوربية بعامة ، .. وكان أحمد شوقي سابقاً بذلك حين نظم قصيدته :

حفاً كأسها الحبيبُ      فهي فضةٌ ذهبُ

وبالرغم من نجاح هذه المحاولة ، فإنها لم تعد استحداث مجزوء للبحر المتدارك ، لم يكن معروفاً من قبل .

وكذلك حاول خليل مطران (٢) والرافي في « طبل الحرب » أو البحر المنفجر ، الذي نظم فيه بعض الأناشيد ، .. كما حاول بشر فارس في قصيدته :

جنبوا الناس عن أذني      أذني زلزلت طربا

(١) ، (٢) راجع الزهور - ج ٢ السنة الأولى .

مثل قلب تحدّثه سره الرّدّ فاصطربا.. (١)  
علي أن الدكتور اسماعيل أدهم لم يكن يرى إمكانية زيادة بحر جديد،  
أو استحداث تركيب آخر للبحور المعروفة، .. وإنما مردّد تلك المحاولات الى  
تبديل التفاعيل واجتزائها، .. وليس ذلك باختراع ولا زيادة (٢).  
وعلى أن هذه المحاولات لم تأت بشمر (٣) فإن الأستاذ حكمة فرج البدري  
قد أرجعها الى ضروب من الأبحر العربية نفسها وضبط أوزانها بتوثيق (٤)  
وكأنما كان يثبت رأي المرحوم أدهم.

\* \* \*

على أن من أهم ميزات الانطلاقة الشعرية ما كان لها من الاتجاه الفني  
في القصة وضروب المحاكاة الأخرى ١.

وكان الرافعي قد عقد فصلا للمقتطف درس فيه الشعر العربي خلال  
خمسین سنة من ظهوره، فرأى الجديد الأهم في هذا النوع القصصي الذي توضع  
فيه القصائد الطوال، وصياغة بعض الشعر على أصول من التفكير في الانجليزية  
والفرنسية .. لما فيه من الغرابة والحسن، .. كما لاحظ عليه الانصراف عن  
إفساده بصناعة المديح والرثاء، لتأثير الحرية الشخصية، .. وكذلك الاكثار من  
الوصف والابداع فيه، وإهمال الصناعات البديعية، والنظم في الشؤون القومية  
والاجتماعية.

(١) الرسالة ٨ - ٨٩، والثقافة ٣ - ١٥٣.

(٢) أنظر الرسالة ٨ - ٣٤١ كانون الثاني - يناير ١٩٤٠ م.

(٣) أنيس المقدسي - الإتجاهات - ص ١٩٧.

(٤) راجع كتاب العروض - لحكمة فرج البدري ط - البصري ١٩٦٥ م.



وربما فات الرفاعي أن يذكر التمثيلية وغيرها من هذه الفنون الوليدة ،  
ولعله احتسبها على الفن القصصي ، ٠٠ والمقال موجز جداً ليأخذ صفحات من  
مجلة ، وكأنه استغنى عن الأمثلة والنماذج (١) .

وقد حلق في القصة الشعرية غير واحد من الشعراء ، .. كما اتسمت  
بعض قصصهم بسموّ الخيال وقوة الأسر ، وحياء اللغة فيها وتدققها بالمعاني ،  
وانتيال ألفاظها عند الحوار ، ..

وأبرز هذه الأعمال كانت لخليل مطران في « فتاة الجبل الأسود »  
و « الطفولتان » و « شهيد المروءة » و « عروة وعفراء » لبشارة الخوري (٢)  
و « سليم وسلمى » لخليل شيبوب (٣) و « العذراء » لخير الدين الزركلي (٤)  
و « خولة بنت الأزور » لشبلي الملاط (٥) و « زينب وخالده » لخيري الهنداوي (٦)  
و « أسماء » للزهاوي (٧) و « الفقر والسقام » للرصافي (٨) و « عليا وعصام »

---

(١) أنظر الرفاعي - وحي القلم - ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) ديوان الخليل وديوان الهوى والشباب .

(٣) ديوانه « الفجر الأول » ص ١١٧ .

(٤) البرق ٣٣٧٠ . (٥) ديوانه ص ٢٨٣ .

(٦) الأدب العربي ١ - ١٧٤ .

(٧) ديوانه ج ٣ ص ٦٨ .

(٨) ديوانه ص ١١٣ .

لقيصر المعلوف (١) و « غلواء » لالياس أبي شبكة وغيرها كثير ..  
أما شاعرنا الرافعي فقد كانت له في القصة الشعرية محاولات موفقة ، وإن  
لم يلتزم فيها بما يقتضيه الفن القصصي أحياناً من عناصر السرد القصصي ، .. فهو  
يقصد أبدأ على حيوية نظمه التي يثير فيها الفكر والخيال والعاطفة معاً .  
ومن أبرز هذه القصص الرافية « دموع الصبا » و « على الكوكب  
الهاوي » بخلاف مطارحاته الغزلية التي انبتتها في ديوانه ، وقصته « شبان الجبل »  
في ديوان النظرات .

وسنفضل فيها القول في كتابنا التالي بإذن الله وتوفيقه .

ولم تقف هذه المحاولات القصصية عند حدود الحوادث التاريخية ،  
والأخبار الاجتماعية وإنما تجاوزتها الى الخيال في تحقيقات إبداعية ، .. كان منها  
« ثورة الجحيم » لجميل صدقي الزهاوي ، و « على بساط الريح » لفوزي المعلوف ،  
و ( عبقر ) لأخيه شفيق المعلوف ، و ( شاطيء الأعراف ) للمشمري وغيرها .

\* \* \*

ومن بين الفنون التي عاناها الشعر العربي الحديث في انطلاقاته ، تلك  
النزعات التي تصدى فيها الشعراء للتاريخ والبطولات ، يستهوي أفئدتهم بها خيال  
يجنح في تلك الأجواء ، حتى كادت بعض القصائد أن تكون ملاحم شعرية  
إفتقدها الشعر العربي منذ آمادا ..

ومن ذلك قصيدة أحمد شوقي في النيل :

---

(١) تذكارات المهاجر ص ١١١ .

من أي عهدٍ في القرن تندفق وبأي كفٍّ في المدائن تغدقُ  
 أمن السماء نزلت أمُ نُجُرت من عُليا الجنان جداولاً تترقرقُ  
 وقد عارض بها قصيدة علم الدين المحيوي التي يصف فيها جزيرة الروضة :  
 الروض مقتبل الشبية موققُ خضل يكاد غضارة يتدقق  
 أما الرافي فقد أرسل قصيدته « النيل والطبيعة المصرية » على السجية  
 نفسها فقال :

النيل أم سرُّ الزمان الجاري يلقي عليه الماء لون نهار  
 وقد كانت ذات أثر خاص ، جعلت من الأستاذ عبد الحميد سالم المحرر  
 بالأهرام يحتفل بها ويترجمها لتنشر في الصحف الفرنسية عام ١٩٢٨ م (١) .

\*

وقد تميّزت هذه النزعة تاريخياً عند حافظ ابراهيم بـ « متن العمرية » التي  
 تحدث فيها عن مناقب الامام عمر بن الخطاب (رض) ، وظهرت عند عبد المطلب  
 في قصيدته « العلوية » التي مدح بها الامام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -  
 وقامت لدى عبد الحلیم المصري في « البكرية » التي أرسلها في شمائل خليفة  
 رسول الله (ص) ورفيقه أبي بكر الصديق (رض) .

وهم الرافي أن يجاري الشعر في هذا المضمار ، ويعارض بعض هذه  
 القصائد غير مرة (٢) ولا سيما بعد ذبوع قصائد أحمد شوقي النبوية في « نهج  
 البردة » و « الهمزية » و « سلوا قلبي » ..

(١) الرافي - الرسائل ص ١٣٩ .

(٢) « « ص ٥٣ .

ولكن أحمد محرم بز هؤلاه الشعراء جميعاً في صياغته لمطولته الكبرى ،  
التي تحدث فيها عن مجد العرب ، وعرفت فيما بعد بـ « الألياذة الاسلامية » (١) .  
وقد ارتفع بهذا الفن شاعرياً الاستاذ عمر أبو ريشة وحلّق في مطولته  
عن الرسول الكريم ، والأخرى التي أنشأها في خالد بن الوليد (٢) .  
ولم تقتصر هذه الطولات على التاريخ القديم ، بل حضرت العصر الحديث  
فقد نظم الاستاذ ابراهيم العريض في « أرض الشهداء » مصوراً فلسطين المأساة  
والملمحة ، وباهي البدرى « بمعجزة العروبة » في ثورة العرب الجزائرية ..

\* \* \*

ومن الفنون المستحدثة في الأدب العربي الحديث هذه القصص التمثيلية ،  
التي تكتب فيها الجملة الأدبية نثراً أو شعراً على لسان أحد أفراد القصة ، وتدور  
مع الآخرين في حوار يحاكي الحياة الأصيل للقصة نفسها ، .. وقد دعيت  
بالمسرحية لالتصاق تمثيلها بالمسرح ، .. كما سميت التمثيلية من أن الأصيل للقصة  
في القصص هو ضرب الأمثال للناس .

ولكن أستاذنا الدكتور مصطفى جواد يرى أن تسمى « المحاكاة » لأنها  
تحاكي وتشابه الواقع الذي تجري فيه القصص أو تخيل ! .. مع العلم أن الفن عند  
الغريق بضرابه القولية والتصويرية كان يعتبر محاكاة (٣) .  
وقد كان انتقال هذه التمثيليات نتيجة مباشرة لاتصال الغرب بالشرق

(١) اخرجتها « دار العروبة » عام ١٩٦٢ م .

(٢) أبو ريشة في ديوان « مخنارات » .

(٣) راجع محمد غنيمي هلال في النقد المقارن - فصل المحاكاة ! ..

وما جاء به من فرقها وأجواقها الموسيقية بعد الغزو الفرنسي لمصر .. وكون هذه  
الفنون من مألوف الآداب الافرنجية .

وكان العرب قد فاتهم لسبب أو آخر أن يترجموا عن اليونانية مثل هذه  
الفنون أيام عزم الحضاري الذي مارسوا فيه الترجمة عن اللغات القديمة ، .. فما  
تركوا فيها من العلوم العقلية أو الطبيعية شيئاً ، وما غادروا للفلسفة مجالاً من غير  
أخذ واستيعاب .. ولسكنهم قصرها في الفنون الأدبية والشعرية لما يذهب اليه  
بعض المفسرين من غلبة الصورة الوثنية والقول بتعدد الآلهة في هذه الفنون  
مما لا يتألف مع الاعتقاد العربي الموحد .. ويضيف آخرون الخشية من هذه الوثنية  
أن تعيد الناس الى جاهليتهم الأولى ..

وعندي أن ما امتاز به الفكر العربي آنذلك من النظر في العلوم العقلية ،  
والإفتراعات الذهنية التي كادت ترين على التصور في المذاهب الفلسفية ،  
والاتجاهات الاجتهادية في الفقه .. وسوى ذلك .. هو الذي قاعس بهم عن  
تذوق هاتيك الفنون بعد أن أصبحوا في شغل شاغل عنها ، وأضحت الآداب  
نفسها عندهم لونا من الترف والأناقة ، .. مما لا مجال للتوسع فيه خوفاً في هذا  
السبيل .

على أن محاولة الشيخ ناصيف اليازجي في قصته « المروءة والوفاء » التي  
نشرها عام ١٨٧٦ م وقد أشبعها بالصور الشعرية والنسج اللطيف ، .. حتى مثلت  
على مسارح بيروت بعد ذلك بأثني عشر عاماً ، تعد أسبق الأعمال الفنية في هذا  
المجال .

وكان قد استمد القصة من حادثة تاريخية مشهورة قيل أنها وقعت للنعمان ملك المناذرة في الحيرة يوم (بؤسه) مع أعرابي كان النعمان يحب أن يأتيه الأعرابي يوم نعيه .. والقصة معروفة بعد .

ولعل من الموافقات الطريفة في حياة الزعيم النابغة مصطفى كامل - رح - أنه تصدى - وهو بعد طالب - في الحقوق لوضع رواية (فتح الاندلس) عام ١٨٩٢ م وقد جمع فيها بين الشعر والنثر المسجوع والأناشيد ..

ثم كان أبو خليل القباني - رائد النهضة المسرحية العربية ، الذي وضع عدة مسرحيات ، منها عنتره ، والأمير محمود ، وناكر الجليل ، والرشيد ، وأنيس الجليس .. وسواها .. وقام بتمثيل معظمها مع فرفته على مسارح الشام ومصر .. كما حاول سليم النقاش في (ظلوم) وعلى أنور في (شهامة العرب) المطبوعة عام ١٩٠٢ م وإبراهيم الطرابلسي في « ابن زيدون وولادة » وأحمد شوقي في « علي بك الكبير » التي عجز عن الاستفادة منها يوماً ، حتى عاد فأخرجها عام ١٩٣٢ م بأقوى منها أسلوباً ، وقد أفاد من تجارب سابقه (١) .

وقد حاول الرافعي في « موعظة الشباب » أن يضع رواية يصوغها بأسلوب شعري ولكنها لم تر النور (٢) .

- 
- (١) راجع عمر الدسوقي - في كتابه - المسرحية ، ومحمد يوسف نجم - المسرحية ، ومحمد المنذور - المسرح ، والمقدسي - الإنجازات ص ١٧٥ .
- (٢) ورد في رسالة سلامة حجازي للرافعي أنه كان في انتظارها ، كما ظهر الاعلان عنها في الجزء الثالث من ديوال الرافعي وعلى الغلاف .. ولا يعرف مكانها الآن ! ولعلها بين مخلفات « سلامة حجازي » ! .

كما حاول الشيخ محمد عبد المطلب الاشتراك في تأليف روايات لم يوفق  
الى سبكها، ومنها المهلهل وامرؤ القيس التي نشرت عام ١٩١١ م.  
وبعد ذلك جرت محاولات لكتابة التمثيلية في الترجمة عن اللغات  
الآخري، والوضع بالعربية نثراً وشعراً، من بينها ترجمة فرح أنطون لرواية  
« ابن الشعب » و ابراهيم رمزي لمسرحية ( قلب المرأة ).

وقد كان للأديب الفنان محمد تيمور المنطلق في هذا السبيل، حين وضع  
روايته ( العصفور في القفص ) عام ١٩١٨ م و ( العشرة الطيبة ) عام ١٩٢٠ م  
فقد أجاد في البناء الفني للمسرحية، ودق في الأداء ورق في المحاوره .

ثم ازدهت أيام العرب - والمصريين بخاصة - بالممثلين والمخرجين والسينمائيين.  
وكانت الانطلاقة الأدبية الثانية على يد الأستاذ توفيق الحكيم  
الذي ظهر في أعقاب الثورة المصرية في ( المرأة الجديدة ) وعودة الروح  
و ( أهل الكهف ) وغيرها .. حتى ظهرت له مسرحية ( محمد ) عام ١٩٢٦ م (١)  
فلحقه الكثيرون .

ولقد تأثر أحمد شوقي بأعلام الادب الأوربي الذين ينزعون الى التاريخ،  
فمال الى إحياء التاريخ المصري فرعونياً كان أم عربياً، وكان في شعره بعد ذلك  
اتجاه قومي رائع في الموضوع (٢) .

ولما كان الجمهور ميالاً الى الغناء أكثر من المحاوره، وإيمانه بالخلافة  
الاسلامية يملأ عليه آفاقه،.. فقد اهتمبها فرصة ليضع فيها روايته ( الست هدى )

---

(١) راجع اسماعيل أدهم في كتابه « توفيق الحكيم الفنان الخائر » .

(٢) عمر الدسوقي - المسرحية ص ٥٣ .

ملهاة شعرية تنقل من الاجتماع قضية خطيرة يتهاافت فيها الرجال زحاما على  
النساء المثيرات ..!

وأحمد شوقي هو أول من وضع مسرحية جيدة السبك ، رائعة البيان ، ..  
وكان له في شكبير قدوة في هذا الموضوع ، .. وما عيب عليه سوى إطالة الحوار  
لشاعريته المفتحة على المعاني ، .. فهو أقوى من ملك ناصية البيان العربي في  
الشعر الحديث (١) وكان من السهل عليه أن يدير هواه حول نواة الغزل ، ويتخذ  
من (مجنون ليلى) و (عنترة) مجال التعبير عن حبه وأيامه ..! (٢)

وقد تابعه في اتجاهه الشعري التاريخي هذا كثير من شعراء العربية ، منهم  
محمد حسن علاء الدين في (امرئ القيس) وعمر أبو ريشة في (سمير اميس)  
وعزيز اباطة في (الناصر) وأحمد زكي ابو شادي في (الممالك) .

وانتقل بالاتجاه هذا الى العصر الحديث بدر الدين حامد في (ميسلون)  
وعبد الحميد الراضي في (ثورة العراق) وعلي أحمد باكثير في (همام) ..  
وبرهان الدين العبوشي في (شبح الاندلس) التي عرض فيها المأساة العروبة  
في فلسطين ..!

\* \*

ولا بد لنا قبل أن نختتم هذا الفصل من أن نشير الى ظاهرة الرمزية التي  
نشأت معاكسة للابتداعية الاصولية ، متهمة اياها بالجمود ، .. كما كانت رد فعل  
لميوعة الابتداعية ، وابتدال العاطفية .. والتي وافت - على ما يقدر عاشقوها -

(١) عمر الدسوقي - المسرحية ص ٦٢ - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) « « « من ٢٦ - ٨١ ثم انظر في نقده لرؤية

مجنون ليلى ص ٤٢٥ .



في «جهاز من الألفاظ المشرفة، تمازج الأُحرف فيه يبعث في النفس الموسيقى، ويوحى اليها عن طريق الأيماء.. معاني وراء المعاني..، فما الشعر إلا أنشودة تخرج بالإنسان عن الوعي..». والرمزية هذه «نزعة تخرج من الواقع الى آفاق تبحث عن الغامض من العواطف، والتائه من الخلدات في منعطفات الروح» الخ (١).

ويشترط لها دعائها نسبة من الموصوفات والنعوت، والاكتفاء بالمعاني القصية، والمخات الخفية، لتحدث نشوة في النفس (٢).

وقد نجد نماذج للرافعي في شعره ونثره فيها بعض هذه الشروط، ولها غير النشوة والهزة التي تحدثها في النفس - معاني من الإيمان والطمأنينة والسماحة، لم يطاوله أحد في الاقتراب منها،..

ويجفل بذلك في «حديث القمر» و «رسائل الأحزان» وصفحات من «السحاب الأحمر» ولا سيما في مثل قوله:

يا من على البعد ينسانا ونذكره      لسوف تذكرنا يوماً ونسأكا  
إن الظلام الذي يجلوك يا قمر      له صباح متى تدركه أخفاكا..

.. وقد عيب عليه «الغموض» في هذه المؤلفات الشعرية الإنشاء،.. وأن ألفاظه وتراكيبه تحتاج الى التأمل وكدّ الذهن لإدراك ما وراءها من المعاني واللمحات والاشارات!

على أن «الرمزية» وما اتبعتها من «الشعر الحديث» قد أضحت اليوم

(١) نقولا الفياض - الأديب ١ - ج ٨ و كتابه «على المنبر» .

(٢) الأديب ١ - ج ٧ .

كالقضية المعلقة وما تزال الآراء تدور من حولها ، والدراسات تعمق من أجلها ، والبحوث تتولى جوانبها ، والمناقشات تستخدم فيما يقبل الحوار ومبادلة الفكر .. يقف معها فريق من الأدباء والشعراء ، ويتصدى لهم فرقاء آخرون .. وقد كتب في ذلك الكثير (١) .

\* \* \*

ولا يغيين عن البال .. أن هذه النزعات ، وصور التجديد والعطاء قد أثرت في الشعر العربي بعامة ، وجعلت من انطلاقاته الحديثة حياة أدبية وليدة ، حتى ليكاد أن يكون ابتداءياً محتفظاً بالأصالة عند جيل شوقي ، وابتداءياً متأثراً بالمرضية الى حد ، .. وفي تفاوت بين الشعراء .. بعد هذا الجيل .

---

(١) منهم زكي طليمات في المقتطف عام ١٩٤٣م ، والمكشوف ع ١٤٥ ، وعباس العقاد ، الكتاب ج ١ م ٣ . وبشر فارس ، والعلايلي ، وابراهيم العريض وإحسان عباس .. وغيرهم .  
وقد تصدى للموضوع صديقنا النابعة محمد فتوح أحمد فأعد فيه رسالة موفقة

# الباب الثاني

الأقسام

مصطفى صادق الرافعي



## الفصل الأول

### الرافعي والرافعيون

هو أبو السامي مصطفى صادق بن الشيخ عبد الرزاق الرافعي الفاروقي العمري الطرابلسي (١) شاعر الحين المجنون (أ) وأديب الشرق المفتون (ب) وناطقة البيان (ج)، وزهرة شعراء العربية (د)، وإمام الادب وحجة العرب (هـ) (٢) ولد ببهيم (٣) في أول رجب الأصب سنة ١٢٩٨ هـ - الموافق لمنتصف

(١) هكذا كانت كنيته - واسم ولده الأكبر - محمود سامي الرافعي ، وقد توفرت لدينا نعوته من تذييله بعض أوراقه الخاصة ، ومن بين رسائله التي كان يبعث بها الى أصدقائه وأصحابه من أهل الصحف والمجلات، وانظر الجامعة ج٨ - ١٩٠٢ م - ربيع الأول ١٣٢٠ هـ . . وما أضافه اليه بلغاء العصر من نعوت .

(٢) (أ) سمي بشاعر الحب والجمال - الحسن - لشدة ولعاه بالغزل - أنظر ديوانه ج ١ هاش ص ٦٨ ، ج ٢ ص ١٢ . وأحمد محمد عيش - سيرة الرافعي المقتطف ٩١ - ٥٢٩ ، وما قاله عن صفة الجنون يفاتن الطبيعة وجمال الحسان ،

(ب) وفرح أنطون - الجامعة ٧ أيلول - سبتمبر ١٩٠٣ م ، وديوان الرافعي ج ٢ ص ١٣ ، . . واحتفاء عبد الحميد الزهراوي ورشيد رضا به .

(ج) وكذلك مجلة البيان للبرقوقي ، وجريدة الأخبار لأمين الرافعي .

(د) وما نعتته به أحمد شوقي ، أمير الشعراء .

(هـ) وشكيب أرسلان أمير البيان في رسائلها ! . .

(٣) بهيم - أحدث قرى محافظة القليوبية ، قريبة من مصر - القاهرة ،

كانت مهملة ، وما لبثت يد وزارة الزراعة أن امتدت إليها في بدء إنشائها ، =

كانون الثاني - يناير ١٨٨١ م (١) حيث كانت أمه السيدة أسماء قد آثرت أن تكون ولادتها الثانية في دار أبيها الشيخ أحمد الطوخي - التاجر الحلبي الذي كانت قوافله تسير بالتجارة بين مصر والشام (٢) .

وقد سماه أبوه صادقاً الرافعي ، .. حتى اشتهر بالصدق والأمانة ، فاصطفاه من بين أخوته ، ودعي من ثم « مصطفى صادق الرافعي » (٣) .

= فجعلت منها قرية نموذجية ، ومعهداً للتجارب الفنية - الزراعية المختلفة ، حتى غدت اليوم - وقد مدت إليها أبنية مصر الجديدة عن طريق التزهة - من أعرس مدن القطر المصري ، تحفل بالعديد من أصناف الفاكهة وأنواع الخضراوات . ومن عجيب حكمة الله وتوفيقه أن يكون الدكتور محمود سامي الرافعي مديراً عاماً لإدارة شركة ( قها ) العظيمة ، التي تتولى منتجات حقول القرية الزراعية بالتنمية والتصنيع .

(١) محمد صبري - شعراء العصر ص ٢١٣ ، وسعد ميخائيل - آداب العصر ص ٢٩٣ ، وأحمد عبش - المقتطف السابق وصديق شيبوب - البصير - ٢١ أيار - مايو ١٩٣٧ م ، ومحمد سعيد العريان - حياة لرافعي ص ٢٧ . الخ .  
وقد كانت هنالك ورقة بخط الرافعي حسب فيها - ما يقابل يوم ولادته في التاريخ الرومي ( الميلادي ) رجح بها العريان أنه من مواليد كانون الثاني ١٨٨٠ م - على أن الصواب ما أثبتناه .

(٢) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٧ .

(٣) .. وقد ذكر الأستاذ محمد أحمد عبش ، أن الشيخ عبد الرزاق الرافعي سماه « مصطفى » أولاً ، واحتفل به من أول يوم ، ثم أنه لما نشأ اشتهر بالصدق منذ طفولته ، نعته أبوه بالصادق فاستحلى الإسم الجديد حتى صار يعرف به ، ولا سيما حين عرف بالأمانة بين أقرانه من طلبة المدرسة الابتدائية في المنصورة - راجع المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

على ان الرافي نفسه ، كان يكتب في بعض أوراقه اسم صادق منفرداً ،  
او يرمز له بحرف ( ص ) مختصراً - من بين توقيعاته العديدة (١) .

ونظراً لما يحدثه ازدواج الاسم أحياناً من اشتباه ومضاعفة .. فسأمر  
على الموضوع بإيجاز حتى أثبت الاسم الصحيح .

في مطلع حياته الأدبية وعقب صدور الجزء الأول من ديوانه ، تلقى  
الرافي رسائل عديدة وتقریظات تتضمن اسمه وتنت صفة ، وتطريه في  
توريات جميلة ، منها ما قاله المرحوم محمود سامي البارودي :

هو « صادق » فيما علمنا كاسمه وكفى بذلك في الوفاء دليلاً

فليبق محسود البيان ممتعاً بالفضل حتى يبلغ المأمولا (٢)

وقد برع البارودي في هذه التورية كما رأيت .. وكذلك ذهب الشيخ

حسين مهدي المذهب نفسه في قوله :

.. فلو شعراؤنا سمعوه قبل اليوم ما فاهوا

وهذا « صادق » والصدق أصل في مسماه (٣)

وبذلك حاول ، وفقاً تثبت الأصلة في تسميته بالصادق .

ونجد الشيخ مصطفى لطفی المنفلوطي يتوصل اليه بمثل قوله :

.. والشعر كل الشعر في حكمة يوحى بها للأفئس الخاطر

(١) الرافي - جنود سعد - في هامش رسائل الرافي ص ٧٧ .

(٢) أنظر ديوان الرافي ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) « « « « ص ١٥٢ .

والشعر إن لم يك من « صادق » فيه فلا شعر ولا شاعر (١)  
.. وقد ضمن الحكمة القائلة .. إن « أحسن الشعر أصدق » .  
أما ابن عمه ورفيق صباه المرحوم عمر تقي الدين الرافعي فقد قرظ ديوانه  
الثالث بقوله :

.. أتى من الحكمة ألواحها فجلت الحكمة والصانع  
وحسبها « الصادق » فيما أتى مؤيداً إذ كلهم خاضع (٢)  
وحتى الدكتور طه حسين بذكره بالاسم « صادق الرافعي » (٣) .  
وقد وجدت في رسالة للآنسة مي وجهتها إليه في ١٠ آذار - مارس ١٩٢٣ م  
تقول فيها :

« .. وإني لشاكرة لك ما تحفنتني به من الآيات الصادقة الرافية » ،  
وفي رسالتها الأخرى المؤرخة في ٢٣ تموز - يوليو ١٩٢٣ م تحييه بقولها :  
« أما قبل .. »

فعلى الرافعي الصادق سلام ، وله بالعيد السعيد تهنئة .. الخ .  
وقد ورد في القسم الثاني من المقالات الظريفة التي عقدها لنا بعة القرن  
العشرين - المجنون في مجلة الرسالة عام ١٩٣٥ م قوله على لسان النا بعة :  
لا أبتغي في المدح غير أولى النهى أو صادقٍ أو شوقي أو مطران

(١) أنظر ديوان الرافعي ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) « « « ج ص ١٥٠ .

(٣) طه حسين - حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٥ .



وفسر « صادقاً » في الهامش بأنه استاذ نابغة القرن العشرين (١) .  
 ومن ناحية أخرى نجد ازدواج اسمه ( مصطفى صادق ) الذي عرف به  
 واشتهر في دنيا الأدب والتاريخ وفنونهما ، ٠٠ شائعاً عنه في سائر ما نشر له من  
 كتب ورسائل ، او فيما نسب إليه وادعاه لنفسه ، ٠٠ وهو المعروف والمشهور .  
 وقد ورد هكذا مزدوجاً في تفريظ البارودي لديوانه الثاني بقوله :  
 « لمصطفى صادق » في الشعر منزلة أمسى يعاديه فيها من يصابيه  
 صاغ القريض باتقانٍ فان نُليت صدوره ٠٠ علمت منها قوافيه (٢)  
 ومن ناحية ثالثة نرى اختصار اسم « مصطفى » معروفاً عنه ايضاً ، ٠٠ فقد  
 خاطبه به الشيخ عبد المحسن السكاظمي مطرباً بقوله :  
 شعرك يا « مصطفى » لصفافية بحوره كل وردها عذب  
 إن تنتخب من سواك قافية فذي قوافيك كلها نخب (٣)  
 وكذلك الأديب قيمصر ابراهيم المعلوف صاحب ديوان « تذكّار المهاجر »  
 يذهب المذهب نفسه بقوله :

ذهب الوري أن الأوائل لم تدع لبني الزمان من العسائي مبتكر  
 حتى نشرت عليهم يا « مصطفى » آياتك الغرا ٠٠ فكذبت الخبر (٤)

(١) أنظر الرافعي - وحي القلم ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) أنظر ديوان الرافعي ج ٢ ص ١٥٠ .

(٣) « « « ج « « .

(٤) أنظر ديوان الرافعي ج ٣ ص ١٤٩ .

ونجد هذا الاقتصار عنده ايضاً في بعض رسائله الخاصة (١) .  
ويذهب في الاقتصار على اسمه ( مصطفى ) سائر أصدقائه وأغلب خصومه  
من الأدباء والمسيحيين منهم بخاصة (٢) اذكر منهم الدكتور طه حسين في نقده  
لآثار الرافي اعتماراً من تاريخ آداب العرب ، وحديث القمر ٠٠ الى رسالة  
العتب ورسائل الاحزان ٠٠ الخ (٣) .  
والاستاذ عباس محمود العقاد (٤) وسلامة موشي (٥) وعمر فاخوري (٦)  
وانيس المقدسي (٧) وجميل جبر (٨) وعصبة « الاسبوع العربي » (٩) .  
وعلى هذا الاسم أقامت له « مي » مصغرها المرخم « مصيف » الذي  
خرجت به على قواعد اللغة ، ولكنه ارتضاه (١٠) ، لأنه يوافق منه صفة كانت  
تعتبره ضعفاً أيام الصيف .

- 
- (١) أنظر رسائل الرافي ص ٢٣ ، ٥٠ ، ٩١ وما بعدها .  
(٢) أنظر جميل جبر - مي في حياتها المضطربة ص ٤٢ .  
(٣) راجع طه حسين - حديث الأربعاء - ج ٣ .  
(٤) أنظر العقاد - الديوان ج ٢ ، ساعات بين الكتب ص ٢٦ .  
(٥) أنظر الهلال - كانون الثاني - يناير ١٩٢٣ م وما عاد يكتبه في أخبار  
اليوم عام ١٩٥٣ م .  
(٦) راجع منيرفا - ايلول / سبتمبر ١٩٢٦ م ونقد للسحاب الأحمر .  
(٧) راجع له الأساليب النثرية والإنجازات الأدبية .  
(٨) أنظر جميل جبر - مي في حياتها المضطربة ص ٤٢ .  
(٩) الصادرة في آب ١٩٦٣ م بمقالات عن مي ومأجأتها .  
(١٠) أنظر سعيد العريان - حياة الرافي ص ١٠٠ الهامش .

ويظهر أن الصدق سجية رافعية ، لعلها من بعض خلالهم التي تذهب بهم في الحياة مذاهب الرجولة والضمير والعنصر الكريم ، .. وقد تنبه لها أحمد شوقي أمير الشعراء في قصيدته « سيف الحق » التي رثى بها أمين الحركة الوطنية في مصر زين الشباب امين عبد اللطيف الرافي ، وكانت يد المنون قد تحطفته في زهو شبابه ، وأوج مساعيه النضالية المؤمنة ، وتفتح روحه القومية الصادقة ، .. فقال :

.. أخذ الموت من يد الحق سيفاً خالدي<sup>١</sup> الغرار عضباً صقيلاً  
قيل حلاله .. قلت : عرق<sup>٢</sup> من التبر أراح اليان والتحليلاً  
.. وأرى - الصدق - ديدناً لسليل الرافعيين ، والعفاف سيلاً (١)  
فاذا كان أمين قد مضى هكذا في السياسة متخذاً الصدق ديدناً ، والعفاف سيلاً ، .. فإن صادقاً هو الآخر كان ماضياً في هذه الصفة وحده ، الى الغاية ، يستهدف فيها صون حياة الامة بكل كرامة هي جذيرة بها ، وحماية عقيدتها ، والحفاظ على تراثها الحضاري ، باقامة روحها الأدبي ، والاشراق ببيانها النفسي .  
ولا يقف شوقي - رح - من الرافعيين هذا الموقف فحسب ، وإنما يتعداه الى اتخاذ الرفعة التي ينتسبون إليها تورية ، .. مثلاً أعلى لا يطاوله في البلاغة والقصد بيان ليراع<sup>٣</sup> .. ولا بلوغ النجم في الارتفاع ..

وقد عبر عن ذلك في مطلع قصيدته التي حيا بها شاعر العروبة وبلبل سورية المرحوم عبد الحميد الرافي في مهرجانه عام ١٩٢٨ م حيث قال :

---

(١) راجع ذكرى أمين الرافي - لصادق عنبر .

أعرني النجم أوهب لي يراعاً يزيد الرافعين ارتفاعاً (١)  
ويطري نعت الرافعي - وهو لما يزل يافعاً ٠٠ حتى ليشير حافظ الى ذلك  
بعبطة في قوله :

وحسبك أن مطريك ابن هاني وأنك قد غدوت له قرينا (٢)  
و« ابن هاني » من الكنايات الجميلة التي استحلاها لنفسه شوقي رحمه الله ، ..  
يجمع فيها إعجابه بالحسن ابن هاني - أبي نواس - وابن هانيء الاندلسي ذي  
الخطوة عند الملوك ، ٠٠ حتى لقد دعا منزله في الجزيرة بـ « كرمة هاني » .

° \* °

ومن الجدير بالذكر والملاحظة ، أن ازدواج الاسماء بالعبودية والتحميد ،  
سنة إسلامية ظهرت من بعد اهتمام الأمة بأحياء المولد النبوي الشريف (٣)  
وشيوع الحديث المنسوب الى النبي محمد ( ص ) والذي يقول فيه « خير الاسماء  
ما عُبد وُحُمِّد .. » الحديث .

وقد فسرت العبودية بسبق كلمة « عبد » لإحدى أسماء الله الحسنى ،  
التي جمعت في « دلائل الخيرات » (٤) كما فسر التحميد بالحق أحد أسماء النبي  
عليه السلام أو صفاته بالاسم العلم للشخص المراد تحميده .

(١) شوقي - الزهراء - شوال ٣٤٧ هـ .

(٢) حافظ - الديوان ج ص

(٣) كمال الدين الطائي - تاريخ المولد - الثقافة الإسلامية ٢٤ - ١٩٥٣ م .

(٤) للإمام أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزري وهو من كتب المأثورات

المتداول بها بين الناس .

ومن هنا نلاحظ أن معظم أسماء أبناء الاسرة الرافعية مجدة ، أو مدينة (١) أو معبدة ، .. وبذلك يكون اسم إمامنا «مصطفى صادق الرافعي» مزدوجاً هكذا .. أما النعوت والألقاب الباقية الأخرى كالفاروقي والعمرى والطرابلسي .. والنجم .. الخ فإنما هي من الصفات التي كان يتخذها لنفسه في قترات شاعريته ، ونزعات أدبه ونقده ، .. حتى إذا ما تم له الفوز بأمانة الأدب وأصبح حجة فيه كاد يقتصر على لقب «الرافعي» حسب .

وقد أردنا في تحليل اسمه بهذه الوسيلة ، أن نمسك للدارسين من التثبت في نسبة بعض الآثار الرافعية التي ليست له ، وذلك مما تقع فيه بعض الفهارس ومصالح «البليو جرافيا» من الخطأ والخلط بينه وبين غيره من الرافعيين ، كـمصطفى الرافعي صاحب كتاب «طرابلس الفيحاء» والدكتور مصطفى صاحب «حضارة العرب» و «الاسلام إنطلاق لاجهود» وغيرها (٢) . وكذلك أردنا أن نصحح الخطأ الذي يقع فيه بعض السكتاب من نسبة بعض آثاره لغيره من الرافعيين (٣) .

- 
- (١) من النسبة الى الدين ، وسيرد في سلسلة نسبه الكريم .
  - (٢) الأخير - يعمل مستشاراً للبنان - في القاهرة ، وقد نشر عنه وأذيع من خبره مصوراً أنه أحد المنضمين الى محفل «البنائين الأحرار» أو الماسونيين الأشرار على تعبير أدق - ظناً بالإنطلاق !! .
  - (٣) ومثال ذلك ما نسبه محمد زغلول في كتابه - القومية العربية في العصر الحديث - قصيدة «بلادي» الواردة في ديوانه الأول الى عبد الحميد الرافعي . ولعل الأخطر من ذلك أن ينسب له أيضاً في بعض المكتبات معجم المصباح المنير للفيومي !! ..

وإمامنا الرافعي بعد هو الولد الثاني للشيخ عبد الرزاق الرافعي - رحمه الله -  
الذي كان كبير القضاة الشرعيين في مختلف محافظات القطر المصري ، . .  
ومن أفراد الدنيا المعدودين في الفقه الاسلامي على مذهب أبي حنيفة (١) .  
والشيخ عبد الرزاق هو ابن العارف بالله الشيخ سعيد بن الشيخ أحمد  
ابن الامام القطب الكبير عبد القادر الرافعي رأس الأسرة الرافعية ، وأول من  
تلقب بهذا اللقب واشتهر بها ! .. وأضحى اليه ينسب الرافعيون من يومئذ ! .  
كما سيأتي .

والشيخ عبد القادر الرافعي هو ابن العارف بالله الشيخ عبد اللطيف  
البيساري (٢) بن الشيخ عمر البيساري صاحب زاوية العوينات بطرابلس الشام  
ابن الشيخ أبي بكر الحموي (٣) الولي المدفون بجماه بن الحاج لطفي بن الشيخ علي  
العقبلي الحموي القطب الصوفي المتصل نسبه بالشيخ عقيل العمري المنبجي (٤)  
صاحب الطريقة العمرية في التصوف بن الشيخ شهاب الدين أحمد البطاحي -

(١) أنظر الرافعي - أبي - المقتطف - أيلول / سبتمبر ١٩١٩ م ، وكان  
المطاف قد اختتم له حياته الحافلة في مدينة السيد البدوي (طنطا) ، فتوفي فيها  
ودفن هناك .

(٢) نسبة الى بيسارة من مدن صعيد مصر - محافظة أسيوط .

(٣) نسبة الى حماة - من مدن الديار الشامية .

(٤) منبج - قرية على الفرات في الجزيرة ما بين العراق والشام ، والشيخ  
العقبلي هو صاحب الطريقة العمرية ، وما تزال بعض الأسر والعشائر تنسب اليه  
في تلك الديار - راجع أبي الهدى الصيادي - مراحل المساكين ص ٧ .

الهكاري (١) بن الشيخ عمر بن عبد الله البطائحي بن زين الدين عمر بن الشيخ  
المعمر زين الدين عمر المكي (٢) ابن أحد العبادلة الصحابي الجليل عبد الله بن أمير  
المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه - العدوي القرشي (٣) .

(١) البطائح جمع يطيحة - برقة ، مسيل واسع ، وجمع مياه سائبة ،  
والمعروف منها بطائح مكة : وأول السواد في العراق كانت تسمى بالبطائح  
تشبيهاً لها بهاتيك ، وهي ما بين الصراة وواسط .. وقد أدركها الجفاف على مر  
العصور حتى أصبحت ببداء ، يسمى بعضها بجزيرة الرفاعي ، .. وإلى هذه  
البطائح ينسب الإمام القطب الكبير السيد أحمد الرفاعي ، صاحب الطريقة  
المعروفة باسمه ، وما يزال مقامه هناك كعبة القصاد من أصحاب الطرق الصوفية  
الى اليوم ، ولعل الشيخ شهاب الدين أحمد اليطائحي قد سلك عليه أولاً ، .. حتى  
استقل خلفه الشيخ العقيلي بطريقة العمرية ، والذي كان يقول ، إن الرفاعي حجة  
الله على الأولياء .

والهكاري .. نسبة الى هكر - موضع جميل أو دير قرب حوران .  
أو ربما من النسبة الى هكارية إحدى المناطق العراقية شرقي العمادية ، وهي  
تجاور ( وان ) في ترقية الآن .

(٢) من النسبة الى مكة المكرمة .

(٣) راجع في ذلك محمد رشيد الرفاعي - ترجمة الإمام عبد القادر الرفاعي -  
الثاني ، وكذلك قابل النسب على ما ورد في كتاب « يوبيل بلبل سورية » الذي  
صدر تعريفاً وتكريماً لشاعر العروبة المرحوم عبد الحميد الرفاعي ، عند بلوغه  
السبعين من عمره .

في أوائل القرن الثامن الهجري هاجر من المدينة المنورة أحد فروع  
السلالة العمرية الفاروقية، ذهب بعضهم إلى العراق واستوطنوا الجزيرة في الموصل، ..  
وقد شيّد رأس هذا الفرع الحاج قاسم العمري - الجامع العمري الكبير  
هناك، .. وكان بداية تاريخ هذه الأسرة العمرية المعروفة إلى اليوم .  
وقد نبغ فيها عدد من العلماء والفقهاء والمتصوفة، منهم الشاعر الكبير  
عبد الباقي الفاروقي العمري الموصلية (١) .

وربما سبق هذا الفرع رأس آخر ساح في ديار الشام ما بين هكرك في  
حوران ومنبج وحماه في سورية، والبطائح في العراق، .. ورحل إلى « بيسارة »  
من أعمال أسيوط في وادي النيل ..

ثم عاد فرج على الديار الشامية ثانية ما بين حماه والعيونات بطرابلس  
الشام، حيث أنشأ الشيخ عمر البيساري زاويته المعروفة هناك، .. وهو جد  
الإمام عبد القادر الرفاعي الكبير (٢) .

---

(١) راجع ترجمة سامي باشا الفاروقي - بطل حوران - الهلال ج ٣ كانون  
الأول / ديسمبر ١٩١١ م .

(٢) .. لم أقف على تاريخ مفصل للأسرة يقف إلى جوار - أشجار  
النسب، ولعل الأستاذ سمير الرفاعي تجل الشيخ عبد الحميد الرفاعي أو « واه من  
العمرين في العراق يتولى هذا الموضوع بأكثر عمّاية ودراية .



## الرافعيون في التاريخ

إزاء ما قدمنا من أخبار لا بد لنا أن نلّم بتعريف لأشهر الرافعيين في التاريخ العربي بين يدي هذه الدراسة التي نهتم بها أن نحكي ذكرى إمام الأدب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - .

ذلك أن اسم «الرافعي» لم يكن وليداً في التاريخ الفكري والفقهني للعرب (١) وإنما جاء هذا الانتساب علماً وعتماً لرجال عديدين من الفقهاء وأهل اللغة والأدب عبر تاريخ الفكر العربي، والحضارة الإسلامية طيلة قرون من إزدهارها، . . . وحتى انقضاء الأيام من بين يديها .

وقد زخرت كتب الطبقات، وتراجم الأعلام، ومحتويات (فهارس) المؤلفين بأسماء أولئك الرافعيين، تنعت صفاتهم، وتعدد الكثير من مصنفاتهم . وإنما لنوجز القول في بعضهم الأشهر تعريفاً، . . . كي نفرق الإلتباس والخلط والوهم الذي قد يعتري معرفة الناس لهم نسبة، أو يدور من حولهم لقباً:

\* \* \*

---

(١) راجع محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٦ وما بعدها . .

## أولاً - الرافعيون قديماً :

كانت النسبة الى « الرافعي » قديمة كما قدمنا ، وقد اشتهر من هؤلاء

الرافعيين :

أ - اسماعيل بن الحكم الرافعي - هو من ولد رافع مولى رسول الله (ص)  
كان قاضياً بمدينة همدان في خلافة الواثق وله كتاب (١) وكان حياً عام ٢٣٢ هـ  
ولم يعرف له تاريخ ولادة أو وفاة (٢) .

(ب) - إمام الدين أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن الفضل بن الحسين بن  
الحسن الرافعي - الشافعي - القزويني (٣) .

ينتهي نسبه الى الصحابي الجليل رافع بن خديج راوية الحديث عن رسول  
الله (ص) كما قال مظفر الدين القزويني الذي أرغخ له .

وهو صاحب الشرح الكبير المسمى « فتح العزيز على كتاب الوجيز »

---

(١) « أعيان الشيعة ١١ - ٣٨٨ .

(٢) سر كيس - معجم المطبوعات - ٦ - ٢٩٢ .

(٣) المرجع السابق ، وانظر - المصنف الحسيني - طبقات الشافعية  
ص ٨٢ ، والسبكي - ج ٥ ص ١٢٠ ، وحاجي خليفة - كشف الظنون . وكذلك  
محمد فريد وجدي - دائرة معارف القرن الرابع عشر ص ٢٦٥ ، وخير الدين  
الزركلي - الأعلام - ج ٤ ، وعمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - وفهرس المكتبة  
الظاهرية هدمشق .

للإمام الغزالي ، في ستة عشر مجلداً ، لم يصنف مثله في مذهب الإمام الشافعي .  
وقد شرح « المحرر » وسماه الوضوح ، وكلاهما في فروع فقه السادة  
الشافعية ، كما أنه شرح مسند الإمام الشافعي في الحديث الشريف .

كان إماماً في الفقه والتفسير والحديث ، طاهر اللسان في التصنيف ، كثير  
الأدب ، شديد الثبوت والاحتراز من النقل ومراتب الترجيح ..  
نعتة الأسفرائني بأوحد عصره في العلوم أصولاً وفروعاً .

وقال عنه الامام محيي الدين النووي ، - إنه إمام الدين ، وعدّه من  
الصالحين المتمكنين ، .. كما عدّه له كرامات ظاهرة ، .. وقد سلك الطريقة الرفاعية  
على الشيخ عز الدين الصياد ، وترجم للإمام السيد أحمد الرفاعي في مختصره .

وقال ابن الصلاح : ما أظن أن في بلاد العجم مثله ! .

توفي في قزوين عام ٦٢٤ هـ وعمره ٦٦ سنة برحمة الله .

وقد نقل له شعر جيد ، منه قوله :

أقيا على باب الرحيم أقيا .. ولا تنيا عن ذكره فتهما

هو الرب من يقرع على الصديق بابه .. يجده رؤوفاً بالعباد رحياً ..

قلت : هو الذي عناه الرفاعي بتشبيهه الامام عبد القادر الرفاعي به ، .. فنقله

المرحوم سعيد العريان باسم محمود الرفاعي (١) سهواً .

ج - الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ثم الحموي (الرفاعي) .

(١) راجع سعيد العريان - حياة الرفاعي ص ٢٧ .

الولود عام ٦٢٣ هـ والمتوفى سنة ١٠٧٢ هـ (١) .

لعوي كبير اشتهر بكتابه « المصباح المنير » في غريب الشرح الكبير ،  
الذي جمع فيه مفردات شرح الوجيز للامام عبد الكريم الرافي ، وأضاف اليه  
زيادات من لغة غيره :

دوّن الألفاظ المشتبهات ، وقسم كل حرف منه باعتبار اللفظ الى مكسور  
الأول ومفتوحه ومضمومه ، والى أفعال بحسب أوزانها ، . ثم اختصره على  
النحو المعروف ليسهل تناوله ، وقيد ما يحتاج تقييده بألفاظ مشهورة ولم يلتزم  
ذكر ما وقع في الشرح ، . وقد جمع أصوله من نحو سبعين مصنفاً ومختصراً ،  
فصار ترتيبه كتركيب المغرب للحنفية ، . وقد لحقه نعت « الرافي » بسبب  
المصباح .

وله أيضاً كتاب « نثر الجمان في تراجم الأعيان » وما يزال من بين  
المخطوطات النادرة .

ولد في الفيوم ، ورحل الى حماه في الديار الشامية فقطنها ، ولما بنى الملك  
المؤيد اسماعيل جامع « الدهشة » قرره في خطبته . .

د - محمد بن علي بن محمد بن أحمد الرافي التطواني المتوفى عام ١٠٤٠ هـ ، وقد  
وضع كتاب « المخارج المرئية في الرحلة المشرقية » (٢) .

---

(١) حاجي خليفة - كشف الظنون ١٧١٠ - خير الدين الزركلي ١ - ٢١٦ ،

سر كيس - معجم المطبوعات ٦ - ٢٩٢ ، ١١ - ٤٧٠ .

(٢) سر كيس - معجم المطبوعات ١١ - ٤٧٠ .

هـ - أبو عبد الله الرافعي - الأندلسي المتوفى عام ١١٠٨ هـ .  
وله ديوان شعر مطبوع (١) .

\*

وهؤلاء الأعلام - وإن لم يكونوا عمريين نسباً ، ولا تمت الأسرة الرافعية الى أحد منهم بسبب قريب أو بعيد ، . . فقد أردنا تبيان ذلك لمعرفة من انتسب هذا الانتساب في التاريخ قديماً ، . . لنخلص من ثم الى الرافعيين المحدثين .

---

(١) المرجع السابق .

## ثانياً - الرافعيون في التاريخ الحديث :

أ - الامام عبد القادر الرافعي - هو رأس الأسرة الرافعية الحديثة ، وإليه

تنسب بفضائلها ، . . .

وكان من أمره أن أستاذه الشيخ محمود الكردي الخلوئي ، شيخ الطريقة المنسوبة إليه الآن ، . . . حين رأى فيه من مخابلات التجابة ، ومظاهر الفطنة وكرم الشماثل ما رأى أثناء زيارته له في مصر قال له :

« أنت من رافعي لواء العلم » فلقب من ثم بالرافعي تشبيهاً له بالامام عبد الكريم الرافعي المتقدم ذكره (١) .

وقد ذكر المرحوم محمد سعيد العريان - استناداً الى رواية الرافعي نفسه : أن الشيخ الخلوئي لقب جده الشيخ عبد القادر بهذا اللقب إحقاقاً له بالإمام عبد الكريم الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية (٢) بعد أن عرف له من الفضل وسعة العلم والاجتهاد وبعد النظر ما أفرطه في الإعجاب به .  
والشيخ عبد القادر الرافعي بعد أديب صوفي ناظم نائر ، كان قد توفي في

(١) محب الدين الخطيب - الزهراء - الربيعان ١٣٤٦ هـ ص ٤١ .

(٢) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٧ ، وأحسب أن العريان - رح -

لم ينتبث من الاسم فأورده على أنه محمود الرافعي عم الشيخ عبد الغني الرافعي والد الشاعر عبد الحميد الرافعي . وكانت شهرته بالتقي والورع والإحسان على الطريقة لرافعية ، . . . والصواب ما ذكرت .

طرابلس الشام عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) (١)، ومن آثاره التي أوردها الشيخ  
عبد الرحمن الجبرتي في تاريخية :

- ١ - إحياء القلوب - في شرح حكم شيخه القطب محمود الكردي .
- ٢ - الزهر النضير في مدح طه البشير النذير .
- ٣ - مقامة في المناظرة بين حمص وحماء .
- ٤ - شفاء الغليل في مدح طه الجليل - تشطير البردة (٢) .
- ٥ - نيل المراد في تشطير الحمزية وبانت سعاد .. الخ هذه المصنفات وكأها  
في التصوف وفي آداب السلوك (٣) وكان مصطفى أغا يقول فيه: لا أراه إلا أسداً (٤) .  
وما زالت هذه الأسرة من لندن ذلك الامام الجليل الى اليوم تقدم  
للأمة خيرة الأعلام من أبنائها البررة بمن « أوتوا حظاً من العلم، ورزقوا النهى ،  
منهم العلماء بالشرعية ، والقضاة والأدباء والشعراء .. ومنهم الفلاسفة وحماء  
الدين ، ..

وكان لهم لدى الخلفاء والسلاطين من بني عثمان الحظوة والشأن الرفيع ،

- (١) راجع محمد رشيد الرافعي - ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي - الثاني  
وكذلك ترجمة علماء طرابلس ص ٤١ .
- (٢) طبع سنة ١٣١٢ هـ .
- (٣) راجع عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار في تراجم الأخبار -  
ترجمة الخلوئي ، وكذلك محمد زكي مجاهد - الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة  
الهجرية ج ٤ - ١٢٠ ص ١٤٢ .
- (٣) راجع ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي - الثاني .

وقد أسندوا لهم أرقى المناصب وأسمائها ، وخصوصاً في القضاء والادارة ، عرفاناً  
بفضلهم (١) وقد ولي كثير منهم القضاء في القدس الشريف ، وفي الشام وفي الحرمين  
الشريفيين بأم القرى والمدينة المنورة (٢) وكذلك في صنعاء وبلاد اليمن (٣) ومصر .

\* \* \*

وأول وافد منهم الى مصر هو :

ب - الشيخ محمد الطاهر الرافعي ، حفيد الامام عبد القادر الرافعي الكبير .

قدمها في سنة ١٢٤٣ هـ ( ١٨٢٧ م ) ليتولى قضاء الأحناف ، .

وكان كالرائد الطريق من جديد لهذه الأسرة ، . حتى توافد أخوته  
وأبناء عمومته من ثم ، يتولون القضاء ، ويعلمون الناس مذهب أبي حنيفة (٤) .  
وقد تنبه اللورد كرومر - معتمد الاحتلال البريطاني في مصر - الى ذلك ،  
فأضاف الى تقريره السنوي لعام ١٩٠٥ م ذكر هذه الأسرة الفاضلة ، وعدّد  
القضاة الرافعيين في القطر المصري - وقد تجاوزوا يومها الأربعين قاضياً ، . حتى

(١) مصطفى أبو طالب - من رسالة له بعث بها الى الأستاذ مصطفى

محو الرافعي مصنف كتاب « طرابلس الفيحاء » .

(٢) راجع قصيدة الرافعي في عمه الشيخ عبد الحميد الرافعي قاضي المدينة

المنورة - ديوانه ج ١ ص ٤٤ .

(٣) أبو طالب - تراجم علماء طرابلس ص ٤١ ، وكذلك مقدمة

« يوبيل بلبل سورية » .

(٤) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - المقتطف ٩١ - ٥٢٩ ، وسعيد

الغريان - حياة الرافعي ص ٢٤ .



كاد الإفتاء أن يكون لهم ، ولا سيما بعد إسناد منصب الإفتاء في تلك السنة الى الشيخ عبد القادر الرافي ، فلم يكتبكم « كروم » مخاوفه ، ولا اختصر ملاحظته حين قال :

« يكاد القضاء في مصر يكون وفقاً على الرافعيين ، .. وأوشكت وظائف القضاء والفتوى ( تأمل ) أن تكون مقصورة على آل الرافي » (١) أولئك الذين يقفون وراء « الخلافة » عنوان الوحدة القومية للأمة - بإيمان وجهاد .. وكانت هذه إشارة انجليزية بارعة ، والتفاتة الى خطورة مكانة الأسرة .  
ج - الشيخ عبد القادر الرافي - الحفيد :

كان من رجال الفقه المعدودين ، وقد صنف فيه الأستاذ محمد رشيد الرافي كتاباً ، .. وكانت وفاته في رمضان ١٣٢٣ هـ من الكرامات المشهودة ، .. فقد ذكر صاحب « المنار » أنه « لما توفي الشيخ محمد عبده ، دعا الخديو عباس الثاني إليه الشيخ عبد القادر الرافي ليتولى منصب الإفتاء ، .. وكان الشيخ - رح - زاهداً في الدنيا ورعاً ، لم يجد في نفسه هوىً الى قبول الوظيفة ، تخرجاً من فتنة الحكم ، .. وغلبة الهوى في شأن يتصل بحقوق العباد ..

وعلى ذلك ذهب الى الخديو - وفي نفسه هم ، وهو يدعو الله أن لا يؤول اليه هذا الأمر - ضناً بمرءته ودينه .. وهو سرُّ جده الإمام عبد القادر الرافي الكبير .

وتمت مراسم التولية ، ثم نزل الشيخ علي عربته عائداً بها الى داره ،

---

(١) راجع مصطفى محمود الرافي - طرابلس الفيحاء - ترجمة عبد القادر الرافي - الثاني .

وهو يتم بدعاء . فلما بلغ الدار نزل الحوذني ليفتح له باب العربية ويساعده على النزول فإذا هو قد فارق الحياة ! قبل أن يجلس مرة واحدة يقضي في شؤون الناس (١) .

.. وكانت وفاته على هذه الصورة التي تمت بها ، مثاراً لأضخم احتفاء وتأبين لرجل عظيم ، عُددت فيه مآثره ، ونُوِّه بفضل أسرته ، .. حتى عدت « المؤبد » أن مثل هذا الاحتفال سنة حميدة يسنها الشيخ الشربيني .. جديرة بالافتاء (٢) .

\* \* \*

د - شاعر العروبة الشيخ عبد الحميد الرافعي :

هو من أشهر الرافعيين في هذا العصر ، تقي الدين عبد الحميد بن الشيخ عبد الغني الرافعي بن الشيخ أحمد الرافعي - الرافعي ، ..

لقب بلبل سورية ، واقترن اسمه وشعره مع الثورة العربية الكبرى .  
ولد في الخامس من شعبان ١٢٧٥ هـ ( ١٨٥٩ م ) بطرابلس الشام موطن الأسرة (٢) وتعلم في الأزهر الشريف ، ومكث مدة بمدرسة الحقوق بالقسطنطينية .

(١) انظر المنار - شوال ١٣٢٣ هـ - تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٥ م ، وكذلك سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٤ .

(٢) راجع محمد رشيد الرافعي - ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي

- الحفيد .

(٣) لا يرى مصطفى أبو طالب أن موطن الأسرة طرابلس الشام ولبنان فقط ، ولا دمشق وسورية وحدهما ، إنما وطن الأسرة هو الشرق العربي بأجمعه - من رسالته المشار إليها ، وانظر الرافعي - الديوان ج ٢ ص ١٤ .

وقد تقلد عبد الحميد رفيع المناصب في العهد العثماني - الحميدي - وكان قائم مقام الناصرة في آخر عهده بالوظائف ، ..

ولما حدث الانقلاب الاتحادي المشؤوم ، واستولى جماعة الترقى (الماسون) على الحكم بعد مجزرة الاستانة في ١٣ نيسان ١٩٠٩ م ، ضوبق من قبل الطورانية التي مارستها « ترقية الفتاة » ، .. وما لبثت به السلطات حتى نفتته الى مدينة الرسول المنورة في أوائل الحرب الأولى ، .. وهناك انضم الى الثورة العربية التي اندلعت من الحجاز بقيادة الشريف حسين بن علي .

والشيخ عبد الحميد الرافعي هو ابن العلامة الفقيه المحدث الشيخ عبد الغني الرافعي مفتي طرابلس الشام ، المولود بها عام ١٢٣٠ هـ والمتوفى في عام ١٣٠٨ هـ بمكة المكرمة ، ..

كان قد درس على الامام الباجوري صاحب الحاشية ، وأجاب على الأسئلة النحوية التي وضعها الشيخ محمود نشابة ، كما هذب الجواهر المكية للأدرسي ، في التصوف ، .. حتى دعي بشيخ الشيوخ (١) .

وقد امتد العمر بشاعرنا عبد الحميد الرافعي ، وأحتفلت العروبة ببلوغه السبعين ، وعقدت له يوبيلاً فخماً أطرى نعته فيه أمير الشعراء أحمد شوقي فقال:

أعرني النجم أو هب لي يراعاً    يزيد الرافعيين ارتفعا  
تأمل شمسهم وهدي ضحاها    تجد في كل ناحية شعاعا

(١) راجع عنه أحمد الجندي - أعلام الأدب والفن - ، وعمر رضا

كحالة - فهرس المؤلفين ، والزركلي - الأعلام ، وفهرس المكتبة الظاهرية بدمشق « يوبيل بابل سورية » .

إذا أسد الشرى شبت ففغت رأيت شبابهم عفو جياعا  
فلم تر مصر أصدق من « أمين » ولا أوفى - إذا ربعت - دفاعا .. (١)  
وقال فيه آخرون من أدباء مصر وسورية والعراق .

ولما توفاه الله عام ١٩٣٢م بكاه أدينا الرافعي ، وراثه بقصيدة بليغة (٢)

مطلعها :

سلو الطير نواحاً على الشجرات لبيكي عنى شاعر الزفرات  
وكانت له صلة صداقة متينة مع أبي الهدى الصيادي شيخ الاسلام، ويقال  
أنه نحل الصيادي هذا الكثير من شعره (٣) وسلك معه على الطريقة الرفاعية .

وقد خلف عبد الحميد الرافعي من بين آثاره أربعة دواوين فحمة هي :

١ - الأفلاذ الزرجدية في مدح العترة الطاهرة الأحمدية .

٢ - المنهل الأصفى في خواطر المنفى .

٣ - الفرائد الرفاعية في مدائح الحضرة الرفاعية .

٤ - ديوانه - ولم يطبع بعد ٠٠ وهو يضم قصائده الوجدانية وشعره

القومي .

وعسى الله أن يفتح علينا بدراسة آثاره ، فقد كان شاعراً غزيراً للمادة ،

(١) أحمد شوقي - الزهراء - شوال ١٣٤٧ هـ .

(٢) أحمد عبيد - شعراء العصر الحاضر ٢٤٨ ، زكي محمد مجاهد - اعلام

القرن الرابع عشر ج ٤ .

(٣) سامي الكيالبي - أبو الهدى الصيادي من اعلام النهضة الحديثة -

الكتاب ١٠ - ٤ كانون لأول / ديسمبر ١٩٤٩ م .

عالج الأساليب القديمة والحديثة ، والتزم العروبة بأوسع معانيها القومية  
والحصارية ، . . . ومن ذلك قوله مفتخرآ :

شرف بذكر مفاخر العربان سمي وأنش خاطرني وجناني  
فحديث آباء الفتي ينشي به عزمًا كنفح الروح في الوجدان  
أهل الشجاعة والبراعة والوفا والصدق والإيثار والاحسان  
ولرب آثار لهم تذكراها يهب الضمائر قوة الايمان .. (١)

ويقول في الشريف فيصل الأول بن الحسين - رفيق صباه ودراسته  
في الاستانة وقائد الثورة العربية التي اندلعت من الحجاز في ٩ شعبان ١٣٢١ هـ  
(١٠ حزيران ١٩١٦ م) :

عشقتـه يعربي الخيم معصوماً أطل من غاب آساد الفلا ريمًا  
كسته أم المعاني من جلاتها مهابةً كان منها البدر محروما  
أميرنا فيصل الأشراف من فصلت عنا عزائمـه الوبلات والشوما  
يفارُ للعرب أن يغتال حقهم أو أن يضام فتي منهم كما ضيا

ومنها في ذم الاتحاديين المنقلبين في الدولة العثمانية :

عاديتمُ لغة القرآن عن سفهٍ وهي الأزاهر فتقن الأكاميا  
لولا اختلاسكم منها الكثير لما رأى لسانكم الموج تقويمًا .. (٢)

.. وهكذا في مثل هذه الأبيات القومية الثائرة ، والمعاني الشعرية الدافقة

والأخيلة الزاخرة ، يمضي الى غايته ..

(١) و (٢) راجع القصيد في مختارات البيهبل .

ولا بد لنا من وقفة تأمل معه في مثل هذه الأبيات التي بنسدها من فوق

منبر الفخر قائلاً:

بنو الرافعي أولام الله رفعة      سناها على أوج الفاخر ساطعُ  
تباهي بهم مصر العزيزة قطرها      ومجد طرابلس بهم لا ينزع  
تساموا بأخلاق حسان كأنها      عرائس حملأها التقى والتواضع  
وقاموا بآثار لهم عمرية (١)      توارثها منهم مسنّ ويافع  
.. فمنهم وحيد الدين قطب زمانه      ومن ذكره بالفضل كالمسك ضائع  
فتى الدين عبد القادر المرشد الذي      تباهي بعلياه النجوم الطوالع  
ومنهم أبو الأنوار محمود ذو الشا      إمام لأسرار الحقيقة جامع (٢)  
ومرشد بر الشام من عُقدت على      تفرد في العارفين الأصابع (٣)  
الى أن يقول مضمناً:

« أولئك آباي نخني بمثلهم إذا جمعنا يا « فلان » المجمع »

\* \* \*

(١) لا يعدل اعتداد الرافعيين بعماريتهم فخر، وما تزال الصراة العمرية

ظاهرة عليهم، وإن حاول الرافعي متراضعاً أن يحسبها قد استعجالت عنده

يوماً ا « حياقة » أنظر العريان حياة الرافعي ١٧ .

(٢) هو أحد أبناء الإمام عبد القادر الرافعي، اشتهر بلزهد والتضوف،

ولم تثبت له شافعيته، ولعله هو الذي زعم سعيد العريان في نسبة صفات الإمام

عبد الكريم الرافعي إليه كما مر .

(٣) يريد به أباه الشيخ عبد العني الرافعي .

هـ - أمين عبد اللطيف الرافي :

هو زين الشباب ، الرجل الحر الضمير ، والكبير النفس ، الذي كان محباً في الأخلاق والفضائل ، .. والذي اختطفته يد المنون في زهو شبابه .  
ولد في الزقازيق عام ١٨٨٦ م وتعلم بها وبالإسكندرية ، ثم تخرج بمدرسة الحقوق في القاهرة .

إنضم الى حركة الحزب الوطني التي قام بها الزعيم مصطفى كامل ، وأنشأ جريدة الشعب ثم الأخبار للجهاد في سبيل الله والمسألة الوطنية ، وكان من أنبت السياسة على أخلاقه ومبادئه القومية . .

وقد فضح في جريدة « الأخبار » الكثير من التواءات السياسة المصرية تجاه المفاوضات مع الانجليز ، ولا سيما أولئك الذين تنازلوا عن مبدأ « الجلاء » الذي اتخذته ( الأساس ) في المسألة الوطنية ، مما تسبب له في اعتداء « جنود سعد » عليه عام ١٩٢١ م (١) .

وقد كتب الرافي في ذلك كله بالعنوان طارت فيما بعد أحاديث بين الناس ، حيث انتصف فيها لابن عمه أمين من جنود سعد زغلول ، الذين شبههم بالمثل العربي في المصطلح « الجراد الذي لا يبيق ولا يندر » . . . بأسلوب فيه من التهمك والسخرية اللاذعة ما لا يطاق وسعد يومها في أوج عظمتها الوطنية (٢) .  
ونشيد الرافي « اسلمي يا مصر » الذي وضعه على لسان سعد في الثورة المصرية ما يزال يملأ حناجر الجماهير بالنداء والهتاف . . .

وقد توفي أمين الرافي أواخر عام ١٩٢٧ م وهو في ريعان شبابه وانضج

(١) من حديث المرحوم عبد الرحمن الرافي بالحرف .

(٢) راجع رسائل الرافي ص ٧٧ .

رجولته إثر مرض عضال لم يممهله (١)، ٠٠، وقد بكاه الناس في سائر أقطار الأمة العربية وقيل فيه من الخطب والمقالات والقصائد ما اجتمع بعضها في مصنف « ذكرى فقيده الوطن - أمين الرافعي » الذي أخرجه محمد صادق عنبر .  
 وبكاه أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدته البليغة ، التي عرض فيها برفاقه في الجهاد والساسة الذين تفرقوا عنه لثباته على المبدأ ، وتصلبه الاعتقادي أمام الانجليز ، وكونه كان كالعنوان للاتلاف الوطني كلما حيزب الأمة أمر من تفرق أو ضياع حيث قال :

مال أصحابه خليلاً خليلاً      وتولى اللدات إلا قليلاً  
 فصلوا أمس من غبار الليالي      ومضى وحده يحث الرحيلاً

\*

.. قيل غالٍ في الرأي قلت هبوةً      قد يكون الغلو رأياً أصيلاً  
 وقديماً بنى الغلو نفوساً      وقديماً بنى الغلو عقولاً  
 وكم استنهض الشيوخ وأذكى      في الشباب الطامح والتأميلاً  
 عاش لم يغتب الرجال ولم يجعل شؤون النفوس قالا وقيلاً  
 قد فقدنا به بقية رهط      أبقتوا النيل وادياً ونزيبلاً  
 يا أمين الحقوق أدبت حتى      لم تخن مصر في الحقوق فتيلاً .. (٢)

(١) راجع محمد صادق عنبر - ذكرى أمين الرافعي ص ٥٢ .

(٢) راجع محمد صادق عنبر - ذكرى أمين الرافعي ص ٢١٧ .



وأرسل الراجعي عبرته في مقالة بيانية ، وخاطب فيها مصر بقوله :

« ويحك يا مصر .. ١ »

أمن عظمتك أنك تنشئين النبي من أنبياء الوطنية لبؤدي رسالته ثم تصلينه؟  
أمن عجائبك أن يعرف خصومك وأنصارك الذين هم كخصومك .. رجلا  
مثل « أمين » إلا أن يرغمهم هو على الاقرار ، حتى يجعله الموت جزءاً من ضميرهم  
الانساني ؟

يا إلهي كان الباطل يرى في ذلك الرجل حقاً لا يقبله أبداً .

كان الذل يرى فيه عزة لا تتحول أبداً .

كان الواجب يرى فيه عاملاً لا يتعلم أبداً .

كان رجلاً من الأبد قامت بينه وبين مخازي الدنيا كلمتان : أبداً أبداً  
ثم يقول « أيها المصري عش في حدود ضميرك لربك ووطنك وإخوانك ،  
ولا تكن من قوم يعيشون في حدود أمعاهم » .. الخ (١) .

و - عبد الرحمن الراجعي - مؤرخ الحركة القومية في مصر الحديثة .

ولد في شارع درب الحصر في القاهرة عام ١٨٨٩ م بعد أخيه أمين  
بسنتين ، وكان أبوه الشيخ عبد اللطيف الراجعي قد ولي القضاء في البصرة فترة  
من الزمن قبل نقله الى الديار المصرية (٢) .

أنهى الدراسة الابتدائية والاعدادية في الاسكندرية ، وانتظم بمدرسة  
الحقوق في القاهرة من ثم ، . وظهر له نشاط قوي مبكر في هذه المدرسة عندما انتظم  
في نادي الحزب الوطني ، وبكر في ممارسة التعليم في مدارس الشعب التي أنشأها

(١) ذكرى أمين لراجعي ص ٢٢٥ .

(٢) حدثني بذلك الشيخ عبد القادر باش أعيان .

المرحوم مصطفى كامل ، . . . وتعلمد عليه سياسياً ، . . . وأخذ عنه الشيء الكثير .  
 مارس المحاماة طيلة حياته ، فقد كانت له هدفاً وغاية في الوقت الذي  
 كان فيه أخوه أمين ميلا الى ممارسة العمل الصحفي وتوجيه الجمهور ، . . .  
 يعتبر من أوائل المؤلفين في « الجمعيات التعاونية » التي تعتبر من المراحل  
 الاشتراكية الهامة ، وكان له فيها كتاب ناجح قرظه صادق الرافي ، ثم أنه في  
 سبيل الحركة القومية التي ظهرت في مصر آثر أن ينحو نحواً تاريخياً في توثيقها ، . . .  
 وقد حدثني أنه كان يعد لتاريخ حياة أستاذه الزعيم مصطفى كامل -  
 فرأى أن الموضوع أكبر من أن بوجزه مؤلف في حياة زعيم ، . . . فعكف على  
 أوراق التاريخ ووثائقه ، وقلبها ، وبصنع منها موسوعته التاريخية العظيمة للحركة  
 الوطنية في مصر متأثراً الى حد ما بالنظرة الأخلاقية للتاريخ (١) كما نتحدث عن  
 نفسه في كتاب « مذكراتي » أفرده للحديث عن نفسه بعد أن تحدث عن التاريخ ،  
 وأن من حق نفسه أن يكون لها مع التاريخ مكان ! .

عاصر الحياة السياسية في مصر ولم يخرج على الحزب الوطني وبقي على  
 وفائه للزعيم مصطفى كامل ، ولخلفه محمد فريد ، بالرغم من جميع الهزات السياسية  
 التي أطاحت بعناصر السياسة المصرية .  
 ولما ولي وزارة التموين عام ١٩٤٩ م ، كان مثال الوزير الحق في أقوات  
 أبناء الأمة .

وقد قضى حياته كلها مدافعاً عن الحزب الوطني وآرائه السياسية ،

(٢) حسين فوزي - الفكر المعاصر ٢٤ - ص ٨٤ .

وأفكاره الاجتماعية ، من لدن إيمانه بالجامعة الاسلامية ، وثباته على مبدأ الجلاء ، ..  
حتى قيام الثورة عام ١٩٥٢ م .  
وتشهد له المحاماة بالباع الطولى والبراعة ، ولما أحقق فى دعوى التزامها  
أمام النقص والابرام .

انتخب غير مرة نائباً عن الشعب وفى مجلس الشيوخ ، ..  
وقد هدت الشيخوخة صحته فى أواخر أيامه ، .. ولقيته فى صيف عام  
١٩٦٤ م فى الاسكندرية وكان لي معه حديث طويل ففتح لي الآفاق على السياسة  
المصرية - العربية ، عسى أن أفيه حقه فى يوم .  
ولقي ربه راضياً مرضياً فى كانون الأول - ديسمبر ١٩٦٦ م .  
أما مؤلفاته فأهمها :

- ١ - حقوق الشعب - شرح لمبادئ حقوق الانسان والنظريات  
والقواعد الدستورية طبع عام ١٩١٢ م .
- ٢ - نقابات التعاون الزراعية - وعلاقتها بالنهضة الاجتماعية والاقتصادية  
طبع عام ١٩١٤ م .
- ٣ - الجمعيات التعاونية - تتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات  
القومية فى طائفة من البلدان طبع ٩٢٢ م .
- ٤ - تاريخ الحركة القومية - فى جزءين كبيرين من عصر المقاومة الأهلية  
للعزو الفرنسى حتى ولاية محمد علي .
- ٥ - عصر محمد علي - وفيه تاريخ مصر الحديثة .
- ٦ - عصر اسماعيل - فى جزءين كبيرين .

- ٧ - الثورة العراقية - وأحمد عرابي .
  - ٨ - مصر والسودان .
  - ٩ - مصطفى كامل - باعث الحركة الوطنية .
  - ١٠ - محمد فريد - رمز الاخلاص والتضحية .
  - ١١ - ثورة ١٩١٩ م .
  - ١٢ - في أعقاب الثورة المصرية - ثلاثة أجزاء .
  - ١٣ - مقدمات ثورة ١٩٥٢ م .
  - ١٤ - ثورة ٢٣ يوليو - تموز ١٩٥٢ م .
  - ١٥ - مذكراتي - طبع عام ١٩٥١ م
  - ١٦ - شعراء الوطنية ١٩٥٤ م .
- وقد طبعت كتبه غير مرة، وما زالت تثبت أمام محاولات النقد التاريخي  
والمنهجي بأصالة وعمق

## الفصل الثالث

### سيرة الراجعي

لقد مرّ بنا أن الشيخ عبد الرزاق الراجعي كان قد آثر ولده الثاني ، واصطفاه من بين إخوته ، وعُني به عناية خاصة ، كان يعبطه عليها أخوه محمد الكامل الراجعي ! ..

نشأ إمامنا في كنف ذلك الأب الجليل نشأة عمرية ، حيث كانت الأسرة الراجعية قد بلغت يومها ذروة المجد ومنتهى الكمال في تهذيب أبنائها وإعدادهم للحياة الفاضلة .

« ينشأ الطفل منهم فيتناولونه بالتأديب وألوان التهذيب ، التي تطبعه على الطاعة ، وتقديس الدين ، ويفرقونه الى قمة رأسه في الثقافة التقليدية للأسرة »  
بجوانبها التطبيقية والعملية (١) .

وعلم القرآن ، والفقهاء بالشريعة الإسلامية والحرص على العروة في لغتها ودينها وفوائدها ، هي المواد الأولية لأساس تلك التربية ، منذ انحدر أولهم من

---

(١) أنظر محمد سعيد العريان - حياة الراجعي ص ٢٧ ، وأحمد محمد

عيش - المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

صلب أمير المؤمنين الفاروق عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - .  
فلم يكذبتم أدينا السادسة من عمره في مثل هذه الحياة المدنية للأسرة ،  
حتى أخذ بيده أبوه ليختلف على « الكتاب » يتعلم عنده مبادئ القراءة  
والكتابة كما كانت عليه الحياة في ذلك العصر . . .

وما لحق العاشرة من سنه حتى استظهر القرآن الكريم حفظاً وتجويداً ،  
وكان له من معية والده في الاضطراب بين البيت والمسجد حياة كانت هي آخر  
ما تحدث عنه - رحمه الله - في « قرآن الفجر » (١) في شيء من الغبطة  
بالذكريات ، والاطمئنان الى المصير الذي آل اليه .

ولكن نظراً لانحراف في صحته ولكون التعليم مبعثراً آنذاك ما بين  
المدارس « الأميرية » ومدارس التبشير - ومنها « الفرير » .. والكتاتيب ، .. فقد  
تأخر دخوله المدرسة الابتدائية في « دمنهور » حيث كان الشيخ عبد الرزاق  
الرافعي يشغل فيها منصب كبير القضاة الشرعيين عام ١٣١٨ هـ (١٨٩٣ م) . . .  
حتى كانت سن أدينا الرافعي قد تجاوزت الثانية عشرة .

ولما نقل أبوه الى القضاء في مدينة « المنصورة » انتقل معه والتحق  
بمدرستها الأميرية ، حيث اختلط بكثير من الطلبة الذين أصبحت لهم مناصب  
مرموقة في الدولة والسياسة فيما بعد . . . (٢)

---

(١) الرافعي - قرآن الفجر - الرسالة ١٨٣ - ١٩٣٧ م ، ووحى القلم  
ج ٣ ص ٣١ .

(٢) منهم توفيق نسيم الذي أصبح رئيساً للوزراء ، والابراشي الذي صار  
رئيساً لديوان الملك . . . وسواهم ممن كانت له معهم أكثر من معتبة !! . . . كما  
سيمر بنا .

في هذه المدرسة حظي الرفاعي بشهادة الدراسة الابتدائية بتفوق وامتياز، ..  
وهي كل حظه من الشهادات الرسمية! .. وسنه يومئذ بضعة عشر عاماً! ..  
وقد أظهر الرفاعي أثناء دراسته الابتدائية نبوغاً في اللغة العربية وعلومها،  
أدهش مدرسيه ولا سيما أستاذه المربي الكبير مهدي خليل - رح - ولاكنه من  
الناحية الأخرى كان في هذا النبوغ والتوفيق يوغر صدور بعض زملاء الدرس .  
وكان مثال الطالب المجد في المدرسة ، لا يسمح لنفسه بالهزل ، ولا اللعب  
غير المباح ، ونظراً لما كان في لسانه من اللهجة الشامية ، .. فإنه آثر الفصحى  
في كلامه ومخاطبته ، وجهر في الدعوة إليها توحيداً للسان العربي المبين .  
وكثيراً ما كان يستنكر على رفاق درسه رضوخ ألسنتهم لوطانة العامية  
الردولة ، التي تذوب فيها الحروف بين ألفاظ السادة والعبيد ، حتى تخسر  
حلاوة النطق الفصيح ، والتعبير الصحيح ، مما كان أثر الحكام الترك والشراكسة  
وبقية الأورام فيه فاشياً ، .. يورث اللهجة المصرية الكثير من أمراض النطق  
والتعبير معاً ! .

وكان الشيخ عبد الرزاق الرفاعي - وقد رأى هذا الميل في ولده - قد  
عمد الى تنميته ، ووفر له من الدروس الخاصة ما يستوعب فيه العلوم العربية ليل  
نهار ، والصادق ما يفتأ يلازم أباه الشيخ يستمع اليه في التثبت من حفظ القرآن  
وتفسيره ، .. ويعي عنه أخبار السلف من علماء اللغة وفقهاء الاسلام ، .. ويبصر  
عنده الفقه والنحو والبلاغة والبيان ، .. حتى انطبع على ذلك الأسلوب الفريد  
الذي تميز به من ثم ، وانفرد بين ادباء جيله ، .. بعد ما ارتسمت على مخيلته صورة

العربية الأولى عن أولئك الأفاضل،.. حتى أعدده القدر من ثم ليكتب بنقائنها  
ورونقها « أسرار الأعمجاز » فيما بعد ٠٠!

ولعل ذلك الكلف المبكر بالعربية وفنونها، هو الذي أدى به الى أن  
يعتزم مرة أن يضع كتاباً فيها، يجعل شواهد النحو والصرف كلها من نظمه (١)  
ويعضي في ذلك أشواطاً! .. وهو الذي أنساه الفرنسية من ثم، وكان قد  
تعلمها في الابتدائية باعتبارها اللغة الأجنبية قبل أن يتمكن الاحتلال من مزاحمتها  
بالإنجليزية وإبداله!

ذلك أن عدم اهتمامه بها أو مواصلته الدراسة النظامية، ولقلة انتفاعه  
بما حصل عليه منها، والذي لم يكن يتعدى فك الخط ببعض المقررات المدرسية (٢).  
وربما كان يستخف بها، ولا سيما حين يرى المرآضخين للعامة، .. ممن  
يغلبهم العي عن التعبير بالفصحى، يلجأون الى لغة المستعمر يستعينون بها على  
قصدهم في القول ٠٠! ولو عن طريق مثل هذه العجمة الرومية، التي يتعثرون  
بها في هذرهم وتخبط ألسنتهم! .. (٣)

وفي سنوات التلقي هاتيك كان مثال التلميذ الحريص على أداء واجبه  
من استذكار دروسه، واستيفاء المعلومات حفظاً وفهماً، ..  
يقول أخوه النبوي الرافعي فيما رواه لأبناء أخيه وسواهم من تلامذته  
ومجيبه، أن صادقاً كان يقوم كل ليلة كالمذعور، - وهو في سن العاشرة -

(١) محمد صبري - شعراء العصر ص ٢١٣ .

(٢) سعيد العريان - حياة الرافعي .

(٣) أحمد عيش - المصدر السابق .



ليحفظ الواجب الذي عليه من القرآن الكريم ، وليستظهر بعض النصوص !..  
وفي سنوات طفولته هاتيك ، بدأت بواكير تأملاته في رحاب الكون ،  
يذهب كل يوم جمعة مع أخوته للنزهة في المدينة ، ويممم وجهه شطر  
الحقول ، يجتلي من رُقى السحر في الطبيعة ، وينعم بمجالي الحسن وآيات الجمال ،  
وينصت بجميع حواسه للجلال في كل ناحية !..

وهناك عبر المفازات القريبة من ريف « دمنهور » الوديع وشطآن  
المنصورة الغناء ، كان يظل هائماً طول اليوم بين الجداول الرقراقة ، والزرورات  
الضاحكة بنضارها ، وتحت الظلال الوارفة ، حيث الأشجار الحاملة ، والطيور  
المفردة ، والطبيعة الباسمة . كأنه يخشع لله في محارب آلائه البديعة .. وكثيراً  
ما كان ينفرد دون إخوته ، ليفرق في الاستجماء والتأمل ، حتى ليكاد ينسى  
نفسه أحياناً ، ..

وكانت هذه الحال تلهمه معاني لا يستطيع لها تفسيراً ، كأنه أحد المتبتلين  
من القديسين والرسل ، .. ينتظرون موعدهم مع الإلهام !.  
كما كانت تؤذيه أحياناً ، ولا سيما حين « يقاسي من الوحشة ، .. التي  
تجعله يتلهى عنها بوحشة أخرى من هذا الابتعاد والاغراق ، .. منطويّاً على  
عشق بعض الصور الحسنه » (١) .

ولم يكن أبوه الشيخ وحده يهيم له مثل هذه الحياة الملائنة بالدرس  
والتأمل ، .. وإنما كانت أمه الزكية السيدة أسماء بنت الشيخ أحمد الطوخي ،  
هي الأخرى تخصه برعايتها ، وتؤثره بالمزيد من عطفها وحنانها !!

(١) الرفاعي - الرسائل ص ٤٤ .

وكان هو يطعمها ويبر بها « وقد ظل إلى آخر أيامه إذا ذكرها اغر وقت  
عيناه كأنه فقدتها بالأمس » (١) .. وإليها كان يسند الفضل الأول فيما آل  
إليه أمره من الدرس والمطالعة ، والأخذ والاستيعاب .. ثم الامامة في الادب ،  
حيث غدا حجة العرب في لغتهم والعلم بأيامهم وشعرهم ، ومأثورهم حتى ليقول فيها :  
أنا منك بين العالمين كأنتي أشكك في الدنيا فما هي منها  
أراها خلاه منك إلا محامداً وآثار فضل حية وترحما .. (٢)

ولعل حياة المتابعة والدرس هذه هي التي أنعت جسمه الضاوي ، وأنحلت  
جسده ، مما مهّد لصابته بالحمى الثقيلة ( التيفوئيد ) في مرض مشف أثبتته في  
الفراس أشهراً ، ما كاد ينجو من وطأته إلا وقد ترك في أعصابه أثراً ، ومس  
منه أكثر من موضع في جوارحه ، ونال منه وآذاه بجبسة في صوته ، ووقر إحدى  
أذنيه ، وهزال يعتربه أياماً في السنة ، فلا يكاد يذهب عنه في شفاء ، حتى  
يعوده من غير عافية ! .. مما أدى إلى انقطاعه عن الدراسة المنتظمة في المدارس (٣) .  
والمس العلاج لنفسه عند كل طيب ، وفي كل مستشفى فما كان يجديه  
بغير شيء من الشفاء لا يبلغ به إلى العافية ولا الصحة الموفورة ! ..

وكاد الداء أن يمتد إلى صدره ، فعقد حبال الصوت عنده ، بما كاد

- 
- (١) محمد سعيد العريان - حياة الرافي ص ٢٢ ، وكانت قد توفيت عام  
١٩٠٩ م ودفنت في أسبوط ، ثم نقل رفاتها إلى مقابر الأسرة في طنطا .  
(٢) الرافي - والدتي - المقتطف نموز / يوليو ١٩٠٩ م .  
(٣) سعيد العريان - حياة الرافي ص ٣٠ .

يذهب بقدرته على النطق، .. ولكن القدر كان أشفق عليه، أن يفقد الكلام  
إمام البيان ! ..

وكانت هذه الحال قد جعلته كثير الحساسية، لا تقوى أعصابه على  
إحتمال الأنواء فهو يكره الحر الشديد، .. لما يعتربه به من الضعف عند  
الصيف (١)، فكان يتخفف من أثيابه ويذهب الى « الدهليز » مباشرة وينام  
هناك دون غطاء على صدره يتقي به لدغات البرد في مثل هذه الحال ! .. (٢)  
على أن هذه الحال المرضية، وما أورثته إياه من بوادر الصمم، هي التي  
جعلته يختار لنفسه مدرسة جامعة بعد مناهجها بنفسه، ويقوم شيوخ مصنفاها  
ومؤلفو كتبها على تعليمه، .. فكان المعلم والتلميذ معاً .

وكان يسعى بما أوتيته من الفطنة والنبوغ المبكر وذلاقة اللسان والفصاحة،  
وقوة الأخذ والاستيعاب، واستعمال الحجج في العقل والمنطق - أن يستكمل  
ما ينقصه من الدراسة النظامية، حتى تفلسف بمعلوماته وشاخ ببعض العلوم  
العربية منذ أول شبابه .

وحين عرف الشيخ عبد الرزاق الرافعي في ولده الصادق ذلك الاتجاه  
نماه، وهياً له من أسبابه ما مضى به الى الغاية مبتدراً اليها خير الوسيلة، .. حتى  
لقد ردّد عليه - جبراً لحاطره - أنه يجاهد في سبيل الله ! .. (٣)

---

(١) راجع ما سبق، وموافقة اسم « مصيف » المرخم .

(٢) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - عن رواية النبوي الرافعي -

المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

(٣) المصدر نفسه .

وكان لهذه الإشارة في نفس أدينا العظيم أن صادفت منه هوى ،  
ومست من قلبه مكاناً خالياً بالث والنجوى ، .. وكادت تملأ فؤاده بالطمأنينة  
بعد أن كاد يفرغ من شدة القلق والاضطراب ، .. وهكذا اندفع به الإيمان  
الثابت حتى أضحي « الجهاد » له هدفاً ، لا يرى غير السبيل إليه ، حتى لا يجيب  
في نفسه ظن أبيه .

وكان من أثر هذا المرض أيضاً ، وقبل أن يتم تمامه ويكون أهلاً  
لغشيان المجالس وأن يتحدث إلى الناس ويستمع إلى أحاديثهم - أن أصبح  
حظه من اللهجة المصرية قليلاً ، .. حتى ليضطر أحياناً أن يسأل بعض خاصته عن  
عباراتها أحياناً إلى آخر أيامه ! .. وربما مزح مع صفيه محمد سعيد العريان (رح)  
بمثل قوله : لتكن أنت لي قاموس العالمية ، ..

ولما كان أبوه وأمه قريبي عهد بسورية ، منبتها . ولم يسمع في طفولته عن  
غيرها فقد بقيت لهجته في الحديث أكثر شامية ، .. وكأنه لم يقدم من سورية إلا  
من عهد قريب (١) . وذلك ان الأصوات ما لبثت تتضام في مسمعيه عاماً بعد عام ،  
كأنها صادرة عن مكان يتعد عنه ، أو كأن صوت محدثه كان يتخافت .. حتى  
فقدت إحدى أذنيه السمع ثم تبعها الأخرى .. فلم يكده يتم الثلاثين من عمره ،  
حتى انقطع عن سماعه كل صوت ، ولم يعد يسمع قصف المدافع (٢) .

على أن كثيراً من خاصته وأبنائه كانوا يحدثونه من غير كتابة فيفهم من  
حركة شفاههم ما يعنيه عن الصوت ، .. حتى ليخيل لمحدثه أحياناً ان عاوده السمع ! (٣) .

(١) و (٢) سعيد العريان - حياة الرافي ص ٣٢ .

(٣) من رواية ابنته الحاجة زينب الرافي .

ولما انتهى المطاف بالشيخ عبد الرزاق الرافعي الى مدينة السيد احمد  
البدوي - طنطا - آثرها على غيرها آثرها على سواها من مدن القطر المصري ..  
حتى غدت من ثم موطناً جديداً للأسرة ..  
في الوظيفة :

وإزاء الحالة الخاصة التي أصبح عليها أديبنا من اضطرار الى ترك الدراسة  
في المدارس وفناء الأيام من بين يديه حيث يقول :

ما لأيام ذا الصبا تنفاني وقديماً عهدهما تتواني  
ذهبت بالصبا سلام عليها من فؤاد يحبها ملائنا (١)  
فقد آثر أن يجد له عملاً يتكفّل به ، ويملاّ عليه وحشة أيامه ، .. واهتبل  
فرصة نال فيها أخوه « الكامل » وظيفة قائم مقام « مأمور مركز » ، .. فاستدار  
من حول أبيه الشيخ يطلب اليه هو الآخر أن يظفر بوظيفة ، ..

وعندما تهيأت له وظيفة كاتب بمحكمة طلخا الشرعية براتب أربعة دنانير  
( جنهات ) شهرياً ابتدر يحاور أباه بقوله :

- يا أبت كيف أعين كاتباً بسيطاً؟ وأخي الكامل يأمر وينهى ، ويحكم و ..  
- إسمع يا ولدي .. أنسيت أنك أنت الذي اخترت التفرغ للدراسة  
القرآن وآدابه ، والفقّه بالشريعة وأحكامها ، تسعى بما أوتيت من ذكاه  
والمعية لاستكمال ما نقص منك في « الشهادة » والدراسة .. وأن في أذنيك؟ !  
- ولكن يا أبت !

---

(١) الرافعي الداويان ج ١ ص ١١ .

- ولسكن .. ولكنك أنت خلقت لتجاهد في سبيل الله ، .. وما هذه

الحياة الدنيا لإمتاع الغرور (١) .

.. وهكذا كانت الوظيفة لديه من ثم .. « متاع الغرور » وهي سهمه

من الدنيا ، حتى ليراها أحياناً « ضريبة على الحكومة تؤديها له ديناً عليها ،

وسداداً لما كانت أسرته قد قدمته لها من الرأي والدالة ، .. ثم لمكانة أبيه

منها ، .. ولمكانته بعد ذلك » .

وبهذا « نشأ في الوظيفة نشأة الدلال أيضاً ، لا يهتم إن بكر إليها صباحاً ،

أو تركها لبعض شأنه عند الضحى » (٢) مع التزامه بجميع مسؤولياتها عنده ،

وعند الآخرين من رفاق مكتبه ، ..

ومن هذه النشأة في « الوظيفة » عاد يرى فيها « مكاناً الأديب ليس

أحسن منه في حياتنا الحاضرة » (٣) ..

وعلى هذه الحقيقة أصبح الرافي موظفاً .

ولما كانت إقامته في « طلخا » على الجانب الآخر من النهر مقابل

المنصورة متعذرة عليه يومها عام ١٨٩٩ م ، .. فقد كان يحضر إليها كل يوم

في قطارات ذلك العهد ! .. فكان الرافي يرى بين مدينة السيد البدوي يغدو ،

واليها كان رواحه ، .. وفي يده كتاب ، أو ملازم من سفر يقرأ ويستظهر ليقطع

الوقت ويستفيد ! ..

(١) راجع هذه المحاوره في سيرة الرافي ٩١ - ٥٢٩ - المقتطف .

(٢) العريان - حياة الرافي ص ٣٤ .

(٣) الرافي - مجلة كل شيء - كانون الثاني يناير - ١٩٣٤ م .

وقد تنقل في سنوات وظيفته الأولى ما بين محاكم إيتاي البارود الشرعية ،  
وكفر الزيات ، وشبين الكوم ، ..

ولكنه كان يلحف في الطلب لنقله الى طنطا ، .. وقد تم له ما أراد ، بالوسيلة  
التي أظفرت له بالوظيفة نفسها ، .. حيث انتهى به المطاف الى المحكمة الشرعية فيها ، ..  
ثم الأهلية بعد ذلك بسنين ، حيث وجد استقراره الأول في بيت أبيه ، وبين  
إخوته وأصدقائه وذويه .

ومن ذلك نرى أن محاولة نقله الى أسيوط عام ١٩٢١ م بدسيسة سياسية  
لم تخلُ من دناءة .. همًا من المهم ! .. سعى بعض الأصدقاء بمروءته ليجعل  
النقل الى المنصورة ، تخفيفًا !! . (١)

ومع ذلك فإنه سعى لابدال هذا النقل الأخير أيضاً لأنه لم يكن  
« يستطيع نقل البيت والأولاد في مدارسهم وقد دفع لهم الأقساط المدرسية ،  
فضلاً عن أن مصالحه كلها هنا في طنطا » (٢) .

ولسكنه بعد هذا التاريخ ، وبسبب من أولاده أنفسهم ، وموضوع  
دراساتهم العليا في الجامعة ، حاول الانتقال الى ديوان وزارة العدل - الحقانية -  
والتمس الى ذلك غير سبيله هو في شهرته بالوظيفة ، وما رافقه من التوفيق في  
الرأي والاجتهاد بكثير من القضايا الشرعية والقانونية . التي كانت تفيد منها

---

(١) ربما كان النقل بسبب مقالته « جنود سعود » التي تصدى فيها للوفد  
وحرسه في الأخبار عام ١٩٢١ م .

(٢) أنظر رسائل الراجحي - ص ٢١٨ .

الوزارة ، وتبعث بها منشورات وتعليقات لبقية المحاكم والقضاة ، - .

حيث توسط بعض أصدقائه المقربين من الحكام ، .. فقدم بذلك أكثر من طلب ، ورافق الطلبات أحمد فتحي زغلول تارة ، وأحمد لطفي السيد أخرى ، .. ومحمد نجيب ( باشا ) ثالثة ، .. ولكن ما استطاع واحد أن يبر بوعده ، او يحافه التوفيق في مسعاه (١) .

\* \* \*

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن الأستاذ منصور جاب الله ، كان قد قرر حقيقة أخرى في هذا الناحية ، عرفها من فم الرافعي ، يوم لقيه في الاسكندرية يصطاف عام ١٩٣٥ م ودار بينهما حديث طويل ، جاء فيه سؤال الأستاذ جاب الله للرافعي :

- لماذا لا تغادر طنطا؟! - وقد ظهر اسمك لامعاً بين أشهر أدباء العرب

في العالم! ..

حيث رد عليه الرافعي بجواب فيه صوت المستنكر ، الذي كاد يشبه الصياح :

- كيف تريدني أن أترك المدينة التي تضم رفات أبي وأمي؟! .. أنا لا

أغادر طنطا ولو وضعوا بين يدي مال قارون « (٢) .

.. وماذا يمكن ان يقول غير هذا الجواب؟! في مثل هذا التاريخ بعد

---

(١) عن رسائلهم حتى عام ١٩٢٧ م

(٢) جريدة السفير - طنطا - كانون الثاني - يناير ١٩٦٣ م ، وانظر

العريان - حياة الرافعي ص ٣٧ .



بضع وثلاثين سنة في الوظيفة ، . كانت الحيلة قد اعيتته في الانتقال ، او تبديل  
عنوانها على الأقل ! .

وحياة الرافعي في الوظيفة تبعث على التأمل ، وقد تثير الأسف والاشفاق  
معاً ! . إذ هو لم يكن « موظفاً » بالمعنى المفهوم للوظائف اليوم ! . « فما كان  
هنالك احد يستطيع ان يلفت نظره الى ضرورة التبكير إن جاء في الضحى ، . .  
او يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله » ( ١ ) .  
وكثيراً ما افقطع من الوظيفة ملتئماً احد الأسباب الى مسألة علمية بين  
مظاهرها من المصادر والمراجع ، . . او متناولاً غرضاً من الأغراض بالدرس  
والتحصيل ! . .

وهي - الوظيفة - وإن لم تكن ترضيه منها الأنظمة التي تغله في مكان  
العمل ، . . وتفوت عليه الوقت ، . . إلا انه من الناحية الجوهرية في الموضوع كان  
« شديد الحرص على تأدية حقها في دقة تبلغ الغاية ، فلا يكاد يفوته شيء مما  
يسند اليه ، . . حتى غدا المرجع الاداري لكتاب المحكمة جميعاً ، يستفتونه الرأي  
فيما يشكل عليها من أمور تقديرية ، ثم أصبح كذلك للوزارة نفسها ، التي تجعل  
من فتواه ورأيه منشوراً عاماً الى جميع مخاكم القطر ! .  
ولسكن سامه منها كان مبكراً ، . . وكان يجد فيها معوقاً له عن اهدافه ، . .  
ومضية له ولوقته . . حتى ليرتمى في إحدى رسائله ويقول « ليت الزمن يهنيء  
لي من اسباب الكتابة والنفرغ للشعر ما يغنيني عن « التكسب » من الوظيفة التي  
انا فيها » .

---

( ١ ) العريان - حياة الرافعي ص ٣٤ .

ويبلغ به الضيق أحياناً درجة التدمر حين ينفجر بمثل قوله « .. ماذا اصنع والأمة خاملة كما ترون ، فلا تكاد تقوم بعيش اديب واحد .. ليخدمها مدة عمره » (١) . فيا لهذا العرض من بيع سماح !! .

ومع ذلك وكثير من الصور سواء ، فقد كان يرى في تركه الوظيفة ، وإحالة على التقاعد - المعاش - ضرراً كبيراً ، .. وقد قضى أكثر من ربع قرن بعد ذلك ينتظر تشريع قانون يجعل الفرق بين مراتب الوظيفة والمعاش خمسة دنانير لا عشرة ، .. و « إن كان في نفسه فرق كبير » فتأمل ! ..

وهكذا بقي يتعمّل ، وتعتبره حالات من التفاؤل نجعله أكثر إشرافاً الى المستقبل حتى ليقول في رسالة « .. وقد اصبحت اعتقد أن الأحوال ستيسر إن شاء الله ، .. واستطيع الخروج من الحكومة ، .. وإلا فكيف تؤدي الرسالة ؟ ارسول وموظف حكومة ؟! (٢)

وبالرغم من كل هذا فقد همّ غير مرة ان يطالب بالإحالة على « المعاش » ليتفرغ لأدبه وفنه ورسالته ، .. فما كان يمنع من المضي في طلبه إلا رجاء موظفي المحكمة ، وإلحاحهم عليه ان يبقى لئلا يخلو مكانه ! (٣) .

لقد عانى اديبنا من الوظيفة واغلاها الضنك والحрман اربعين سنة ! .. وكانت كثرة الولد تزيد منها هما على همّ ، فتضيق عليه ايامه في عسر ، يضاعف عليه تكاليف الحياة ، .. وإن بقي في حالة من الرفاه يتمتع فيها بستر الحال ! .

(١) الرافعي - الرسائل ص ٣٤ ، ص ١٠١ .

(٣) العريان - حياة الرافعي ص ٣٧ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٠١ .

فلو اشتغل بالتجارة كأخوته وابتداء عمومته ، لدرت عليه الوفرة بما يسخر  
به حقاً من « أرامل الحكومة » الموظفين (١) .

وكم كانت تلك الوظيفة نحسة الطالع عليه ، فقد أعاقته عن كثير مما  
كان يصبو اليه من المجاهدة في سبيل الحياة ، والسمو بها اعتقاداً وحباً وكرامة ! ..  
يرتقي فيها الناس الى مطالع أخرى غير التي كانوا يألفون ! .  
وقد انسحب نحسها على أولاده من ثم ، فلم يكذب يلقى الله سبحانه وتعالى ،  
حتى وقفت وزارة الخزانة ( المالية ) منه موفقة المشين ! ..

وكان وزير المالية يومها « مكرم عبيد » ، الذي أبت « كرامته » الرذولة  
أن يعترف لأبنائه بحق في مرتب أبيلهم ، لا مكافأة ، ولا تقاعداً ( معاشاً ) ! .  
وبالرغم من هذا الاجحاف الجائر بجرمان الأبناء من صفة في الحياة ، ..  
فإن هذا الحرمان نفسه قد خلصهم من « نكد » تلك الوظيفة ، وفتح عليهم  
أبواب العيش الفاره الكريم ، .. وجاءتهم النعمة واليسار يسعيان اليهم في علم  
وعمل وكرامة ! .

فألله سبحانه « أكرم » بهم من مروءة حكومة الأحزاب « التي يلعن  
بعضها بعضاً لعناً مقدساً » وأبر بهم من مكافأة الدولة لموظف قضى عمره  
في خدمتها !! (٢) .

---

(١) من مصطلحات الرافعي الفمكهة .

(٢) أنظر سعيد العريان - خل عنك يا وزير المالية .. فالله أكرم الرسالة  
٢٥٣ . وقد أيدت الحاجة زينب الرافعي ذلك ، كما حدثني عنه العريان - رح -  
حتى تساءلت أين « الثورة » من إنصافها للرجل !؟ ..

على أن هناك قصصاً ومقارقات حدثت له في الوظيفة جديرة بالوقوف على نماذج منها ، تقف بنا على صورة واقعية لممارسته الحياة آنذاك .  
وأولى هذه المقارقات ما رواه الأستاذ أحمد محمد عيش عن أخيه النبوي الرافعي (١) : كان الرافعي شاباً ضاوي الجسد نحيلاً أيام شبابه الأولى ، ..  
يختلف على وظيفة في طلخا كل يوم في القطار ، .. وحدث ذات يوم - وهو بهم أن يصعد الى القطار العائد به الى طنطا - ان رأى صبيماً ضعيفاً بين يدي رجل فظ غليظ القلب من أعيان البلد . وقد تناوله ركلاً وضرباً دون شفقة او رحمة ، .. والناس تنظر اليه من حوله بشيء من الملق وغير قليل من النفاق وقلة الحياء وتسويغ مثل هذا البطش الجائر .

فما كان من الرافعي إلا ان اهوى بعصاه على رأس ذلك ( العين ) حث طرحه ارضاً ، والتي به أهزوة بين المملقين له منذ ساعة ، والمنافقين انفسهم ، .. ثم تناول سلم القطار وهو يلوح بعصاه .  
وكاد ذلك « العين » المتنفذ ان يقف له برهط من اعوانه في اليوم التالي ، ليقمص منه ، لو لا ان تدارك الأمر بعض ذوي الجاه من المعارف .  
والثانية صلته بالموظفين ، وقد كانت من الود والصدقة فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين ، . وكان المرحوم محمد محب (ياشا ) اقدر محافظ (مدير) عرفته طنطا في ذلك العهد .. اقرب قرابة الى الرافعي من ذويه وخاصة ، .. وادنى اليه من تلامذته واهليه ، وكذلك كانت صلة الرافعي بالمحافظ ، وما هي بصلة موظف صغير برئيس كبير .

(١) أحمد عيش - المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

وحدث مرة - والرافعي في صدر شبابه - ان جاء المحكمة رئيس شديد  
الحول والطول ، ٠٠ فلما صعد اليه الموظفون للتهنئة بمنصبه الجديد ، فقتس عن  
الرافعي بينهم فلم يجده ، فاستشاط غضباً لا إغضاء الرافعي عنه ، وكتب الى وزارة  
العدل - الحفانية ، يطلب اليها إقالته من الخدمة ، ويسبب لطلبه حيثيات من  
عاهة الرافعي ، واستطالته على الأنظمة ، وما يتبعها من عادات النفاق المسماة على  
« المجاملة » في الأصول .!

وجاء الشاعر الظريف حفني ناصف ليحقق في الموضوع ، فاستمع الأديب  
لحجة الشاعر الأريب وطوى أوراقه التحقيقية عائداً الى الوزارة في تقرير يقول  
فيه « إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تجري عليهم مثل هاتيك الأنظمة  
والتقاليد المتعارف عليها ، وإن للرافعي حقاً على الأمة وفيه قناعة ورضا ، ٠٠  
وما كان هذا مكانه ، ولا موضعه لو لم يسكن اليه !! .

.. وإلا فاكفوا له عيشه الكريم في غير هذا المكان » (١) .

وأما الثالثة ، ٠٠ فقد كانت بسبب قطعة أرض اشتراها الرافعي يوماً ما ،  
فأراد البائع أن يتحيفها بعد العقد ، فدس عليه مفتشاً لثيماً يلازمه ثلاثة أشهر  
او أكثر من عام ١٩٣٤ م يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم ، بلغ النقص فيه  
بضعة وتسعين جنيهاً .!

على حين لم يكن عليه في هذه التقديرات خطأ واحداً وإنما هي من

---

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٨ وما بعدها .

أخطاء زملائه في المكتب ، حملها عنهم حتى لا يتعرضوا لشره هو أقدر منهم على التخلص منه (١) .

والمحاولة التفسيرية الأولى لأمثال هذه الممارسة للوظيفة تقف بنا أمام إنسان قد يبدو لأول وهلة غريب الأطوار ، .. ولكنه في الحقيقة كان طبعاً خاصاً من الموظفين .

فهو من ناحية يعتد بنفسه ، ويرتفع بالحفاظ على كرامته ، حتى لا يسمح لرئيس مهملًا منصبه ، أو تدنى مكانه أن يجحد منزلة الراقعي الاجتماعية والمثالية ، .. أو أن يستعمل سلطانه للنيل من كبريائه ، .. وقد يلوح في ذلك شيء من الغلو والإسراف ، يدعو إلى الشك في حسن تصرفه أو توضعه ولباقته ! (٢) .

ومن الناحية الأخرى يبدو وكأنه يسرف على نفسه ، ويحمّلها فوق الطاقة إلزاماً بقيم مثالية في الزمالة والصدافة ، والاجتماع الانساني بعامة ! ..

\* \* \*

في ينتهه :

لقد بينا سبق الراقعي المبكر إلى استكمال أسباب استقلاله الشخصي ، وتحمل مسؤولية الإنسانية في الوجود الحيوي له ، ..

وبالروح التي سعى بها يلتمس « الوظيفة » ليضمن استقرار المورد ، ..

---

(١) الراقعي - الرسائل ص ٢٧٥ ، والعريان - حياة الراقعي ص ٢٧١ .

(١) العريان - المصدر نفسه .

راح يفتش عن نصفه الآخر ، ويتحرّى عن الإنسانية التي تشركه رحلة العمر .  
وفي وقت مبكر جداً لوحظ على الرافي حسن تخير الأصدقاء وانتخابهم  
من بين رفاق الدراسة وزملاء العمل ، وأصدقاء العشرة ، وإخوة الأذواق  
والمشارب ، وصحبة الوفاق في المبادي . والأفكار ..

وكان من بين أصفياه العديدين شاب دنت منزلته عند الإمام محمد  
عبد ، وكان ثاني اثنين قرّبهما الإمام منه ، وفوض لهما من السعي والجهاد الكريم  
ما طبعهما على غراره في الاستهداف القيمى ، والتطلع العلمى ، والارشاد والتقويم .  
أما أحدهما فهو الشيخ محمد رشيد رضا صاحب الدعوة لإقامة « الخلافة  
العربية » .. بجمعيته ومجلته « المنار » المار ذكرها .

وأما الثاني فهو الشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي ذواقة الأدب ، والمعروف  
بين أدباء الجيل الماضي باللقب الظريف « الشيخ شرف الديباجة » لشدة ولوعه  
بالصيغة البيانية للآثار الأدبية .

وقد جمع الأدب والشعر والرأى فيهما بين الرافي والبرقوقي .. فما تعارف  
معه حتى تصافيا ، واتصل بينهما الود بأسبابه .. فأصبحا كالأخوين يختلف  
أحدهما على الآخر كل حين .

وقد حدث للرافي أن رأى فتاة أحلامه في بيت ذلك الصديق ، وكانت  
سنه يومها أربعة وعشرين عاماً ، وكانت نفسه في الزواج .. فلما جلسا يتجاذبان  
اطراف الحديث ، تحرك خاطر اديبنا ينتقل في الكلام من شجون الى  
شجون .. حتى استقر على ذاته وراح يصف لصفه الصديق صورة افتاة احلامه  
كما يتخيلها !! .

وما كاد ينتهي من حديثه ونعته حتى مدَّ صفيته الأديب يده إليه ، يهنؤه بأنها أخته ، التي يسعده ان يقدمها له ، فما برحا مكانها حتى قرء الفاتحة .  
وهكذا بنى الرافعي بأهله ، وعاشا هنا ما يكون زوج وزوجه ثلث قرن او يزيد وكانهما في شهر عسل مستديم !.. ابنتهما الله خلالها صفوة من الرافعيين بنات وبنين ٠٠١

.. حتى ليرجع كثير من النقاد الى السيدة نفيسة اليرفوقى ككثيراً من الفضل الذي عاد بالخير على الرافعي الأديب ، والذي ارتقى فيه من الشاعرية الوجدانية ، حتى بلغ الإمامة فى العربية والحجة عليها !.

وذهب الأستاذ سعيد العريان بحسب ان قوله الرافعي « إذا رأيت رجلاً موفقاً فيما يحاوله ، مسدد الخطى الى الهدف الذي يرمي اليه ، فاعلم ان وراءه امرأة يحبها ، وتحبه » تنطبق عليه بالذات ، حين عقب عليها بقوله : « إنني لا اعرف - فيمن اعرف - احداً تنطبق عليه هذه الحكمة مثلاً تنطبق على حياة الرافعي » (١) .  
وكان الملاحظ على اسرة الرافعي انها كثيرة الولد ، وقد احصى العريان ابناء الشيخ عبد الرزاق الرافعي واحفاده فى مصر عام ١٩٣٩ م فعرف منهم بضعة وسبعين ولداً وبناتاً (٢) .

---

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٥٩ .

(٢) سعيد العريان - حياة الرافعي - ص ٢٤ ، . ولكن هذه السنة لم تطرد فى اولاده .. فالدكتور محمود سامي الرافعي لم يرزق بغير ولد وهنت ، وكذلك الدكتور محمد ، وعائشة .. كما أن الحاجة زينب لم تنجب ، و ابراهيم لم يتزوج وكانما سلبهم الرافعي هذه القوة الطبيعية ، فحوها من قبله الى مواليد أخرى من الأدب والعلم والفن !! . وهي حالة تستحق النظر والدراسة ..



وقد ولد للرافعي من زوجه السيدة نفيسة البرقوقي - رحمها الله - (١) بضعة بنين وبنات ، .. كانت المولودة البكر ، أتى التي عليها اسم « وهيبة » اخت صديقه الأديب جورج حنا وقد كان ينظر الى جمالها (٢) .

وسمع مناغاة « وهيبة » واستبشر بها خيراً ، وارسل ابياتاً شعرية في مولدها ، حتى تقى لها بلغتها وهي تناديه « باي يا بابا » وصنع لها نشيداً منها !

ثم ولده « محمود ساي الرافعي » (٣) الذي غلب اسمه في كنية الرافعي بأبي السامي ، وكان في تسميته إحياء لذكر فارس الشعر العربي محمود سامي البارودي ، وكان الرافعي ينظر اليه في صدر ايامه ! ..

وقد هز الرافعي « أرجوحة ساي » بأرجوزة غنائية اخرى (٤) .

وولده بعد ذلك (محمد) الذي ساهره في مرضه ، وخديجة ، و ابراهيم الذي اتعبه كثيراً حتى ثار بوجه الامتحانات العامة من أجله ، .. وزينب التي ارسل فيها اغنية « ندى الورد » وكانت ذات استعداد عظيم وذكاء مفرط فهرت به كلية الآداب فيما بعد .. بالمسابقة والامتحان ، وعبد الرحمن الذي كان يدعوه بالشيخ ويؤمل فيه الخير للأمة (٥) ، ثم عائشة وسعدية ، التي تركها

(١) نوفيت عام ١٩٤٩ م . (٢) يوسف حنا - السياسة (الكويبدة) عدد ٢٨ .

(٣) هو اليوم المدير العام للمؤسسة العامة للأغذية - قها .

(٤) سيرد ذلك مفصلاً عند التعريف بأغاريد الرافعي .

(٥) .. تخرج عبد الرحمن في الثانوية ، والتحق بالكلية الحربية ، وتخرج فيها ضابطاً وعمل في سلاح المدفعية ثم انضم الى « الضباط الأحرار » وقاد الكتائب في منطقة شرق القاهرة ابام العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ م ولكن خلافاً لما وقع له مع أحدهم ، .. فابتعد عن المسؤولية ! .. وفقه الله ونفع الأمة به .

تلثع بالراء ولما يستقم لها النطق والكلام !  
وهم اليوم مع اولادهم وبناتهم من احفاده ، من المتضمنين بطيب ذكراه ،  
وإن جرت عليهم الحياة في غير مجالي الأدب والفقہ والتاريخ ، تلك العلوم التقليدية  
للأسرة الرافعية .

ويتهبأ كل منهم أن يحفل بالرافعي ، ويحيي ذكراه ، .. ولكن الأيام  
تبدل بهم وتنتزع من بين أيديهم فضلها في طلب العيش الكريم مخاطرة وعناء !  
فتح الله عليهم جميعاً بما يعث فيهم الإمام الرافعي حياً !

\* \* \*

وحياة الرافعي في بيته كانت مثلاً للرجولة والأبوة والمسؤولية ، .. فهو  
يكبدُ أول النهار في الوظيفة ، .. ويكتب ويؤلف طرفاً من النهار والليل ، ويهيئ  
لذلك البيت الجميل اسباب الرفاء وستر الحال !

وكثيراً ما كان يشرك زوجه وأبناءه في شؤونه الخاصة ، وبلتمس عندهم  
الرأي والمشورة ، وإن كان « سيد بيته » بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ .  
وما أمر « قلبه » وما عاناه من هوى برّح به وألمه آيات من الفن  
الأدبي الرفيع ، وموقف السيدة الفاضلة زوجه منه إلا المثل الرائع للحياة الفضلى  
التي وهبها الله سبحانه إياه . وقد هيأت له من مكتبته في بيته مكاناً يهبط عليه  
الالهام فيه .

ولسكنه كثيراً ما كان يترك هذا المكان ليساهر أبناءه وهم أطفال ، ..  
ويلطفهم ويمتعهم بمباهج الحياة حين يحبون أن يرحوا ويسرحوا كما كان  
يهوى هو في صدر أيامه .

وحينما أُشير عليه بممارسة الألعاب الرياضية لكسب الصحة لجسمه النحيل ،  
جعل من هؤلاء الأولاد ( ثقلاً ) يرفعه من بين التمرينات العديدة التي يمارسها ،  
او يعلمهم السباحة في سيدي بشر بالاسكندرية .

وقد يترك محراب فنه أحياناً ، ليعكف على تدريسهم ساعات من الليل ،  
يمكنهم فيها من أداء واجباتهم المدرسية ، ليمتازوا في النجاح عند الامتحان .  
وكل واحد من أبنائه يحمل من هذه الذكريات ما لو دونها في صفحات  
اسكان فيها بعض الوفاء الذي يكشف المدارس عن جوانب نفسية أخرى غير  
التي تنهياً له من آثاره الأدبية والنقدية .

ولا سيما أن الرافي لم يُعن بتدوين سيرته الذاتية ، ولا هو روى لنا في  
مذكرات خاصة اطرافاً من حوادث طفولته ، او صوراً من أيامه في بفاعته ، وصباه  
وشبابه ، التي يمكن أن تكون ذات أثر فيما آل من ثم في زعامة الأدب الاعتقادي .  
ولربما تكون أيضاً مادة غنية أخرى في تفسير بعض نواحيه الخلقية والنفسية  
ومزاجه العقلي ، الذي مال به الى التصوف احياناً .

ولم يبق لنا من ذلك كله غير ذكريات من روايات لأحاديث سمعت  
عنه ، او أخذت من بعض إخوته ، كالنبوي الرافي ، ولكنه هو الآخر  
لم يعن بتدوينها .

وكان احد ابناء عمومة الرافي قد أحس بفقدان هذا الجانب الخطير  
من حياته فراح « يستميله كتباً ورسائل في معان مختلفة ، حتى اجتمع له بعد  
ذلك جملة صالحة ، فأراد طبعا » ولكن الرافي نهاه عن ذلك ، و « اعلمه أنه  
يرأ منها إذا هو نشرها » .

ولكن ابن العم هناك قد غفل عنها بعد وفاته ، فما قدمها للأمة في طبعة خاصة ، وإن كانت « هناك أشياء أخرى لم يرد الرافي أن يبوح بها » (١) .  
ولا يدري أين مكان تلك « الجملة الصالحة من المعاني المختلفة » الآن .  
وقد حدثنا الشيخ محمود أبو رية أنه أكثر من الإلحاف عليه بالطلب في شيء يشبه ذلك ، وكان عذره بعدم اتساع وقته .

ورأيت إحدى حبايبه تكتب له مثل قولها « .. كم أتمنى أن تدوين ريشتك الساحرة بعض مذكرات خاصة ، تصبح مجموعة بعد زمن ، تخرج الى العالم مكامن النفس الحاسة - حبذا هذه الأمنية » (٢) .

وأحسبه قد هم في استجابة ما لمثل هذا الطلب المتمنى الحبيب ، .. ولكنه لم يتيسر له أن يتمه ، .. وربما لم يبق ما شرع به أيضاً . بعد الأماسة التي انتهت اليها مكتبته ، على الأساس الذي تنتقل فيه الى دار الكتب لتكون جنب مكتبة أحمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا وعبد الله فكري وسوامم ولكنها أضيبت .

\* \* \*

---

(١) الرافي - الرسائل ص ٢٤ ، .. وله - له الشيخ محمد سعيد الرافي  
وكم يكون جميلاً لو أن « المكتبة الأزهرية » قد وقفت على هذا الأثر النفيس  
فقدمته منشوراً خدمة للتاريخ والعلم والأدب ! .

(٢) ماري بني - من رسالتها المؤرخة في ٩ آذار - مارس ١٩٢٦ م .

## حياته الأدبية

لقد مر بنا أن كلمة خرجت من فم الشيخ عبد الرزاق الرافعي تجبر خاطر ابنه ، وتبعث فيه العزيمة الماضية للجهاد في سبيل الله . . وكيف وافقت من ادبنا اليافع هوى في نفسه ، وكان لها وقع الإلهام عليه ، وآية الوحي لديه .  
ومن الدروس العلمية الأولى التي تلقاها على يد ابيه الشيخ ، . . الى ولعله بالعربية وفنونها ، الذي أظهره في المدرسة الابتدائية في المنصورة ، والذي كاد فيه أن يضع شواهد للنحو والصرف جديدة من نظمه ، غير التي تناقلها علماء اللغة والرواية . .

ثم إن حياته في العصر الذي يتنفس فيه العقل الأدبي للأمة ، وينهض فيها شعراء لسن وكتاب ذوو فكر ، ودعاة عقيدة وسياسة ، ومذاهب إجتماعية تضرب في جوانب الحياة ، . . وسوى هذا وذاك ، وما كان له من استعداد لدني ، وإرادة تنحدر في دمه ميراثاً لعزيمة آباءه وأجداده . . وقد هيا له أن يسلك سبيله في حياة ادبية حافلة ، . . حتى ليصدق فيه إجماع النقاد من معاصريه « أن حياته ممثلة في أدبه » (١) .

وقد قامت حياة الرافعي الأدبية بين متوازيين - الوظيفة والبيت - فكان لها كالحدود الطبيعية والجغرافية والسياسية للدولة وكأنه قد عنى ذلك بمثل قوله :

أنا المقيّد في نفسي وفي خلقي      كأنني قيدٌ حرّ قيده القسم ! . .  
شتان بين امريء في نفسه حرّم      قدس وبين امريء في نفسه ضمّ  
والعود أوتاره ان لم تشدّ به      شدّ المقيّد لم يصدق لها نعم (٢)

(١) راجع أنور الجندي في مصنفاته - مادة الرافعي .

(٢) الرافعي - أنا ونفسي - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩٢٧ م .

.. ففي وقت سابق جداً من أيام صبوته وبقائه كان يشعر وكأن  
« روحاً رفاة كانت تطيف به ، فتنزعه عن وجوده الذي يعيش فيه لتحليق  
في أجواء أخرى بعيدة ، وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ، ولم يعرف  
مكانها .. فتوحي إليه الشعور بالقلق ، والاحساس بالوحدة ولذعات الحرمان ..  
حتى يضطرب فلا يجد متنفساً يتنفس به عن نفسه غير الشعر ، يقرؤه ويتمثل  
به ، وينسج على منواله .. وكان ذلك في أول عهده ، فما كانت أمنيته إلا أن  
يكون شاعراً وحسب » (٢) .

ومن يتأمل في حديثه عن « الشعر العربي » (٣) آنذاك ، وقصيدته في  
« ذم الهوى » (٤) يدرك مثلاً قائماً للاضطراب الذي كان يعانيه في تلك الأيام ،  
وهو يهم أن يولد في حياته الأدبية .

ففي الحديث أطال الكلام ، وقدم في القديم ، .. ولفت الأنظار الى  
« ما يقوله الشعرون » . وإكفنه في « ذم الهوى » تكلف حالة من الوعظ  
لم يوفق فيها ..!

---

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٥ .

(٢) الرافعي - الشعر العربي - المنار ١٥ - ٣ - عموز - يوليو ١٩٠٠ ص ٢٦٤ .

(٣) « ذم الهوى - المنار ٤٦ ، رمضان ١٣١٧ هـ - كانون الثاني

يناير ١٩٠٠ م ص ٧٣٤ .

ومن ذلك نفهم لماذا قاسى الوحشة في المنصورة في تلك الأيام ، مع أنه  
« كان منطوياً على عشق لبعض الصور الحسنة » فكان هذا يخفف عنه ، .. حتى  
« ليلجأ الى شاطئ النيل وراء النهر الصغير ليجد في تلك البقعة وحشة تعالج  
وحشته » (١) .

وكانت أوصاف حسان هذه المدينة الحلوة قد طارت يومها في الآفاق ،  
تتناول عناوين الغزل من أفواه المحبين ، وتستأثر بأرق النسيب للشعراء ، ويهم  
فتيانها بأبلغ التشبيه !!

ولكنه بما كان فيه « من الاستعداد الأدبي الكبير ، .. وبما في أعصابه  
من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما يفعله به .. تهيأ ليكون كما أراد ، وأن  
يبلغ بنفسه هذا المنسكان - بين أدباء العربية » (٢) .

فما كاد يلح فثاته الأولى على جسر « كفر الزيات » ، ويرى فيها  
صورة مما كان يجنح إليه خاطره ، وتهفو له نفسه .. حتى مال إليها بقلبه ، وغلبته  
على هواه ، حين « عصفرها » وعمره يومئذ إحدى وعشرون سنة ..

ومن وحي هذا الحب كانت معظم قصائده الغزلية في « عصفورة »  
الديوان ، وولوعه من ثم بشاعرية الحسن (٣) وما ابتدر القول ، وأنشأ الأبيات ،  
وسار في هذا السبيل حتى راح يبحث عن مكانه بين أدباء الجيل .

---

(١) الراجعي - الرسائل ص ٦٤ ، - ومع ذلك فقد كان يحلو له أن  
يذيل بعض ما يبعث به للصحف آنذاك بعنوانه على المنصورة .

(٢) العريان - حياة الراجعي - ص ٢٧ .

(٣) الراجعي - الديوان ج ١ ، هامش ص ٦٨ .

فسمى ليؤكده صلته بشيخ الشعراء العائد محمود سامي البارودي - رح -  
يطري نعته ، وبقراً له ويلتمس عنده البركة والتشجيع (١) .  
وعقد الآصرة بينه وبين الإمام محمد عبده - وقد كان كالتابع الأدبي  
للعصر كله ... فهو يقول له مستأذناً :

يبابك العالي ذوو حاجة لولا التقى قلت ادخلوا سجدوا  
فاذن لعل القوم مثل الذي قاده تلك النار نحو الهدى (٢)  
ومضى يغشى المجالس هنا وهناك يتحدث ، وينشر في الصحف ويذيع  
اسمه بين الناس ..

ثم انتهز نهزة يستطيل بها في « شاعرية الحسن » ، ويسبق صديقه محمد  
حافظ ابراهيم الشاعر الذي ذاع صيته بين الناس ، .. وهو لا يقول في الغزل (٣)  
وهذا نقصه ، .. وكأما تمام هذا النقص عند الرافعي الذي أكثر من النظم  
في هذا الفن الغنائي الجميل .

وحدث أن جاء الى مصر في تلك الايام شاعر عراقي كبير نشرت له  
« المؤيد » غرة من قصائده فكانت كالاعلان عن مكانته ومقدمه .

ومضى الرافعي أكثر مما ينبغي حين ترك الوظيفة وسعى للقاء الشيخ عبد المحسن

---

(١) أنظر الرافعي - الديوان ج ١ ص ٤٠ .

(٢) « « « ج ٢ ص ١١١ ، وانظر ج ١ ص ٤٢ ،  
وج ٢ ص ٧٢ .

(٣) أ . نجم (الرافعي) - شعراء العصر - الثريا - كانون الثاني  
- يناير ١٩٠٥ م .



الكاظمي ، ولكن سرعان ما اصطدم به حين لم يستقبله بما يليق نفسه ، فراح يكتب في ذمه والزراية به ، وينعته بما يعيظ .. حتى ألجأه الى الاتصال به ، وتسوية ما حدث عن غير قصد في التجني ، ثم صفا ما بينها الى الصورة المثالية التي جاءت في كتاب الكاظمي له وهو يغادر الى الأندلس : « .. ثق إني أسافر وأنت بقيتني في مصر » (١) .

ثم إنه نفّس على أحمد شوقي شاعر بته . وآذاه بالغمز تارة واللمز أخرى ، في الوقت الذي كان فيه شوقي يطري نعته ويتوسم فيه الشاعرية الجديدة .

كما نفّس حافظ ابراهيم ، فلا يكاد يقول حافظ في معنى ، او يرسل قافية إلا والرافعي يلاحقه في المعنى نفسه ، والقافية إياها كأنما يستبق معه على رهان ! . (٢)

مع ما بينه وبين الاثنين - شوقي وحافظ - من فوارق السن وتجارب الحياة ..

فما كاد حافظ يخرج ديوانه الأول ، ويقدم له بمقدمة بليغة ، ويترك لمحمد هلال ابراهيم المجال في شرحه .. حتى نرى الرافعي يسارع فيخرج هو الآخر ديوانه الأول ويقدم له بمقدمة كادت تنسي الأدياء والنقاد مقدمة ديوان حافظ ، ووضع اسم أخيه « محمد كامل الرافعي » على الشرح الذي وفي به الديوان حقه ..!

ولما أصدر حافظ الجزء الثاني من ديوانه ، أردف الرافعي ديوانه بالجزء الثاني أيضاً ، ثم أتبعه بالجزء الثالث ، وقد حشد فيها من الشعر والقصائد والمقطعات والأبيات ما جعلت حافظاً ينعته بـ « المكثار » ردأ على كلمته للرافعي عنه وصفه

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي .

(٢) منعرض لذلك عند المقارنة .

فيها بأنه (مقل) في النظم ١. على ما سوف نستفيض فيه دراسة في كتابنا التالي .  
واكتسنا في الموضوعات الاجتماعية والقومية نجده كثيراً ما خالف حافظاً ،  
وشوقي ولم يسلم كلاهما من غمزه وتحمده ..!

وفي حياة الرافعي الأدبية ظهرت بعض ميوله الوطنية والقومية ، ذلك  
أن الزعيم مصطفى كامل كان قد استأثر بنابعين اثنين من بني عمومته المحامين ،  
أما أحدهما فهو زين الشباب المرحوم أمين الرافعي ، الذي كان بحق قلم الحركة  
الوطنية الحرة ، والثاني أخوه عبد الرحمن الرافعي - رح - الذي أرخ للحركة  
القومية في مصر بعد ذلك ..!

ومن ذلك نجد الرافعي كالمستجيب لدعوة مصطفى كامل ، ولا سيما بعد  
احتفائه به والتعريف بديوانه ، والتأميل له بالمستقبل الحكيم والبيان الجميل ، .. -  
فقد سارع لوضع « نشيد وطني » (١) لمصر مع ما عرف عنه من ولاء لادولة  
الخلافة ، .. فلم يجسد غضاضة ولا فرقا بين دعوة الجامعة الإسلامية ، والحركة  
الوطنية في مصر .

ومن هنا كانت تنفسح صحف الحزب الوطني للرافعي وأصدقائه من  
الكتاب والشعراء ، .. ويحيى اهتمام الرافعي من ثم بدعوة مصطفى كامل الى  
إنشاء الجامعة الأهلية في « فكرة وطنية انشق لها مكانها في الحوادث ، وبذات  
فيها الأمة ، وشمسرت لها وجد بها الجد » (٢) .. فلم يلبث أن كتب حول  
موضوعات دروسها في اللغة العربية وآداب العرب ، حتى مكّن لهذا العلم القريد

(١) الرافعي -- ديوان النظوات ص ١٥ .

(٢) الرافعي - المعركة ص ٦٩ .

أن تكون له أصوله ومناهجه فيها، ويتسابق العلماء والفضلاء من الأدباء في وضع دراسات قيّمة من أجل ثبات هذا الفرع في الدراسة الجامعية ! .

وحياة الزافعي الأدبية هي التي ميزته عن محيطه من الناس بعامه والموظفين بخاصة، وعرفت به في أوساط أخرى، ومنتديات اجتماعية وسياسية كبيرة . وكذلك سعت به للاختلاف على ديار الشام، والتمتع بالاجازات السنوية بين أهليه وذويه بطرابلس الشام، ومعاني الجبل في بجمدون ووديان الهوى، .. وأغراس الفتنة الطبيعية والجمال الآسر ! .

وكم أنشد من وحي تلك السفرات من أشعار، وأرسل القصائد، وكتب الرسائل، .. وكانت آية هذه جميعاً تلك المقالة التي صرف فيها وجه الحديث إلى القمر، ناجي فيها « ليلاه » هناك، وحاورها في شؤون الحياة والاعتقاد والفكر ومذاهب الاجتماع ! .

ثم لما أراد نشر المقالة، زعم أنها كتبت بأسلوب خاص، يمنح من يُدمن قراءته وتأمله « ملكة الإنشاء » ذلك الموضوع الذي جعله عنوان الكتاب الذي كان يعقد النية على إخراجه ! .

وكانت بوادر الاستقرار على خط الأدب الماضي به إلى الإمامة من ثم قد لاحت له بالرغم من تجاهل « الجامعة » المنشأة حديثاً لشأنه، .. فقد تلقفها كما أسلفنا فئسة ( ذوي المصالح الخاصة ) من ( المعتدلين ) أتباع الحزب الذي سمي نفسه على الأمة، .. وبالغ في نعت أوصافه ! . حتى يبعد عنها ( المتطرفين ) في الحركة الوطنية، والحزب الوطني، الذين آثروا الثبات على المبدأ، والالتزام بالأهداف القومية للأمة .

وإزاء ذلك الموقف كان الرافعي سر أبيه ، الذي تقدم لامتحان ( العالمية ) عقب مشادة جدلية ، فأثبت فيها وجوده العلمي ، ودرجة تفوقه الفقهي ، وضلّاعته بكلّ .. فقد تقدم هــ و الآخر بمصنّفه الفريد في ( تاريخ آداب العرب ) وقد افترع له منهاجاً مغيراً لما كان عليه المستشرقون في تقسيم ذلك التاريخ بحسب الظروف السياسية التي مرت بالأمّة ، وتحري أن يكون بدعاً من الدراسات العلمية .

تناول في الجزء الأول منه اللغة والرواية ، أثبت فيه من الدقة وتحري الحقائق في المعلومات ما أكبره عند ( المقتطف ) المجلة العلمية الرصينة - حتى عده كتاب السنة .. وعكف عليه الامير شكيب أرسلان ، وإن أوضر صدور بعض الكتاب والأدباء كطه حسين وجورج زبدان - حسداً له على توفيقه فيه .. كما سيرد .. وقد أتبعه من ثم بالجزء الثاني الذي درس فيه القرآن والحديث في صورة من الكشف عن أسرار الأعجاز والبيان ندر أن يقف عليها سابق في الاستيعاب . وحدث له أن اهتبل الفرصة فغشي الحياة الصحفية يوم استبد الرأي بصفيه وصهره الشيخ عبد الرحمن البرقوقي لاخراج مجلة « البيان » لتسلك سبيلها مع « المنار » مجلة الشيخ محمد رشيد رضا زميله في التلمذة على الإمام محمد عبده ( رح ) ، وبقية الصحف والمجلات الأخرى ..

وما تزال المقالة الافتتاحية الأولى التي عقدها للمجلة تعتبر وثيقة قومية خطيرة يشير إليها معظم الذين تصدوا لدراسة العصر في شؤونه الأدبية والاعتقادية ، ويجمع بينهم نسبتها خطأ للشيخ البرقوقي ( ١ ) .

---

( ١ ) يحتفظ الشيخ محمد أبو ربة بمسودة هذه المقالة بخط الرافعي نفسه =

ولما كانت هناك بعض المذاهب الحديثة، تحاول أن تغشى الحياة الاجتماعية بنظريات في الاشتراكية، وأفكار في تحرير الفرد من ربطة الأيام، وآراء في تمكين المرأة من الاستقلال الذاتي،.. فقد راح الرافعي يحاضر في جمعية « الاحسان » السورية - المصرية عن هذه الموضوعات، ليجتمع له من ثم « كتاب المساكين » الذي يعدل عندني ثورة اجتماعية، وإن أهم يومها بغموض العبارة، وانبهام القصد،.. فقد تخرى فيه المقارنة الحديثة، والصورة الواقعية للفقير والفقراء، وطبقات الناس،.. ولم تحده المتخيلات النظرية، ولا الموائد الحيايالية!

ويوم أعلنت سلطات الاحتلال الحماية البريطانية على مصر وزوال صفة السيادة العثمانية عنها،.. وفتحت السجون أبوابها لتتلقى عناصر الحركة الوطنية، وفي مقدمتهم أبناء عمومته أمين وعبد الرحمن! نجد الرافعي - وكان موظفًا في الحكومة - كالذي يؤثر السلامة، ويميل ناحية الاجتماع، فيمتحدث عن المشردين والاطفال، ويخاطب النساء المتبرجات، والشبان المخنثين.. الى آخر ذلك من الموضوعات التي لم يكن يطرقتها الأدب العربي فيما مضى، وقلما تصدى لها معاصروه!.. ولكن بلغت به الحيلة حدًا تقاعس فيه من رثاء محمد فريد الذي توفاه الله وهو في المنفى بأوربة. وكانت سنوات الحرب ذات وطأة عليه وأذى، واشتد عليه فيها المرض، ومضى ياتمس له العلاج في كل مكان، ومن كل مصدر، حتى انتظر الخوارق والكرامات، وجأ بالشكوى الى الله أن يمن عليه بالشفاء، والتمس الدعاء عند كل صديق يسأله له في ذلك.

= وبالقلم الرصاص! وكذلك قصة رواها لي العربيان رحمه الله، وانظر مقالات منحولة في كتابه ( حياة الرافعي )!

و- لكن ما كادت الحرب تنتهي بالهدنة ، وتندلع الثورة الوطنية في آذار - مارس ١٩١٩م ، وتمتد لتكون نهضة جديدة ، حتى نرى الراجعي يضحى فيها نشيد الوطنية والقومية ، - يعالج بعض موضوعاتها حفية على صفحات « الأخبار » جريدة أمين الراجعي (١) ، ويرسل فيها نشيده « الى العلا » ويعود فيلحق على لسان الرجل الذي اختارته الاقدار رائداً لها نشيده الثائر « إسلامي يا مصر .. إنني الفدا » الذي ما يزال من مرددات أبناء الأمة عند كل تطلع قومي من حركة وطنية أو ثورة ! مما جعله بأسف على نفسه أن يفوته زمن الشعر ، وهو في غل « الوظيفة » ، ويدرك أن فرصاً فيه قد فاتته لو قال فيها شعراً كما ينبغي لراحم منكب سعد ( باشا ) في شهرته (٢) .

ولما تمكنت دول الاستعمار من الديار العربية عقب انتهاء الحرب ، وقسمتها في الافليميات الانفصالية القائمة والتي ما زالت تعاني من الانشقاق والانطار الى اليوم ، .. كشرت الارساليات التبشيرية ، والمحافل الماسونية ، والمنتديات العلمية والثقافية التي كانت تمدها وتغذيها تلك الدول عن أنيابها ، وكشفت عن بعض المستور من حقائقها وغاياتها ، فسلطت العديدين من وارداتها على العرب ومقدراتهم ، وعلى الاسلام وجوانبه الاعتقادية ، في حركة تزعم العلم والتجديد فيه ، والأخذ بأساليب الفرضيات المنهجية التي تنتهي بالأحكام المسبقة في موضوعات لم تعرض فيها الخيئاب كما ينبغي !..

وسعت العادات الوافدة ، والتقاليد الجديدة تصور للناس « دين المحبة »

(١) أنظر رسائل الراجعي ص ٦٧ .

(٢) « « « ص ٨١٣ .

في صورة من بغض العرب، والاستخفاف بدينهم ومعتقداتهم! . وتسفيه الكثير من تقاليدهم وأعرافهم، . . وقد جلى الرافعي في هذا المسلك الخطير بناحيتين، وانتظم مضارين، . . وسابق في ميدانين . . .

كان الأول منها إنتقاؤه لموضوعات الحب وفلسفة الجمال، . . يكتب فيها « لفتاة الشرق » لبيبة هاشم فصلا، ويرسل في « مي » بضعة رسائل يسميها على الأحزان ويضمنها مقارنات حدية، وموضوعات جدلية يتسامى فيها مع عقيدته القومية ودينه الاسلامي الحنيف، بما يجعل التوفيق حليفه في الأسلوب والمضمون، او بعبارة أدق في البيان الجديد وماله من حلة البلاغة وإشراق العبارة، وإرادة الاعتقاد التي تستبد بالتكوين العقلي في غلبة وتسليم . . .

ومن أجل هذه الحقيقة تصدى له شائثوه من واردات أورة المستعمرين من أفكارهم، . . فحاولوا معه نقل المعركة الى قشرة الأسلوب، إبعاداً للناس عن معانيه البيانية الوضيئة، ولكن هيهات أن يطاولوه . . .

وكان الميدان الثاني في حمله لراية القرآن مجاهداً في سبيل الله بمعارك فكرية رهيبة، كانت مجالاتها في الأدب والتاريخ والنقد ذات خطورة بالغة . . . وإن حوربت بتجاهلها من قبل بعض الدارسين الأغبياء . . .

وقد سار في المضمار الأول بقطع الأشواط في « السحاب الأحمر » ويجمع اليه رسائل من أوراق الورد، يتم بها خماسيته الانشائية الفريدة، التي ضمنها دعوة العرب الاعتقادية في الحب والحياة الكريمة الفاضلة (١)، يقتصد أن تكون

(١) راجع العريان - في ذكرى الرافعي - الرسالة ٣٥٤ ص ٨٣٤، . . وقد

كاد أن يصل هذه الحقيقة، حتى غبطني رحمه الله على ما وصلت اليه من تأمل . . . وقال: سوف تتكشف لك أشياء أخرى، وربما حان الوقت لإذاعتها ونشرها .

مادة ذلك من حبيباته المسيحيات بخاصة .. كما سيرد في فصل خاص .  
ومضى في الثاني على سجيته يترك منازل به أشلاء بين « الشعر الجاهلي »  
و « على السفود » ويلقيهم على الصحافة السياسية « صعاليك » للأحزاب ..  
وقد أعجز بذلك مناوئيه من دعاة التجديد أن يطاولوه في مجارة ،  
أو يستبقوا معه في مباراة بالرغم مما آذوه به من الملاحاة والمهارات ..  
وخيل إليه أن تهدأ روحه الثائرة ، وأن يخاطب الأمة من شرفة يقف  
فيها « شاعر الملك » ليقول ما كان يريد أن يقوله فلا يتهمها له .. ولكن جواد  
الشعر كبا به .. وأحس أنه جاء متأخراً ، فلم يلتفت الى « فؤداياته » في تجميع  
أو إعادة نظر فكان كالذي سلك غير سبيله ! ..

ولكنه حين استقبل غرسه في بنيه ، وأوشك أن يشمر احداهم ، راح  
يستجمع قواه التي أنهكتها الثورة الحانقة ، وأتعبها النقد القاسي ، وصقلتها الأيام  
ليكتب تلك الفصول الرائعة التي اجتمع بعضها في « وحي القلم » عنواناً للمقالة  
البيانية في العصر الحديث ، والتي ضمت إليها كل طريف ، ورائع من أحاديث  
الأدب الاعتقادي العامر، وسير التاريخ القومي وجوانب تتناول الحياة الاجتماعية  
للأمة من أطرافها العملية جميعاً ! ..

والوحي ما يزال منبعاً ثراً ، وكرماً معطاء لآراء الرافعي ، واجتهاداته  
وأفكاره ، فكأنه كان الخلاصة الرائعة لحياته المثلثة بأدبه !

على أن ما يؤخذ على الرافعي في حياته الأدبية أنه كان يعتزل الناس  
أكثر مما ينبغي ، - ولعل مرد ذلك الى عاهة الصمم التي أطبقت عليه حين تجاوز  
الثلاثين من عمره ، ولذلك جاءت بعض ثماره الأدبية ، والشعرية بخاصة مما



يحتاج الى المراجعة والتهديب لتقوى الى جانب آثاره الأدبية الاخرى التي حلق فيها جواداً سابقاً ١.

ويؤخذ عليه كذلك أن قصده في البلاغة يفرط به حيناً الى توخي الإيجاز بالحذف ، واعتساف الجملة بالاختصار ،.. حتى لتجتاح الى تأمل وإشفاق لادراك معانيها قصداً وهدفاً ..١

والقصود في البلاغة نفسه ، قد فرط فيه أيضاً الى المبالغة والتحويل ، ولا سيما حين يجهز على خصومه نقداً وإيذاء .

ولعل ذلك أيضاً ما حدا به - وهو يسابق أحمد شوقي وحافظ والمطران في مدح سعد زغلول والملك فؤاد - الى ركوب متن المبالغة في التقدير ، فجاءت أمداحه - على ما فيها من قيم واعتبارات ليست منها في مدائح معاصريه - وقد غالى فيها مغالاة مكنت مناوئيه من التصدي له وشتمه بعد موته ١..

والتأمل في تلك القصائد والأشعار يدرك حقيقة ما هدف اليه فيها من مخاطبة أبناء الأمة لتحري المثال ، ولكنه يقف على صورة المبالغة التي كان الرافعي يخيل فيها لنفسه أكثر مما ينبغي ، ولعله كان تحت وطأة من المفارقة والايهام ،.. لينتج في المديح ما عفا عنه دهرأ ١..

\* \* \*

وقف الرافعي في آخرة أيامه يتأمل عصره ، ويستبطن ذاته ، ويستجمع أداته ، وأراد أن يتحول الى « الناقد الذي يملأ فراغ العصر » وقد أعياه التفتيش عنه بين معاصريه ثلث قرن أو يزيد (١) و « أن يستعد لحملة التطهير

---

(١) راجع الرافعي في كلمات عن حافظ .

التي تهدم العصر من أركانها الضعيفة ، لتعيد بناؤه على أسس من المتانة والقوة « (١) .  
تحفظ له إرادة التغيير . . . ولكن حكم القضاء كان ماضياً ، . . . فقد وافته المنية فأسلم  
الروح في سكتة قلبية سقط بعدها في الحمام عقب اغتساله في فجر يوم الاثنين  
التاسع والعشرين من صفر عام ١٣٥٦ هـ الموافق للعاشر من أيار - مايو ١٩٣٧ م ،  
وكانها كانت تستجيب لدعائه المتصل أن لا يرى الكبر والمهرم الذي قد برده  
إلى أرذل العمر! . وهكذا لقي ربه راضياً مرضياً! . . .

ومنذ ذلك اليوم ، والأمة لا تملك غير الترحم عليه ، ويتنادى بعض  
محببيه لإحياء ذكره فتحول السياسات العجاف دون هذه « المجاملة » . . . ويطلب  
القراء بعث أدبه ، فلا يجدون غير طبقات رديئة لبعض جليل أعماله ، وتضيق  
الجامعات بدراسات تتناول جوانب من فنه وحياته أو آثاره . . .

فالله أسأل التوفيق والسداد فيما أنا بسبيله من هذه الدراسة المحاورة  
في جوانب من حياته ، أن تكون محاولة جديّة على المستوى الاعتقادي الذي تقوم  
به الأمم اعظائها ، من ذوى الفكر والأدب والشعر والبيان إنه سميع مجيب .

---

(١) أنظر أحمد حسن الزيات - الرسالة ٢٠٢ - ٥ المتضمنة رسالة الراجعي  
الورخة في ٩ أيار - مايو ١٩٣٧ م . وراجع كذلك الراجعي - الرسائل  
ص ١٨٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ .

## الفصل الثاني

### الرافعي والحب

« إن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا  
إذا أحب وعشق » (٥)

الرافعي

لقد نسب الرواة إلى قيس بن الملوّح العامري (١) - سيد عشاق العرب  
ومثلهم الفريد - قصيدة يدفع بها عن نفسه تهمة الخبل والاختلاط ، ويصف فيها  
ما يبلغ به الهوى من برحاء المواجد والآلام ، مما لم يحتمله سواه من المحبين فيقول :  
.. لعمرك ما لاقى جميل بن معمر كوجدني بليلي ، .. لا ولم يلق مسلم  
ولم يلق قابوس وقيس وغرورة ولم يلقه قبلي فصيح وأعجم (٢)

(٥) الرافعي . سر البوغ في الأدب - المقتطف ، كانون الثاني - يناير  
١٩٣٣ م . وحى القلم ج ٣ ص ٢٦٨ .

(١) يزعم بعض المؤرخين لأدب العرب من المستشرقين وزبولهم بخاصة ،  
بخياوبة قصته ، ولسنا من مذهبهم . وإنما نحن نقول مع الأستاذ زكي مبارك - رح -  
من المقتصة للتاريخ الوجداني للعرب أن يكون وحده « الخنون » بليلاه بينهم .  
(٢) هم عشاق العرب الذين أفاضت كتب الفنون والآمال في استجماع  
أخبارهم وآثارهم .

ثم يعرض لحقيقة الحب في الحياة ، وكونه أول ما في الانسان من الانسانية ،  
ويمثل لذلك بقوله :

صبا يوسف واستشعر الحب قلبه وما كاد أبوب من الحب يسلم  
.. ولم يخل منه المصطفى سيد الورى أبو القاسم الزاكي النبي المكرم  
فإذا كان حال أنبياء الله وهداة خلقه في هذه الحقيقة كذلك .. فليس  
ثمة ملامة على مثل مجنون بني عامر !..

وإذا كان سيد الورى ، وأكمل خلقه ، ذو الخلق العظيم محمد (ص)  
لم يخل من الحب ، وكان له فيه مع أم المؤمنين خديجة الصديقة (رض) حياة  
لها سيرة ، لم ترتفع اليها « الحميراء » (١) بصباها ولادها !!.. فهل في الحب عار  
أو مذمة !؟ (٢) .

\* \* \*

وإن نحن انقلبنا الى حيوات الأبطال ، وسير المفكرين منهم بخاصة ،  
لوقفنا على حقائق ودقائق من أيامهم ، فيها من أخبار الحب ، ومواقف الغزل ،  
ومواجد العشق والصبابة ، ولوعات الفراق والحرمان ، ولذعات المرأثر .. ما يثير  
في النفس الانسانية العواطف والتأملات ، ويبعث على الرحمة والاشفاق أبداً ..  
وإذا كانت هذه القصص والأخبار قد اقتصرت عند العرب على بعض

---

(١) « الحميراء » هي سيدتنا عائشة الصديقة بنت أبي بكر الصديق ،  
زوج النبي . وفي الحديث « خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء » وسميت  
كذلك المزهرة التي كانت تفيض على جمالها .

(٢) راجع العربان - حياة الرافعي ص ٩٦ .

عشاقهم ، وصفوة من شعرائهم ، وقلة من نبغائهم ، .. فان آداب الأمم الأخرى قد حفلت بهذه الناحية من الحياة الانسانية ، .. وزخرت تراجم عظمائهم وسير أدبائهم ، وحياء مفكريهم بروايات فيها أخبار عزائمهم ، وحوادث عشقهم ، .. ووافقات تنعت قصص حبهم ، وتطري ذلك بغير قليل من المبالغة واستهداف التسويغ في كون هذه العاطفة الانسانية الرفيعة مصدر الالهام لهؤلاء ، ومنطلق الطاقات الوجدانية عندهم ، .. ومثار الاحتفاء بالحياة لديهم ..!

وكان العصر قد أحضر من مترجمات تلك الآداب ما فاض في هذا الموضوع من قصص وروايات وسير وتراجم ، .. وإن اختلط فيها من الأخبار والوقائع ما يحلُّ ويحرم في العرف القومي للعرب ..!

وأحسب أن الرافي قد وقف على جملة ذلك ، .. حتى انراه يقول ، في سبب ذلك : « أن أمثال هؤلاء وأولئك من المفكرين والأدباء ، قد طغت فيهم الحياة طغيانها العصبي الشديد ، .. يريدون المرأة المغلّة ، كأنها من الفن الحي تغل عليهم من ثمراتها » !!.

« ومن فسوق الكتاب والسكثرة من العباقرة ، .. وهؤلاء بركة على الفن ، ولكنهم بلاء على الدين والفضيلة ، ومن سخرية الحياة بهم أن يكون العبقري فيهم هو من ناحية أخرى .. الحيوان العظيم » (١) .

ولعل في إلحاق الشيخ العروية أحمد زكي (باشا) - رح - للرافي بشكسبير الانجليز ، وتولستوي الروس وجوته عظيم الأدب الألماني ، .. قد

(١) الرافي - حديث عن الزواج - الرسالة ٤٢٠ ، محمد فريد جندي

- أزمة الزواج ورأي الرافي ص ١٩٤ .

إستطال به الى أن يكون « رافعي العرب » (١) ، وربما خلقت به هذه الحياة تلك الروح التي جعلته « على كل أحواله إنما ينظر الى الجمال كما يستنشي العطر يكون متضوعاً في الهواء » . . أن يقول :

« . . ثم لا يدفني اليه إلا فطرة الشعر والاحساس الروحاني دون فطرة الشر الحيوانية » . . « ومتى أحسست جمال المرأة أحسست بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها . . غير أنه منها » (٢) .  
وهكذا جعلته هذه « الرافعية » في الحب يتميز بها عن سواه من المحبين العرب ، . . أو نبغاه الفرسان والأدباء في الغرب .

لقد اتخذ الحب فطرة الله التي فطر الناس عليها ، بما ينطوي عليه الحب من قيم وأعراف ، . . وتوسل به الى أشرف الغايات ، وأعرس الأهداف فيما نوثقه من عزيمة المضاء ، ومخاطرة الايمان ، وصبر الجهاد . . واستهدف فيه ما يشرق اليه من حيوات الضمير والوجدان وجمال البلاغة وصفو البيان . . حتى لم يعد في حياة الرافعي غير قصة حبه (٣) عليها عاش في أدبه وشعره ، . . وبها تمكن من حفظ توازنه وصبرته الأيام ، ومنها استمد عناصر القوة التي قهر بها خصومه ومناوئيه ، . . وفيها سكب ذوب روحه ، وعمر ضميره ، وأخذ وجدانه ، حيث حلاله أن ينظم ، وراق له أن يقول ، وشاقه أن يؤلف ويصنّف . .  
ومن هذه النواحي مجتمعة انبهت على معاصريه فصول من هذه الحياة

(١) راجع كلمة زكي (باشا) في مقدمة المسلكين .

(٢) الرافعي - الجمال البائس - وحي القلم ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) العريان - في ذكرى الرافعي - الرسالة ٣٥٤ ص ٨٣٤ .

الفريدة التي عاناها في الحب ١. فوقعت بين برائثن الدحض والاقتراء ، لقصور  
في فهم مراميتها ، أو إدراك أبعادها وغاياتها ٠٠١

ولو تهيأ لنا أن نتأمل فيها بخلوص نية وحضور قلب وبقظة وجدان  
أمام فرائد أخرى للحب عرفت لأفلوطين ، .. وغدت من ثم مذهباً ، وأغرق  
في بعضها عشاق العرب من بني عذرة ، حتى انتسب الحب اليهم ، .. ومحاولات  
وجد فيها المتصوفة المسلمون عرفاناً ، ونوادير فاز بأخبارها فرسان العصور الوسطى  
بأوربة ، وأمثلة لسوى هؤلاء وأولئك عند أصحاب الأذواق والمواجد  
والديانات في الشرق والغرب ، لوقفنا بأزاء مثال آخر للحب قد يدعى لنا أن  
نسميه « الحب الراقعي » على ما يجمع اليه من صفات هاتيك الأمثال .

وعلى هذه الصورة في التسامي لا بد أن نعرض لقصة الحب في حياة  
الراقعي ، بما يتهيأ لنا من حيثياتها الواقعية ، وحقائقها التاريخية مبهما كانت الأبعاد ١.

\* \* \*

لقد كان لنشأة الراقعي في أسرة معروفة بعراقة التربية ، والمحافظة على  
تقاليد السلف الصالح ، وإعداد أبنائها للحياة السامية أثر كبير فيما آل اليه من بعد .  
حيث تغلغت آداب تلك التنشئة في عروقه ، وملكت عليه جوانب حسه  
ووجدانه ، وانطبعت صورها في ذهنه لتظهر من ثم أصداء يقظة في فنه وشعره  
وأدبه ، ولتنظم بعد ذلك كله في كلمته وفلسفته .

يحدثنا رحمه الله عن صفحة من طفولته هاتيك فيقول في « قرآن الفجر » :  
« كنت في العاشرة من سني ، وقد جمعت القرآن كله حفظاً ، وجوّدته بأحكام  
القراءة ، ٠٠ ولا أنسى أبداً تلك الساعة ، وقد انبعث في جو المسجد صوت

غرْدٌ رخيم ، يشقُّ صدفة الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي ، وهو  
يرتل آيات من آخر سورة النحل : « ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة  
وجادلهم بالتى هي أحسن ، إن ربك أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين »  
الآية (١) .

ثم يصف لنا تأمل هذه الآية في جوِّ ذلك المسجد حيث يقول القرآن  
عند الفجر ..! وكان من أمره في هذه السن المبكرة ، التأمل والاغراق في رحاب  
الكون ، .. وحب السفر والتجوال و « الرحلة الى أقصى حقول دنهور  
الضاحكة ، وأشجار البساتين الحاملة ، والطيور الباسمة » (٢) كأنه يقرأ في كتاب  
آلاء الله .

وقد « يترك أخوته في نزهتهم ولهوهم يوم الجمعة ، فيمم شطر هذه  
المجالي .. فيظل هائماً طول اليوم ، حيث السماء الصافية الطبيعة الحاملة ، خاشقاً أمام  
الجمال اللانهائي .. كالأنباء القدامى !! » (٣) .

كل ذلك كان يملك عليه مشاعره ، ويجعله كلفاً بجمال الريف الخالص ،  
بعيداً عن زيف المدينة وصحبتها ، .. منطلقاً الى غير المحدود من مفاتن السحر ،  
ومغاني الطبيعة ، وصور الجمال وما يجتليه منها في تأملاته وأخيلته ..!

وليته عني بتدوين حوادث طفولته هاتيك ، وكيف كانوا يسمونه  
« المجنون » (٤) ولماذا كان يحتفي بالحياة الطبيعية ومجالها ، وكيف كان يتفرد

(١) الرافعي - قرآن الفجر - الرسالة ١٨٧ - شباط - فبراير ١٩٣٧ م .

(٢) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

(٣) و (٤) المرجع نفسه .



بنفسه بعيداً عن عبث رفاق طفولته ، وأذى أترابه لمناظر من هاتيك الحياة ..  
ولما لم يكن له من همٍّ يومئذ غير الدرس والحفظ ، .. فقد كانت تنازعه  
هذه التأملات في آفاق الفضاء ورحاب الأرض والسماء بعض وقته وواجباته ..  
حتى إذا ما ألقى « عبقر » على لسانه لغة الشعر ، نارعته صورة فيها الى  
« ذم الهوى » بلون من الوعظ - يجاري فيه الفقيه الحنبلي ابن تيمية في العنوان -  
وإن لم يوفق فيه :

.. رويدك ما الهوى إلا هوانٌ      وهل يرضى العنا إلا اللثام ؟! ..  
ومن خبر الغواني فالغواني      ضياءٌ في بواطنه ظلام  
ألنّ لك الحديث فلينت قلباً      وعهدي ما يخادعك الكلام  
وكيف تذود نفسك عن حياض      وقد وردت ؟! - فما هذا المقام ؟!  
وقد أخذه من قول الشاعر :

وتجتنب الأسود ورود ماءٍ      إذا كان الكلاب ولعن فيه ..!  
ثم ينتقل الى حالة يراها على الواقع فيقول :

تمرّ على المساجد غير باكٍ      وتبكيك المنازل والخيام ..!  
ويذكرك الحمام إذا تغنى      ولا ذكرى إذا غنى الحمام  
.. فديتك ليس هذا عصر ليلي      .. الخ (٢)

ولعل إهماله لهذه القصيدة بالذات من أن يحتويها أحد دواوينه ، وأطرحها

(١) أحمد عيش - المصدر السابق .

(٢) الرافعي - ذم الهوى - المنار ، رمضان ١٣١٧ هـ - كانون الثاني -

يناير ١٩٠٠ م .

مع ما أطرجه من أشعار أخرى .٠٠ يعود الى حرصه على « شاعرية الحسن » التي  
تطلع اليها أولاً ، .٠٠ والسكي لا يبدو متناقضاً لأول وهلة - عند قارئه الذي  
يراه يفرق بجمه ، ويهيم في وديان هواه .٠٠ بعد ذلك .!

على أن القصيدة نفسها قد تكون سابقة على نظمه في الحبيب ، وشعوره  
بالجمال ، .٠٠ وهي تعطينا صورة طفلة مراهقة لمفهوم التدبير الذي ينشأ عليه أبناء  
الأسر الكريمة ، التي تعتمد بالفقه منهاجاً وعلماً ، .٠٠ وترى في الوعظ وقاية ،  
وبعث عزائم !.

وعندي أن وجود مثل هذه القصيدة الرافعي ، كان يجب أن تولد  
في ذهنه آنذاك ، كالضرورة التي يشفُّ بها عن روحه ، ويكشف فيها عن مكثون  
سريرته ، .٠٠ ويدفع عن نفسه - وإن خلا منها الديوان - لتفسر لنا من ثم قولته  
السائرة في السحاب الأحمر (١) :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

وثمة حادثة أخرى تعطينا الدليل على ما لقيه من معاناة الحب فيما بعد . .  
ذلك أنه هم بتأليف جماعة من الشباب تدعو الى نوع من الإصلاح الديني ،  
وقد أخذوا من مسجد البهي في طنطا ملتقى لاجتماعهم في « جمعية السنة الإسلامية »  
وكتب هو في ذلك الى الشيخ محمد رشيد علي رضا لاعتمادها فرعاً لجمعية  
« شمس الاسلام » التي انتشرت فروعها في القطر آنذاك .

ولكن الرافعي لقي عداوة طلبة الجامع الأحدي ، وعلماؤه يومها ، ... حتى

(١) الرافعي - السحاب الأحمر ص ١٦ ، وراجع الدسوقي - في الأدب  
الحديث ج ٢ ص ٢٨٩ ، ورأيه في هذه القصيدة .

لقد هموا به وبأصحابه ، ودبروا لهم كيداً ، لولا أن تداركهم جاهد أبيه ومنزلة  
أسرته .

.. وهكذا انحلت الجمعية الرافعية الصغيرة (١) بعد أن أظهرت الرافعي

الشاب داعية التحرر الديني والقومي .

ويُفسر لنا اعتراضه على كلمة « شمس » ومحاولة إبدالها بالسنة ..  
كراهيته اللوثنية المتعلقة بهاء .. والتي قد تنسب إلى فارس المجوس ، .. كما تكشف  
لنا عن مقدار تمسكه بعرويته دينياً واصطلاحاً .

ولعل رد الفعل في هذه الحادثة أيضاً هو الذي مكّن للجمال من أن  
يزيد من جذواته في نفسه ، ويلدغ قلبه الشاب في تلك الأيام ..

\* \* \*

كان للرافعي في صدر شبابه مغدى ومراح على جسر كفر الزيات ، ..  
ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ، .. وبجاشت بمعاني  
الشعر كما قدمنا .

كانت « عصفورة » أول من فنج لها قلبه ، فسيطرت عليه وغلبته على  
نفسه ، .. لقيها ذات يوم على الجسر وسنه إحلى وعشرون سنة ، ففها إليها بقلبه ،  
وتحرك لها خاطره (٢) .

ومن وجي هذا الحب كان تحول الرافعي إلى القول في الفنون الجميلة من

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٣٢٦ ، .. وراجع المنار الصادر

في المحرم ١٣١٨ هـ - أيار - مايو ١٩٠٠ م ص ١٩٠ .

(٢) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٩٧ .

الشعر غزلاً وتشبيهاً ووصفاً ونسبياً، مما حفل به الجزء الأول وبعض الثاني من ديوانه، ومنه أيضاً كان ولوعه بلقب «شاعر الحسن» وقوله في قصيدة العصفورة:

سلوني أنبئكم فلم يدر ما الهوى      سواي، ولا في الناس مثلي من صب  
إذا شعراء الصيد عدوا فإنتي      أشاعر هذا الحسن في العجم والعرب  
ويظهر أن الرافعي هو الذي «عصرها» على طريقة ابن المنجم ومريضه صاحب «الصفيراء» (١) حين قال في مطلع القصيدة:

عصافير يحسبن القلوب من الحب      فمن لي بها «عصفورة» لقطت قلبي (٢)  
وقد بالغ في الرقة والتشبيب حين خاطب العصافير بمثل قوله:  
أبك العصافير والدنيا عليّ أسى      أما تروّح غني بعض أحزاني؟!  
لي فيك فيك عصفورة لو أنها انطلقت      رأيت كيف يعاد أبيت الغاني (٣)  
.. ولقد كاد يفصح عن اسمها بالرغم من محاولته التكتّم عليه بالعصفرة..  
ولا سيما عندما امتد في المحاوراة وكاد ينسى نفسه على سجيتهما حيث قص لنا الحكاية:

.. وبني من إذا شاءت وصفت جمالها      فوالله لا يبقى فؤاد بلا حب  
عرضت لها بين التذلل والرضا      وقد وقفت بين التذلل والعتب  
وأبصرت أمثال الادمى يكتنفنها      فقلت: أهذي الشهب أم شبه الشهب؟!

(٢) راجع هامش ٢ ص ٦٧ - ديوان الرافعي - ج ١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الرافعي - الديوان ج ٢ ص ٩٧ .

فما زال يهدي ناظري نور وجهها كما نظر الملاح في نجمة القطب  
وقالت: تجأءد.. قلت: يا «مي» سائلي عن الحزن يعقوباً، ويوسف في الحب (١)  
وهذا البيت يفسر لنا أيضاً ذلك «الشوق العائد» عليه والذي برّح به  
في تورية الاسم من ثم وكأنا عاد به الى أيام صباه هاتيك .. كما سيأتي عند  
حسم القول في علاقته بما ري زيادة «مي» الأدبية .  
ويقول العريان : « إن الرافي قد أنجب من بنات أفكاره في حب  
«عصفورة» ثمرة الشمرية الأولى في الجزء الأول من الديوان » وربما كان  
يحسب أن يقع في بدنها فتقرأه ، .. فتعرف مكانها عنده .  
« وعلى مثال هذا الحب كانت له حبيبات ، .. وكم أنجب فيهن من  
ثمرات .. » (٢) .

فتلك (هند) التي أفلقت عليه الجزء الثاني من الديوان ، وحرمة القرار ،  
وكادت له بدنها ومفارقاتها حتى اضطرت به الى القول :

.. ولا عجب أن تراني على (تقلّب) هندٍ عدمت القرارا  
و (هند) على ما بنا لا تبالي وحبك يا هند ليس اختيارا  
لماذا تجافين يا هند عني؟! هيني ظلاً وراءك سارا  
هيني أخساً ، وهيني طفلاً هيني فتى وهيني « جارا »  
متى قلت يا « ليتني » مرة لأمرٍ توجعت منها مرارا ! (٣)

(١) الرافي - الديوان ج ١ ص ٦٩ .

(٢) العريان - حياة الرافي ص ٩٧ .

(٣) الرافي - الديوان ج ٢ ص ٨١ .

وهكذا المراهقة في أول الصِّبا، .. وهكذا ابنة الجيران معها دائماً في دلال  
 وتمتع ، يبعث الألم واللوعة ، ويزيد من الأسى والحسرة والمرارة .  
 وهاتيك « ماري » ودينها « المحبة » حنت عليه ، كما كانت تواسيه من  
 جراحات هند ومفاراتها، .. فهو يطمع منها بكرامة تكون من سر معجزة السيد  
 المسيح عليه السلام ، فتحيي قلبه :

يا « مري » زيدني هوىً فهو لك نور لم أزل أسري على مشكاته ..  
 أحيي فؤادي ليس مثلك من يدي عزاً القتل ، .. فأهوني بدياته  
 ها أنت « مريم » والهوى عيسى وعيسى كان ردُّ الروح من آياته  
 قولي لكاهنك الذي قدسته قولاً .. وعودي فاسمعي لصلاته  
 فلسوف يزعم أنها في آية نزلت من الانجيل أو توراته (١)  
 ويلوح لي أن هذا الصبا قد كاد يعود عليه في مثل هاتين الحبيتين (٢)  
 بعد عشر بن حجة ٠٠١ وفي البيت الأخير التفاتة رائعة الى كون « التوراة »  
 تمتد بأحوالها الشخصية ومعاملاتها الأخرى الى أتباع السيد المسيح وقراء الانجيل !  
 وهكذا أضحت تنازعه روح الغزل ، ويتلذذ بآلام الحب ، وموجعات  
 الهوى ، ويرى في حرمانه هند ، وإشفاق « وهيبة » وحنان « ماري » ..  
 حياة أخرى من الحياة نفسها ، له فيها وطر ، وبها عنده مغاني في آلاء الحسن ،

(١) الرفاعي - الديوان ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) الرفاعي . الرسائل ص ٨٦ ، ٩١ ، ٩٩ . الخ . و نظر يوسف

حنان ... الرفاعي - السياسة الكويتية عدد ٢٨ .

ونعم الجمال، .. حتى يقول :

أحب ولا أدري، وأدري ولا أعي وإن أع لا أسلو.. ولست أطيعه (١)  
ذلك أن مبلغه من الحب جملة أن يضيء قلبه، ويرقق روحه، ليصفو خاطره،  
ويقوم وجدانه، .. وتنتظم عواطفه، حتى ليحسبه « نعيم النفس » حين يقول :  
يا نعيم النفس ما أبغي سوى أن أضيء القلب من ذلك الرواء (٢)  
وحين يصل هذه الغاية الطبيعية في الحب، نراه يعتزم جاداً أن تكون  
وراءه امرأة تحبه ويحبها، .. تضيء له قلبه من رواء نعيم النفس !..

وهنا تلتقي الفكرة بالتوفيق. ويسر له فيها ما يسر على أمثاله من الشباب، ..  
فما كاد يلح اخت صفيه البرقوقي، حتى تحرك خاطره، .. وامتدت يد الصفي  
تبارك له وتقرأ الفاتحة على ما بيناه سابقاً !..

وأدركت هذه السيدة الفاضلة من أول يوم منزلتها التي لا تنازعها فيها  
إمرأة، .. ولكنها عرفت أيضاً أنها (رواء) نفس متعطشة، يذهب بها الجمال  
مذاهب من الفتنة والتأمل والإغراق، .. وأنها ضياء قلب قد تظلم عليه الأيام  
أحياناً، وأنها بعد زوج لشاعر شاب يتطلع الى مكانته التي يطعم اليها في دنيا  
الأدب والبلاغة !..

ومن هنا أوجبت على نفسها ما لا توجبه زوجة، وقد لا ترضى به أخت  
أحياناً، .. وربما امتعضت منه أم، واستنكرته بنت، .. ولكنها الزوج التي يسكن  
اليها الرافي، وقد جعل الله بينها مودة ورحمة !..

(١) الرافي - الديوان ج ٣ ص ٨٦ .

(٢) « » ج ٣ ص ٩٣ .

فلم تكن ترى تريباً عليه إن هو سار نحو الجمال بقدميه يطلبه ويتعشقه ،  
ويهم بالآلئه ومجاليه ، . . . ولا تجد غضاضة إن هو قد تغزل بأخرى ، . . . أو تذكر  
لواعج هواه ، ونسب بهذه وهاتيك ، . . . أو شذب بإحداهن ! . . .

وفي أيامه الأولى من زواجه بهذه الانسانة الصالحة ، ما فنيء يرسل  
قوافيه ، ولا يكتم شيئاً مما كان يعتلج في صدره حتى ليقول :

وما أنس يوم البين من « هند » أنه تطايرَ منها بانفجار الهوى فلي (١)  
إذ يظهر أنها ندمت على ما كان منها معه قبل الآن ! . . .

ويخطبها بقوله :

بربك يا « هند » اجعي بين مهجتي وبين شهود من جفونك واحكي . . . (٢)

وقد حاول « السلوان » مرة ، . . . ولكن ما كادت تبسم له في لقاء حتى

لجَّ به لأعج الشوق :

.. الى أن تلاقينا .. فلما تبسَّمت رأيت في قد خان عهدي وسلمنا

فما يصنع « المجنون » والكون كله لدى حسن ( ليلي ) لم يقاوم تبسماً !

وبالرغم من امتلاء بيته ( بوهيبه ) وقد أصبح منها روضاً فيه تغرد :

لا يصبح البيت روضاً للذين به ما لم يكن فيه هذا ( الطائر الغرد ) (٣)

فقد وافته الفرصة عام ١٩٠٧ م فسافر الى الديار الشامية ، حيث نزل

عند اهليه بطرابلس مصطافاً ، وما كاد يحس بما حو اليه من رُقى السحر وآيات

---

(١) لرافعي - الديوان ج ٣ ص ١١١ .

(٢) « « « ص ١١٨ .

(٣) الغرد الذي اسمه الطفل - الرافعي - الديوان ج ٣ ص ٦١ .



الطبيعة الحسنة حتى تحركت نفسه وجاش خاطره وأنشأ يقول، وقد وجد فيها  
صورة أخرى من (ليلي) :

.. فيا طرابلس حيثك المنى بلداً بي من هوى الحسن فيك فوق ما أصف  
أحس بين ضلوعي كلما خطرت ذكراك أن اليك القلب ينعطف (١)  
.. فاذا ما عاد الى مصر، برّح به الهوى هناك فشكا البعاد وأرسل الأنبا:  
يا نسيم الفجر يا طفل الربى لاهياً فوق أراجيح الشجر  
خذ لمن أهوى على البعد نبا إن جهد الشوق في البعد خبير (٢)  
ويبلغ به الوجد غاية يفرع الى القول :

ويح هذا البعد - لا خلّ لديّ

يحمل الأشواق مني أو إلي

أترى لم يبق فوق الأرض حي؟

أم ترى لم يبق غيري مفرماً أم أنا بعد هواها لا أعي!؟

يا حمى (ليلي) ويا (ليل الحمى) هل اشمس غربت من مطلع!؟ (٣)

\* \* \*

وما كانت مسؤولية الأسرة، ولا تبعة الرجولة لتعميقه عن هذه الحياة

الملهمة ١١٠

(١) الرافعي - النظرات ج ١ ص ٦١ .

(٢) " " " " ص ٣١ .

(٣) " " " " ص ٦٦ .

ولما أراد أن يريح نفسه من عناء الدرس والمراجعة والتأليف في  
( تاريخ آداب العرب ) الذي انقطع له ما بين عامي ١٩٠٩ م - ١٩١٢ م ..  
فيتردد على معاني لبنان في بجمدون و ( المنظر الجميل ) حتى يدرك حقيقة في نفسه  
كأنما يكتشها لأول مرة :

آفة الحرُّ أن يكون محباً وكذا الحب يتبع الأحرارا ..  
.. ويطيف به خيال ( المليحة ) التي أسهرته الليل ، وألقت به على شرفة الفندق  
في مناجاة عند السحر يقول فيها :

سحر فيه رقة وابتسام بعثته حور السما للعذارى

كلُّ حسناء حينما تنفض النوم تراه بفرها أنوارا

.. وتنسمته لا بدع منه في صفات ( المليحة ) الأشعارا (١)

ويطوِّح به الغرام في إحدى الربوات من الجبل الأشم ، بعد رحلة اليه  
في صيف عام ١٩١٢ م ، فيلقيه معرفة عند شاعرة من شواعر لبنان ، ويكون  
بينهما حديث طويل ، يصفو فيه القلب أمام القلب ، وتناجي الروح إلفها ، وتسمر  
النفس للنفس بعض ما يجيش بها من معاني اللقاء .. فلا يكاد يتعد عائداً حتى  
يجد نفسه بحاجة الى ان يقول ، فيرسل لها على صفحات الزهور ( عبرات البين )  
يذكر فيها ما أضره من ألم الفراق ، ويصف لها من حاله :

من دونك البين يا ( ليلي ) ومن دوني وبعض ما كان قبل البين يكفيني !

حتى يقول لها كيف أنه انتهى الى حياة هو فيها :

مُلقى لدى الناس - لو أبصرت حاله في الناس - أبصرت حياً غير مدفون (٢)

(١) الرفاعي - أحلام بجمدون - الهلال - تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٠ م .

(١) الرفاعي - عبرات البين - الزهور ٣ - ٣ أيار - مايو ١٩١٢ م .

وكان الأستاذ حبيب ثابت رسوله إليها، بعد ما كان عرف الهوى في اللقاء!.. فما كان منه إلا أن حمل القصيدة إليها، ونقل إليه عواطفها بقصيدة يقول فيها على لسانها بالوزن والروي:

ليلي تحييك من اعلى (بمجدون) والبين فاعلم كما يشجيك .. يشجيني  
إن كنت قد مُتُّ قبل البين من شجن (فبعض ما كان قبل البين) يحيني  
(والصادق) الحب يبقى في مودته إن كان من دونه بين ومن دوني  
.. وتزيد في اللطف والمودة، .. فتسترسل في المخاطبة حتى تدعوه لزيارتها

.. إني لأذكر مصرآ - لا ليهجتها!! لكن لمن هو في مصر يحيني  
واذكر الحر - والحر الشديد بها كمنار قلبي، .. لا تعنو لتسكين  
إلا إذا (صادق) وائي وأدركني محومة - فهو من بأسو فيشغيني (١)  
وقد حاول الجميل ان يمازحه، فبساؤل عن نسبتها، أهي (خيالية) أم  
أخيلية!؟ (٢).

على ان عمر الحب لم يطل بينهما، .. فقد اضطربت الأحوال في تلك  
السنين، وانقطع ما بين مصر وسورية من سبيل، .. حرمت الرافي من  
زيارة لبنان والديار الشامية، واهليه ومحبيه هناك! .. وإن كان هذا  
الحب قد اثمر غير هذه القصيدة، .. (حديث القمر) في مقالة صرف فيها  
وجه الحديث الى (القمر)، .. وقال فيه (تورية) (٣) وانه هو الذي

(١) المصدر السابق .

(٢) حبيب ثابت - الى الرافي - الزهور ٥ - ٣ آب - أغسطس ١٩١٢ م .

(٣) الرافي - حديث القمر، وانظر الر - ائل ص ٧٠ .

سماها ( القمر ) لفرط جمالها، .. ومن ذلك جاءت المقابلة بأسلوب فيه رمز وشاعرية  
وقد حفل بالعبارة البيانية يجريها في نسق جميل تلد فيه البلاغة العربية عهداً جديداً  
في الكتابة والأدب وإن اتهم - لكثرة احتفائه باشتقاق المعاني ، وتركيب الأخملة -  
بالانبهام والغموض عند بعض الأدباء ..

ثم كانت الحرب ، وظهرت حدود الأقطار الإقليمية ،.. التي ما لبثت  
أن أصبحت من ثم وكأن لها سلطان الجنسية والعداء بين البلدان العربية ، .. فلم  
يعد يتيها له أن يرى أهليه في ديار الشام يمثل تلك الحالة التي كانت ، .. وهكذا  
حرم المتعة في مغاني الجبل ، والإجازة في ربوات الطبيعة الفتانة ، .. والاسترواح  
من عبير الحسن ونعم الجمال !..

ولكنه بقي كثير الحنين الى تلك الديار ، شديد الشوق الى مثل ما كان  
عليه من اختلاف ولقاء وزيادة واحتفاء ..

وكان يرسل بتحاياه في خطبه السنوية بمهرجان جمعية ( الاحسان )  
السورية - المصرية بطنطا ، .. ومنها في قصيدته التي أقيمت بمهرجان عام ١٩٢١م  
وفيها يقول :

يا نسمة النيل مري بالسلام على نسيم وادي الهوى من أرض لبنان  
قلبي يرف رفيف الطير بينكما كأنما أنما فيه جناحان (١)

\* \* \*

في سنوات الحرب كان الرافي يعاني من الضيق والاضطراب ،.. ذلك  
أن سلطات الاحتلال قد تمكنت من إعلان الحماية البريطانية على مصر ، وزوال

(١) الرافي - مصر والشام - الهلال - حزيران - يونيو ١٩٢١ م .

صفة السيادة العثمانية كما مر .

وانقطعت كثير من أسباب الاتصال بالعالم الخارجي ، . . . وقلَّ الغذاء  
وندر الدواء ، . . . وذوَّ الخوف بقرنه يملأ القلوب خشية ، . . . مما ستؤول اليه  
الأيام من مصائر الأحداث . . .

وفي الوقت الذي استضافت السجون أبناء عمومته ، . . . ألحَّ عليه هــو  
المرض ، . . . وراح يصيب كل موضع من جسمه . . .

وأمام هذه الحالة التي أركست فيها البلاد من المجاعة والتشرد ، . . . نرى  
الرافعي الواجد العاني ، ينصرف بكليته الى المساكين يمسح عن عيونهم بيد  
الحب عبرات الأيام . . . ويحاول أن يستر عليهم عُريهم بمرقعة جديدة . . .

وكما تنتهي كلُّ حرب وتخلف وراءها من الأضرار والمفاسد الخلقية  
والاجتماعية ، كذلك انتهت الحرب العالمية الأولى في الوطن العربي .

وكان من بين الموضوعات التي انفتحت لها في الفكر العربي ميدان المساجلة  
والنقاش ، المرأة وحقوقها في الحياة والحب والحرية . . .

وإزاء ما يتخلل ذلك من غزو ثقافي ، يحجب عن الناس فقههم بدنهم ،  
والمأمهم بأصول حضارتهم وعلومهم ، . . . أحسَّ الرافعي أن عليه واجباً كبيراً  
قد لا يدرك تبعته بعض معاصريه ، وأن ذلك الواجب قد يكون مذهباً في تجديد  
الفكر العربي بالعطاء العقلي ، . . . وبالأساليب والأسلحة الغزوية نفسها ، . . .

وفي رسائله التي كان يبعث بها الى الشيخ محمود أبي رية ، . . . ما يشف عن  
حالة من الاضطراب النفسي - قد تصل به حدُّ الهوس أحياناً - كانت تعتره  
في تلك الأيام . . .

على أنه كان له من مذهب « الحب الرافي » الذي تفرغ فيه خير سبيل  
الى ما يهدف اليه من المباراة في الميدان ، .. والمطاولة في الحلبة بالتحدي والمقارنة ،  
ثم إعجاز هؤلاء ، وأولئك من واردات أوربة ، وأنقاض الحرب ، ومخلفات الرقابة  
والاحتلال ، من تراجمة الفكر الأوربي ، . ومقلديه عميان البصيرة !..

وما كادت تلقاه « فتاة الشرق » السيدة لبيبة هاشم ، حتى استكثبت  
في معنى من المعاني التي تدور حول المرأة ، .. (١) وما كاد يراه منشوراً حتى  
عزم على أن يكون أساس كتاب صغير (٢) .

وهو وإن كان وقته في علم الله ، إلا أن الحوادث المتتابعة الأخرى قد  
صرفته عنه !..

وكانت بعض الآلام النفسية ، والمرضية تعاوده بين الفينة والأخرى ،  
وتجعل منه كالسؤال الحائر الذي لا يجد جوابه أحياناً .

وتدور في واعيته الباطنة معانٍ جليلة ، وأفكار سامية ، وتقدم بينه وبين  
نفسه الآراء باختلاف تارة ، واضطراب أخرى ، ولا تكاد تستقر على شاطئ  
في الحكمة المرسله التي فيها فصل الخطاب . وكأنما كان يحس بنداء بعيد يدعو  
بتخافت أحياناً كالهمس غير المسموع ، ويختلط بالأصداه أحياناً أخرى فلا يكاد  
يبين أو يظهر بشيء من الفهم والوضوح !..

ويخيل إليّ أن تلك الحالة ومعاناتها هي التي ألجأته الى إعادة طبع  
« حديث القمر » لعله يصرف عن نفسه منها ما يستطيع ، ولكن هاتيك المعاني

(١) الرافي - فتاة الشرق - ٦ - ١٩١٩ م ص ٢٧١ .

(٢) الرافي - الرسائل ص ٥٨ .

والأخيلة تشبثت به هنا أيضاً، فعدل بعض العبارات، وشرح بعض المفردات .. ثم وجد أن الحديث « يحتاج الى زيادة بسط، وربما الى كتابة جديدة في بعض جهاته » .. ولما لم يجد متسعاً لذلك، ولا أعانته حالته هاتيك عليها « أدخر ذلك للطبعة الثالثة منى هدأ الزمن ١ » (١) .

ومضى يلتمس في المترجمات لعمله يظفر بصورة مما يأمل، .. وتأمل في « أحزان فرتر » وكان أسعد وداغر قد قام بترجمة ما لها، .. ولكنه لم يخرج منها بطائل (٢) .

وافتل معركة النشيد الوطني - المصري - ولذع أحمد شوقي بالجر نقداً وتجريحاً، ونال من اللجنة، والوزير جعفر والي، الذي التمس من أمين الرافعي أن تهدأ ثائرة الرافعي (٣)، ولكنه ما كاد ينتهي منها حتى وجد نفسه ثانية في الدوامة يريد أن يتفرغ « لتأليف جديد يكون قصة شقاء وحزن وبؤس وعذاب، ولهفة وهوس » (٤) تلك الحياة النفسية التي تعترك في روعة، وتصطرع بين جنبيه، والتي أراد بها معارضة آلام فرتر مرة (٥) ونازل بها « النفاق » الاجتماعي أخرى (٦) وتصدى للوفد و « جنود سعد » نالته (٧) ولم يتورع - وهو

---

(١) الرافعي - الرسائل ص ٦٧ .

(٢) و (٥) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٣) الرافعي - النشيد الوطني المصري - طبع ديسمبر عام ١٩٢٠ م ،

وانظر الرسائل ص ٧٠ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ٧٤ .

(٦) الرافعي - مجلة البيان ٩٢١ م . (٧) الرافعي - الرسائل ص ٧٦ .

موظف - أن يقول رأيه في « الحالة السياسية التي أفسدها أهلها » (١) بعدما أدرك أن « لا حياة لأمة يلعن بعضها بعضاً لعناً مقدساً » (٢) ٠٠ حتى لم يعد يبالي بأدب هذا الزمن (٣) .

وقد عرف أثناء ذلك أنه قد فوّت على نفسه فرصاً في حمل لواء الشعر ، ما لو كتب فيها أو اتهمز بعضها ونظم لزاحم منكب سعد في شهرته « (٤) .  
بينما كان الرافعي يحيا هذه الحياة ، تختلط عليه فيها الرؤى والأحلام ، وتعيش أفكاره في نفسه بمثل هذه الدوامه والأوهام ، هبط عليه خطاب من مصر ، وكأنه كان على موعد وإياه مع القدر .. وعلى غلافه بخط جميل :

« حضرة الشاعر الناثر العربي الفذ مصطفى صادق الرافعي المحترم » ..  
ويدعوه في بطاقة الأستاذ إلياس زيادة صاحب « المحروسة » لتناول الشاي ، حيث يجتمع فريق من الفضلاء في منزله بشارع المغربي رقم ٢٨ بالقاهرة ١ .  
وقد صحبه في هذه الزيارة صديقه الأستاذ جورج إبراهيم حنا ، « وشهد ما كان من تأثيره وانفعاله وجذبهته » (٥) لما ري زيادة ابنة صاحب الدعوة ، والتي ذاع اسمها « مي » كاتبة عربية ، واحتضنها (المقتطف) شيخ المجالات العربية بمثل ما احتفى فيه بالرافعي منذ أول أيامه ..

---

(١) و (٢) وردت الإشارة الى ذلك .. في غير هذا المكان ، وانظر

الرسائل ص ٧٦ ، ٧٨ .

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٨٢ .

(٤) « « ص ٨٤ .

(٥) راجع العريان - حياة الرافعي ص ١٢٢ .



ذلك أنه لم يكن يذهب الى مجلسها يوم الثلاثاء تزجية للفراغ ، يلقى النكتة ويحتفل بالنادرة ، ويلقى فلاناً وفلاناً من الأدباء والشعراء الذين يزدحمون على بابها ، ولكنه « سعى اليها سعي الخلي الى الغزل ، يلتمس في مجلسها مادة الشعر ، وجلاء خاطر ، وصقال النفس » ، فما أن جلس اليها وتحدثت اليه ، .. حتى لمسه الحب لمسة ساحر ، جملت في لسانه حديثاً ولعينييه حديثاً ، وأطالت انفرادها به عن ضيوفها ، فما تركته إلا لتعتذر اليهم .. ثم تعود اليه ، ثم قامت تودعه الى الباب حين انصرافه وهي تقول له : متى تكون الزيارة الثانية ؟ وهكذا وقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد « (١) .

« لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ، وقد خيّل اليه أنه وجدها ، ولكن في نفسه ، لا في لسانه وقلبه ، وأحس وشعر ، وتنورت نفسه الآفاق البعيدة » (٢) .

فثارت في نفسه العواصف ، وغلى دمه ، واصطرت عواطفه تبحث عن البيان الذي يكشف فيه عن خواطره ..

ونهى النفس عن الهوى ، ولكنها بحثت في صورتها من ماضيه كل ما كان من أيامه ، وكل من عرف ، لتبدأ هي نفسه بروعتها التي لمحتها عند « عصفورة » ودلالها الذي افتقده عند « ماري » وسحرها الذي لم يشرق بمثله « حديث القمر » .

وتحدث بعد ذلك بأسابيع أن أقيم مهرجان التأبين لليب الذكر

(١) العريان - حياة الرافعي ص ١٠٠ .

(٢) « « « ص ١٠١ .

فرح أنطون ، صاحب مجلة ( الجامعة ) التي احتفت بالرافعي شاعراً ، وبشّرت  
بميلاده في دنيا الأدب والفكر العربي الحديث ، وكان فرح انطون نابغة في الأدباء ،  
ومترجماً فذاً ، وله على الأدباء والشعراء من أبناء سورية بخاصة يد برة رحيمة ،  
أخذت بأيديهم في مدارج القول والعرفان ، ولكنه انتهى من دنياه بمأساة كعظم  
العابرة الذين يموتون في أوربة .. (١)

ووقف الرافعي في الحفل يرثيه بقصيدة بليغة ، ووقفت مي خطيبة تطري  
نعتة ، ولم يتورع الرافعي يومها وهما ينصرفان من أن يناديها الى جانبه ، ..  
ويطلب اليها الوضوح في العلاقة وكان يصحبه جورج ابراهيم حنا ، .. وبنصت  
اليهم أسعد حسني (٢) .

« وهكذا تحابا ، وتراءيا قلباً لقلب ، وتكاشفا نفساً لنفس ، .. ومضى  
الحب على سنته ونظر الرافعي اليها والى نفسه وراح يحلم .. »  
وهنا « خيّل اليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما لو أنها .. لو أنها كانت  
زوجته .. فراح يستدرجها للرضا به زوجاً (٣) .

وبعث اليها مجموعة مؤلفاته تزفها اليها رسالة حب معطرة باثناء ، فكتبت  
اليه في ١٠ آذار - مارس ١٩٢٣ م تقول :

(١) راجع عنه مجلة المجلة - ١٢٣ .

(٢) حدثني بذلك أسعد حسني في حضرة الأستاذ قاسم الخطاط بالجامعة  
العربية في ٢١ آب ١٩٦٦ م .

(٣) العريان - حياة الرافعي ص ١٠١ .

سيدي (١) ..

رسالتك التي كانت هي الأخرى قصيدة من قصائدك ، جاءت في الواقع  
« أما قبل » (٢) تبشر بـ « أما بعد » ..  
جاءت ديباجة حسناء شغلت مني نهاراً بتمامه ، محدثة عن مجموعة مؤلفاتك  
التي أقيمت في اليوم التالي .

وإني حيال هذه المجموعة المنوعة ، وكلمات الإهداء المرسلة على صفحاتها  
الأولى .. بدقة زهرات آذار وبهائها ، لأشعر تارة بأني عند روض من الفضل  
والشعر ناضر ، وطوراً أمام يَمِّ من نوعه زاخر ، وسأكون طائف الربيع يتجول  
بين اعطاف الرياض ، مستوحياً ما فيها من وشي وعبق ، ثم اكون الغواص يهبط  
الأغوار ليغلبها ولو على بعض ما حوت من درر وجوهر ..

وإني لشاكرة لك ما أنحفتني به من الآيات الصادقة الرافعية ، .. راجية  
أن تقبل شعائري (\*) إن تعذر علي تجميلها بالتشطير والتخميس ، فحسبي أن منشورها  
ضمن دلائل الاعجاب والاكرام .

( جي )

---

(١) أنظر الرافعي - القلب المسكين الأعظم - انتصار الحب - وحي  
القلم ج ٣ ص ١٧٩ ، وقرله « لـ يا أمر الحب أمره بأبلغ ولا أرق من كلمة  
العبودية اللطيفة هذه - سيدي - حين تنطق بها المرأة في صوت قلبها وغريزتها .  
(٢) من موضوعات الرافعي في العربية ، أنظر - أوراق الورد ص ١٤٩  
والتحقيق التاريخي لكلمة (أما بعد) في الصفحة التالية لها .  
(٥) يظهر أنها نسيت المضاف إليه فلم تكتبه على الورقة ، وتركته صورتاً  
لمعنى يرن في قلبه ! ..

وهكذا خيل اليها هي ايضاً فيه « الرجل الذي تتمثل فيه قوة الأبطال  
ومصارعة الصناديد » ولم تجد فيمن حولها ممن يحيطون بها أمسية الثلاثاء إنساناً  
تلوذ به غيره (١).

وقد استطاع الراجعي أن ينزعها من أيامها « فما بقي لها من اصحابها  
وصواحبها غير « مُصيف » مشغلة ليل نهار » (٢).

وبدا له أن يتمتع صاحبه في مدى تعلقها به .. فكتب اليها كالعاب  
الذي يُرزي عليها وقد استبطأها الكتابة عن نشيد سعد - اسلمي يا مصر ..  
إنني الفدا فردت عليه في دلال المحبة ، وغنج الواثقة تقول :

سيدي :

.. وكذلك يغضب اهل البحور والأوزان (٣).

أما أني أبطأت في إسداء الشكر على « نشيد السعد » فذلك لأن الشكر  
انواع ولائي اخترت أن يكون شكري هذه المرة نشيداً متردداً .. فأشدرتُ  
النشيد السعيد على توقيع البيانو كلما وجدت لذلك متسعاً من الوقت .  
ثم إنها هي تبعث اليه بأبيات لاسماعيل صبري كان قد ارسلها فيها  
وتقول له :

« لست لأضن بها عليك » .. وتطيب خاطره من الغيرة بقولها في رقة :

(١) أنور الجندي - نساء في حياة الأدباء ص ٤٦ ، ٤٨ .

(٢) العريان - حياة الراجعي ص ١٠٠ - وانظر ما سبق في كلمة « مصيف » .

(٣) هكذا دلالات - وكأنها تخفي وراءها جملة من مفهوم المخالفة -

ولا يغضب الملهمون ! ..

« .. رغم اعتقادي ان الشعراء لا يعنون دواماً ما تضمنته منظوماتهم ،  
ولله الحمد » حتى تختتمها بقولها :

« عسى أن تشفع هذه الأبيات في تصويري ، وعلى كل فلست لأخشى  
غضب أرباب القوافي والقرىض ، .. إذ كثيراً ما يكون الغضب لهم وحياً ، ..  
والوحي في الدنيا هو كل ما ينشدون .. »

« مي »

وهكذا أدركت مهمتها الإنسانية معه ، فهي إن لم تظفر به زوجاً ، .. فلا  
أقل من أن تحرك خاطره ، و تُجيش في نفسه بواذر الإلهام التي ينفث فيها الشعر ! .  
وكان قد شاع بين خاصة من الأدباء بأن « الزواج كاد يتم بينهما » (١)  
فما الذي صرفه عنها !؟ (٢)

لقد كان هنالك شيء يقف في وجه هذه الفكرة عرض له العريان بقوله  
« أن مي المسيحية اللبناية الأصل على هذه الصورة التي ترضاها لحياتها ، وصالونها  
لا يمكن أن تكون لرجل واحد ! .. وهو المسلم المتحرج بطبعه الحساس الذي يريد  
أن تكون المرأة له وحده ، فقد كانت مثل هذه الفكرة أبعد عنه في عرف الحياة  
مما يأمل » .

وكانت زوجته السيدة نفيسة البرقوقي تدرك ذلك كله وتعرف خبره ،  
وتطلع على رسائلها ، (٣) وما وقفت في سبيله حتى فيما التجأ اليه من « تيمة » كتبها

(١) عبد السميع المصري - في موكب الخالدين ص ١٢٦ .

(٢) العريان - حياة الرافعي - هامش ص ١٠٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٦٣ .

« فعلقها في خيط وربطها في سارية بأعلى الدار تتلاعب بها الريح » ، « ولكن  
أموراً عجيبة مفزعة وقعت له ولأهله ولسكان الدار جميعاً ، وجعلته يسارع فيفيض  
خاتمها لتعود الحياة الى الرفق والأناة وتهدأ نفسه من هذه الناحية (١) .

.. ولكنه ندم على ما أقدم عليه ، وأبصر حقيقة ، ورأى برهان ربه  
فأطرق من حياه ، وقد خلف وراءه نيفاً وأربعين سنة حافلة بأيام الهناء مشرقة  
بذكرات الهوى والأحلام (٢) وهكذا كانت خطرة عابرة من خطرات  
الهوى ، أطافت به لحظة ، وما عادت ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها  
بعين العاشق !. (٣)

ثم بدا قلقه النفسي الحاد يوقظ فيه الحقيقة شيئاً فشيئاً ،.. فما كادت القصة  
تبلغ غاية ما ، حتى انتفضت به كبرياؤه تخطئ لها خاتمة مأساوية عنيفة !.  
يقول العريان : « .. راح الرافعي الى ميعاده يوماً ، ٥٠ وكان في مجلسها  
شاعر (٤) جلست اليه تحدثه ويحدثها ، ودخل الرافعي فوقف له حتى جلس ،

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٣٣ .

(٢) و (٣) المصدر السابق ص ٩٩ ، ١٠٢ .

(٤) حسب العريان - رح - أنه اسماعيل صبري (باشا) وكان قد توفاه

الله في ٢١ آذار - مارس ١٩٢٣ م ، وربما تدعى اليه ذلك من قول الرافعي  
في قصيدة :

متى ينتهي هذا الجفا وقد انتهى لما يعلم العلام من زمن صبري  
الذي عدله بقوله

ومن أول الايام فيه انتهى صبري .. ..

= وكانه يؤرخ لبداية الحب في نهاية صبري !.

ثم عادت الى شاعرها لتتم حديثاً كانت بدأت به ، . . وجلس الرافي مستربياً ينظر ،  
وأبطأت به الوحدة - على غير عاداتها معه في الإقبال عليه والإشغال معه  
في الكتابة والحديث عن سواه (١) - وقد ثقل عليه أن تكون لغيره أحوج  
ما يكون اليها ..

ونظر الى نفسه وإلى صاحبته ، وقالت له نفسه « ما أنت هنا وهي  
لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف ١؟ » .

. . فاحمر وجهه ، وغلى دمه ، ورمى اليها بنظرة او نظرتين ، ثم وقف  
وأتخذ طريقه الى الباب ، . . واستمهلته فما تلبث وكتب اليها كتاب القطيعة « (٢) .  
وكأنما كان يريد أن يقع ذلك ، فأتخذ موقفها الطبيعي هناك حجة للوقوع .  
وعاد البريد اليه برسالتها تعتذر ، وتعتب وتجدد الحب في أسطر ثلاثة (٣) ،

---

= ولا تدل رسائلها قبل هذا التاريخ أو بعده على أنه هو « صبري » ، وهذه  
رسالتها المؤرخة في ٢٣ تموز - يوليو ١٩٢٣ م تقول فيها :

أما قبل .. فعلى الرافي الصادق سلام ، وله بالعيد السعيد تهنئة .  
وأما بعد .. فإن لي أمر أبديه .. . فهل لك يا سيدي أن تكون رسولي  
الى لجنة نايبين صبري ، ولا أظنني مقتحمة أو متطفلة .. ولا إحال فضلك إلا  
ملياً طلبياً .. الخ » .

(١) كان محدث الرافي يكتب له ..

(٢) العريان ص ١٠٢ .

(٣) ما تزال بعض هذه الرسائل بين آثار العريان - رح - .

ولكن الرافي حين وجد كبيراه .. نسي حبه ، وكان الفراق ٠٠١  
ومع أن هذه القطيعة التي اتخذها العربيان خاتمة القصة في كانون الثاني - يناير  
عام ١٩٢٤ م ، فقد بقيت الرسائل بينهما طائفة تحفل بآيات الإعجاب والولاء ..  
وإن لم تكن تتعدى مقاطعة نذوتها كل ثلاثاء .. والى ذلك يشير الرافي بقوله  
مخاطباً أبا رية :

« ذلك الحادث الذي تعلمه .. لا يزال يرمي بي هنا وهنا وهناك وهناك » (١).

وقد جاء في قصيدته « رقة روجي » قوله :

يا واصلاً بالمعاني      وهاجري في الكلام (٢)

بما يفسر لنا هذه الحقيقة بطريقة أقرب الى الصواب من الذهاب  
بالقطيعة الى ما يخيل للمرء أنها كانت على التحديد الذي ذكره العربيان .

وقد نشر الاستاذ طاهر الطناحي أطباقاً من حياة مي ، ذكر فيها أن

الرافي « بعث اليها بعد القطيعة برسالة مؤرخة في أول كانون الثاني يناير ١٩٢٤ م  
تقول فيها شعراً بعاطفة مكبوتة :

هنيئاً لك الأعياد تأتي وتنقضي      ولا ينقضي أن يستجد لك السعدا

يعزُّ علينا أن تكوني بموسمٍ      ولا نلتقي فيه سلاماً ولا ردا

فإن كان هذا الغصن أنبت شوكة      فما ذلك إلا أنه أنبت الورد (٣)

(١) الرافي - الرسائل ص ٩١ .

(٢) الرافي - أوراق الود ص ٤٦ .

(٣) راجع طاهر الطناحي - أطباق من حياة مي - أيلول - سبتمبر

١٩٤٧ م ، وكذلك «      »      «      »      «      »

١٩٥٧ م .



ولكننا نجد « مياً » تسارع في الردِّ بعاطفة أقوى ، وأبعث حرارة ،  
تحتفظ فيها له بالود والاعجاب ، .. وإن كان ذلك الأمل الذي راودها فيه ما كاد  
يأتلق حتى غاب ، في مثل هذا البريق الخلاب .. فتقول وقد تغيرت لهجتها :  
سيدي الأستاذ الكريم ٠٠١

لئن قصرت في تسطير الشكر على أبيات حوت غصناً عليه ورد ، وعليه  
شوك ، فإني لم أقصر دون الشعور بذلك الشكر على تفضلك بازجاء التهنئة إلي ،  
والتمني ٠٠ في مثل هذا الموسم من العام ، بتلك الصيغة الشعرية الأنيقة .  
وتقول له بنوع من العتاب المستطاب والاعتذار الأديب ، ٠٠ الذي  
لم تجد ضرورة ما في اللجوء اليه : « ٠٠ ولكني أبادر بالرد على خطابك الأخير  
لأن فيه ما يدل على الألم ، ويسوؤني أن أكون سبباً في هذا الألم الوهمي ،  
ولا سيما أنك بارع في ابتكار موضوعات الألم ، والجد في شعبها ومناحيها » .  
« وهي البراعة التي ألهمتك في العام الماضي أي عينتك خلال بحثي عن التيمورية » .  
ثم هي تختمها بقولها : « .. أشكرك كل الشكر على حسن ظنك بي ، ٠٠  
والسلام عليك أيها الأستاذ فنحن نقدرك أدبياً كبيراً ، ورافعياً نبيلاً » . ( مي )  
ولا تكاد تسنح لها الفرصة بعد ذلك ، ٠٠ حتى تبادره بكل أدب  
وإخلاص ، .. في طاقات من حر الكلمات تضحُّ بها إحدى رسائلها المؤرخة  
في ٤ أيار - مايو ١٩٢٤ م تقول فيها :

« أيلزم أستاذنا الكريم سماه الشعرية السحيقة في هذه الأيام ١٢ . أم هو  
يغادرها حيناً يفقد شؤون الحياة الأرضية ، ويتلقى تهاني أصدقائه ١٢ .  
فليقبل - إذا كان على الأرض - طاقة أهدبها اليه من خالص التهاني  
وحر التمنيات م»  
( مي )

ولكننا نجد الرافي كألذي يئشى أن يتراجع عما ارتكبه بحقها خطأ أو عناداً ، بالرغم من كل ما كان يعانیه من برحاء ذلك الهوى ، .. ولعل في رسالته إليها بعد ذلك ما يشف فيها عن روح واجدة ، ونفس غير مطمئنة الى ما اختار من سبيل ، .. ولسكنها الكبرياء ، .. التي تقتل أول ما تقتل في الانسان عاطفة الهوى حتى لتجهز عليه .

وانظر معي اليه كيف يقول لها في هاجرة من تموز - يوليو ١٩٢٤ م .  
يا نسمةً في ضفاف النيل سارية مسرى التحية من فاه الى فاه  
يا ليت ريباك مسست قلب هاجرني فتشعريه بمعنى رقة الماء  
ليست تحب سوى أن لا تحب فما أعصى الدواء على من حبه دائي  
« .. هذا وإن النفس لتنازعي اليك .. ولكن لم أتطفل على أحد  
من قبلك ، .. ولن أتطفل عليك مرتين » !.

فأين إمامنا من عمر بن الفارض سلطان العاشقين ؟ وقوله :

ومن أجلها طاب افتضاحي ولذلي اطراحي وذلي بعد عز مقامي ا .  
ويخيل إلي أن الرافي لم يكن قد خلق لمثل هذا الحب الذي قد أتصوره  
غير متكافيه ، ولكنه أحب على طريقته هو ا .

« والحب عند الناس هو حيلة الحياة لايجاد النوع ، ولكنه عند الرافي هو حيلة النفس الى السمو والاشراق ، تطل منه البشرية الى غاياتها العليا ، وآمالها في الأهداف السامية ، وتفتح فيه الروح على عالم غير منظور تنور فيه

الأفق المثير في جانب من النفس الانسانية .

الحب عنده نبوة على قدر أنبيائها ، فيها الوحي والالهام ، وفيها الأسراء الى انملا الأعلى على جناحي ملك جميل ، وهو مادة الشعر وجلاء الخاطر وينبوع الرحمة وأداة البيان « (١) .

ومن ذلك يتضح لنا أن الرافي حين سعى بقدميه الى الحب أدرك الصراع بين عقله وقلبه فأراد صنع الألم كما تصنع الحجر ورمى به صاحبتة .. وإلا فما بال رسائلها متطارحة هكذا بعد هذه « القطيعة » ؟ .. بأكثر من سنتين ؟! أيكون هناك موضع آخر لم يسجل في أوراقها وما باح أحدهما لصاحبه أو خاصته بخبره ولم يننازل أحدهما للآخر فيفضي له بما في ذات صدره ؟! ولا أشك بأن القصة ما تزال تحتاج الى المتابعة ، بالرغم من جميع الحثيات التي تصدق الوقائع ، ولعل في رسائل الرافي إليها ، والتي حظي ببعضها الطناحي ، واطلع على البعض الآخر عباس العقاد كما زعم في مقالته « رجال حول مي » ، ورأى فؤاد صروف القسم الأخطر ، وفيه رسالتان بعثها إليها في مطلع عام ١٩٣٤ م (٢) .

وإلا فما بال السيدة السورية تحمله تبعه ما جرى لها من ثم ؟! وتطلب إليه أن يبادر بعمل ما تقترحه عليه ، لينقذها من الحالة الأليمة التي كادت تنتهي إليها عقب

---

(١) العريان ... حياة الرافي ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣ .

الأميرة الدنيئة التي دبرها لها بعض ذوبها، فأقامت في مصحة العصفورية ببلبنان (١).  
وقد هفت نفسه اليها من جديد في لون من الحنين المعاد، وغير قليل من  
الندم (٢) فكان يكتب الي صديقه السيدة الدمشقية لتزورها وتكتب اليه  
بخبها .. وكأنه أدرك بعد فوات الأوان عظم الخطأ التي اجتهد فيها لقطيعتها.  
وبقي الرافي حتى وفاته لا يفتأ يذكرها ، ويذكر أيامها معه ، وما تبرح  
خاطره لحظة (٣).

وحين علمت هي بوفاته - رح - قالت في حسرة باكية :

« لقد مات - وفي نفسي منه ألم ، وبقلي عليه لوعة ا » (٤).

لقد أحب الرافي ميا من أعماقه ، ولكن الحوائل حالت دون ما ينتغيه  
إنسانها ، .. وبقيتا يتجرعان كؤوس الألم والحمران ، وتلجُ بهما الكبرياء ، ..  
ولا أقول العناد .. حتى وسألتهما في المراسلة ما لبثت أن افتقلت الى موضوعاتهما  
العامة التي يكتبان بها في صحف ذلك العهد .. ويومهم الرافي أن يكتب  
« أوراق الورد » ، ويجمع رسائله ورسائلها ، .. سابقته هي الى إخراج كتابها

- 
- (١) راجع طاهر الطناحي - الساعات الأخير في حياتهم ص ٩٢ .  
ويذهب كل من أنور الجندي وعبد السميع المصري الى أن أهلها خشوا  
عابها العودة الى الرافي ، والزواج المسلم ، .. فافتعلوا قصة جنونها وسجنوها  
في لبنان حتى مات الرافي .. راجع كتابيهما ..  
(٢) و (٣) راجع العريان - حياة الرافي - فصل الرافي العاشق .  
(٤) من حديث السيدة السورية نفسها .

« ظلمات وأشعة » وجعلت إحدى رسائلها فيه ٠٠١ حيث بادر هو بنقلها الى  
مصنّفه الفريد (١) وفيها تقول :

« سادعوك أبي وأمي ، متهبةً فيك سطوبة الكبير وتأثير الأمر ..  
سادعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين .  
وسادعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق !.. ( تأمل ) .  
وسأطلعك على ضعفي واحتياجي الى المعونة ، أنا التي تتخيل فيك قوة  
الأبطال ومناعة الصناديد » (٢) .

وتقول أيضاً :

سأستعيد ذكرك في خلوتي ، فأسمع منك حكاية غومك وآلامك ،  
وأطاحك وآمالك ، . حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد ..  
من أنت ؟ وماذا كنت !؟ .

لقد كنتَ وحيًا من فيض شاعرتي المسكتضة ، وكنت طيفاً من أطياف  
شوقي وعذابي ، وأنت حقيقة محسوسة ، مرت في أفق حياتي مرور السفن في البحر  
الى الشواطئ النائية .

يا مهدي .. (٣)

ومن وحي هذا الحب كانت محاولة الرافعي بعث فكرة « أغاني الشعب »

---

(١) ، (٢) ، (٣) أنظر مي - ظلمات وأشعة ص ٧٣ ، والرافعي - أوراق الورد  
ص ١٥٦ .. وتأمل لماذا لم تعترض مي على ذلك ؟! : وكذلك مي مختارات  
الهلل - الأمنية ، وراجع العريان - حياة الرافعي - ووسائلها في المراسلة ص ١٤١ .

من جديد (١) فقد خيل اليه أن يشرك الأمة في عواطفه ونوازع وجدانه ،  
ويتسامى بهذا الحب الى صبوة فريدة ، لا يبقى فيها هنالك حرج من أن يحب  
صاحب الاعجاز ، ويصبو ويتدأه .. في وقت كانت فيه الكتابة عن الحب  
لا تعدو قصصاً تلتصق بدعاوى التبشير والاستعمار .. أو تعلق فيها ما لا تقبله  
نوايس العرب في العرض والمروءة والتقوى .. وإن جهدت بعض النحل  
آنذاك أن تنطع في تسوينها ..

ومن وحي هذا الحب أيضاً وجد الرافي الألم الذي هو ينبوع الشعر ،  
ذلك الذي كان يحوم حوله ويفتش عنه في تلك الأيام ، .. حتى ألفت به  
الأقدار أمامه ..

ومن إلهام هذا الهوى عاد الى معاني « فتاة الشرق » والمقالة التي جعلها  
أساس كتاب صغير ، يحولها الى « رسائل الأحران » ويتحدث فيها عن نفسه  
بأسلوب التجريد ، .. ويستفيض ببيان منطقي عالٍ في مناقشة الكثير من موضوعات  
الاعتقاد المقارنة .. التي ينتصر فيها للعقل العربي المؤمن ، من غير أن يثير جدلاً  
مذهبياً ، أو صراعاً دينياً ، كما كان يحاول أن يجره اليه مناوئوه ..

ومن نتيجة هذا الغرام ظلل على نفسه بالسحاب الأحر ، فأكل ما كان  
بدأه في الرسائل وأتم الحديث في تلك الموضوعات التي أثارها الحياة الجديدة ،  
وفصل بعض الذي أوجز هناك ، .. وإن قسا في جوانب من أحكامه .. وانهم  
في بعض عبارته وغمض عند فصوله ..

ومن آثار هذه الحياة الفريدة في الحب وعشق الجمال كانت « أوراق الورد »

---

(١) سيأتي بيان ذلك عند التعريف بأغاريد الرافي .

تلك الرسائل التي اعتبرت معجزة لدعاة التجديد والمجددين عن أن يجاروها  
أو تلد أفكارهم بعض رسائلها ٠٠١

وكان الهلال قد نشر منها « رسم الحبيبة » في جزء كانون الثاني - يناير  
١٩٣١ م ورسم لها الفنان صورة رائعة ، فيها شبه كبير من صورة « مي » نفسها ،  
وحسبت عند اطلاعي عليها أن افتضاحاً للموضوع كان فيها ، .. ولكن العريان  
والطناحي - رحمهما الله - أجابا عن استفساري بمعنى واحد يقول :

« وهل كان حب الرافي من الأسرار !؟ » (١) .

وقد أحدثت هذه الحركة الأدبية البارعة للرافي صدى عميقاً في النفوس ،  
كان الأديب الرفيع ، من قبلها ندر أن يتدنى الى موضوعات « الهوى »  
والحب ، .. وكانت حصة هذا الجانب العظيم من العواطف الانسانية تكاد  
تقتصر على بعض المسئلات الغزلية التقليدية لبعض قصائد الوصف والمديح ٠٠١  
وقصائد الغزل المعدودة ، وما تحدث تاريخ الأدب العربي بغير نتف المحارلات (٢) .  
ولكن المعجزة حدثت على يد الرافي ، .. فقد اقتحم هذا الميدان ،  
وركب له متن الخطر ، وألقى بقلبه في عذاب الحب ، فألهب عواطفه ، وأحرق  
دمه وآذى أعصابه ، وصارع نفسه وعقله بقوة دينه ، وإشراق روجه .

وهكذا شتم عن ساعد الجد في الموضوع وراح يقطع الأشواط في مذهبه  
القيم الذي يبعث الحياة في الحب الانساني ، .. ويعود به الى السمو بالعذرية ، ..  
ويشرق على الاجتماع الحضاري الوليد بروح عربية مؤمنة ٠٠١

(١) العريان - حياة الرافي ص ٩٥ .

(٢) أنظر الرافي - في مقدمته لأوراق الورد .

حتى جراه المرحوم محمد صادق عنبر في الرسائل التي كتبها على لسان  
المجنون وليلاه ، والسيد زيادة في « حب الشاعر » . . والدكتور زكي مبارك  
في رسائل ( مجنون سعاد ) و خليل الخشالي في ( رسائل قلب ) . .

\* \* \*

ولقد أثير سجل أدبي حول الرافي ومي وقصة الحب التي لم تكتمل  
بينهما غير مرة ، . . ولا أعرف موضوعاً استغرقت فيه المناقشة من الأيام  
ما استغرقت هذه القصة ، . . وهي تطلع كل حين على صفحات المجلات العربية  
والصحف الأخرى في جميع الأقطار . .

يثبتة أديب فيما يراه ، أو وقف منه على خبر ، . . ويحاول به آخر رأياً يتفلسف  
به ، في تحليل لما بعد الوقوع قد لا يوفق فيه .

وينفيه آخر البتة ، ويلتمس التعلات لهذا النبي ، ويجيء سواء من ثم ليجتهد  
بتفسير لا يثبت ولا ينفي ، وقد يقصره على القول في الحب من طرف واحد . .  
ثم تجيء طائفة غير هؤلاء وأوائك ، والاشفاق يملأ عليها أفق الموضوع  
من ناحيته الواقعية والعاطفية ، فتحاول أن تجد له مسوغاً خاصاً مما يزعمه المحبون  
لها في شيء من المجاملة ، وغير قليل من الوهم ، والضلال . . حتى تنتكس بهم  
المحاولة نفسها . .

وربما كانت أصول هذه الحالة المساوية في البحث منذ أيامهما الأولى ،  
وحيث كان الرافي ومي ما يزالان أحياء . . وقد أفصح عن ذلك لطفي جمعه  
بحسبانه ذلك خيالاً لا يمكن أن يكون في الواقع ( ١ ) .

---

( ١ ) الرافي - الرسائل ص ١٩٦ .



وقد حدثني الأستاذ كامل أمين أنه حضر وخاله المرحوم كامل كيلاني مجلساً للرافعي في بيته عام ١٩٣٤ م وكان هناك سؤال عن ماهية هذا الحب يدور بين الجلوس ، والرافعي بلباقته المعروفة يؤمل حضوره باليوم الذي تكتب فيه القصة كاملة! (١) .

ولكنها انطلقت - مكابرة - عقب كتابة العريان فصل «الرافعي العاشق من كتابه ( حياة الرافعي ) الذي كان ينشره منجماً في الرسالة منذ عام ١٩٣٨ م . فتلاحقها بالتعقيب (٢) غير أديب! .

وعادت بعد ظهور الكتاب في طبعته الأولى عام ١٩٣٩ م ، والثانية ١٩٤٦ م .. وكانت تتخذ من مجلة الرسالة ميدانها الأول ، ثم تنتقل الى صحف الدنيا العربية كالمكشوف في الشام والهلال في مصر والتفويض في العراق ، والإحسان بدمشق! .

ولما أخرج الشيخ محمود أبو رية (رسائل الرافعي) التي وجهها اليه الرافعي في حياته .. تصدى لها العباس خضر في محاولة الشك في القصة ، والتجاوز بالظن في شخصية الرافعي (٣) ، وإرسال الرأي في أدبه (٤) .

(١) الرافعي - الرسائل ص ٨٧ .

(٢) راجع العريان - حياة الرافعي ص ١٢٢ .

(٣) الرسالة ٧٩٥ - ١٩٤٨ م وما بعدها ، وكذلك الرسالة

٩٢٢ - ١٩٥١ م .

وقد رأيت هذا «الأديب» العباس في القاهرة عام ١٩٦٥ م فلا والله ما رأيت «بليداً» في الأدباء كمثلته .. وكنت أقرأ له وأحسب له خطراً!! ..

(٤) الواقعية في الأدب ص ١٩١ .

ويوم كتب الأستاذ حسنين مخلوف فصولاً عن (مجلس الرافعي) لمجلة الإحسان، السورية وذهب في بعضها مذهباً من التفسير قدمناه في اصطناع الرافعي للحب ليكتب ويبدع ١١. وعاد عباس خضر فتلقف ذلك وتساءل في (الرسالة) ليجر العريان الى القول، والايضاح (١) فكتب حسن حمدان، وقال كامل محمود حبيب، وتكلم الشيخ محمود أبو رية بما جعل الشك في الموضوع غير وارد أصلاً،.. وأن انتحال أسلوب من أساليب المغالطة المنطقية لا يجوز على مثل هذه القصة ثابتة الحثيات (٢).

فقد علق العريان يوماً بقوله :

« أما أن الرافعي قد أحب ميماً صدرأ من كهولته والى آخر عمره فشيء لا أنكره ولا أشك فيه .. ولكن شك « الفضلاء » في « ماهية هذا الحب » - وهذه قضية سيكولوجية يحتاج بحثها والفصل فيها الى مقدمات، والى دراسة نفسية معقدة تستند الى أسانيد « الرواية » وإلى خبرة عملية في الحب .. » حتى يقول : « أصر على أن الرافعي أحب (مي) وأنها أحبت ذات يوم حباً ما، .. وبمباراة أدبية بارعة يستأنف .. ولكن حبها قد انتهى قبل أن ينتهي حبه - أعني قبل أن ينتهي عمره » . (٣)

وقد حدث أيضاً أن شجر ما بين الأدباء عقب الثورة المصرية عام ١٩٥٢م، وحين حظي بعض الأدباء الموترين، الذين يحسبون أنفسهم على « اليسار » والاشتراكية، من واردات أوربة وتلامذة مكاتب الارشاد الحليفة ونوادي إخوان

---

(١) و (٢) راجع الرسالة ٧٩٧، ٧٩٨، ١٩٤٧ م .

(٣) العريان - الرسالة ٧٩٨ .

الحرية في الحرب العالمية الثانية - بغير قليل من « الحرية » ويوم فسح لهم المجال كبيراً للنشر وإذاعة آرائهم وأفكارهم ، سواء منها ما يسرقونه ترجمة بالمقص ، أو ما توحيه اليهم وكالات الاستخبارات الأجنبية ومؤسساتها الثقافية ذات الطابع الغزوي الذي قدمنا ذكره في الباب الأول .

فكتب سلامة موشي في صحف أخبار اليوم ، . . . وتابعه فتحي غانم بـ « قلة أدب » في آخر ساعة ، . وتنطع أنور المعداوي (رح) في مجلة الآداب يدرس علاقة مي !! (١)

حتى لقد بدا دفاع العريان خافتاً ، . . . ومحاجبة « رضوان ابراهيم » المنطقية وكأنها لا أداة لها . . . ورد صدر الدين متهماً ، . وكلام محمد عبد الغني حسن ضائعاً .

فقد غشيت الصحافة موجة من التهريج الشيوعي ، والانتهازية اللا أخلاقية ما شغل الناس عن متابعة موضوعات الاعتقاد القومي بعامة ، . . مما لا تزال آثاره قائمة الى اليوم ! . .

وما كادت الثورة تثبت على قواعدها الشعبية ، وأسسها العربية ، . . حتى كان زمام المبادرة في الدراسات القومية والمنهجية يأخذ طريقه الى الجامعات ، . . ليرسي قواعد البحث العلمي ، بعيداً عن أضاليل الصحافة ، وأباطيل التراجمة المهووسين ! .

وقد بدا أن هناك « مغالطة » يحاول بها الأدباء المسيحيون بخاصة ،

---

(١) راجع « الآداب » البيروتية لعام ١٩٥٣ - ج ٤ م ١ ص ٣ ، وج ٥

م ١ ص ٧٧ وما بعدها . . وجرينة الأخبار ومجلة آخر ساعة لعام ١٩٥٣ م .

رفض القصة جملة وتفصيلاً، ..

فقد حسب جورج ابراهيم حنا أن الحب ربما كان من طرف واحد (١) .  
وتردد فؤاد صروف بين الاثبات والنفي (٢) . وسخر جميل جبر في كتابه  
« مي في حياتها المضطربة » من حقيقة العلاقة ، وتهرّب من وقائعها وحيثياتها  
ووسائلها (٣) بعد ما لجّ سلامة موشي بذلك (٤) ، ولهج بالافتراء سواء ٠٠١  
وتبعه من أبناء ملته أو من بلوذ بهم (تأديباً) ككتاب آخرون ٠٠ حتى  
تولت مجلة ( الأسبوع ) اللبنانية عام ١٩٦٣ م إثارة الموضوع مجدداً .. وجندت  
له قسيساً ربما كان بعض آلامها من الذين تآمروا عليها بتلك الدناءة المعروفة (٥) .  
وقد حاول هذا أيضاً نفي علاقة مي بالرافعي في طائفة صليبية لا تخلو  
من قلة ذوق إن خلت من قلة الأدب ..١ (٦)

على أن الشاعرة جميلة العلائي كانت أول من تنبه الى ذلك حين ذكرت  
أن لبعض ذويها يدٌ فيما أصابها ، ولا سيما بعد وفاة والدها إلياس زيادة ، ..  
فقد كان لهم مطعم فيها (٧) وسعوا الى تزويجها قسرياً لثلاث نفع في يد الرافعي  
ثانية فتكون من ثم زوجة فاضلة .

- 
- (١) و (٢) راجع العريان - الرسالة ٢٨٨ و حياة الرافعي ص ١٢٢ .  
(٣) راجع جميل جبر في كتابه المذكور ص ٤٢ .  
(٤) « سلامة موشي - الكاتب المصري أيلول - سبتمبر ١٩٤٦ م .  
(٥) « طاهر الطناحي - على فراش الموت ص ٩٢ .  
(٦) « مجلة الأسبوع العربي - أيلول - سبتمبر ١٩٦٣ م .  
(٧) « أنور الجندي فيما كتبه عن مي ! أضواء على حياة الأدباء  
ص ١٧ ، و نساء في حياة الأدباء ص ٤٧ .

وربما تشبث هؤلاء العرفى بقشة ٠٠١ ذلك أن أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات كثيراً ما يحلوه أن يكتب بأسلوب يردف فيه الكلمات والعبارات بسجمات تتناغم مع صوته الأديب، ..

ومن ذلك أنه كتب في أربعين « مي » عام ١٩٤١ م يقول :

« كان لمي آثار وممات ، ألهمت صبري ، وأوهمت الرافي ، وألهمت جبران ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان ، متنوعة الأفان . أضافت الى ذخائر الفكر الانساني ثروة » (١) حيث صف كلمات الالهام والايهام والالهاب .. مع النغم في جرس يطبع به أدبه ، وبتفنن في المقالة البيانية بواسطته ..

وهكذا تشبث « بالوهم » من يوم نفسه ..!

على أن ما قدمت الآن من إيجاز سريع ، وما أحضرته من أدوات القصة نفسها ورسائلها الحقيقية غير القابلة للتردد في الرأي ، لأنها تدحض الاستئناف ، ولا تقبل التمييز من غير إبرام في الحكم بواقعية القصة ..

وربما كان فيها غناء عن الإطالة ، .. وعسى أن يتهياً للدارسين من ثم بقايا من هذه الحثيات في آثار مي نفسها ومخلفاتها ، .. وفي رسائل الرافي الأخرى التي كتبها لبعض معاصريه من الكتاب والأدباء ، .. فيجعل منها مادة دراسية في رسالة خاصة نجيء . تنمة لهذا كله !

\* \* \*

(١) لزيات - الرسالة ٤٤٠ - ١٩٤٤ م .

وكان من نعم الله ورحمته للرافعي أن يكلاؤه بعنايته ، ويرعاه بالتوفيق والتيسير لما خلق له ، . . . والحالة التي عاناها من الحب ما بين « هند » ودلها و « ماري » وحنانها في مطلع صباه ، . . . كادت تعود عليه في شبابه وعنفوان رجولته . . .

وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير بقوله :

« . . . وما أسعد الناس وأهنأهم في سعادته إلا ذلك الذي يجمع قلبه وعقله أن لا يصدر أحدهما عن الآخر إلا راضياً مرضياً ، . . . فترى في آثار عقله طهارة القلب وإيمانه ، وفي آثار قلبه إجادة القلب وإحسانه ، . . . ولو كشف لك عن مواطن الأنبياء لتجملت لعينيك هذه الحقيقة ماثلة » (١) .

وما تصدق مثل هذه العبارة على أديب كما تصدق على الرافعي نفسه وفي أدبه الجمالي بالذات . . . ولو أدرك بعض هذه الحقيقة شائثوه والمعتضون عليه في قصة قلبه هذه ، . . . أو تجلت عليهم بعض آياتها ، لما أركسوا أنفسهم في حماة الانهمام ، أو أداروا أقلامهم في ضلال الأوهام .

ففي الوقت الذي كان يغالب فيه أشوقه ومواجهه ، إبان العاصفة الهوجاء من حب « مي » وهو كما عبر عن نفسه بقوله :

مقيده في وثاق من خلائقه      فما له لذة إلا لها ألمٌ . . .  
ينشد الملام الأعلی وفيه إلى ال      أدني مجاذبة ما دام فيه دم (٢)

(١) حديث القمر ص ٦٧ .

(٢) الرافعي - أنا ونفسي - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩٢٧ م .

وكأثما يكشف عن نفسه في هذا البيت ، وأن « الحب الرافعي » الذي أراد ، - كادت العاطفة الانسانية أن تتغلب عليه .

وهنا ينبعث فيه صوت من واعيته الباطنية كنداء الأذان في الفجر .. بقوله :  
يا مُفني العمر في التفتيش عن حلم لو كان يدرك ما كان اسمه الحلم 1 ..  
.. فيعود به الى نفسه يحاورها ، ويداور معها الحديث في شجونه 1 ..

وبينا هو كذلك هبطت عليه رسالة من سورية ، وفيها « مرض آخر » (١)  
ربما أحس فيه لأول وهلة علاجاً ، إن لم يكن فيه برؤه وشفائه ، فلا أقل من  
الدواء بالتي هي الداء 11.

وهكذا كانت « ماري » من ثم معه ، تمده بأحوج ما يحتاج اليه آنذاك وهو  
في دوامة القلق النفسي ، والاضطراب العاطفي ، « فيستمد » من لينها وسماحتها (٢)

(١) الرافعي - الرسائل ص ٨٦ .

(٢) يستبعد الأستاذ محمود أبو ربة أن تكون ماري يني صاحبة الرافعي  
في « حديث القمر » ! .. وما بين يدي من رسائلها اليه لا يثبت ما ذهب اليه  
العربان من أنها هي ! .. وفي رسالتها المؤرخة في ٢٨ أيار - مايو ١٩٢٤م وافى قولها :  
« .. وإني لأحلم منك - وانت لا تدري - تأمل ! ذخيرة غالية من

آيات الإبداع ؛ زودتني إياها « أحاديثك للقمر » منذ رمتها الأقدار بين يدي »  
(لاحظ ! ) فكانت خير ما حملت ، ترافقني في وحدتي ؛ فتحدثني بألف صوت  
وصوت ، وتسير معي الى البرية ، فتشددني ألف أغنية بألف نغمة ! .. وكان  
« حديث القمر » قد طبع ثانية قبل التاريخ بأربع سنوات - أنظر رسائل  
الرافعي ص ٦٦ - .

وذكر ياتها السعيدة « معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة » (١) .  
فما كانت « صاحبة مجلة منيرفا السكاتبة الأدبية ذات الشأن » ماري بني  
تعزيةً وسلوى فحسب حتى يتأوه الشيخ أبو رية بحسرة ويقول « آه لو كانت مي »  
قد جاذبته جُلُّ المراسلة » (٢) ، ٠٠ ، وإنما كانت « ملهمة » بأروع ما تعنيه هذه  
الكلمة ..

وإذا لم تكن لها تلك الأصداء التي ترددت من حول ( مي ) ، ٠٠ ، وأنها  
كانت « أنثى تستجيب لنداء العاطفة الانسانية .. فقد استطاعت أن تمزج قلبها  
بقلمه ، وتستحث نشاطه الذهني في الكتابة والقول ، ٠٠ ، وتستنجزه الوعود ،  
وتلحف عليه بطلباتها العديدة ، ٠٠ ، وتفتح له قلبها الكبير .

وتأمل كيف يخاطبه بتواضع جم وأدب عالٍ فتقول في رسالة :

« .. أحقاً أنك تقول عن اعتقاد ثابت في إمكان مزج هذا القلم  
الضعيف ، بقلمك الكبير النشط ؟ .. ولا أخالك هازئاً فما بيننا هذا .. » .  
وتردف القول بالرسالة نفسها تستحبه « .. إذن - وقد عرفت درجة العجز  
التي أنوء بها - أراك ساعياً الى إنهاء الجزء الثالث من كتابك تاريخ آداب العرب  
أقول هذا مع رغبتى الشديدة في إصدار الكتاب الثاني » (٣) .  
وتختتمها بقولها « أهديك من عاطفة إعجابي ما لا يستحقه سواك » .

ماري بني

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ١٤١ ، وتصدير أوراق الورد ص ٦ .

(٢) أبو رية - رسائل الرافعي - هامش ص ١٧٥ .

(٣) تريد به « السحاب الأحمر » .



وتقول له في رسالة أخرى : « ٠٠ أنسك ١٢ .. قد أتسامح للذاكرة أن تستبد بي ماشاءت ، . ولكني لا أجزها أن تتعدى هذا الحد المقدس ، في جعل نفسها حاجزاً بيني وبين صديق أفاخر به سرّاً وجهرآ ، وأغار من نفسي في نصيب منه قد يسطو على العبث به فكري او فكر سواي ا .

هذه مكانتك من نفسي ، وهي مع سعتها قليلة في نظري الى جانب ما تستحق .. الخ .. وتحتتمها بقولها : « .. شكري لمقامك الجليل أحس به إحساساً ، وأعجز عنه تعبيرآ ، فهلا كنت رسول نفسك لنفسك ، وقبلت مني كل شعور الإعجاب والاحترام ١٢ » .

### ماري

وكان الرافي - رح - قد أحس بالفرق العظيم بينها وبين هذه الثقيلة « مي » .. ولكنه كان قلقاً أيضاً بشأنها ، وقد تخوف من أن تكون كسميتها ( ماري إلياس زيادة ) فتؤلمه هي كما ألمته تلك ٠٠١

والكنها كانت عليه فيضاً من الساحة ، .. حتى لتقول له مؤكدة « .. أما وقد شئت أن تجعلني على ثقة - كرماً ولطفاً - في أن رسائلي اليك تجلب السرور لنفسك ، فأنا أشكر لك هذه النفس الطيبة ، التي ترى في الظلمة نورآ .. وأعدك بأنني لن أنسى .. وكفى » (١) .

وتدلُّ عليه بمثل قولها : ( .. الله منك ا . تجعل من نفس الشيخ علي (٢) قوة مفكرة تفوق قوانا ومقدرتنا ١٢ .

(١) من رسالتها المؤرخة في ٦ حزيران - يونيه ١٩٢٤ م .

(٢) هو صاحب الرافي في كتاب المساكين .

ثم إذا أتيتك بفتاة نابغة ساحرة (١) تقول (.. قد يكون بها بعض ما لدى  
الشيخ علي الأمي الجاهل) ..١

ولكن هذه الفاضلة حقيقة بأن يكون في رأسها عقل رجل ، أنظن أنك  
قد رفعت منزلتها في هذا التعبير (١؟) (٢) .

وقد قطعت معه أشواطاً بعيدة في المراسلة والحوار والأمنيات العذاب ،  
حتى لقد أدركت شيئاً مهماً حين كتبت إليه تقول :

( .. ألا نجد أن محادثتي إياك هي نوع من الجريمة التي لا تغفرها شريعة  
ولا دين ؟! .. وأن فيها خروجاً من حد اللياقة التي تقتضيها حقوق (المرأة) (٣) .  
ولكنها تنسى ذلك ونفسها بسرعة فتقول له :

( تكلم وأطل .. في شوق الى سماعتك مهما أطلت .. إن مقامك  
هولك ، فلن ينازعك فيه منازع (٤) ) وتقول : ( أنا لا أمل قط سماعتك ..  
فهل أنت مثلي ) (٥) .

---

(١) تريد بها « مي » .

(٢) من رسائلها المؤرخة في كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٤ م .

(٣) كان الرافعي قد جاوز الأربعين من عمره ، وهو متزوج وأبو أولاد  
بنين وبنات ، وليس بينه وبين زوجته غير شهر غسل دائم - راجع العريان  
- حياة الرافعي ص ٥٩ !

(٤) من رسائلها المؤرخة في ٢٠ شباط - فبراير ١٩٢٥ م .

(٥) « « « ١٧ أيلول - سبتمبر ١٩٢٥ م .

وتقول له أيضاً (.. لا وحقك إن لك عندي غير صفحات منيرفا مسكناً) (١).  
وتذكر له في وخزة « هنيئاً لهذه الفتاة - فتاتك - لأنها قدرت أن  
تجرحك هذا الجرح الدامي فتخرج للإنسانية منك هذه العصاراة الطيبة في  
« رسائل الأحرار » (٢) .

وتكتب في مجلتها بعض ردود عليه، .. تلحقها بقولها « عسي أن تكون  
جارحة حتى أرى ثورة هذا الدم العربي » (٣) فكأنها كانت تريد أن تفجر  
فيه روح الكتابة والشعر !..

ولم نزل رسائلها نجيء فترى على « أديب القطرين » و « أمير البيان العربي »  
و « صديقي الغالي » و « الحبيب المستبد » .. حتى تطلب صورته ، فيبعث بها  
إيها ويكتب لها تحمها :

ارسموا شخص الوفا .. ثم انظروا من بعدُ رسمي

لو يُسمى في الأنام الحبُّ ما اختار سوى إسمي

فتسارع في نشرها مع البيتين أمام موضوعة ( المرأة والسماء ) من رسالة الجاذبية (٤)  
.. وتكتب مذكرات يومية ، فتدعوه أن يشركها في مثلها :

« .. كم أتمنى أن تدوّن ريشتك الساحرة بعض مذكرات خاصة ، تصبح

مجموعة ، تخرج بعد زمن إلى العالم مكالمن النفس الحساسة العميقة - حينها هذه  
الأمنية » (٥) .

(١) و (٢) و (٣) من رسائلها المؤرخة في ٢٠ شباط - فبراير ١٩٢٥ م .

(٤) راجع الرافي - منيرفا ج ٤ ، ١٩٤٤ م .

(٥) من رسائلها المؤرخة في ٩ آذار - مارس ١٩٢٤ م .

ولكن ما تكاد ظروف فتاته هذه تستولي عليها .. ولم تكن تخلو من  
لحمة القسيس ، . بل كادت تقذف بها عبر البحار الى بلاد المهجر مع رفيق لا بأس  
به ، لولا رفضها بدون ندم (١) حتى تعودها رسالة الرافي فتخلد الى السكينة  
تأمل ذاتها ، فتحلم وتكتب له تقول :

« .. ففي أواخر أيار ( مايو ) أحلم براك ، وزيارتك مع رفيق جديد  
سيحملني الى المهجر ولعله الرجل الذي قذفت به الأقدار ليكمل في حياتي تطوراً  
جديداً لم أكن أحلم به .. »

وترتبك في قولها « .. أنا مندفعة الى الرضا اليوم بحكم الواجب والعقل ،  
أما العاطفة فأرجو أن يكون لها عمل في وقت قريب .. » .

وتختتمها بقولها « .. أنت لا تزال صديقي الغالي . فثق بمرکز الذي  
لا تزعه تطورات الحياة ، .. تحتي اليك تزداد إخلاصاً ونقاءً » (٢) .

ثم تنشر منيراً في صدر صفحتها الأولى صورة لقران ماري عبده بني  
وابراهيم عطا الله ، وبظهر فيها جمال ماري الرائع ، وبسمتها التي لم تكن موجودة  
في بعض صورها السابقة بمجلة السيدات والرجال ! .

وكانت الخطوة الأولى لها وهي تغادر بيروت على الباخرة كندا الى  
عاصمة الشيلي ، أن تهبط مصر ، وتستضيف عند الرافي في طنطا ، ثم تغادر  
الأسكندرية الى أوروبا فأمر يكا ! .

(١) من رسالتها المؤرخة في ٢٧ كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٥ م .

(٢) « « « « ١ نيسان - ابريل ١٩٢٦ م .

وكم كان الرافي يوماً حليماً،.. حيث استقبلها الاستقبال الحسن  
وودعها الوداع الجميل .

ولما عادت ماري نبي الكتابة إليه من سانت ياغوا .. كتب إليها كالذي يلفت  
نظرها إلى منطق العقل والواجب يقول - إنك إن أبيت النسيان بسرعة ، ..  
فلا بد أن تنسي ببطء » ولكن هذه الكلمة تقع عندها كالصاعقة ، فتقطع  
عليها سلسلة أحلامها الجميلة ، وتصدمها بالواقع ، مهما حاولت الفرار منه .. ومن  
بين مغالبتها لدموعها تكتب له قائلة :

« .. أتكون ظالماً في تقديرك المرأة حتى بين أحضان الصداقة ؟! إذا  
أنت تسامحت مع نفسك فأنا لا أغفر لك هذه الهفوة ، وأضيفها إلى عديد ظنونك  
نحو هذه المخلوقة ، التي لا ذنب لها سوى طيبة في نفسها هي أصل بلائها » (١)  
ثم تأتي كلماتها تنتحب في هذه الرسالة ،.. والتي بعدها ، فيعمدها رحمه الله  
تطيبب خاطرها بمعاودة الكتابة إليها عام ١٩٣٠ م ..

وتعثر في بعض أجزاء المقتطف على « رسالة الغضي » وسواها من أوراق  
الورد التي « تطرب وتشجي » فتعجب عليه ، لم لا يذكرها بنسخة من هذه الآيات  
وتكتب إليه قائلة بثقة وحزم :

« أريد نسخة برجوع البريد ، وأريدها مزينة بآية من يدك ، .. ولا  
إخالك إلا ملياً نداء هذه الصديقة التي تحمل من فضلك ما يجعلها مدينة لك أبداً ،  
كما أنت مدين لي بأرجحية إخلاصي .. أنفكر !؟

ماري

هات البرهان (١)

(١) من رسالتها المؤرخة في ١٧ أيلول - ديسمبر ١٩٢٦ م .

(٢) من رسالتها المؤرخة في ٧ تشرين الأول ١٩٢٩ م .

أقول .. وعند مقابلي هذه الرسائل وسواها مما لم أشر إليها ، مع ما جاء  
بالرسائل التي نسبها الى صاحبه في « أوراق الورد » ظهر لي أثرها في الكتاب  
أكبر بكثير من أثر مي .

ولو تهيأت لنا رسائله الأصلية إليها ، .. لكان بين أيدينا مادة غنية جداً  
في دراسة خماسية الرافعي الانشائية في الحب وفلسفة الجمال ، .. قد تكون  
موضوعاً قائماً بذاته .

وهكذا عاد الرافعي من ثم « كلما أحس حاجة الى الحب راح يفتش عن  
واحدة يقول لها : تعالي نتحاب لأن في نفسي شعراً أريد أن أنظمه ، .. أو رسالة  
في الحب أريد أن أكتبها » (٢) .

وكان للرافعي سلطان على النساء ، ولهن عليه سحر وفتنة ، وإحساس  
عجيب في مجالسهن ، وهو فكه ظريف مداعب لا تملك السيدة الرزان في مجلسه  
إلا أن تخرج عن وقارها ، .. وكانت هذه أداته في استمالتهم حين يلمس الوحي  
أو يجد الحاجة الى أن يقول .

وقد سمعه العريان يقول لإحداهن ، وسمع إحداهن مرة تقول له :

---

(١) العريان — حياة الرافعي ص ٩٧ .

متى أراني في مجلسك لتكتب عني رسالة في « ورقة ورد »!؟ (١)  
 إذ لم يكذب يخرج هذا الكتاب ، حتى « جاء الشيطان فعرض عليه ( عينات )  
 جديدة كأنه - أخزاه الله - كُتبي يعيش من بيع هذه الكتب ٠٠! (٢)

\* \*

وقد حدث له أكثر من واقعة ، كاد فيها الإعجاب به أديباً ورجلاً أن  
 يتحول الى لون من الحب ، فهذه « فاطمة .. » تحسب أن « أوراق الورد »  
 من وحيها هي ، .. ولا ترضي أن تشاركها فيها سواها ، .. فلا تكفي بادعاءاتها  
 هاتيك ، وإنما تبعث اليه بقصيدة تقول فيها :

يا حياتي وغذائي      وصباحي و - مساء - كذا  
 من يضحني في سبيلي      كل غال لي براه  
 وإذا ضاقت حياتي      وسعني راحتاه

٠٠ الخ ٠٠ (٣)

.. والأخرى ( فتحية ) كان أبوها أديباً محبباً للرافعي ، وقد توفاه الله  
 قبله ، وتنگر لها ولأخوتها الزمن والأصدقاء ، فهي تسعى اليه تعرض الحال ، ..  
 وبدافع من إنسانيته العالية وبره بأصدقائه يعطف عليها ويرعاها ، ويتوسط لحفظ  
 حقوق الأبناء في مرتب أبيهم ، فتحسب أن ذلك « حياً » منه لها . فلا تلبث  
 أن تلقاه في الاسكندرية كلما أممها للاصطياف ..! (٤)

(١) المرجع السابق .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٩٩ .

(٣) و (٤) عن رسائلهن، الجديدة اليه ..!

وثمة أديبة أسكندرية أيضاً هي « سعاد .. » تتجلى له بروحها الشعرية ،  
وتحفل بمحبته وتبعث له بأبيات تقول فيها : (١)

فيضُ من الرحمن شمعٌ بروحه كالشمس فاض على الحياة سناها  
سر مصطفى ، فالله جلّ جلاله مع روحك العطار إذ أنشأها  
أما الأديبة السورية (فلك طرزي) فقد ملأ عليها أفق حياتها إعجاباً ، ..  
وتمت عليه أن يكون لها أثر في كتاب آخر من هذه المجموعة !..

وكانت بينهن أيضاً « فكرية زكي » التي كان للرافعي يد في حصولها  
على وظيفة في التعليم ، وقد أحبته نوعاً آخر من الحب نادر المثال ، .. فهي  
تصرح أن لا أمل لها معه أن تشركه الحياة ، .. ولكنها تفيض عليه بترجمات عن  
اللغة الانجليزية فيها شيء من شعر « شبلي » وبراوننج وسواهما من شعراء العاطفة ..  
ولقد كانت هذه الحياة المتصلة به مع الناس ، ولا سيما أمثال هذه النسوة  
الأديبات ذات أثر بالغ على أدبه وفنه .. صورت له من الاعجاب والاكبار عالماً  
قائماً من الحب والصدقة .

وعلى ما كان عليه رحمه الله من الخلق الثابت والتقوى ، .. فإنه كان  
يفشى المجالس والمنتزهات والنوادي ، وربما اختلف على دور اللهو والسيا التي  
يرحل فيها الى « عالم خارجي » كما كان يصطلح لها .  
وقد حدث له قصة « في الذهب ولا تحترق » المشهورة (٢) وكيف أغري  
بالذهاب الى فرقته الراقصة .

(١) عن رسائلهن العديدة اليه .

(٢) راجع العريان - حياة الرافعي - كيف كان يكتب .



كما حدث أيضاً في صيف عام ١٩٣٥ م ان التقى في مصيفه بسيدي بشر  
بمسناء إيطالية ، وكان لقاؤه بها من ثم مادة مقالاته عن « الجمال البائس » . .  
والتي تحول بها رحمه الله الى « الملب المسكين » تلك المشكلة التي تركها تنتظر  
الحل . . . وعندما أخرج الأستاذ خليل جرجيس خليل ديوانه ( أغاريد الصيدح »  
وضمنه رأيه في الحكم بقضية ذلك القلب . . . كما كانت هنالك خلول لآخرين  
لم يكشف عنها حتى اليوم . . .

.. وفي عام ١٩٣٣ م لقي ملكة الجمال ( كريمان خالص ) في حفلة تكريمها  
التي أمته له جريدة ( السياسة ) فكتب فيها ( رسالة صغيرة ) قال فيها :  
( أني رغماً عن تقمّي على سفور المرأة المسلمة راضٍ عن سفور هذه  
بخصوصها لأنها أشبه بتسبيحة إلهية في شكل نسائي ) ( ١ ) .

وقال : ( سأضم الرسالة لصغيرة هذه الى أوراق الورد في طبعة أخرى ) ( ٢ ) .  
وهكذا كان سلطان الجمال عليه رحمه الله . . ينظر اليه كما يستنشي العطر  
يكون متزوجاً في الهواء ، لا يستطيع أن يمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذ  
منه . . . ثم لا يدفعه اليه إلا فطرة الشعر والاحساس الروحاني ( ٣ ) .  
وليس للرافعي في أدبه مثل قصة حبه ، وهيامه بالجمال ، بدأ حياته شاعراً  
بها ، وتناول جوانب العلم والعرفان من أجلها ، . . وأرخ للغة والأدب فيها ، . .  
وأدار فلسفته الخاصة في الحياة والدين والاجتماع من حولها ، حتى جعلها فلسفة  
الحب والجمال .

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل - ص ٢٥٥ - الهامش .

(٣) الرافعي - الجمال البائس - وحي القلم ج ١ ص ٣٩١ .

على أن خير تفسير لظاهرة « الحب الرافي » هو ما جاء في كلام الرافي  
الفنان نفسه وقوله :

« .. وذو لا يفيد من الحب قائده الصريحة إلا إذا جعله تحت عقله ،  
فيكون في حبه عافلاً بجنون لطيف ، وترك العاصفة تدخل في التفكير ، وتضع  
فيه جمالها وثورتها وقوتها .. ومن ثم يرى مجاهدة اللذة في الحب هي أسمى لذاته  
ويرى بها في نفسه ضرباً إلهياً من السكينة تؤليه القدرة على أن يقهر الطبيعة  
الانسانية ، ويدع فيها عمله الفني العجيب .

والرجل الكامل ، والمفكر المتخيل ، إذا كان زوجاً وعشوقاً ، أو كان  
عشيقاً ، وتزوج بغير من يهواها .. استطاع أن يتدع لنفسه فناً جميلاً من مسرات  
الفكر ، لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج .. وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال  
جمد على هيئة واحدة .

مثل هذا المفكر العاشق يحتاج الى الزوجة كما يحتاج الى العشيقة .. فهو  
في قوته يجمع بين لزامه هذه ، وقدسية تلك ، لأن أحدهما توازن الأخرى ،  
وتعدها في الطبع ، وتخفف من طغيانها على الغريزة ، وتمسك القلب أن يتبدد  
في جوه الخيالي »

## الفصل الرابع

### صورتة الخلقية والنفسية

لم تكن للرافعي صورة خلق تميزه عن الناس.. حتى ليشك الناظر الى وجهه - لأول وهلة - أن يكون وراء هذه السحنة والملامح مثل ذلك النبوغ الذي اشتهر به ، وتلك العبقرية التي خرق بها بعض النواميس ، وبين يدي خمس صور له مختلفات ، ربما كان لها في مراحل حياته بعض عطاء يوحى للم تأمل فيها نوعاً من المعاني الملهمة ، وكأن بينها اتساقاً يجري من خلاله نور زاهي الظلال.. وتلوح فيها جميعاً صفحة من بقايا آثار تلك الروح رفاقة ، كأنها تنجيء عن قافية ولدت فيها قصيدة عنراء.. فما استطاعت - ليتمها - أن تستكمل إشراقها.. وتظهر على كل صورة مسحة من كآبة كأنها تكبح شدة وطأة همّ دفين..!

ويطل عليّ وجه مصطفى صادق الرافعي - الحفيد ، نجل الدكتور محمد الرافعي - يد تلك الاشراقة بشعاع ضئيل لا يكاد يحس به أهلوه..!

« وجه ممسوح مستطيل أقرب ما يكون الى بياض أهل الشام منه الى

سمره المصريين» (١) أسيل الحدين ، أزهر ، في وجنته احمرار دائم ، لانجد بعضه في وجه حفيده ٠٠ ولكن شمس النيل قد منحته الرضاء في سمره لمياه تنطبع على شفتيه اللتين تفتقرُ بهما ابقسامته وقد استجيت أن تولد ، وخفرت في خشية خاشعة ، تتوسل بحجر الدعاء فهو يتمم لها بالمأثورات ، وكانما ينطق فيه قبل أن تغلت منه هذه الابتسامة الوديعه خارجة مع الأنواء .

كأن تعاقب الصحة عليه والمرض لم يفلح في إحالتها او تبديلها ،..  
وفوقها شاربان كثيفان ، اختلط الشيب والصبب فيها بشمطظاهر فلا تكاد تستبين أيها ٠٠! ولا سيما بعد أن تحتفتها الأيام من طرفيها فتصاغرا في تواضع وجمال ، بعد استعلاء وكبر .

وله عينان شهلاوان ، تشردان هما الأخيران في تفكير أمضيهما وسهاد أخذ منهما حتى جعلهما « كأنما ينظر بهما الى نفسه لا الى الناس » (٢) .  
وجهة تبدأ فوق الحاجبين غائرة قليلا ، لتنبسط مقوسة من ثم ، نازعة الى فروة الرأس في طلعة عالية لها رونق وبها بهاء ٠٠!  
وأنف طويل يستدق أعلاه ، وتبرز فيه عتبة صغيرة ، ولكنه يتدارك ذلك فيفتح من حول الأرنبه نوعاً ، ليصوره بالتناسق المثل .

وأذنان فيها كبر ، ولكنهما لا تؤديان عملا ، ولا تنقلان اليه معنى ، ولا يبعث الحس والحياة فيها قصف المدافع ، ٠٠ ومن ذلك كان قليل التلفت

(١) العريان - حياة الراقعي ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر - ولم يبق هذا اللون الأشهل في بنيه ولا حقدته ..  
وإنما تنازل عيونهم حور مصر ! ..

بمجلسه (١)، .. شرود النظرة أحياناً .

لقد بعث بإحدى صورهِ - وهو يعاني من وطأة الحب ما يعاني - الى رقيقة أدبه الآنسة ماري بني - ولم تكن قد تزوجت بعد، .. ولا تركت مجلتها « منيرفا » التي كانت تعتبر الرافي ابا راعياً لها، .. ورأت في تلك الصورة مسحة من تلك الكآبة، وكأنا شفقت عن أسي بين ضلوعه دفين، .. فلما قرأت تحتها البيتين القائلين هديةً ونداء :

أرسمي شخص الوفا ثم انظري من بعد رسمي  
لو يسمى في الأنام الحب ما اختار سوى اسمي  
أشفقت عليه من نفسه أن يبرح به الألم، ويمضه الوجد (٢) ..  
وبادرتهُ بالقول رسالة:

« .. تكلم .. وأطل، في شوق الى سماعك مهما أطلت، .. إن  
مقامك هو لك .. فلن ينازعك فيه منازع (٣) .

على أن الناظر في البيتين يجدهما يشيران اليه في نفسه، وكيف صور له  
الحب بأنه رسالة الانسانية وبقية روحيات النعيم الذي غادره آدم ..١

° \* °

(١) راجع العريان - حياة الرافي .

(٢) أنظر مجلة منيرفا ج ٤ - ٥ السنة الثانية - وكانت ماري بني قد طلبت  
اليه إهداءها صورة فاعتذر لها .. ثم عاد فأرسلها مشفوعة بالبيتين اللذين  
سارعت الى نشرهما .

(٣) من رسائلها المؤرخة في كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٤ م .

وقد كانت للرافعي قامة متناسبة ، بريئة من الفضول ، لا يشينها قصر ولا طول ، ولا ينقص منها سمن أو ترهل ، ولا تؤذيها نحافة ، وإنما هي فراعة رافعية ، تمتد في شموخ وتبدر في استطلاع (١) ..!

أما شبهه القريب فكان بأبيه الشيخ عبد الرزاق الرافعي - رح - كبير القضاة الشرعيين في محافظات القطر المصري حتى عام ١٩١٩م ، يوم فارق الدنيا ليلحق ببناء الرفيق الأعلى (٢) .

فإذا كان كذلك حقاً فإنما نعت صفته سمناً وقيافة يوم رثى ذلك الأب الجليل بمثل قوله :

« تروعك منه هيبة عمرية وحسبك من أمسى له عمر جدا (٣)  
فجاء كنصل السيف يهتز مصلتاً يد الله منه وحدها سنت الحدا  
كما اعتصرته أنفـس عربية رماحاً وأسيافاً وألسنة لدا (٤)  
ومن كان في التاريخ لحدود تجده من التاريخ قد ورد المهدا ..

(١) لعل الفراعة في القامة الرافعية من العلامات المميزة ، فأغلب من رأيت من أفراد الأسرة في الدبار الشامية أو مصر كان يلوح لي بها ! ..  
(٢) هكذا قالت السيدة أم الكامل - وهيبة الرافعي ، كبرى بناته وكذلك حدثني الدكتور محمود سامي الرافعي وهما من أدرك جدهما الشيخ في طفولتهما وصباهما .

(٣) أنظر الرافعي في النظرات ج ١ ص ١٠٣ - من فضل الله أسرتنا أن نسبنا يتصل بالإمام العادل عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ورضي الله عنا بهم . (٤) اللدد : الخصومة ، والمراد هنا بالألسنة اللد ، التي تغلب في خصومتها أبدأ لقوة بيانها وفصاحتها .

وفي الناس أبطال ترى الفرد منهم وحيداً ومن أخلاقه حشد الجندا (١)  
على أن من كان قد رآه من الأساندة الفضلاء والأدباء يكاد يصفه  
بالسمت الشامي ، والزهرة في اللون ويلاحظ شعره الأصهب حتي بعد أن وحط  
الشيخ فوديه .

كان الرافي حلو الملبس ، أنيق المظهر كلفاً بكل ما يتحدث به شكراً  
لنعماء الله . . . وقد حسر عن رأسه في شبابه سبقاً في الأخذ المدني ، . . . حتى فضل  
الطربوش (٢) أمام غزو القبعة ، حليق اللحية ، دقيق الحاجبين ، سابغها من غير  
قرن ، عريض المنكبين ، غليظ العنق نوعاً ما ، قوي الكف والساعد مفتول  
العضل مما يعالج من تمارينات الرياضة ، التي يكافح بها آثار المرض (٣) .  
وكان له صوت ، دقيق الأداء ، رفيع النبرات عال ، يحتبس أحياناً ، حلو  
النغم ، يكاد يشبه صراخ الأطفال له عدوية ، وفيه رقعة وتطريب ، . . . ونعمة  
الفرح والحزن عنده سواء (٤) .

ومع ذلك كله فلم يكن يحفل بمظهره هذا بالرغم من دلالاته عليه أثراً  
وموجدة ، وإنما كان يدعو الى التغافل في دراسة الشخصية ، وخفاياها .

(١) الرافي - أبي - المقتطف - أيلول - سبتمبر ١٩١٩ م .

(٢) الرافي - الطربوش والقبعة - الهلال - ١٩٢٩ م - وقد أدهشت

صورته بعض فضلاء الأدباء في الشام فكتب بذلك يسأل عن « الشيخ الرافي »  
الذي كان يحسبه أحد الأزهرين ! ..

(٣) نعمات أحمد فؤاد - دراسة في أدب الرافي ص ١٦ وما بعدها .

(٤) العريان - حياة الرافي ص ٢٣ .

وأول ما يتداعى في دراسة صورته النفسية ، تلك الحياة العاصفة التي عاشها ، والتي لم تكن تحلق به الى مصاف طموحه ، وإن لم تكن لتتهافت به أيضاً ، - وإن أفلقته بعض جوانبها ، واضطربت به كثير من أحداثها ، .. وهمت أن تضايقه بعض منغصاتها ، .. « وهو لا يرحم نفسه إلا اذا حملها على شيء (١) » .

لقد كان ثابتاً أمام زعازع تلك الحياة ، .. يقف به على قدميه أمام أهوالها وعواصفها إيمان عظيم ، ونزعة نفسية تتواجد صوفياً مع الألم ، .. وروح تصفو به حتى لتتصل بشيء من أسرار الحقيقة عند سبيل من السلوك عال ، .. واستعداد للتلقي فريداً ..

وقد استبطن ذاته يوماً فكتب في تحليل شخصية صديقه المزعوم الذي تلقى عنه رسائل الأحزان فقال : « .. يحسُّ منذ الصغر أنه رجل هرم ، أو كما يقول الفلاسفة في تحليل ذكاه الأذكيا ، أنهم يتذكرون ما يرونه ، ولا يتعلمونه ، لأن فيهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كلاً (٢) » .

وكانت حياته « ليلاً طويلاً انبسط على فن من الظلام كأنه موزق بالسحب والغمام السود ، لا ينقشع بعضها عن بعض ، .. حتى كأن صباحه كان يموت فيه أربعين سنة ، .. ثم انبعث آخرأ في وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء على وجهها .. » (٣)

(١) الرافي - الرسائل ص ٤٨ .

(٢) و (٣) الرافي - رسائل الأحزان ص ٢٣ .



ونكاد نلمح مثل هذه الصورة النفسية العاصفة في مثل قوله :  
 ومن تكن نفسه بجرأً ترجرجه أمواجه ، لم يزل يدوي ويلتطم  
 ومن يكن طامي البركان منفجراً فواره .. طاش منه الجر والحمل  
 وكأما نفسه ذاتها كانت تضيق بأعنائه لها : فهو يصرف هواها ، ويحاذر  
 أن يوليه ، ليدكرها بشأنه ، ويقف بها على مجلى من حقيقته في زهو وخيلاء ،  
 وعصامية عالية تسمو به الى طموح عمري مهيب :

يا نفس ويحك أرضي الجدمنك فتى ماضي العزيمة وثاب .. فمقتحم  
 لا تعرضي لي لذات الهوى أبداً ما للهوى في لساني «لا» ولا «نعم» (١)  
 ما لذتي أنا إلا أن أكون فتى كما يرفرف في أعلى الذرى علم  
 حتى إذا ما حاول الفخر - ولا عجب - عقد المقارنة بينه وبين خصمه  
 - الحقيقي أو الوهمي - في آية ليس منها أدب سواه :

أنا «المقيّد» في نفسي وفي خلقي كأنني قيد حُرّ قيده القسم  
 شان بين امرئ في نفسه حرم قدس ، وبين امرئ في نفسه صنم (٢)  
 فإن اعتداده بما أوتيه من قوة الإيمان ، وتوفره على أسبابه ليبدل  
 في تقريره طلب الحكم له من نفسه .

- (١) راجع الرافعي - لا ونعم - منيرفا ج ١٢ - آذار - مارس ١٩٢٥ م .  
 (٢) الرافعي - أنا ونفسي - المقتطف - يناير - كانون الثاني ١٩٢٧ م -  
 إبان معارك السفايفد مع العقاد ، وفي البيت مقارنة فيها غمز للعقاد الذي  
 « يعبد نفسه » ! ..

ولكن مهما اعتدُّ الرافعي بنفسه لم يبلغ الدرجة الحدية التي تطوَّح بصاحبها  
في ذهان خاص ! اسمعه يقول :

« .. أنا رجل ليس فيَّ أكثر مما فيَّ ! .. كالنجم يستحيل أن يكون  
فيه مستنقع !.. فما عرف من طبعي موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة الى تفاحة ،  
ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة الى بصلة » (١) وإنما اتصفت طبيعته  
بالانصاف مع الحق الذي لا يتهاون فيه حتى عاد « حاد المزاج حلو الصداقة ،  
مرّ العداوة ، يعتدُّ بنفسه ، ويصونها عن المهانة والابتذال ، . ورهن نفسه للدفاع  
عن العربية والدين (٢) في تواضع ومقدرة كما عبر عن ذلك الأمير شكيب أرسلان :  
لا غرو أن يرقى سخايب الذرى من كان من ذاك النجار تحمداً  
هي عترة أبقى أبو حفص لها مجداً ، يتيه على الزمان ومفجراً  
الرافعيون الأولى فرعوا العلى وتدبروا في كل فن عبقر (٣)  
ولعله كان يجد في نفسه ذلك الفضل الذي يسمو به ، ويفرده بين الناس :  
سما بك أصل طبق الأفق ذكره وسارت به الأمثال في الأرض تضرب  
وقوم هم الغرُّ الكواكب كلما تغيَّب منهم كوكب لاح كوكب  
وهم معشر الفاروق من كل أغلب نماء الى ليث العرينة أغلب (٤)

(١) الرافعي - صعايلك الصحافة - الرسالة ١٨٣ - .

(٢) بدوي طبانة - تاريخ الأدب العربي الحديث ص ٤٣ .

(٣) شكيب أرسلان - رثاء جاحظ العصر - الرافعي - الشباب -

٩ حزيران - يونيه ١٩٣٧ م . وانظر أيضاً الشيخ أحمد الشرباصي - منير الشرق

٣ مايو - أيار ١٩٥٥ م - والجزء الثاني من كتابه في الأمير شكيب أرسلان .

(٤) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٤٦ .

وليس هو أفضل فحسب ، وإنما هو فضل ، ناله كبراً عن كابر :  
 أنا الذي أرسل ذكر الهوى في الناس مثل المثل السائر  
 من معشر نالوا العلى كابرا تُعزى له العلياء عن كابر  
 حلّو ذرى المجد وما غيرهم يسمو الى النروة من فاخر (١)

« عاش غريباً ، ومات غريباً يرجمه الله » . .

هذه العبارة زفرة حرى لا تكاد تبلغ هدفاً عند الدارس ، وتكاد تسمعها  
 من معظم الذين عرفوا الرافعي من قريب أو بعيد ، . . وربما سمعتها من  
 خصومه ايضاً (٢) .

وقد نحاول السؤال عن وجه الغرابة عنده ، وهل هناك حلقة مفقودة بينه  
 وبين الناس ؟ . . تغرب به هذا الاغراب ، أو الاعتراب ، أو التغرب  
 أو ما في مادتها !؟ .

لقد حاول بعض المفسرين إرجاع الغرابة هذه الى عاهة الصمم الذي ابتلي  
 به في مطلع شبابه (٣) ولكننا نجد الرافعي نفسه يشير اليها من ناحية أخرى فيقول :  
 وحى الفضائل في زمان أهله - فيهم فضائل دينهم - غرباء (٤)

(١) الرافعي - الديوان ج ١ ص ١٠ .

(٢) أنظر العقاد - الديوان ج ٢ - ما هذا يا أبا عمرو - وكذلك محمد

خليفة التونسي - النقد عند العقاد هامش ص ١٩٣ .

(٣) شوقي ضيف - الشعر المعاصر ص ٢٢٥ - أخذ من طيب الذكر

الأستاذ صديق شيبوب - البصير ٤ - ٦ ١٩٣٧ .

(٤) الرافعي - الشعب - ٢٣ نيسان - ابريل ١٩٣١ م .

وربما كان يحاول التحليلية النفسية في مثل قوله :

.. لا يخذعك منا ظاهر حفل      بالابتسام وغلغل في خوافينا  
فإن عييت - بنا ، فانظر ضمائرنا      فما ضمائرنا إلا مرائنا (١)  
وقد يجيب عند كل سؤال يطرد في الموضوع على لسان اليتيمة بقوله :  
كأنني است إنساناً يشابههم      ولا أعد ولا بين « المرائنا » !!  
.. فيبين لنا أن الصراحة ، والحياة الواحدة ، التي ليس لها ظاهر  
يفرقها ، ولا باطن يخفيها هي التي جعلت منه « غريباً » . وتلك السيرة التي تطبع  
السلوك العام بنوازع الوجدان وقصد الضمير ، .. فلا مجال لازدواج الشخصية  
عنده ، أو لمجاملة فيها مراآة ، .. أو لانتهازية فيها دجل وزيف ونفاق ، أو تخاذل  
يظهر في لون ، ويختفي بأخر !.

ولما كان قد بدأ حياته شاعراً ، فقد خيّل إليه يوماً أنه بسبيله الى المثل  
الأعلى للإنسان حتى لم يعد « بحسب الشاعر إنساناً ، إلا إذا قال الحق ، وأودع  
نظمه الصدق ، .. ولو مات من الجوع » ! فالشاعر خلق حرّاً في أفكاره ، وليس  
في طاقته أن يقيد نفسه أو يذلها .

واعتبر أن « طباع الشعراء ثابتة لا تتغير ، ولا تقبل ، وأفكارهم شديدة  
الرسوخ لا تحيد ولا تتحول ، . فإذا خطر لهم شيء قالوه أو كتبوه .. ولو كان  
فيه قطع أعناقهم وإزهاق أرواحهم » . ويغرب أكثر حين يحسب في ذلك أن  
الشعراء « صنف من المخلوقات غريب الأطوار والمزاي ، قائم بذاته ، لا يحسب  
من الناس ولا من الملائكة ولا من الشياطين » ..

( ) الرافعي - المقتطف - حزيران - يونيو ١٩١٣ م .

ويمتد أبعد في هذه الصورة المثالية المتخيلة فيقول « .. وقد بحث بعض العلماء الطبيعيين في كيفية خلق الشاعر وتركيبه ، فوجد أنه مركَّب من خليط من الوهم ، والخيال ، والحقيقة ، ومن الذكاء والنباهة والجهل ، والعباوة والفقير والغنى ، والسعادة والشقاء وغير ذلك من الصفات » فالشاعر عنده « حائز على مزايا المخلوقات بأسرها ، قابض على ناحية الأخلاق كلها (١) » .

وكان يرى شعراء العرب وقد « ملأوا بقاع الأذهان حكمة ، وغرسوا في الأفكار فسيلة الخيال ، .. فإذا هي شجرة طيبة أصلها ثابت في الجنان ، وقرصها في اللسان ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها (٢) » .

فلا بدع أن يتسامى ، .. ويعرب في هذا التسامي ، .. ويحاول أن يضع على عاتق شعرائنا مهمة المسؤولية الفكرية والاعتقادية أمام حقيقة يضيء فيها الغرب ويظلم الشرق :

بني الشرق ، ليس الذي بيننا وبين رجال العلى من نسب ..  
لقد غابت الشمس عن أرضكم الى حيث لو شتم لم تغب .. (٣)

(١) شاعر صغير - الثريا ج ٨ - ١٩٠٤ م .

رجحنا أن الكلمة له لمشابهتها كلامه في الكليات ، واعتماده صياغة النظريات العندية بأسلوبه ، وقد لاحظ عليه المقتطف ذلك - في ديسمبر ١٩١٢ م - عند نقده لكتاب تاريخ العرب - وانظر فصل العرب والعروبة ص ٣١ .

(٢) الرافعي - الشعر العربي - المنار ١٥ - ٣ - غرة ربيع الآخر ١٣١٨ هـ

- تموز ١٩٠٠ م .

(٣) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٣٨ .

فهو ناثر من أول يوم ، يريد أن يلحق الأمة بركب الحضارة والحياة الجديدة ،  
في إرادة التغيير وقوة المشيئة ! . . .

« . . . فما لنا وللجزع اليماني ، وهذا اللؤلؤ والمرجان ، وما لنا ولحصباء  
العقيق ، وهذا العقيق والعقيان ؟ وما لنا ولماء الغدران ، وهذه سحب الغيم  
غاديات رائحات ، وأمام العين ما يذكر بالجنان ويعلم الانسان كيف يكون  
الشعر في الشعراء » .

ويعجب أن ينخدع بعض الشعراء بخلب ذلك البرق الذي لا يخرج  
بالفكر الى معنى جديد و « أمامهم الغور الذي لا يدرك والبحر الذي لا يخاض ،  
وفي بلادهم ما يأخذ بمعاهد البيان ، ويفنيهم عن جرعاء الحمى ( ١ ) » فهو يحمل نفسه  
رسالة الشعر الجديد من أول بادرة فيقول :

أداري بهند كلما أصف الهوى      وبي غيرها .. لكن تداري الهوى هند  
وأذكر نجداً . أين نجد وأهله      وفي مصر حسن ما رأى مثله نجد  
يسيل بروح النيل ريان كالندي      وفي شاطئه يبت الظرف والود  
فلا غرو أن يغدو « فتى عمره الهموم جميعاً »      وليس ذلك بمعجزة ولا خارفة .  
وإنما هو انبعث بالفضل يرسي المدنية على أسس من القيم الفضيلة :  
مضى زمن كانت به حاجة الورى      لبعث نبي في يديه الرسائل  
وذا زمن مسّت به حاجة الورى      ليعث في هذا التمدن فاضل ( ٢ )

( ١ ) الرافعي - الشعر العربي - المنار السابق .

( ٢ ) « - الأهرام - ص ٥ ، ٢٠ مارس - آذا ١٩٢٣ م .

ومن هنا كان قومي الايمان بجذواه ، عامر القلب بدينه ، مخلص الضمير في دعوته ، صادق النية مع عزمته وجهاده (١) كبير الثقة بنفسه وحمل رسالته (٢) .  
او كما يقول :

« أنا لا أعبأ بالمظاهر التي يأتي بها يوم ، وينسخها يوم آخر ، .. والقبلة التي اتجه اليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية (\*) في دينها وفضائلها ، .. فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ، ويزيد في حياتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، .. ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا (٣) » .  
« ثم أنه ليخيل إلي دائماً أنني رسول بعث للدفاع عن القرآن وافتحه

(١) العقاد - ساعات بين الكتب ص ٤٦ .

(٢) محمود ابراهيم - تاريخ الأدب العربي ص ٤٣ .

(٥) في قوله « النفس الشرقية » ملء للفراغ الذي قد يتركه مثل مصطلح النفس العربية أو الإسلامية و ( Orientism ) من المصطلحات الأوربية التي تجمع الشرق بحضاراته وروحانياته وطوايع فنونه واعتباراته أمام الغرب في ذلك بعامة في مقارنة وصرع .

وقد بقي هذا المصطلح في النصف الأول من القرن الرابع عشر الحالي عنواناً للوحدة الوطنية ، والتسامي فوق الطائفية والإقليمية ، حتى صدع بالترادفات شاعر العروبة الأستاذ محمود غنيم في وقفته على الطلل وقوله :

هي العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه  
فدل بالاقتنار على الشمول ، آتياً على القلق الذي يتركه انفراد أحد هذه اللفظات  
الثلاث ، وانظر الرسالة ٩٣ - وديوانه « صرخة في واد » .

(٣) يوسف حنا - فلسفة القصة عند الراجعي - الرسالة ١٩٣٤ م .

وبإبانه (١) « كما ألقى في روع يوسف حنا وهو ينقل عنه بعض رأيه في القصة والأدب .

.. ومن أجل ذلك الهدف الاعتقادي الرفيع صرف حياته لفن رسالته ، وسلك أخطر السبل غير مبال بصحة أو مرض ، ولا بحاجاته إنساناً ، يعيش في مثل هذا العصر العصيب .

\* \* \*

« .. على أن الجليس اليه ليشعر بما يشف عن القناعة والرضا ، .. ذلك أن الرافعي كان مثال الزهد ، يكتفي بما يحفظ كرامته ، ويرعى حرمة ، .. ولا أدل على قناعته من تواريه عن الأثرية ، واقتصاره على نفر من الأصدقاء الخالص ، الذين كانوا يدركون نفسيته ، ويدرك نفسياتهم (٢) ومع ذلك .. كان كثير المرح ، حلو الدعابة حاضر النكتة ، يميل الى الجندل والانشراح ، ويودع أحاديثه الكثير من الطرائف (٣) .

« وكان له في مجالس النساء إحساس عجيب ، وكان لمن عليه سلطان ، وله عليهن سحر وفتنة ، وهو في هذه المجالس فكه مداعب رائق النكتة ، لا تملك السيدة الرزان إلا أن تخرج عن وقارها » (٤) .

---

(١) أنظر الرافعي - الرسائل ص ١٩١ وكيف دهش أن تجري هذه العبارة على قلم حنا ، .. حتى علما إنباء من الغيب ! ..

(٢) الهلال - حزيران - يونيه ١٩٣٧ م .

(٣) أنظر الرافعي - كلمات عن حافظ - وحي القلم ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٤) العريان - حياة الرافعي ص ٩٨ .



وترجع السيدة زينب الرافعي كريمة ذلك السمو ، وتلك الغرابة والانفراد في أدبه الى كونه « سيد بيته » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .  
أو كما قال هو : إذا رأيت رجلاً موفقاً فيما يحاوله مسدد الخطى الى الهدف الذي يرمي اليه ، فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه » كما مر في الفصل السابق .

ولم يكن للرافعي باطن وظاهر ، أو ما يعبر عنه في نظريات علم النفس بالشخصية وازدواجها وأمراضها التي تبدع في الفن .. « فما كان له سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه » (١) بعد أن ملكت عليه الصراحة والرسالة حياته كلها ،.. حتى وإن حاول إخفاء اسمه الصريح أو كناهه أو نخل غيره آراءه ،.. فقد كان أسلوبه ينم عنه ، او يتحدث به هو لخاصته من غير ما سؤال ..

لقد استطال الى شاعرية الحسن في وقت كان الغزل فيه والشعر بعامه مما يزري بالعلماء ، وأبوه وأعمامه شيوخ الفقه وكبار القضاة الشرعيين :

ما عابني أن قيل ذو صبوة أو قيل مجنون بني عامر (٢)  
والحب أهدي لفؤاد الفتى من حاجة النفس الى الخاطر  
أوحى الي المعجزات التي .. ليس لها غيري من شاعر

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٥ وانظر أيضاً الزيات - الرسالة ٢٥٣ السنة الخامسة .

(٢) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٦٨ وقد خففت عامر فأصبح « عمر »  
وهنا تورية بعيدة تشير الى نسبه الكريم الذي يتصل بالإمام عمر بن الخطاب كما مر ، ص ٦٨ .

ولذلك يقرر في السحاب الأحمر بعد ربع قرن من ذلك التاريخ :

قلي يجب وإنما أخلاقه فيه ودينه

و كأنما يسوغ لنفسه انجاهه المبكر هذا .

وقد يبلغ به الادعاء العريض الذي نجده عند الامام عمر بن الفارض

- سلطان العاشقين - المتصوفة فيقول :

سلوني أنبئكم فلم يدر ما الهوى سواي - وهل في الناس مثلي من صب؟!

إذا شعراء الصيد - ادوا فاتني لشاعر هذا الحسن في العجم والعرب (١)

أو يقول :-

وأقل الغرام عندي أني بين قومي على الغرام دليل ..

• • •

ولكن الرافي من الناحية الأخرى يبدو إنساناً ، يضجر ويتألم ، ويتأفف ،

وقد يضيق بالحياة كلها و كأنما تنفرط منه هذه الزفرات مع حرصه الشديد أن

لا ييوح بها (٢) كذلك الأشياء التي كتب بها الى أحد أبناء عمومته ، وكان

قد استدرجه للكتابة حتى توفر له قدر منها وهم أن يطبعه فنهاه عن ذلك ،

وهده أن يبرأ منها إذا ما حاول نشرها .

فهو يقول مخاطباً طيور الرياض :

.. باتت تناعي لا تحاذر فاجعاً مما تكابد في الزمان الأنيك

(١) الرافي - الديوان ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) الرافي - الرسائل ص ٢٤ . وليت ذلك القريب نشر تلك

الأشياء !!

يا طير ما في العيش إلا حسرة إن خلتها تقصت قليلا تزدد  
 تأتي على الأحرار إلا ذلة ولو أنهم صعّدوا مدار الفرقد (١)  
 أو تظهر في شكاة ولوعة، تثير الاشفاق :  
 أنا يا دهر لم أسيء لك يوماً فلماذا أسأتني أنت دهرأ؟!  
 وقد بفرع الى الله سبحانه فيقول :

فيا رب حسبي ما مضى إنما الدنيا عذاب وهذي روح عبدك يا رب (٢)  
 ولكنه يستسلم - أحياناً - طواعية للقضاء والقدر في ما يسمونه

الحظ :

.. وأرى المخطوظ الفن كل مرّقه ونأت بجانبها عن البؤساء  
 سبحانه اللهم تعطي ذا الغنى .. وتقتّر الأرزاق للفقراء!؟ (٣)  
 ويقول فيوهم بالشك واختلال التوازن :  
 هيهات يفتشى الأرض ظل سعادة مادام من جهة السما التدبير (٤)

\* \* \*

ومن أخلاقه النفسية الفريدة أنه كان « عجبياً في إيمانه بالغيب ، وتناحي  
 الموتى والأحياء ، .. وكثيراً ما كان يسمع عنه محدثه مثل قوله « حدثتني نفسي ،  
 التي الي ، هتفت بي هاتف .. الخ (٥) .

(١) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٥١ .

(٢) « « ج ٢ ص ٩٣ .

(٣) « « ج ٣ ص ٣٠ .

(٤) « « ج ٣ ص ٣٩ .

(٥) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٣٢١ .

والتأمل في بعض أدبه يجد مسحة من الصوفية الرائعة ، . . . وعلى أن  
ثبت نسبه يشير الى مبدأ السلوك العام في أسرته ، واتصلهم بالطريقة الرفاعية (١)  
فإنه لم يتهياً له مثل ما تهياً لهم بحكم العصر أو حياة الوظيفة التي عاشها ، . . . فهو  
يقول :

« . . . وأما التصوف فقد اجمع أهله على أنه لا يمكن أن يفلح فيه من  
لا واسطة له ، . . . وأنا التجيء دائماً الى الاستمداد من رسول الله (ص) فإنه  
واسطة الجميع » .

ويتواضع فيقول أيضاً « ولا أدري إن كان في أسعداد للتلقي عن هذه  
الغاية البعيدة أم لا ؟! غير اني لها عدمت الواسطة (الشيخ) لم أر بدأ من الالتجاء  
الى حضرته صلى الله عليه وسلم (٢) قبلت او لم تقبل ، فإنه اصل كل فتوح ،  
ولا تطفل على مائدة الكريم . . . فكيف بكرمه عليه الصلاة والسلام » .

ومن ذلك توسلاته بصاحب الشفاعة العظمى في مطلع حياته :  
رعاك الله هل مثلي محب وقد امسى محمد لي حبيباً  
شفيعي يوم لا يجدي شفيع وطبي يوم لا اجد الطيبيا  
وغوثي حين يخذلني نصيري وغيثي إن غدا ربعي جديبا (٣)  
وهذه الصوفية العالية ، تترجم لنا في ذلك العهد من حياته صورة من

---

(١) بوبيل بلبل سوربة الشاعر المرحوم عبد الحميد الرفاعي ، وربما كان  
الإمام عبد القادر الرفاعي قد سلك على الخلوقي محمود .

(٢) الرفاعي - الرسائل ص ٥٢ .

(٣) الرفاعي الديوان ج ١ ص ١٨ .

الآلام النفسية الحادة ، التي كان يعانيها بسبب وطأة المرض ، الذي كان يطبق عليه :

.. متى تخضرُّ ايامي وتزهو ويصبح عود آمالي رطيباً!؟  
فقد ضاقت بي الدنيا وهبت فجائعها على قلبي هبوباً.. الخ  
.. وقد مضى في ذلك أشواطاً ، يدرس فيها جوانب من حياة الرسول عليه السلام ، ويطبع بها أفكاره ودعوته (١) .

وكان من أثر هذا الاستمداد والتلقي أن أهم ما أملى عليه من ثم « البلاغة النبوية » والصفحات المؤمنة التي حاول بها كتابة السيرة العطرة .  
ومما يلحق هذا الوجدان أيضاً ما ذكره العريان عن الصلة الروحية بين الرافعي - رح - والسيد أحمد البدوي - قدس سره - الولي المدفون بطنطا ، وقد اعتبرها كالعلاقة التي ترتفع عن الجدل ، .. فقال :

« كان الرافعي إذا أمَّ الحرم البدوي للصلاة ، اتخذ مجلسه تحت القبلة ، فلا يميلُ الجلوس ساعات ، يقرأ ويدعو ، وعيناه مسبلتان ، .. وإذا فرغ من دعائه رفع رأسه ومسح بيده على صدره » (٢) .

وأشار الى مدائح وتوسلات شعرية للرافعي في السيد البدوي ، .. وفت على واحدة منها كان قد أشار اليها الشيخ محمود أبو رية مرة في الرسالة (٣) .

(١) سنن فصل ذلك في مقدمة « الكتاب النبوي » الذي نعهده للنشر بإذن

الله ، وانظر الرسائل ص ٢٧٢ .

(٢) العريان - حياة الرافعي ص ٢٦ .

(٣) أبو رية - ١٥ مش رسائل الرافعي ص ٤٧ .

وهي القصيدة التي أحجم الرافي عن نشرها مخافة الفتنة التي خالها  
 الشيخ أبو رية تحدث بين المسلمين إن هي عرفت عنه ، . . . والتي يقول فيها :  
 لقد ضاق بي في محنتي كل ملجأ      وضقتُ فـلا النفس استقرت ولا القلب  
 مرضت فيممت الطيب وبعده      طيب وكل في صناعته ندب  
 فها أنا أمددني بسرِّك إتي      ضعيف مُعنى لم يزل دهره يكبو  
 رمته رزاياه بميدان عيشه      ومن حوله طارت بفرساتها الحرب

\* \*

وكان يؤمن بالأحلام والهواتف ، ويجدّ في طلب تأويلها ، وفلسفتها ، . . .  
 وحين لا يجد ما يوافق رأيه فيها يقول « متأكداً من صدق الأحلام - إن لم يكن  
 كلها فبعضها - وإن لم يظهر صدقها في الحال ، . . . ففي الاستقبال » (١) .

وقد حدث حين حضرت الوفاة والده الشيخ عبد الرزاق الرافي - أن  
 وقع لأخته في الجيزة أنها سمعت هاتماً يقول لها أن أبك مات !.. فكتب الى  
 المقتطف يلتمس التفسير العلمي لمثل هذه الظاهرة ويحترز من أن « بعض ما نقرأ  
 عنه من هذه الهواتف يرجع - إن صححت الرواية - الى خطأ في الحس ، أو خطأ  
 في الوهم ، أو المبالغة ، التي أشار إليها في تاريخ آداب العرب .. » ولكن ما تقولون  
 فيما نحن بصده وهو واقع لا ريب فيه » (٢) .

فلما أجاب المقتطف بما لا يشفي القليل ، عقب عليه بجواب ضمنه التفسير  
 الصواب - يقول في آخره :

(١) الرافي - الثريا ج ٢ آذار - مارس ١٩٠٣ م .

(٢) « - المقتطف - أنباء الهواتف - آب أغسطس ١٩١٩ م .

« إنما يقع مثل هذا الهاتف في النادرة ، والفلة لأمر من الله !  
« وما تنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما كان ربك نسياً » صدق  
الله العظيم ، .. وما تشير إليه هذه الآية الكريمة هو رأي هذا الضعيف (١) .  
٠٠ ثم عاود الموضوع يوم وقع لأخيه الأصغر في ٢٠ آذار - مارس  
١٩٢٠ م . وقد رأى أباه رحمه الله في ثياب من ثيابه التي كان يلبسها في حياته ،  
ولم ينكر منه شيئاً « (٢) ثم يطلب الرأي في هذه المكاشفة وكان يرى قصوراً  
في التفسير العلمي الحديث لمثل هذه الحالات  
٠٠ وهذه الى كثير من أمثالها لم يعن بشئويتها ، ولكن أهليه من أولاده  
وأصدقائه يروون عنه بعضاً مما تسعف به الذاكرة .  
ويظهر أنه رحمه الله - كان يفرق أحياناً في الايمان بالعرفاء ، والتميمة ،  
والحجاب ، .. وما اليها مما لا يزال شائعاً بين ظهرانينا ، ..  
ولما وقع له حب ( فلانة ) ونال منه الوجد بها لجأ الى مثل ذلك (٣) .  
وهو يؤمن بحسد العين وأصابتها « ولعل نظرات الناس قد أصابتنا بعد  
ظهور كتاب المعركة » (٤) .

ويطوِّح به الضعف الانساني الى ما يكاد فيه لا يحتفظ بتوازنه من الهواجس  
والأحاسيس في مثل اشارته : « قابل عبد الرحمن ( الرافي المؤرخ ) وقل له

(١) الرافي - حقيقة الهاتف - أيلول - سبتمبر ١٩١٩ م .

(٢) الرافي - المكاشفة - أيار - مايو ١٩٢٠ م .

(٣) راجع العريان - حياة الرافي ص ٣٢٣ .

(٤) الرافي - الرسائل ص ١٢٨ ، وانظر ص ٢٢٧ أيضاً .

إن (مي) قد أرسلت إليه تعزية ، وهو كلفني بنسخها . وإرسال صورتها إليه ، ..  
هذه التعزية لا بد فيها إشارة !! « (١) .

\* \*

هذه لمحات من صورته النفسية ، قد يضاف إليها ذلك الشعور الذي كان  
يخالج الرافعي بين الفينة والأخرى - وهو يكأتمه ولا يريد أن يبوح به - من  
أنه مغموط الحق ، غير معروف المكانة ، .. وقد استوى يومه في الغبن ٠٠ وأن  
مكانه ليس هذه الوظيفة التي تغله إليها صدر النهار ، .. وهو الانسان الذي تضيء  
له الجملة القرآنية (٢) ويخيل الى يوسف حنا « انه المختار لحراسة لغة القرآن »  
فيحسبها إنباء من الغيب ، ويعتقدها ٠٠ ثم يتساءل - في استفهام إنكاري - :  
أرسول وموظف حكومة !؟ (٣)

ويرى الرأي لا يصيبه علماء الاجتماع في أوربة ، .. ويحلل الآلة في الحضارة  
بما يأت به برجسون نفسه في هذا الشأن ثم لا يجد من الانصاف « شيئاً من  
البرجسة ولا رانحتها » (٤) .

ويؤلف في تاريخ آداب العرب - مصنفه الفخيم الذي أدهش صاحب  
المقتطف نفسه ، فلا يجد مكانه اللائق في الجامعة ، التي كانت تستعين بالمستشرقين  
وسوأهم من تلامذتهم الماسون ممن يتخطون علمياً في آثار الآداب العربية ٠٠!

(١) الرسائل ص ١٨٥ .

(٢) الرافعي - الزهراء ١٣٤٥ هـ ج ٤ - المعركة ص ٢٤ .

(٣) الرسائل ص ١٩٢ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ١٥٤ . وانظر مقدمة كتاب المساكين ١ .



لقد حاول الأستاذ عباس خضر أن يستخرج من رسائل الرافعي التي وجهها الى الشيخ محمود ابي رية نوعاً من الحكم عليه « بالاعتزاز الذي يبلغ درجة الغرور .. ومحبته السافرة للتقريظ والثناء » (١) .

كما حاولت نعمات أحمد فؤاد أن تدرس حالات المرض ، التي شكت منها رسائل الرافعي لتزعم من ثم أن أدب الرافعي مما يجب اطراحه من المكتبة العربية لأنه صادر عن إنسان عاش مريضاً غير معافي .. وهكذا تهافتت فكشفت بذلك عن نفس وراءها مريضة (٢) .

.. ولكن المتأمل لهذه الصورة النفسية ، التي تبدو أحياناً عاصفة مع الحياة التي تلتف من حولها في دوامة ، فيها من القلق والاضطراب ما يثير الطموح ، ويتهاوى مع التهافت .. وفيها من الضيق والحسد من الانطلاق ما يقف أمام السمو النبيل .. حتى التسامح والكبرياء والفضل كانت تكلف صاحبها ما لا يطبق ..!

يضاف الى ذلك انحراف دائم في صحته العامة ، وعوز مادي لا يستر حاله رفاً .. غير الصمم الذي يطبق عليه الدنيا ، فيتركه يستبطن أكثر مما

---

(١) العباس الأخضر - الأدب في أسبوع - الرسالة ٩١٩ - ١٢ فبراير - شباط ١٩٥١ م . وانظر أيضاً كلام طه حسين في « أضواء على حياة الأباء » لأنور الجندي ص ١٢٧ .

(٢) نقل الينا أن العقاد - عفا الله عنه - كان وراء هذه المحاولة في دراسة (أدب الرافعي) بعد موقف خاص له مع أحمد تلامذة الرافعي - على ان « المؤلف » قد أعادت طبع المحاولة غداة وفاة العقاد ... مسترة على موضوعها ..!

يتلقى الأصدقاء، .. فيثب به الخيال الجامح، .. والتطلع الفريد ..  
كل أولئك وسواه جعل من الرافي صورة نفسية متواجدة، تصفو  
أحياناً حتى تنصل بالحقيقة، وتلهم، وتتلقى عن الغيب في سبيل متصوف  
عال (١).

وقد تنفرط به أحياناً حتى تضيق عليه أعز الأصدقاء وأقرب الأحبة (٢).  
وقد تشكك فيه حيناً بمرارة من لوعة العتاب (٣) فتضطر الى الحكم عليه  
بأنه « لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم بما تفرض عليه الجماعة من تقاليد، ويتخذ أسلوب  
الناس فيما يليق وما لا يليق فهو لا يعتبر إلا رأيه او حاجته او مصلحته » (٤).  
ولكننا من ناحية أخرى نجد المرحوم اسماعيل مظهر يفسر ذلك بقوله:  
« كنت أشعر بأني الى جانب الرافي في رحابة صديق خالص الود،  
ذكي القلب، نقي السريرة بعيد عن أن يستغل الصداقة إلا للصداقة، فإن غضب  
وإن عتب وحتى إن قطع .. فللصداقة » (٥).

ولا تكاد تصفو هذه الصورة النفسية في تساميتها، حتى تكاد تنفرد فتلوذ  
بالخوارق، وتلتمس الكرامات كما مر.

- 
- (١) العريان — حياة الرافي ص ٢٣١، ٢٧٤.
  - (٢) المرجع السابق - الهامش ص ١٥، أبو رية - رسائل الرافي ص ٢٧٩.
  - (٣) عن ماري بني - من رسالتها المؤرخة في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٩ م.
  - (٤) سعيد العريان — حياة الرافي ص ٢٧٥.
  - (٥) اسماعيل مظهر — ارتحال الصديق — المقتطف ٩١ - تموز — يولية  
عام ١٩٣٧ م.

على أن أستاذنا العادل الغضبان لا يرضى مثل ذلك الحكم على الرافعي  
 « ذي الروح السامية في كل ما تصدّر له من فنون الشعر والأدب ..  
 فهو شاعر الحسن ، وأديب التسامي في الحب ، ودليل الصبابة الى الجمال ،  
 وراعي المساكين وداعية الاحسان الاجتماعي ، للحد من غلواء الفقر ، وصاحب  
 الاعجاز ، ونشيد القومية ، وغرّيد الشرق ، وكاتب الوحي ٠٠١  
 وقد يكون لعاهته - الصمم - السبب في انفراديته ، ومن ثم الانطوائية - التقريبية -  
 التي ابتعدت به عن غشيان المجالس مما يجعل حيثيات ذلك الحكم عليه قاصرة .  
 وإن كان أحد من تلامذته ( ١١ ) قد آثر مثل الحكم عليه ، وقد يزيد  
 من ( عنده ) فيتهمه بالأناية ، او ما يقرب من ذلك ( ١ ) ، أو يذهب الى أن  
 « السخط » كان ظاهراً عليه بحيث يستهلك أعصابه ويطلق على بعض فنون  
 أدبه ، ولا سيما النقد بصورتيه الفنية والاجتماعية ( ٢ ) .

وتفسر لنا قصيدته « أنا ونفسي » ذلك كله أصدق تفسير ، .. وقوله فيها :  
 أعنت نفسي حتى مضها السأم وكدها عمر في الجسد ينصرم  
 قالت تحاورني : ياربح قلبك من قلب بني ما بناه وهو ينهدم  
 مقيّد في وناق من خلانقه فما له لذة إلا لها ألم ٠٠١  
 يناشد الملائع الأعلى وفيه الى الـ أدنى مجازبة ما دام فيه دم ( ٣ )

( ١ ) أنكر في هذا الصدد الأستاذ الجليل محمود محمد شاكر - رعاه الله - وقد

كان للرافعي عليه يد .. وانتظر دراستنا في « عيال الرافعي » !

( ٢ ) العريان - حديث خاص .

( ٣ ) أنظر المقتطف كانون للذاني - يناير ١٩٢٧ م .

وهذه حياة لا تستدعي مثل ذلك الأغرَاب في التأويل والتفسير والتعليل ،  
إنما هي حالة من يلتزم بقيم عليا، ومثل ، يسير بها الى الهدف الذي يرنو اليه في  
الحياة على هدى من الايمان بشرعه له منهاجاً ، ووحى من الفطرة ، يسلك به  
سجية وطبعاً .

ومثل هذا الالتزام قد ينقلب شذوذاً في بعض الأحيان إذا ما تجاوز  
في حديثه ، او عند قصور التفسير في تمييز خصائص الاستقلال في الشخصية  
والانفراد بالرأي الذي يباعد بين صاحبه وبين جماعات الناس !  
ولا بدع أن يخرج هذا الالتزام - في حالة عدم الوضوح - سخطاً على  
التممين العام ، .. وربما دفع بصاحبه الى مهاوٍ أقلها الورطة والانزلاق (٢) .

\* \* \*

وهناك خصيصة في الرافي أشار اليها غير واحد ممن تصدى له في دراسة  
أو نحوها، هي مبلغ اعتداده بنفسه ، واستطالته على الأنواء والأحكام النقدية ..  
ويوردون في ذلك الاشارة الى مقالته في الثريا ، التي وضع نفسه فيها آخر الطبقة  
الأولى من الشعراء ، .. وكذلك يشيرون الى موقفه من الجامعة ، .. ثم يتهميون  
ويشككون أمام معاركه الأدبية التي طارت أخبارها في الآفاق منذ وقف للماسون  
ودعوتهم الى العامية على لسان اسطونهم الكبير لطفي السيد (الذي اسمه أحمد)  
(١) سعيد العريان - حياة الرافي ص ١٧٧ ، وانظر أيضاً عباس محمود  
العقاد - ما هذا يا أبا عمرو في الجزء الثاني من (الدبوان) .

يناصبهم العدا ،.. ثم موافقه من واردات أوربة ،.. ودفاعه عن التراث العربي ،  
والقيم القومية في الأدب والدين والعلم والحياة (١) .

ولكننا لو تأملنا قليلا مع طيب الذكر الأستاذ فرح انطون صاحب مجلة  
الجامعة التي صدرت في الاسكندرية والمهجر أكثر من ربع قرن ، وقوله في  
قصيدة الرافعي « اللغة العربية والشرق » :

« يحق للقاريء أن يقول معنا بعد تلاوة هذه القصيدة الغراء : هذا هو  
الشعر العربي المبين ! وكل من يعرف شباب الناظم لا يشك أنه سيكون له في هذا  
الفن أرفع مقام » (٢) وهو في أول حياته الأدبية ، لأدركنا الكثير مما يجب على  
الدارس أن يقف عنده ٠٠١

ثم إن الرافعي نفسه كان السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها  
في الجامعة ، وما كان من وضع مؤلفات في فنونها من ثم (٣) .

ولما علم أنهم سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه قال باعتداد وتحذّر :  
« .. فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون اليه بالتدريس !؟ » (٤) .

فهو يجد في نفسه الكفاءة والمقدرة ، ولكن لا سبيل الى المكانة التي يتطلع

---

(١) راجع في ذلك - المعارك الأدبية لأنور الجندي ، ومادة الرافعي في

موسوعته الكبرى ! وكذلك بدوي طبانة في « أسس النقد الحديث » وغيرها .

(٢) فرح أنطون - الجامعة ج ٦ ، ٧ - أيلول - سبتمبر ١٩٠٣ م .

(٣) الرافعي - المعركة ص ٦٩ - وانظر الدسوقي - في الأدب الحديث ،

الجزء الثاني - التأليف .

(٤) الرافعي - المعركة ص ٧٩ .

إليها ٠٠١ وأمامه الماسون من أعضاء حزب الأمة الانفصاليين وأساتذة الجامعة  
الاقطاعيين ٠٠١

ويضع في الجديد خماسيته الانشائية الرائعة ، يتحدث فيها الى القمر ،  
ويدرس أحوال المساكين وأخطاء الناس ، ٠٠ ويهدي أوراق الورد . ولا يجد  
لها ذلك الصدى الذي يرن في أروبة وسواها بتفاهات !..

ويقف بنفسه وحيداً في معارك رهيبية ، فكرية وعلمية وأدبية ، لا يستطيع  
منازلته فيها أديب ولا قليل أدب (١) لقوة حجته ووفرة علمه ، وفصاحته .  
ويكتب صفحات من البيان العربي ، لم يتهياً لآداب اللغة في صدر أيامها ،  
وعنفوان صورتها البلاغية ، .. فلا يجد غير الجحود والكفران !.. وضيق العيش ،  
وهو إنسان قبل أن يلتزم بمثالية ، او يتسامى بقيم رفيعة !.. فكيف لا تتحول  
بعض أخلاقه في ساعات ؟ وكيف لا يضيق ويضجر في أحيان !؟ وكيف لا يسخط  
ويبلغ في النفور !؟..

ومع ذلك كله فلم يكن يتولد عنده نوع من الخور في العزيمة ، يكفه  
عن المضي في سبيله التي ارتضاها لنفسه مؤمناً بأهدافه ، ٠٠ راعياً للمباديء العليا  
التي وثق بها ، .. حسب من خصومه وناقديه أن يؤمنوا بصحة ما يأخذون ،  
لا زيف ما يترجمون ، ولا انتحال أساليب ما يكتبون به ولا إخفاء الدوافع  
التي تملي عليهم (٢) .

---

(١) أنظر طه حسين - حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٤٤ - لترى مبلغ  
الأدب والنقد والحجة في ذلك العهد (الجديد) !!

(٢) اسماعيل مظهر - المقتطف تموز - يوليو ١٩٣٧ م ، وصدیق شيدوب  
- البصير | ٣١/٥/١٩٣٧ م .

وهذا وحده كان يسمو به على سائر أدبائه العصر ، بروح عالية وأدب  
جم ، ومثالية قلما ظفر بها من تصدوا له في منازلة او مدارسة ا .  
ومن اجل ذلك فقد ثقف نفسه بما وصلت اليه يده من نتاج العصر ،  
ومطبوع التراث موضوعاً ومرجعاً ، دل به على حسن التناول وحلو  
الاستيعاب .. حتى ليكاد يقرأ كل شيء ، ولا يفوته بعض ما يكتب او ينشر  
من العلوم والمعارف (١) :

- واضيء حياتك بالمعارف إنما هي في ظلام العمر كالنبراس  
واجعل اساس العمر حب الله إذ لا خير في حب بلا اساس (٢)  
وعلى هذا الأساس جعل طموحه ، فاتخذ الحكمة وسيلة الى غايته ، والاعداد  
سبيله الى الهدف والتربية قوامه في الحياة ، الذي يحفظ له قيمه ويمكنه من السداد .  
فهو حيناً كان يبصر بالسر في ضياع البلاد وأهلها :  
إنما ضييع البلاد واهليها قديماً نساؤنا الضعفاء (٣)  
ويرى أن تربية المرأة ، وإعداد الأم ، المنطلق الذي يبدأ الحياة  
في الشرق العربي :

ربوا لذ الشرق يا قومي ممرضة تحنو عليه يا حساس ووجدان  
ربوا له الأم يا قومي - فلو وجدت في الشرق .. ما طاح في ذل وإهوان (٤)

(١) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها ،  
وكذلك مذكراته في مناهج البحث الأدبي .

(٢) و (٣) الرافعي - الديوان ج ١ ص ١٨ ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٤) الشرق المريض - المقتطف - كانون الأول - ديسمبر ١٩١٣ م ، حديث

القمر ص ١٢١ .

وهو لا ينظر الى الاجتماع بعين الشاعر الذي يكتبني باللمحة المصورة  
فحسب، .. لا ، بل يتأمل جوانب ذلك الاجتماع ببصيرة نفاذة ، وعقل متدبر  
حكيم لا يحار في تناقص صور الحياة :

حنانك يارباه ٠٠١ كم بات سيد يمدُّ يديه يسأل الناس مطعماً  
وكم من اشم الأنف ارغم انفه وما كان يوماً يطرق الرأس مرغماً  
إذا هم بالتسأل امسك بعدها حياءً ، فلم يفتح بمسألة فما! (١)  
ويكاد ينغلق في استفهام استنكاري لانجده عند دعاة الاشتراكية انفسهم :  
أليس من التغاين - وهو ظلم - جزاء السعي يكتب للقعود!! (٢)  
ويتساهل كأنه يرى خلل الرماد :

.. فهل أرى رجلاً فينا او امرأة بعد الخود وطول الذل يتقد؟ (٣)  
وينظر بعيداً في سخرية لاذعة :

وقد أراني في قوم اولي كسل كأنما انتفضوا من تحت ارماس (٤)

ويتعالى على المفهوم العامي او ما يسمى شعارات « الجماهير » :

.. ومما يزيد الهمم لهنأ وحسرة تصابح فتیان لنا ان تقدموا ..  
يريدون ان يجري الى مرتقى العلى رجالٌ ضعاف ان جروا يتحطموا (٥)  
فكأنه يريد وسائل القوة التي تضمن ثبات التقدم الحضاري :

---

(١) الرافي - حريق ميت خمر - الديوان ج ١ ص ٦٥ .

(٢) و (٣) « - الديوان ج ٢ ص ٢٠ ، ج ٢ ص ٤٥ .

(٤) و (٥) « - « ج ١ ص ١٣١ ، ج ٣ ص ٩٦ .



يا قوم ما نفع الضعيف شكاته كلا ولا شفع البكاء ابك  
كذلك الضعيف مع القوي طبيعة إلا اذا ساواه في الادراك (١)

\* \* \*

ويقول في السياسة وضلالاتها:

من شر ما عاب السياسة أنها وجدت، ومن يرضونها لم يوجدوا  
الناس ما طلبوا الضلال وإنما ضلوا لأن هدايتهم لم يهتدوا (٢)  
ويخاطب الملك فؤاد بمثل قوله:

لن يشبع الجوع من علم ومن حمج إن البراهين عند الجوع رضان ..  
ري الشعوب كرى الارض أخضله صوبان بأثنيهما الريان ريان  
ولو رأيت شعوب الارض يحكمها خيارها .. ما طغى في الارض طغيان (٣)  
وقد رأينا كيف انه لم يكن يحفل بالزمان الذي غدا فيه غريباً في التاريخ:  
زمن غرب الكرام فأمسوا كنيين ما لهم من دعاة (٤)  
ومن يتأمل في مثل قوله:

إذا ما دعاك الحق للظلم مرة وقد كنت ذا حلم فلانك ذا حلم  
فإن من الاشفاق - إن زاعت النهى عن الحق - ميل المشفقين الى الظلم (٥)

(١) الرافعي - الديوان ج ٣ ص ٢٠ .

(٢) « - وياسون - المقتطف شباط - فبراير ١٩١٩ م .

(٣) « - الأخبار - مايو ١٩٢٧ م .

(٤) « « شباط - فبراير ١٩٢٧ م .

(٥) « الديوان - ج ١ ص ٢١ .

لا يشك أن الرافي كان من دعاة « الموضع » في إرادة التغيير ، وتطویر  
الاجتماع وربما كان مؤمناً أيضاً بنظرية المستبد العادل !..

ومما يضاف هنا موقفه من محاولة « الوفد » جره الى الكتابة في صحيفته  
يوميًا بعد عام المعاهدة ١٩٣٦ م ، وخروج العقاد على خلفاء سعد .. وكيف دفعه  
إياؤه الى رفض مئة وعشرين ديناراً - جنياً - شهرياً على قبول مثل هذا العرض  
الزائل !..

ولكن هذا الرفض أيضاً دفع وزير المال - الى الانتقام منه بعد وفاته (١)  
بجحافة تدل على حقيقة « الروح السياسية » الشريرة التي كانت آنذاك ، والتي  
طوّحت بها أنانية مكرم عبيد الى حرمان ابنائه حقهم في مرتب ابيهم ذلك  
المرتب الذي تأخر في الوظيفة عن المعاش (التقاعد) من اجله لهم .. فلم يحصلوا  
عليه حتى اليوم ..

فأين بضعة عشر عاماً من الثورة في الإنصاف؟! ورد الحقوق  
والاعتبارات!؟

---

(١) سعيد العريان - الرسالة ٢٥٣ السنة الخامسة . نخل عنك يا وزير  
المالية .. فالله أكرم .

# القول القائل

## ثقافة الرافعي وروافدها

إن حظ الرافعي من الدراسة النظامية لم يكن يتعدى الكتاب والمدرسة الابتدائية، التي ظفر بشهادتها وعمره بضعة عشر عاماً (١) كما قدمنا . . . وفي السنة التي نال بها هذه الشهادة بتفوق، أصابه مرض مشف، أثبتته في فراشة أشهراً، فأنجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً (٢) بقيت منه صحته العامة إلى آخر أيامه غير منتظمة، فلا يكاد يرى العافية بضعة أشهر من السنة يعاود فيها نشاطه، حتى ينتكس بمرض آخر! (٣).

ولم يكن هم المرض قاصراً على ما يسمعه، بل مس من جسمه أكثر من موضع، فعاش حياته كلها معتلاً، ليس بالسليم المعافي (٤).

(١) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - المقتطف ٩١ - ص ٥٢٩ - ١٩٣٧ م .

(٢) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي - ص ٢٩ .

(٣) أنظر الرافعي - في الرسائل التي أخرجها محمود أبو رية .

(٤) نعمات أحمد فؤاد - دراسة في أدب الرافعي ص ١٦ .

وكانت علة الصمم التي أصابت أذنيه ، فتركتها لا يؤديان عمالاً ولا  
بنفلان معنى (١) هي التي قطعت عن التعليم في المدارس ، لينقطع بعصامية وطموح  
لمدرسته الخاصة التي أنشأها لنفسه . .

على أن نبوغه في العربية وعلومها أدهش مدرسيه وزملاءه في الابتدائية ،  
ولا سيما حين هم أن يضع شواهد للنحو من نظمه . . (٢) .

. . وذلك لتوفره على الدراسة ليل نهار ، وملازمته لأبيه ، يصحبه ويأخذ  
عنه علوم البلاغة ، والتفسير والحديث والمأثور في تلك المدرسة التقليدية الرافعية  
التي لا ينشأ الناشيء منهم حتى يتناولوه فيها بألوان التهذيب والثقافة التي تطبعه  
بطابع الأسرة وقيمها العمرية .

« وكان لهذه التربية في بيت أبيه مكتبة حافلة ، تمدها بأشتات من  
نوادير كتب الفقه ، والعربية ، فأكب عليها حتى استوعبها وراح يطلب المزيد » (٣) .  
وكانت علته من هذه الناحية خيراً عليه وبركة ، فسرعان ما غدت هذه  
المكتبة جامعته . . « يقيم الكتب نفسها مقام العرب والرواة الذين كانوا أصل  
دولة البلاغة (٤) وعلماؤها رواة ، وأدباؤها سماره ، يأخذ عنها العلم كما كان

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٢١ .

(٢) « ص ٢٨ عن أستاذه المزحوم مهدي خليل ، وانظر ص ١٠٠ - ١٠١

صبري - شعراء العصر ٢٣١ ، سعيد ميخائيل - آداب العصر ص ٢٩٣ .

(٣) العريان - حياة الرافعي ص ٣٠ .

(٤) الرافعي - الهلال - مستقبل اللغة العربية - الهلال - شباط ( فبراير )

سنة ١٩٢٠ - ص ٤٠٠ .

يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة فما لعم « (١) .. فنشأ بذلك نشأة السلف يرى رأبهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم وتراءى له أحلامهم ومناهم .

وقد ظل على هذا الدأب من القراءة والاطلاع الى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة ، لا يمل ولا ينشد الوحدة لجسده ، وأعصابه ، كأنه من التعليم في أوله ، (٢) متوسعاً في المحفوظ ، ومثبناً من النقل ، وبالغاً الغاية في الأخذ والاستيعاب (٣) .

وهكذا عرف العلم سبيله الى رأس هذا الفتى الضاوي الجسد ، الذي هيأته القدرة بأسبابها ، والعجز بوسائله ، فساعده على اتساع خياله ، ودقة تفكيره وإرهاق حسه ، منذ أن ضربت على أذنيه بذلك الستار حائلة بينه وبين شبابه .

ولكنها مكنته من أن يعيش منطوياً على نفسه لا تزعبه أصوات هذا العالم الذي يكاد يختبل من ضجيجيه وصخبه .

« وهو يذكرنا من هذه الناحية - ومن ناحية سلامة اللغة بالكاتب الفرنسي الكبير شارل موراس زعيم الحزب الملكي ، ومدير صحيفة ( الاكسيون فرانسيز ) .. فإنه مثل الرافي ، أنزل الله على أذنيه صمماً جعله يعيش في نفسه

(١) العربيان - حياة الرافي ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الرافي - تاريخ آداب العرب ص ٧٣ ، الرواية والرواة

المقتطف - أيار - مايو ١٩٠٥ م .

حياة كلها رؤى وأفكار» (١) .

وكانت أول امتحانات هذه الجامعة ، في ذلك الالم الواسع الذي تدلنا عليه مقالاته الأولى ، وهو لم يتعد العشرين من عمره .

ففي رسالته المؤرخة في ١٨ محرم ١٣١٨ هـ - التي أشار فيها الى تأسيس « جمعية السنة الاسلامية » لتكون من شعاع « شمس الاسلام » (٢) يظهر لنا أثر دراساته تلك واضحا ، بما لم يكن يتهيأ لخريجي الدراسات العليا في أيامنا هذه ، من البصيرة والرأي ، والاستشهاد ، والأخذ والتضمين لمذاهب القول ، وفنون الحكمة ، وريق الشعر ، وعذب الحديث ، واعجاز الآي الكريم .

كل أولئك يجري بأسلوب الداعية المتفائل ، والبشير الغنيم .

وما يلبث في تلك الأيام نفسها - وقد بدأ قرض الشعر ، وراح يطاول الشعراء ، حتى راح يعقد « للشعر العربي » (٣) محاضرة ، يتنقل فيها من التاريخ

---

(١) صديق شيبوب - البصير في ١٩٣٧/٦/٤ - وقد حدثني شيبوب نفسه والشيخ أبو رية أن الرافي (رح) كان يسأل من يعرف الفرنسية لينقل له بعض ما يكتبه موراس ! .

(٢) الرافي - المنار - الأحد ٢١ محرم ١٣١٨ هـ - مايو (أيار) ١٩٠٠ م ص ١٩٠ ، وفي تلفظه بالتسمية اعتراض ضمنى على اسم جمعية شمس الاسلام ، التي اضطلع بها السيد محمد رشيد رضا (رح) ، لاختلاط الشمس بالشعارات الوثنية (شمس المجوس) .

(٣) الرافي - الشعر العربي - المنار - غرة ربيع الأول ١٣١٨ هـ - تموز سنة ١٩٠٠ م - ص ٣٦٤ .

وملحه وطرائفه ، الى النقد وأساليبه ونماذجه ، فيأتي على صفات الشاعر ، وثياب أداته ، ومواد فنه ، وآيات انفراده ، وفيض قريحته ، فيقرر حالاً ويقارن بأخرى . ثم يعرج على الآراء يلاحقها ، فيقطع شوطاً مع الخليل ، وآخر مع ابن رشيق ، وثالثاً مع ابن أبي الاصبع العدواني ، ويستتطرده نماذج للشعر والشعراء من الملك التضييل الى الخطيئة .. والى جرير ، وابن المعتز ويحيى بن هذيل ، وأبي العتاهية ، حتى يصل الى زجل الشيخ علاء الدين بن مقاتل الجوي .. كل ذلك وكثير غيره يهيئه في مقال واحد ، ينقض به على « شعرائنا اليوم » وهم بين من لا يخرج بمعنى جديد كالأخرس ، وبين من يتعصب للغرب من أبناء الشرق ، و « هم بمعزل عما يقوله الشعرون » .. حتى يرى الرأي ..

وقد أخذ عليه « المنار » الغلو في قدح القديم ومدح الجديد .. ثم اتفق معه على « أن حالة العصر تقتضي أن تكون « الأدبيات » موافقة للشؤون الاجتماعية ، التي تجذب وجدان الأمة الى الفضائل التي ترتقي بها » (١) .

\* \* \*

أما أولى شهاداته فكانت في مقدمة ديوانه الأول ، والتي نشرتها المؤيد في صدر صفحتها وفتنت الشيخ ابراهيم اليازجي ، وناهيك به افراداً بالنقد والبلاغة في ذلك العصر ، حتى قضى ثلاثة أسابيع يبحث فيما عنده من المظان لعله يعثر بها مسروقة من بعض الكتب (٢) .

(١) المنار السابق . (٢) الرافعي - الرسائل ٢٣٠ ، وسعيد العريان - حياة الرافعي ٤٨ ، وكلاهما عن طيب الذكر جورج ابراهيم الشاعر .

والشهادة الثانية كانت في نقده لشعر البارودي (١) ومحاولته البحث في « الرواية والرواة » في ذلك الفصل الكبير الذي عقده للمقتطف (٢) والذي أضحى من ثم بعض مادة كتابه الخالد في تاريخ آداب العرب .  
يضاف إليهما المقدمتان الأخريان لجزئي الديوان الباقيين .  
وعلى أن الرافي ، قد جعل للصياغة الشعرية ، والصورة البيانية في هذه المقدمات تحقيقاته ، إلا أنه دل بها على ما كان له من واسع الاطلاع ، ووافر الأخذ والمعرفة .

« وبقي الرافي في مدرسته الجامعة هذه التي أنشأها لنفسه ، يدرس ، ويطالع ، لا يرى أن انتهى من العلم الى غاية ، ليتزود للشعر زاده ، وليبلغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشيء » (٣) .  
ومضت سنتان على إنشاء الجامعة الأهلية في عام ١٩٠٧ ، أخرج خلالها الجزء الأول من ديوان النظرات ، ومقدمته في نوع من نقد الشعر ، دلت كسابقاتها على علمه وفضله ، ولم يجد فيما استحدثت في الجامعة من دراسات في الأدب ما يفتقر اليه ، وما يتحدث أسانذتها حديثاً لا يعرفه الرافي (٤) .

حتى أقدم على الكتابة في « الجريدة » ورئيس تحريرها يومئذ أحمد لطفي السيد ، الميمن على الجامعة ، .. حاملاً على الجامعة وأسانذتها ، ناعياً عليهم مناهج الأدب فيها ، حتى رن مقاله رنينه وأحدث أثره ، وكان السبب في التأليف

- 
- (١) الرافي - شعر البارودي - المقتطف - مارس ( آذار ) ١٩٠٥ م .  
(٢) الرافي - الرواية والرواة - المقتطف - مايو ( أيار ) ١٩٠٥ م .  
(٣) و (٤) محمد سعيد العريان - حياة الرافي ص ٦٥ .



في تاريخ الأدب العربي (١) .

و حين أقدم على التأليف في « تاريخ آداب العرب » سنة ١٩٠٩م ، فكأنما تقدم لنيل شهادة (العالية) - الدكتوراه - من جامعته هو!.. أمام «الجامعة الأهلية» مستكلاً سره من أبيه ، ومذكراً ببراهينه في جداله بعض العلماء (٢) .

وقد أدهش العلماء تأليفه - ولم يكن قد تعدى الثلاثين من عمره ، على وضع وسائل البحث آنذاك ، وتنكبه مناهج المستشرقين ، واقتراعه منهاجاً ينفرد به - ويصونه (٣) حتى عجب القوم « أين ومتى اجتمع له هذا القدر من المعارف في شئون العرب والعربية ، فألف بينها في كتاب » (٤) .

وهكذا .. حتى غدا إماماً في الأدب ، وحجة في الشعر العربي ، وأوسع أهل العربية اطلاعاً وعلماً (٥) .

وحسبنا أن نوجز القول فيما أشار به على طلابه ، وما أفاضت به رسائله من السلوك في الدراسات والاطلاع ، والأخذ ومناهجه العلمية في ذلك ، لنذكر أي مدى قطع الرافعي في اشواطه العلمية والثقافية ، بما جعله بحق يأخذ على عاتقه

(١) الرافعي - تحت راية القرآن - ص ١٦ - الرسائل ص ٣٩ ،  
والعربان - حياة الرافعي ص ٦٧ .

(٢) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي - ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث .

(٤) العريان - مقدمة الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب للرافعي .

(٥) زكي محمد مجاهد - الأعلام الشرقية - ج ٤ - ص ٤٣ ، وشكيب

أرسلان بمقدمة رسائل الرافعي .

مهمة الارتفاع بالمستوى البياني للأسلوب العربي ، ليقف به أمام العصر بمجدارة واستعداد . . .

ففي الرسالة الأولى المؤرخة في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ م ، التي وجهها الى الشيخ أبي رية ولم يكن بينهما سابق معرفة « . . . يشق على أن أدلك على غرضك من كتب النحو ، لأنني لست على بينة من قوتك في فهم كتب القوم والبصر بها . . .

غير أنك لو سألتني عن أنفع وأمتع كتاب طبع في النحو ، لدلتك على « شرح الكافية للرضي » وهو كتاب ضخم ، ليس في كتب العربية ما يساويه بحثاً وفلسفة » (١) .

وهذا قول يشف به الرافعي عن نفسه ، وقد أتى على كتب النحو جميعاً دراسة ونقداً ، ومن ينظر في نقده لشعر أحمد شوقي (٢) ، والردود التي طارت حوله في المقتطف وأبولو والرسالة ، ولا سيما رده على العقاد (٣) ، يدرك مبلغ علم الرافعي في النحو ، فقد يذهب أحياناً الى القول :

« إن مذاهب العرب واسعة ، ولنا ما لهم من التصرف في الاستعمال إذا لم نخرج من قاعدتهم ، وأعتقد أن مذاهب العرب ليست بالضيق الذي يتصورونه » (٤) .

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٢ .

(٢) الرافعي - شوقي - المقتطف - تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٣٢ م - وحي القلم ج ٣ ص ٣٤٤ .

(٣) الرافعي - نقد ورده - المقتطف - شباط - فبراير ١٩٣٣ م ، وانظر

مجلة أبولو - مجلد عام ١٩٣٣ م . (٤) الرافعي - الرسائل ص ٦٧ .

ويرسم في رسالة أخرى طريق امتلاك « ناصية الأدب » .. ينبغي أن تكون لك مواهب ورائية تؤدبك الى هذه الغاية ، وهي ما لا يعرف إلا بعد أن تشتغل بالتحصيل زمناً، فإن ظهر عليك أثرها، وإلا كنت كسائر الذين يستعوضون عن الموهبة بقوة الكسب والاجتهاد « (١) .

وهذه نظرة تشبه الى حد رأيي بكون في أن « المقدرة الطبيعية كالنبت تحتاج تشديداً بالدراسة » (٢) وكذلك في محصلة اليزابث درو :

« والشعر ينبع من مصدرين ، من جبرية غامضة تكمن في اللاوعي ، ومن تنظيم صناعي تام الوعي ، فهو عملية تختلط فيها الحياة باللغة ، ويلعب فيها كل من التنقيح والطبع » (٣) .

ولو تأملنا في الخلاصة التالية لجوابه على استفتاءه الهلال عام ١٩٢٦ م عن الكتب النافعة والتأليف المفيد (٤) ، فقد أجاب بما يدل به على حملة رسالة التعليم والرأي في التربية والثقافة والأمة ..!

« .. في أيام التحصيل كنت أقرأ كل ما أصابته يدي ، وكنت أكثر من الملاحظة وأدقق فيها ، فلا اعرف كتاباً أنا منه أكثر مما أنا من غيره .. . ولكن إن يكن ، فلعله كتاب في الحديث اسمه « الجامع الصغير » كنت أحضر به درس أبي - رحمه الله - .

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٥ .

(٢) اليزابث درو - الشعر كيف نفهمه ونتمذوقه - ترجمة محمد ابراهيم

الشوش ص ٩ . (٣) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٤) الرافعي - الهلال - كانون الأول - يناير ١٩٢٧ م ص ٢٧٥ .

ثم قرأت بعد ذلك للأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وكتاب « سر النجاح »  
الذي ترجمه يعقوب صروف ، ثم كتب غوستاف لويون ، .. ثم الكتب كلها ! .  
فلم تكن أوربة عن روح الشرق ، ولا يغني الشرق عن فكر من أوربة .  
ويقول بعد ذلك : « أنصح بقراءة كتب الأديان قبل سواها ،  
فإذا استوفى الشاب منها قانون ، ضميره فهو أبصر بعد بحاجاته ، وليكن عربياً  
مشرقياً ، ثم ليقرأ ما يشاء ، فالصحة تجعل كل غداء صحة » .

ويرى أيضاً ضرورة « تهذيب المكتبة العربية تهذيباً فلسفياً (١) ، وبيان  
أسرار حضارة الشرق في أديانه وآدابه ، ونقل اسمي ما في الأدب الاوربي » .  
أما منتهى سعادته وآماله فتبلغ في قوله :

« ولو أحياني الله حتى أرى لقومي مجمعة « انسكلوبيديا » عربية كبرى  
تبلغ من السعة والوضع وحسن الترتيب وشدة التبين ، وقوة الاستيعاب ما بلغته  
المجمعة الفرنسية ، لكننت سعيداً حق سعيد ...

فإن لم تكن اهل هذا العمل الجليل ، فلنحرص على أن نساعد اهل بوضع  
ما يعد من مواده وأجزائه » (٢) .

\* \*

ثم إنه يصف اقرب الطرق الى الحظوة في دراسة الأدب  
« .. فاجتهد أن تكون مفكراً ناقداً ، وعليك بقراءة كتب المعاني قبل كتب

---

(١) راجع نعمات أحمد فؤاد - دراسة في أدب الرافعي - المقدمة ص ٣ !

وتأمل المفارقة !!

(٢) الرافعي - الحلال - يناير ١٩٢٧ م - ص ٢٧٥ .

الألفاظ ، وادرس ما تصل اليه يدك من كتب الاجتماع والفلسفة الأدبية في لغة  
أوربية ، او فيما عرّب منها ٠٠١ .

واصرف همك من كتب الأدب الى كلية ودمنة ، والأغاني ،  
ورسائل الجاحظ ، وكتاب الحيوان والبيان والتبيين ، ٠٠٠ وتفقه في البلاغة بكتاب  
المثل السائر .

وهذا الكتاب وحده يكفل الملكة الحسنة في الانتقاد الأدبي ، وقد كنت  
شديد الولوع به - (١) .

وبعد أن يرى حفظ ألفاظ نجمة الرائد لليازجي ، والألفاظ الكتابية  
للممداني ، يدعو الى مطالعة يتيمة الدهر للشعالي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ،  
وزهر الآداب للحصري ، ٠٠٠ و « لا تنسَ شرح الحماسة ، ونهج البلاغة  
فاحفظ منها » (٢) .

ولا ينسى أن يشير « بمجلتين يعنى بقراءتهما كل العناية - المقتطف  
والبيان ( الشهرية ) ، ثم الصاعقة ( الاسبوعية ) ، وأخيراً الجريدة ( اليومية ) (٣) .  
ويختتم الرسالة بقوله :

« ورأس هذا الأمر بل سر النجاح فيه أن تكون صبوراً ، وبعبارة  
صريحة أن ما يستطيعه الرجل لا يستطيعه الطفل إلا اذا صار رجلاً » (٤) .

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) المقتطف لصروف ونمر ، والبيان كان يصدرها الشيخ عبد الرحمن  
البرقوقي ، ويشرف عليها الرافعي نفسه ، والجريدة للطفي السيد ، والصاعقة لآحمد  
فؤاد . (٤) الرافعي - الرسائل ص ٢٢ ، ٢٣ .

وفي الرسالة المؤرخة في ١٠ يناير ( كانون الثاني ) ١٩١٦ م ، بوردا أسماء  
بعض كتب الاجتماع والفلسفة الادبية ، كتاريخ التمدن لكيزو ، وسر تقدم  
الانجيز ، وتطور الأمم ، والتربية الحديثة ، والواجب تعريب طه حسين ،  
والسلطة والحربة لتولستري ، وكتاب ( الفلسفة النظرية ) وفيه وحده الكفاية ..  
وهو من تأليف قوم من أعلم الناس بفنون الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والتربية  
والأخلاق (١) .

ولا ينسى في آخر الرسالة أن يعيد قوله « إقرأ كل ما تصل اليه يدك ،  
فهي طريقة شيخنا الجاحظ ، وليكن غرضك من القراءة : إكتساب قريحة مستقلة ،  
وفكر واسع ، وملسكة تقوى على الابتكار .. فكل كتاب يرمي الى إحدى  
هذه الثلاث .. فاقرأه » (٢) .

٠٠ وفي رسائل أخرى ، يستفيض ويتوسع في الايضاح كأنه يكشف عن  
سرّه وطريقته في تناول المعلومات والدرس والحفظ ، والاطلاع والاستيعاب (٣) .  
وحسبنا أن تنأمل في مثل قوله :

« .. أعتقد أن طريقي في التفكير المستمر قبل الإقدام على العمل أفضل  
وأفنع » (٤) ، فلماذا التفكير والتفكير المستمر ؟

ذلك أن الرجل من إحاطته وعلمه ، يتمحى الفضل فيما يصنع ، بحيث  
لا يندم على عمل فيه مشابهة لآثار من سبقه ، وإلا فما هو بالتأليف ..!

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٤٠ ، ٤٢ ، ١٢٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨ .. الخ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ٢٢٤ .

أرأيت من أدباء جيله من دعاة التجديد من له مثل هذا التفكير !؟ وهل هناك معنى للتجديد أرفع من هذا !؟.

ومن يتبها له أن يرى الرافعي في رود، وإيضاحاته لمسائل اللغة، والتاريخ (١) والتفسير، يهوله سعة اطلاع الرجل، وشدة بصره، وتبحره في هاتيك المسائل جميعاً، ويأخذ العجب من توفره على مادة كل مسألة من هاتيك في مظانها من أمهات المصادر والمراجع، وقد استوفى فيها العلم، وزاد عليه رأيه، الذي قلما يخطيء، وقد يضع فيها وضعاً جديداً ليس منه علم معاصريه. ومن ذلك مناقشته للأب أنستاس ماري الكرملّي (كلدة) او (مستهل) في الأدب والأديب (٢) وعروبة كلمة قريش (٣) والخليفة. في أو كلامه (حسب) (٤) والنسبة الى الطبيعة (٥). أو مناقشته للدكتور زكتور مبارك حول نشأة فن المقامات (٦). أو كلامه في التجديد والمجددين (٧)، ومستقبل اللغة العربية (٨)،

(١) الرافعي - الرسائل - ص ٢٢٤ .

(٢) الرافعي - المقتطف - تشرين الثاني ١٩٢٣ م، كانون الأول ١٩٢٣ م.

(٣) الرافعي - المقتطف - آذار ١٩٢٤ م.

(٤) « « - أيار - مايو ١٩٢٤ م.

(٥) « « - آب - أغسطس ١٩٢٤ م.

(٦) « « - أيار - مايو ١٩٣٠ م.

(٧) و (٨) الرافعي - الهلال - آذار ١٩٢٩ م، شباط ١٩٢٠ م.

ونهضة الشرق العربي (١) ، الى آخر ما هناك - عدا مقالاته وأبحاثه الأخرى ، والتي ما يزال الجزء الكبير منها ما بين منحول لغيره ، او مخطوط في أوراقه التي أسرع اليها البلى ، ومكتبته التي أضاعها « دار الكتب » بعد شرائها !.. من أولاده عام ١٩٤٣ م على أساس أن تكون جنب مكتبة أحمد زكي وتيمور باشا ..

ولم يكن اطلاع الرافعي مقصوراً على الأدب والحضارة العربية وتاريخها وعلومها فحسب ، بل جاوز ذلك الى كل ما هو معرفة على طريقة الجاحظ (رح) - وكما تقدم ذكره ، من قراءته كل ما يصل الى يده ، فبالرغم من عدم إتقانه الفرنسية التي تعلم مبادئها في الابتدائية ، إلا أنه قرأ كل ما ترجم الى العربية في زمانه من لغات العالم أجمع (٢) .

وقد كان يدعو لدراسة بعض العلوم في لغة أوروبية كما تقدم ، ولا يفتأ يذكّر كل ما يراه يتقن هذه اللغة الحديثة ، أن ينقل لنا عنها .  
ويقول المرحوم اسماعيل مظهر « ٠٠ لم أكن ألقاه إلا استعجلني ترجمة كتاب عن علم من أعلام أوربة ، مختاراً في الاغلب الكتب التي تدعو الى حرية الفكر ، وإلى نشر المبادئ العلمية الحديثة ، كأنه كان يعتقد أن الإيمان الصحيح لا ينبغي أن يقف عثرة في سبيل الفكر ، أياً كان مصدره ومرماه » (٣) .

(١) الرافعي - الهلال - حزيران ١٩٢٣ م .

(٢) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث الأدبية .

(٣) اسماعيل مظهر - المقتطف - ارتحال الصديق - حزيران

- يونيو ١٩٣٧ م -



.. لقد أطلقني الأستاذ أبو رية على مسودة ترجم فيها العقاد (رح)  
كلاماً لبرنارد شو في المرأة - وقد جرى في الترجمة قلم الرافي الأحر ، حتى  
جعل منها قطعة أدبية رائعة ، وكتب عليها مترجمة بقلم الاستاذ الأديب الفاضل  
عباس محمود العقاد (١) .

وفي ورقة أخرى ، يشير عليه بالمعنى في الترجمة (٢) .

ومن يتصفح كتابيه الجليلين « المعركة - تحت راية القرآن »  
و « على السفود » يرُعه منه ذلك البصر بأداب اللغات الأوربية ، كأنما لم يكن  
يفوته منها شيء ، بالرغم من اعتماده على الترجمة حسب ، كما قدمنا .

فترى مثلاً أنه يعرف أناتول فرانس ، ونزعتة الاشتراكية ، وتقريره  
أن القرن السابع عشر هو عصر البلاغة الفرنسية (٣) وقد عدّه بوسيوه المثل  
الأعلى للنثر (٤) وأن موريس باريس - السكاثوليكي ، لم يتحفظ حين قال إنه  
حفظ اللغة (٥) .

(١) تجدها في مجلة البيان - ١٩١٢ م .

(٢) ومن أجل ذلك ، لم يكن الرافي (رح) ينظر اليه من غير هذه  
الناحية - وانظر مقالاته في نقد وحي الأربعين - البلاغ ١٩٣٤ م .

(٣) الرافي - تحت راية القرآن ٣٤٩ ، المقتطف - لإبريل (نيساب)

١٩٢٥ م حول السحاب الأحر .

(٤) الرافي - تحت راية القرآن - ص ٣٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٧ .

ويوصي بشراء كتاب أتتول في مبادلته ، فهو « فيما عدا أفكار الالحاد - محصول عقلي مفيد جداً - » (١) .

ويكتب مقدمة المساكين ، فيظهر له أنها « أوسع وأمتن وأرقى من كلام برجسون فيلسوف فرنسا كلها » (٢) .

ويبصر في الاستشراق ، فيرى مستر جب ومرجليوت وتلفيقهما على الأدب العربي (المسكين اليقيم) (٣) .

\* \*

ويحتفل بنقد جون لمر ، و « شعوره النبيل القائم على الفهم والحق ، وعلى القلب والعقل معاً » (٤) .

ويعرف هابتي الشاعر ، ويصوغ لشر الألماني شعراً (٥) (في وليم تيل) :  
يقضى البرايا ويأتي الوقت مختلفاً ليخرج الدهر تاريخاً من الرمم  
ويستنجز ترجمة لشيلي (٦) ... ويكشف سرقات أدباء الجيل عن برنارد شو ،  
وهيرتسو مدرس التاريخ بكلية الملك بجامعة لندن (٧) .

(١) الرافي - الرسائل ص ١٢٠ .

(٢) الرافي - الرسائل ص ١٥٤ .

(٣) الرافي - الرسائل ص ١٦٨ .

(٤) الرافي - على السفود ص ١١ .

(٥) شكيب أرسلان - مقدمة - حاضر العالم الإسلامي - عجاج نوبهض

ترجمة عن لوثرود ستوارد ص ١ ج ١ .

(٦) من رسالة للأدبية فكرية زكي - المؤرخة في ١١ أيلول - سبتمبر ١٩٣٥ .

(٧) الرافي - على السفود - ص ٢٦ ، ٦٧ .

ويرد أصول الترجمة ، والمصطلحات الى اللغة نفسها ، ويسخر من الترجمة الصحافية بالمقصد (١) .

وقد قطع بذلك أشواطاً ، جعلت من صديق شيبوب لا يتردد عن مقابلته بشارل موراس زعيم الحزب الملسكي في فرنسا ، ومدير صحيفة « الاكسيون فرانسيس » « ٠٠٠ فإنه مثل الرافي شاعر وأديب يعيش في نفسه حياة كلها رؤى وأفكار ، وانه شديد الوطأة على مجاديله ، سليم اللغة مرهف الاحساس » (٢) .

\* \*

ولا بدع أن من ينوفر على بعض هذه الثقافة الواسعة الشاملة ، وتتمياً له من روافدها ما تهيات للرافي ، أن يغدو إماماً في عصره ، او يضحى بعد ذلك « أعلم أهل زمانه بالشعر واللغة وتاريخ الأدب » (٣) .

ومن ثم لا تراه يكتب بعد ذلك إلا بلغة الشعر ، فكأنما « كانت الروح الشاعرية عنده ، تلاحقه الى النثر ، لتشبع الكلمة هناك بعباء فذيخلقها خلقاً جديداً » (٤) .

---

(١) الرافي - صعايلك الصحافية - الرسالة ص ١٨٩ .

(٢) صديق شيبوب - البصير ٤/٦/١٩٣٧ ، وقد مات موراس حوالي

عام ١٩٥٣ م .

(٣) زكي مجاهد - الأعلام الشرقية - ج ٤ - ص ١٤٣ .

(٤) محمود حسن اسماعيل - في حديث خاص .

## الرافعي وعصره

يظهر لنا بما تقدم بجلاء أن الرافعي قد تفاعل مع عصره ، بالرغم من جميع المعوقات التي وقفت في سبيله السوي<sup>١</sup> .

فاذا فاتته الفرصة في الصحة والعافية ، لم يفته منها الفكر والتأمل الواعي والدرس الذي يؤتي أبلغ العبر ، وأسمى آيات الحكمة ، في استبطان الذات والنور في أعماق النفس الانسانية ، والتسامي الى المصاف الاجتهادية العليا للفكر ، والتي لا تقل رفعة عما هي عليه عند الأفاضل العلماء من مفكري الانسانية في أوربة والعالم الجديد (١) .

وإن تحيفه الزمان فأبقاه دون الانتظام بجامعة ، او التخرج على أستاذ بعينه ، لم يكن العصر نفسه ليجزل عليه ، بأطاب العلوم والفنون ، وآيات الفكر الانساني ، في الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، الذي نهضت فيه الدنيا العربية بعامة ، وأخذت من أسباب التقدم ومنازع الحرية ما عملت فيه على تحطيم الاغلال وكسر قيود الضياع الذي ران عليها حقبة من القرون .

فقد تيسر له من الثقافة ما عرفنا روافده ، وتوفر لديه من معطيات الحضارة الجديدة ، ما كان سباقاً اليها يلقفها بهم ، ويفار عليها ، فيلتمس ما فاته في اللغات الأخرى عند تراجعتها والممين بها .

---

(١) بدوي طبانة ، ومحمود ابراهيم - تاريخ الأدب الحديث الرافعي ص ٤٣ .

ولئن ضاقت ذات يده - أحياناً - أن يحوز ما يتبغي من مظان العلم ومصادر البحث ، ومراجع المقارنة والأخذ ، فقد فتحت الصحافة أبوابها وفرشت له دور الكتب ردهاتها ، وناولته المرشدون فيها ما يهفو اليه من علوم ومعارف ، وآداب وفنون ، وآراء وفلسفات ، وقيم ..!

حتى ليكاد الدسوقي يجزم بقراءته كل ما ترجم من كتب النقد والآثار الغربية في عصره ، متأثراً بها ، وكان أسرع أدباء جيله في مثل هذا التأثر ..! ومن ناحية ثانية فقد برزت آثار العصر الحضارية في فنه وشعره ، فكان من المستبقيين في نعت الصفات الجديدة من آيات العلم والمدنية ، كالنور الكم بأني والمخترعات الحديثة في القطار والعربات - وسوى ذلك ..! بروز اغتباط وأخذ ، لا سلبية وإحجام ..!

وفي غمرة هذه العصرية الجديدة ، وهو ينتصر لعقيدته وينشد لوطنه ويتغنى لأمته ، لا ينسى المضاعفات الوليدة التي كانت تعوق الحياة الحرة الكريمة التي يتوخاها .

فهو يغمز الحكم ، ويشور على الخيانة ، وينتصر للضعفاء والمساكين ، ويهتز لزحف الجمهور ، ويسارع في نظم شعارات الوعي القومي على لسانه ، في شعر وأناشيد وأغاريد ..! يريد بها التربة الاستقلالية قبل الاستقلال ، ليحافظ عليه الجمهور من ثم ..!

وينظر بعيداً في آفاق الحركات الاجتماعية في العالم ، ولا سيما تلك التي أورنتها الحياة السياسية الانقلابية في الثلث الأول من القرن ، ويحاول معها المحاولات التي تقف بمقيدة الأمة شاحخة أمام الآراء والمذاهب التي اجتاحت

البشرية قبل الحرب الأولى وبعدها ..

\* \*

إن الرافي كان صورة صادقة من مرآة عصره ، اضطرب في آفاقها  
واختلف عليها ، وحاول معها الجلوة والوضوح الى حد كبير .  
وهو بذلك كله كأنما كان يسابق أدباء جيله ، وبياري شعراء العصر ،  
ويعارض المتأثرين الآخرين الذين كان الوعي القومي ينقصهم عند الأخذ والنقل  
والتأثر والاستيعاب ، .. ثم هو لا يدعهم في مثل ذلك التخبط يضطربون وإنما  
يدعوم الى طريقة الأخذ والتمثيل والهضم قبل التقليد أو التخبط الذي يورث  
ازيف والتضليل والانحراف ، أو يرسم لهم المثل ما استطاع ..  
ولم يكن وحده في هذا المضمار ، وإنما جراه الكثيرون ، وسابقه الصفوة  
من الأدباء ، .. وبذلك كان معاصراً حقاً ، ومصابراً صادقاً للأيام والحدثان .  
فلا يكاد واحد منهم يقول في أمر ما حتى يبادره القول والرأي ولا يتحدث  
متحدث منهم حتى يرسل شعره وفنه حكمة في الموضوع ، ومنهجاً في الإصلاح ،  
وهدفاً في الحقيقة

طبع  
آثار الرافعي





## آثار الرافعي الشعرية

لرافعي ثروة شعرية عظيمة ، أخرج بعضها في أجزاء ديوانه ، وما يزال القسم الأكبر منها موزعاً في شتيت الصحف والمجلات ، وأوراقه الخاصة ، التي حال لونها ، وأدرك بعضها الاهمال والضياع .  
آثاره الشعرية المطبوعة :

### ١ - (ديوان الرافعي) :

الجزء الأول - طبع في المطبعة العمومية بمصر عام ١٣٢١ هـ - ١٩٠٢ م  
كتب عليه : نظمه مصطفى صادق الرافعي ، وشرحه محمد كامل الرافعي (١) .  
وقد جاء بنخمس وأربعين ومئة صفحة من القطع الكبير ، وتوزعت القصائد فيه بحسب الأبواب التي اختارها لها ، كالتربية والتهديب ، وما فيها من أمجاد عربية ، وقيم إسلامية ، ومثل رائعة ، ذاعت منها قصيدته القومية «بلادي» :

بلادي هواها في لساني وفي دمي .  
يمجدها قلبي ويدعو لها في

وما يزال شعراء العروبة يحومون حول معانيها الى اليوم !

(١) الشرح بما فيه من أدب وطرف وفكاهة هو للرافعي نخله أخاه  
لأمر ما ؛ فكان من أسباب الدعاية لنفسه ، وشهرته .

والمديح ، الذي شفّ فيه عن روح عالية تلتزم بالولاء للأمة في صورة  
من وحدتها القومية ، المتمثلة بالخلافة ، ورجال العصر من العلماء والفضلاء ،  
الذين كانوا من أهل الحل والعقد .

والوصف ، الذي لمس فيه مواطن الجمال بحسّ مرهف وشاعرية مبكرة ،  
وشباب مفتون وطبيعة تغدق عليه من محاسنها في الأصيل وإقبال الليل ، وتعريد  
الطيور وانفراد العنادل ، ما يخطّ على قلبه من المعاني والعبارات الفنية .

ثم الغزل والنسيب ، وبها أضحى بحق « شاعر الحسن » كما مرّ بنا في  
حياته والباب نفسه يؤلف أكثر من ثلث الجزء ، وفيه خبر « عصفورة » التي  
عرفها على جسر كفر الزيات وقال فيها :

عصافير يحسبن القلوب من الحسب<sup>١</sup> فن لي بها عصفورة<sup>٢</sup> لقطت<sup>٣</sup> قلبي  
وفرت فلما خافت العين قوتها أدالت لها حبباً من اللؤلؤ الرطب  
وهي أول ما غنته « أم كلثوم » من القريض .

وأخيراً باب الأغراض والمقاطع ، وقد حوى الكثير من الخواطر  
والحكم المرسلّة ، والأبيات التي تجري مجرى الأمثال ..

وعلى أن هذا الجزء باكورة شاعريته ، وأنه نظمها ما بين عامي ١٣١٩ هـ  
- ١٣٢٠ هـ ، من غير تفرغ للشعر ، ولما يتخطّ العقد الثاني من سنه ، فقد  
عرف بالرافعي الشاعر الأديب .. ووضعت مقدمته في « الشعر واجتماع أسبابه »  
العنوان الكبير أمام أدباء العصر ونقاده ، مما غبطه عليه أئمة البيان كالشيخ  
محمد عبده ، والبارودي ، واليازجي ، وشوقي وغيرهم .

\* \* \*

٢ - ديوان الرافي :

الجزء الثاني : طبع في مطبعة الجامعة بالاسكندرية عام ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٣ م  
وقد جاء بعشرين ومئة صفحة من القطع الكبير والورق الصقيل ، وزُيِّن  
بصورة فنية للسلطان عبد الحميد - رح - وقصيدة فيها كل ألقابه المشهورة ، . . .  
قدم له بموضوعة في « سرقة الشعر وتوارد الخواطر » ثبت فيها مكانته  
التي ارتقى اليها أدباً بمقدمة الجزء الأول ، ووضع الدرجة الأولى في سلم النقد  
الأدبي الحديث مما أذهب الشك عن صدور ناقديه ، والمغتربين به معاً .

افتتح باب الحكمة والتهذيب فيه بخريدته الرائعة « اللغة العربية والشرق » :  
أمّ يكيد لها من نسليها العقب ولا نقيصة إلا ما جنى النسبُ  
كانت لهم سبباً في كل مكreme وهم لنكبتها من دهرها نسب  
لا عيب في العرب العراء إن نطقوا بين الأعاجم إلا أنهم عرب  
وقال فيها بفخر واعتداد قومي سديد :

إذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت للعرب أي فخر يذنها الكتب  
وهي القصيدة التي عُدت من المحلقات في أفق الانبعاث القومي ، . . . والتي  
منحه بسببها طيب الذكر فرح أنطون لقب « شاعر الشرق » (١) وهو يقدم لها  
وينشرها في مجلته « الجامعة » .

وفي هذا الجزء تظهر على الرافي بعض الميول الفكرية الحديثة ، كتعريفه  
بالاشتراكية ، ونظمه في الحرب والسلام قصيدة ما جاء شاعر بمثل ما جاء به  
من دعوة عاقلة :

(١) راجع ما سبق في كلمة « الشرق » والشرقية .

لما الله دهرأ شدؑ بالقوة الهوى فكل قوي شاء ما شاء يتبع  
وهب أن هذا الظلم كان سياسة .. فمن قال : أن الظلم في الظلم يشفع ١؟  
وفتح باباً جديداً في النسويات ، ينصر المرأة في طبيعتها الفطرية . وينظر  
إليها عند صورتها المثالية التي تظهر له فيها :

بوجه الجمال ، ورأي الذكاء وعين العفاف ، وصدق اللسان  
وقلب المحبؑ ، وصدر الصبور ونفس الكمال ، ودم الحنان  
ويعيد للوصف روحه بتحليقات شاعرية تجدد القول في الطبيعة وآثار  
الحياة ، ويعود للمديح في بابه ، ثم ينعطف نحو الغزل ليدع في زحمة معانيه ،  
حتى يختتم الجزء بأغراض ومقاطع فيها خواطر أخرى ، وأمثال وحكم .

\* \*

٣ - ديوان الرافعي :

الجزء الثالث : طبع في مطبعة الأخبار بالفضالة - مصر عام ١٣٢٤ هـ  
١٩٠٦ م وصدر بخمسين ومئة صفحة من القطع الكبير والورق الصقيل .  
قدم له كسابقيه بمقالة في « نوع من نقد الشعر » وفق فيها بتلخيص  
مذهبه النقدي الأول من بين آثار النقاد العرب وأصحاب الطبقات والتراجم ،  
وزاد عليه أن فتح الباب للحديث عن النواحي النفسية للشاعر عند النظم ، وتسليط  
الأضواء على عبارته وتجويدها ، ومادته البيانية ، وثروته من المعاني والألفاظ .. الخ  
مما يشغل الدراسات النقدية اليوم باستغراق كبير .

وقد افتتح باب التهذيب فيه بقصيدة في حال مصر الاجتماعية عام ١٩٠٥م  
قال فيها :

.. وما يتقون البؤس لكنهم متى      تعضُّ بهم أنيابه يتألموا  
ويبظروهم عهد الرخاء ، فإن مضى      فسهلٌ عليهم بعد : أن يتندوا  
يقولون هبوا وانفضوا سنة الكرى      .. وما نحن - لكن الليالي نُنوم  
وحذر « الترجمان » من خطر « السياح » :

تجيبهم كلما يسألون بما يفرض الشرق للسائل  
ويعود الى المعاني الاجتماعية الاخرى في الافكار الحديثة ، فيحاول رسم  
نظرية الانحسار في الاشتراكية ، ويقول في الوجود ، ويتكلم في الفلسفة ، ويرى  
في الحياة والطبيعة والناس بما بثقل على شاعريته .

ولكنه في باب « النسائيات » يقارن بين حسان الأرض والسماء ،  
ويرقص ابنته وهيبة .. الخ هذه الموضوعات .

ثم يدخل للوصف معاني جديدة يحرك فيها الطبيعة عند الغروب ، ويشرك  
معه الربيع ومفاته ، .. وهو لا تفوته في هذا الصدد آيات المخترعات الحديثة ،  
الساطعة بنور الكهرباء في صفحة الليالي ، كما لم يفته قطار السلك في الجزء السابق ..  
ويلاحظ عليه أن شعر الغزل يقل في هذا الجزء حيث يزدحم باب الاغراض  
والمقاطع فيحشر فيه المدائح والتقاريط ، وشؤون الاجتماع الأخرى .

ولكنه يفتح باباً المرثي يبيكي فيها أستاذه البارودي والشيخ محمد عبده ،  
وعمه الشيخ عبد القادر الرافعي .

وكأنما أدرك ارتباك هذا الجزء فقال على لسان أخيه الكامل - الذي

نحله شرح الديوان - « أنه عرضت لشاعرنا أحوال خاصة ، اضطرتة الى الانتقال ، وشغلته عن شعره والعناية به كثرة الاعمال » .

\* \* \*

#### ٤ - ديوان النظرات :

الجزء الاول : طبع في مطبعة الجريدة بمصر عام ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٨ م  
وجاء في ثمان وعشرين ومئة صفحة من القطع المتوسط .

لقد شاء الرافي أن يسمي هذا الجزء من الديوان بالنظرات ، وبشر به في مقدمة شرح الجزء الثالث ، .. وقدم له بمحدث ثمين يبين فيه « حقيقة الشعر » حيث اجتاز به مرحلة أخرى في الاستيعاب الأديب ، حتى حسب شبلي شمبل هذا الموضوع مترجماً .

فقد ميز الشعر بين الفنون الجميلة ، وأشار الى المؤثرات النفسية فيه ، ولاحظ عليه ملاحظات قيمة ، بحيث أحدثت هذه المقدمة دوي المقدمة الاولى . ولكنه ترك فيه الأبواب السابقة ، وافتتحه بنشيد نظمه لمصر الوطن الصغير ، وقصيدة « نبأ مصر » وحال الاجتماع في تلك الايام :

تباين ما بين الرجال وكلهم على زعمه بالأمر خير كفيل  
فيا عصبه « الاحزاب » ردوا حلومكم وجرؤا على غير الثرى بذيول  
أما تزالوا قاصرين فأمركم ضياع إذا لم يعتصم « بوكيل » ؟  
وبالرغم من ازدواج الولاء الوطني والقومي عنده فإنه يلتفت نحو  
الخونة يبحث عن « فيمة الذمة » وأصل البلاء في « شبان مصر » .

وينظر في الطبيعة حيث قامت طرابلس الشام في « العراء » :  
تلوح في (عين) (راء) نحوها أطلعت كهمزة رفعتها فوقها ألف  
ويواصل الذكرى ، ويتذكر « حمى ليلي » بموشحة غنائية فريدة ، ويساهر  
ولده المريض ، ولا ينسى حق « الحسان » عليه في شعره .  
والجزء صغير جداً بالنسبة لأجزاء ديوان الرافعي ، حيث أرجأ بعض  
قصائده لجزء آخر من النظرات ينشره فيما بعد ، .. ولكنه لم يتوفر على أسبابه .  
وعسى أن تتوفر على إخراجه ضمن الجزء الرابع من ديوان الرافعي .



## آثاره الشعرية غير المطبوعة

### ١ - ديوان النظرات :

#### الجزء الثاني :

اجتمع للرافعي من شعره قصائد شتى ، نظمها على فترات مختلفة ، نشر بعضها في الصحف ، وتوزع الباقي بين أوراقه ، وأبدي أصدقائه ، .. وحاول غير مرة أن يجعل من بعضها الجزء الثاني من النظرات ، . . وأشار مرة الى أن آخرها القصيدة التي يرثي فيها والده الشيخ عبد الرزاق الرافعي - رح . .  
وقد اجتمعت لدينا منها مجموعة ، عسى أن تتمكن من إخراجها مع « النظرات » عند إعادة طبعه .

وهي تضم قصائد ومقطعات فيها تاريخ تلك الفترة من حياته الأدبية ،  
فقد توفي الله السيدة أسماء بنت الشيخ أحمد الطوخي - والدة شاعرنا ،  
بعيدة عنه في أسبوط فما فتىء يبكيها حتى آخر أيامه ومنذ أن قال :

من الصدع في قلبي غداة تهدما      سعت نظرات الروح خلفك للسماء  
وبين ضلوعي زفرتان من الأسي      تتهان في صدري متى بلغنا الفبا  
وظهر مذنب « هالي » فتطير الناس منه ، والأمة تعاني من الانقلاب

العثماني ومضاعفاته ، فإذا بالرافعي كالذي يرسل الزفرة الحرّى بقوله :

أحقاً ستجمع غلّ القلوب      فتنفجر الأرض منك اضطراما  
وترحم هذي الشعوب الضعاف ، يقاسون داء الملوك العقاما



ويتهياً له السفر الى ربوع الشام، فيطل على وادي لبنان من ربي (بمجدون)  
ليشهد الجمال الأسر فيقول:

يا «بمجدون» كم شهدنا جمالاً من ربي «المنظر» استناراً  
ولكنه عندما يعود الى مصر يرسل «عبران البين» التي مر ذكرها  
في فصل الحب، وينظم لفضليات سيدات «الإحسان» حقيقة في قصة قائلاً:  
أقد يبصر المرء السما ونجومها وما في العلى من معجزات خوارق  
ولكن متى يبصر بحسناه ينتفض ويستشعر الخلول هيبسة خالق  
ويسارع في رد عدوان الطليان على طرابلس الغرب - بسيف الاسلام  
العثماني، ويتغاضى عن موقفه السابق من الاتحاديين:

من الصواعق .. لا يبق ولا يذر إذا انتضاه لأهل النعمة القدر  
برمي به الله رجماً لا تقوم له هام الشياطين .. إلا ريث ينحدر  
سيف الطبيعة بل سيف الفجيعة بل سيف الشريعة: فيه العدل والعبير  
ويضطرب الشرق أمام الغرب في اتجاهات سياسية ومذاهب فكرية،  
وآراء وأهواء يعقوزها النضج والحجة، .. فيرسل قصيدته في «الشرق المريض»  
التي مر الاستشهاد وبكثير من آياتها في هذه الحال الاجتماعية.

ويفشى الرافي الاجتماعي بأدب القصة الشعرية في منظومته «دموع الهرم  
لدموع الصبا - من الشيخ البائس الى حفيدته» فيقول:

دجا الظلام: أيا ليلى أما فينا روح؟ أم الموت مثل الرزق جافينا؟!  
وبقصيدته الأخرى التي تحدث فيها عن مأساة الانسانية في الحرب:  
طريدة بؤس مل من بؤسها الصبر وطالت على الغبراء أيامها الغبر

وفيها يقول :

.. وما الحرب إلا غضبة الله لامست مخازي هذا الدهر .. فانفجر الدهر  
وما الحرب إلا مطرة دموية إذا دنست روح الورى فهي الطهر  
وينظم في « غليوم الثاني » الوجه الشيطاني للحرب وفي « ويلسون »  
الذي حسبه روح الجبهة الإلهية ، .. ويتصدى لأغرار تحرير المرأة ، بقصيدة  
« التبرج » ويسخر من شبان العصر في أخرى عن « التخثث » ، .. ويعود  
الى أطفال الشوارع في رائعته الانسانية :

صبيحة هم بوادر التنكيد إن صبونا الى زمان سعيد  
وفيها تنبأ بالمضاعفات التي تعانها الأمة في كل تغيير من انقلاب أو ثورة ،  
من مثل أولئك الصبية !

هذا الى جانب قصائد أخرى في الغزل المحمس والمقطعات والمراثي

\* \* \*

٢ - أغاريد الرافي :

ديوان فريد في الشعر العربي الحديث ، كالت من بعض شغفه بالغناء ،  
وولعه بالفنون والمرددات القومية .

وقد تم لي جمعه وترتيبه في مجموعات منها القصائد الغنائية المرقصة ، التي  
ناغى بها أبناؤه ، وساهرهم ، وأرقصهم ، وهزلهم أرجوحاتهم ، .. وأحيا هذا  
الفن الرفيع في أدب التربية النفسية ، ودعا الأمهات أن يقبلن على شعر الترقيص  
ويقو من السنة أنبائهن به . والثانية ، مجموعة من الأناشيد الوطنية والقومية ،  
وقد وفق فيها بما لم يوفق إليه شاعر عربي .

وحسبه منها النشيد القومي العربي ، الذي كان آخر ما نظم ، والذي ما يزال يندلع بحماسة من أفواه الجماهير الهادرة في الأقطار العربية كلها :

حماة الحمى يا حماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن  
لقد صرخت بالعروق الدما أموت أموت وبجيا الوطن  
وكذلك نشيده لكتائب الشبان المسلمين :

يا شباب العالم المحمدي ينقص الكون شباب مهتدي  
فأروه دينكم كي يهتدي دين عقل وضمير وبد

والمجموعة الثالثة ، تشمل الكثير من الموشحات والمنقطوعات التي حاول أن يتمها غير مرة في ديوان « أغاني الشعب » يضع لكل طائفة أو جماعة أغنية ، فكان منها « نشيد الفلاح » وما فيه من قيم اجتماعية ونظرات اقتصادية و « نشيد الفلاحة » و « نشيد الربيع » والشباب وسواها .

والمجموعة الأخيرة ، تنتظم أغاني وموشحات نظمها في فترات متباعدة من حياته ..

وما تزال تتمتع بروح موسيقية عالية ، حبذا لو سعت إليها الألحان بدلاً من هذه الأغاني المترسخة للعامة المرذولة ، التي طفت على الاداعات العربية في السنوات الأخرى .

وقد جهزته للطبع أيضاً (١) .

\* \* \*

(١) راجع البدرى - أغاريد الرافعي - الأقلام - جزء شباط ١٩٦٧ م .

### ٣ الفؤاديات :

مجموعة قصائد أرسلت بمناسبةاتها من الأيام الملكية وسواها .  
فقد انتظم الساسة ورجال الأحزاب في مصر بمحاولة ائتلاف وطني ،  
يفتح صفحة جديدة للحياة القومية في البلاد عام ١٩٢٦ م (١) فكانت التفاتة  
محمد نجيب (باشا) بارعة في اختيار الرافي الوظيفة « شاعر الملك » الفخرية ، التي  
كان يتطلع إليها حافظ ابراهيم وسواه من الشعراء في مصر .  
ولعل في المنافسة الأدبية بين الاثنين ، وليول الرافي مع الحزب الوطني  
صاحب فكرة الائتلاف ، السبب الأول في هذه المبادرة .

لقد ضمن الرافي قصائده هاتيك الكثير من الأفكار القومية التي كان  
ينافح دونها ، وميزها عن شعر المديح بدعوته الاعتقادية ، وضمنها شيئاً من  
أحابل السياسة ، يضطرب فيها معها بين التسويغ والتأييد ، أو البرم والامتعاض ،  
على ما سوف نتحدث عنه في كتابنا ( الشعر عند الرافي ) .. ذلك أنها جاءت  
في ظرف عصفت فيه الأفكار الوافدة عاصفتها ، وتوزعت الآراء بين أفرادها  
وأحزابها ، .. ولكن موقف التحدي الرافي كان يتجلى فيها غالباً بأروع ثبات ، ..  
فقد استطاع أن يضمنها غير شعر المديح فنوناً أخرى من القول لم تك ترد في المدائح  
سابقاً ، وكأنه أراد تجديد حياة الشعر في هذا الفن .

ودهش العريان - رح - ان لم يجد في قصيدة الصحراء ، أو الراية ما يجب  
أن يشتمل عليه شعر المدح (٢) .

(١) راجع الحالة السياسية في الباب الأول .

(٢) العريان - حياة الرافي ص ١٦٨ .

وأضيف هنا أن الرافعي كان ربما أضاف لبعض قصائده له ، كـ « النيل والطبيعة المصرية » أحياناً مادحة يلحقها بها وزناً وقافية ، لتجيه القصيدة (ملكية) . ومن فوق هذا المنبر استطاع أن يتنفس « سياسياً » بما لم يستطعه (موظفاً) (١) ، وقد استشهدنا في الباب الأول بكثير من هذا الشعر . وهي بمجموعها تؤلف ديواناً صغيراً ، جديراً بالانفراد والدراسة الخاصة .

\* \* \*

٤ - بقايا الديوان .

لقد حسب العريان أن الرافعي قد تحول من الشعر الى الكتابة ، بعد تصنيفه لتاريخ آداب العرب (٢) .

ولكن الحقيقة أن الرافعي لم يصمت عن قول الشعر مثل بعض معاصريه الذين لم يستطيعوا التحليق في آفاهه ،.. فقد حاول التجديد في عطاء المعاني وبسطها بروح بيانية جديدة ،.. كثيراً ما وجد أوزان الشعر العربي كالثي تحدُّها ،.. فكان إذا ما أراد أن ينظم شعراً بموضوع ما واعتاصت عليه المعاني أن تقيد بالأعاريض في مفردات خاصة ،.. نفر الى النثر يستوعبه أخيلته ومعانيه ، ويؤنقه بألفاظه ومبانيه ،..

وعلى ذلك كانت بعض من موضوعاته الشعرية ، مادة أولى لكثير من أحاديثه المنشورة من ثم (٣) .

(١) راجع الرافعي - لرسائل ص ٣٨ .

(٢) راجع العريان - حياة الرافعي - من الشعر الى الكتابة .

(٣) سنوفي الموضوع حقه في دراستنا التالية .

فقد واصل النظم في فنون الشعر جميعاً الى آخر حياته - يرحمه الله -  
ولو وزع ديوانه الكبير فنياً - وهذا ما اتجه اليه الآن - لوقفنا على ذخيرة شعرية  
ضخمة ، تؤلف أجزاء خمسة من مثل الشوقيات ، غير ديوان الأغر يد المار  
التعريف به .

فهو يعد ديوان النظرات الثاني واصل النظم في أحداث الأمة ، وثورتها  
وزعيمها سعد زغول ، . . . وحاول أن يصنع للشعب أغانيه .  
وعاد يتذكر أيام لبنان ، وصرفه هو اه الى القول شعراً في مادة أخرى  
غير رسائله .

وكانت خلة الوفاء التي عرف بها تدفعه بين الحين والآخر الى رثاء  
أصدقائه ومعارفه وأساتذته ، وإطراء نعوتهم فيرسل فيهم مرثي فيها من جدة  
التعبير وأسر البيان ما يأخذ بمجامع القلوب .  
وقد اجتمعت لديّ مجموعات أخرى من هذه القصائد تؤلف جزءاً آخر  
من بقايا ديوان الرافي عسى أن أخرجها في القريب العاجل .

## آثار الرافعي النثرية

هناك حقيقة نفسية دقيقة يظهر فيها الرافعي الأديب أكبر وجدانا من شخصياته الأخرى،.. وهذه الخصيصة كانت تلازمه دائما وأبدا في كل ما يصبو اليه من الالمام بفنون الشعر والكتابة والنقد .

وتتمثل أكثر وبصورة أوضح حين ندركه ذواقة بيان ، وعريف معاني ، يستدل عليها بما أوتيته من ذكاء يفرط أحيانا ، وفهم يستوعب دقائق الامور ، ويستبصر بأسرار الامعجاز ويتميز بالانفراد في الموضوعات أحيانا أخرى .

وكذلك تجيء وصيته الى أحد تلامذته « وأول عهدك أن تستفيد ، وآخر عهدك أن تجتهد » (١) فهو ما بين الاستفادة والاجتهاد ، أراد طبع أدبه بهذه الخصيصة ،..

فهما نظر الى « الشاعر » لاحقه بالحديث عنه ، وبسط معانيه وشرح عبارته ، وتفسير مفرداته ،.. ومن هنا جاءت شخصية الرافعي الكاتب الأديب ، الذي أخرج مؤلفاته النثرية التي عرف بها أكثر مما عرف بنفسه الشعري الجميل . وفي الصفحات الآتية تعريف موجز بها .

° ° °

---

(١) الرافعي - الرسائل ص ٤٤ .

## آثار الرافي النثرية المطبوعة

١ - حديث القمر :

صدر في طبعته الأولى عام ١٩١٢ م عن ناشره الشيخ محمد سعيد الرافي - المكتبة الازهرية في بضعة وسبعين ومئة صفحة، اشتملت على مقدمة وتسعة فصول. ثم إزه « مرء عليه وأصلح منه قليلاً مما يستين به بعض معانيه ، مع إضافة قليل من الشرح ليكون في الطبعة الثانية شيء جديد » (١) .  
ولكن الكتاب في طبعانه الأخيرة زادت فيه الأخطاء ونقصت منه بعض الشروح والهوامش .

وقد كتبه بأسلوب المقالة البيانية ، والطريقة الشعرية التي يكتب بها نبغاه أدباء الفرنجة ،.. قالت فيه المؤيد : « إنه نثر مطرب ، وشعر مرقص في غير أبيات ، بل قلب راق فسال ، ودق فكلن الخيال ، .. مقالة واحدة صبت فيها عواطف النفس صبا في طراز بديع من الانشاء » .  
وقد قال في المقدمة : « أرجو أن أكون قد وضعت لطلبة الانشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلة من علم التصور الكتابي الذي توضع أمثلته ولا توضع قواعده » ورب كلمة تلد تاريخ جيل ..!

ثم تكلم عن آلام الانسانية ، يشفق على البائسين ويتوجع للمحرومين ، ويمسح دموع العشاق والمتميمين ، حتى انفجر يصف ضمير الطبيعة في استبداد الطغاة ، وحالها مع الشعب المستضعف ، .. وراح بعدها يفتش عن « الرجل الالهي » الذي يتعرف به الناس معاني الاصطلاحات النفسية كالشهامه والنجدة ، والصدق

(١) الرافي - الرسائل ص ٦٧ .



والإيثار وما إليها من مفردات معجم الفضيلة « لينصر الله به الأمة (١) .  
ويطل على مسألة المسائل في السعادة وكنهها ، فيراها « طفولة القلب »  
عائداً بالإنسانية الى الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها ، وكيف تذهب عن  
الأغنياء بالبخل ، وتصدف عن الفقراء بالجريمة (٢) ص ٤٤ .  
ورأى الشعر أول ما في الانسان من الانسانية ، ولكنه لم يجد رجل الكمال  
الساوي في شعراء الشرق (٣) ص ٥٢ .  
وتصدى للفئة الباغية التي تلحد للعقل الانساني فتصرفه عن حرية الفكر ،  
الى المحلالية الكفر .. ورأى أسعد الناس « ذلك الذي يجمع قلبه وعقله أن  
لا يصدر أحدهما عن الآخر إلا راضياً مرضياً » (٤) ص ٦٧ .  
وبعد ذلك التمس العلاج للشرق العربي المريض في صيدلية الانسانية لعل  
في قيمها ومثلها ما تشفيه .. فوجد أن لا بد من معالجة روحانية تتعده بها مرضة رؤوم :  
ربوا لذا الشرق يا قومي ممرضةً تحنو عليه بأحاسيس ووجدان  
ربوا له الأم يا قومي فلو وجدت في الشرق ما طاح في ذل وإهوان  
.. حتى تنكشف له حقيقة في ميراث الانسانية وهدية التاريخ  
« حقيقة الألوهية في والرح ، وحقيقة الانسانية في القلب ، كما يرى الحب في جمال  
حواء ، والدين في تقوى آدم » (٥) ص ١٤٢ :  
تطيه روحها مما ألم به فإن أقتل داء الشرق روحاني  
وكذلك يثبت الأساس الاجتماعي للإنبعاث القومي للأمة ، على هدى  
من مثل رفيعه يحفها إيمان عظيم .

(١-٥) الرافعي - حديث القمر ص ٢٩ .

والكتاب بعد ما يأخذ بمجامع القلوب ويستهوئها لما فيه من صور البلاغة العالية، والأخيلة الشعرية والمعاني الفلسفية، في صفاء اللغة واطراد التعبير البياني البديع .

وقد قيل فيه أنه كتبه في فترة فراغ أراح نفسه فيها من عناء التاريخ، وقال أنه كتبه لطلبة الانشاء، وقيل أيضاً أنه عرف القمر - وفيه تورية - في ربوة من لبنان، وهي شاعرة، فكان بينهما حديث طويل في الحب (١) .  
ولكن ما اشتمل عليه الكتاب من موضوعات هامة وسائل دقيقة، يدل دلالة واضحة على القصد الاعتقادي الذي هدف اليه الرافعي من الكتاب

• •

## ٢ - تاريخ آداب العرب :

### الجزء الأول - اللغة والرواية :

سفر نفيس خرج في طبعته الأولى عن مطبعة الجريدة في ٤٥٠ صفحة من الغرار الكامل .

وقد حاول طبعه في حياته، ثانية حتى يكون جديداً ممتلئاً يعوّل عليه في بابه (٢) ولكنه حين أخرجه المكتبة التجارية بعد وفاته بأعوام لم تزد عليه غير ضبط العريان لأصوله .

أما الزيادة والتوسع والمواد الكثيرة الأخرى، فلم نظفر بها حتى

---

(١) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٧٢ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٦٤ .

في الهوامش !.. ولم أقف على نسخته الخاصة التي كان يبسط بها ذلك - بعد  
مأساة مكتبته !.

لقد آثر الرافي أن يجعل الكتاب دائراً « على الأبحاث التي هي معاني الحوادث  
لا العصور ، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتداه الى منتهاه متتالياً به على كل عصوره »  
ضارباً مناهج المستشرقين عرض الحائط ،.. وبه عرف الرافي بين أدباء العرب .  
وكان يؤمل أن يخرج التاريخ في اثني عشر باباً تستغرق خمسة أبواب ضخام ،..  
ولكنه لم يكده يخرج جزءين منه حتى شغلته الأيام والأحداث عن المضي بسبيله  
التي اختطها بدءاً رغم إلحاح محبيه وتلامذته عليه لإتمامه !..

قدم له بمقدمة نشرتها « الجريدة » أولاً و « البيان » ثانياً ، وقد جال  
فيها بين المصنفات وكتب التراجم وكل ما يتصل بهذا الموضوع ، ورأى التأليف  
في هذا العلم وضلال منهج « بيكون » في تمييز الفن عن الاجتماع والأدب عن  
الدين ،.. واختلاط أدبيات اللغة « من صنيع المستشرقين والمستغربين وما فيها  
من اجتلاب يفرق في الحشو ، ويتسع من ضيق » (١) .

ولوحظ أنه لم يبالغ في تهذيب العبارة ولم يستكثر من الأمثلة ، وضرب  
صفحة عن الروايات الضعيفة ، ولكنه تصفح الآراء وجرح النقلة والرواة مقتصداً  
في الثقة .

ثم عقد عصلاً لكلمة « الأدب » فنقلب مع أدوارها اللغوية ، وأبان عن  
معناها في الجاهلية وصدر الاسلام من وزن الأخلاق وتقويم الطباع ،.. وكيف  
عرفت حدود الأدب في القرن الثاني وبقيت كلمة « الأدباء » خاصة بالمعلمين ،..

(١) الرافي - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٢ .

فلما فشت أسباب التكسب بينهم وبين الشعراء أدركتهم « حرفة الأدب » التي تعاورها الأدباء ميراثاً دهرياً الى اليوم (١) .

وتكلم عن العرب بفصل خاص ، صاغ فيه الكلام العلمي صياغة بلاغية جميلة ليست منها سائر فصول الكتاب ، وقد أخذ عليه المقتطف ذلك (٢) فقد لاحق علماء الحضارة في هذا الشأن ، . . ومهد بذلك كله للباب الأول في اللغة .

تحدث عن أصل اللغات ، وفرق بين التوقيف والمحاكاة ، ودار مع السلسلة التاريخية وعماد اللغات السامية ، وتهذيب العربية منذ عهد اسماعيل (ع) وانتشار القبائل حتى سيادة قريش وأسواق العرب (٣) .

ثم عقد فصلاً لمنطق العرب والحروف العربية وصفاتها واختلاف اللهجات وحقق معنى اللغات في الاصطلاح ، وعرض لعيوب المنطق العربي ، وبقياً آثار اللغة بمقارنة بدعية (٤) .

وفي فصل كبير تحدث عن نمو العربية ، والوضع والارتجال والاشتقاق والمجاز .. الخ . وأوجز كلام أعز اللغة في ذلك كله .

وبعد أن كتبت في تمدن العرب اللغوي انتهى الى أسرار النظام اللغوي (٥) وعلاقة الألفاظ بالمعاني والقراءن الحسية والثفسية .

---

(١) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢ .

(٢) المقتطف - شباط - فبراير ١٩١٢ م .

(٣) الرافعي - تاريخ آداب العرب ص ٦٦ - ٨٧ .

(٤) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٦٤ .

(٥) « « « « ج ١ ص ٢١٦ .

ثم تكلم عن العامية واللحن وفساد اللغة في البادية والحاضرة

ص ٢٢٨ - ٢٦١ .

• • •

أما الباب الثاني فقد عقده للرواية والرواة ، وكان في الأصل بحثاً نشره في مقتطف أيار - مايو عام ١٩٠٥ م فتوسع فيه ، وتكلم عن الأصل التاريخي للرواية والرواة ، والرواية في الاسلام ، وتدوين الحديث والاسناد .. ثم اتصال الروية بالأدب ص ٢٨٩ حتى انتهى الى علم الرواية حيث عرض لأقسامها ووظائف الحفاظ وعقد فصلاً لرواية اللغة وأرخ للفظي اللغة واللغوي والأخذ عن العرب ، والرحلة الى البادية والوضع والصنعة والشواهد والكوفيين والبصريين ١٠٠ الخ .

ثم تكلم عن الرواة الوضاعين للشعر ، واختلاف الروايات ، والتزويد في الأخبار والقصاص ص ٣٧٤ - ٣٩٤ .

وبعد أن عقد فصلاً للرواة ، والاعخباريين عرض للشعر وكونه عمود الرواية العربية .

وتحدث عن العربية باعتبارها علم النحو ، ثم اللغة ، ومذاهب الطائفتين في الكوفة والبصرة ... الخ .

وقد قال المقتطف في الكتاب إنه « حافل بالفوائد اللغوية والنتائج الفلسفية ،  
ولفته في المقام الأول من الفصاحة ، وهو حقيق بأن يدعى كتاب الشهر بل  
كتاب السنة ، لأننا لا نذكر أننا رأينا كتاباً عربياً اقتضى جمعه وتبويبه واستنباط  
أدلته ما اقتضاه هذا الكتاب » (١) .

وأعجب به أحمد زكي باشا ، وعكف عليه الأمير شكيب أرسلان وتحدث  
عنه لطفي السيد في المحافل ، وأشار إليه آخرون .  
واحتفلت به الجريدة والبيان وسأر صحف ذلك العهد ، .. وما يزال الى  
اليوم يقف في مقدمة الكتب التي وضعت في الموضوع .

\* \*

٣ - إعجاز القرآن :

أو تاريخ آداب العرب - الجزء الثاني

صدرت الطبعة الأولى عام ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م مشتملة على الباب الثالث  
من منهاج التاريخ الذي وضعه لآداب العرب ، وقد درس فيه تاريخ القرآن  
وإعجازه ، والبلاغة النبوية .

ثم انفرد بعنوانه الجديد في الطبعة الثانية والثالثة التي صدرت عن دار المقتطف  
عام ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م ، .. وأعيد طبعه مرات ، كان بعضها جزءاً من التاريخ .  
بحث الرافي تاريخ القرآن آتياً على جميع ما عرف في هذا الشأن ، بإيجاز  
بالغ القصد والخطورة من نواحي : جمعه وتدوينه ، وحكمة نزوله مفرقاً ، وترتيبه

(١) المقتطف - شباط - فبراير ١٩١٢ م .

ورسم المصاحف ، ورواية القرآن .. الى آخر هذه المباحث .  
وعقد فصلاً للغة القرآن وموسيقاها ، حيث أبان عن إعجاز الفطرة ،  
واختلاف القراءات ، والملازمة بين الألفاظ والمعاني ، .. كما أوضح التوفيق في  
استنباط الأحكام ، ليخلص من ثم الى قراءة القرآن في فصيحها وغربها ،  
والعربة منها .

ولعل من أروع فصول الكتاب دراسته القيمة لتأثير القرآن في اللغة ،  
بمقارنة علمية ، يستدل بها على حال العرب بالقرآن ، واجتماعهم على لغته ، ثم خلود  
لغتهم به واتصلهم بمادة العلم ، .. لينطلق في فصل خاص يستعرض فيه موضوع  
« الجنسية العربية في القرآن » ويمتد به حتى يجعل منه ميثاقاً قومياً لإعادة بناء  
الامة ، مهما امتدت بها الأيام ، أو تعاورتها الحوادث .

وربما كان أول من نبّه الى خطر القرآن الأدبي في العصر الحديث ،  
فقد تصدى للانسانية في آدابها عادة وطبيعة ، وفرداً وجماعة ، وحرية وشريعة  
بقرن ذلك كله بتاريخ العرب الحضاري ، .. ليرقى الى أصول الأخلاق الاجتماعية  
في القرآن ، .. أو ما ندعوه اليوم بفلسفة القيم وإرسائها ، عند إقامة الناموس  
الأدبي للفكر الإنساني ، .. وهو ما غفل عنه كثير من دارسي القرآن ، .. فقد  
استطاع أن يقيم الدليل على أسرار الإعجاز في هذه الناحية ، بين دعائم الثبات ،  
ووسائل النهضة ، وآداب الفطرة ، والارادة الاجتماعية للإعتقاد .

ثم يفرد فصلاً للقرآن والعلوم ، يستوعب فيه هذا الموضوع الكبير بموجز  
لا يتوفر عليه سواه ، .. إذ يتناوله بالتاريخ العلمي ابتداءً ، والأديان وتطورها  
في عقل البشرية ، .. ثم نشأة علوم التفسير والفقهاء والبلاغة والتاريخ ، .. وما لحق

العامة وأهل النظر من دعاوى المستحدثات العلمية .. حتى يقف على مقترق ،  
يدل فيه على تطور العلم ، وتطور العقل البشري في فهم القرآن .

ويجول بعد ذلك جولة في أسرار القرآن ، يفسر بعدها آية الخلق وأطوار  
النشوء ، وما يؤلف اليوم ما يسمى بعلم الأجنة EMBRYOLOGY الذي  
ما يزال يجوب بين افتراضات ونظريات ومختبرات تبحث في أسرار الحياة .

كل أولئك وكثير سواه يجعله كالمقدمة في دراسة « إيجاز القرآن » .  
فهو بعد أن حاول حد الإعجاز ، وعرض لآراء السابقين من المتكلمين  
والفقهاء ، وناقشها جميعاً ، كد يحكم عليها بالقصور عن إدراك آفاق الإعجاز كلها .  
فقد تحدث معهم في حقيقة الإعجاز ، التي حاول إطلاقها على تربية لغوية  
جديدة ، ونظر في التحدي والمعارضة ، وما رافقها من خذلان ، ثم أسهب  
في دراسة نفسية فريدة لأسلوب القرآن ليست منها سائر الدراسات البلاغية ،  
فقد أدرك مرونة ذلك الأسلوب القرآني المعجز ، . حيث لا يصادم ولا يصاد  
الآراء المنقلبة علمياً على اختلاف العصور .

ثم أفاض في الحديث عن نظم القرآن وإعجاز تأليفه في الحروف وأصواتها  
والكلمات والجمل ، وأوضاعه التركيبية ، التي صيغت بها بلاغته المعجزة ، التي  
هي تمام إعجازه .

فالقرآن عنده « معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره  
الإنساني ، ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة  
الإنسانية في شيء ، فهي باقية ما بقيت .. وإنما مذهبتنا بيان إعجازه في نفسه  
من حيث هو كلام عربي ، في هذه الجهة من تاريخ الأدب .. دون جهة التأويل



والنفسير « (١) .

تلك الجهة التي كانت وجهاً ظاهراً من وجوه الإعجاز ، وسراً من أسراره .

\* \*

البلاغة النبوية :

حين انتهى الرافعي من دراسة تاريخ الأدب القرآني وإعجازه ، انتقل الى دراسة الأدب النبوي ، الذي هو الثمرة الأولى في الغرس الإلهي للأدب العربي بالقرآن المبين .

فقد وى الرافعي خبر فصاحة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، حقها ورآها توفيقية من الله تعالى ، بغير تدريب ولا رواية ، .

ثم تحدث عن نشأته اللغوية ، وإقرار العرب بها عرفاً وأدباً ، وأبان عن إحكام منطقته عليه السلام ، وتعبير اللغة والصوت ، واجتماع كلامه وقلته ، وبلاغة الطبع التي أثرت عنه ، وهو يؤتي جوامع الكلم ، وينصر بالرب .

وعد أن نفى الشعر عنه تاريخاً وأدباً ، تكلم عن تأثيره في اللغة ، بما أحدثه من التراكم والمصطلحات والأوضاع المفردة ، التي تنامت بها علوم اللغة من ثم . ودرس رسائله وما فيها من بلاغة وقصد أدب ، حتى أدرك الفطرة

اللغوية التي كن عليها ( صلى الله عليه وسلم ) وهي تتميز بالالهام والتوفيق . أما نسق البلاغة النبوية ، فإن الرافعي قد اعتمدها في وجوه البيان ومناقلة الحديث بلاصنعة ، وكرن ذلك النسق من سجاياه عليه السلام . وأشار كذلك الى أثر النفس الانسانية وطابع الوضع الالهي للنفس النبوية ونفس النبي العربي

(١) الرافعي - إعجاز القرآن - ص ٣٦٤ .

الأمين ، . مستوفياً بذلك القصد في إقامة دعائم البلاغة النبوية على أسسها من البيان والحكمة والأدب العالي ، تلك « البلاغة الانسانية التي سجدت الأفكار لآياتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، .. تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليفة ، وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة » (١) .

#### ٤ - كتاب المساكين

صدر في طبعته الأولى بمطبعة المعاهد بمصر عام ١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م عن المكتبة الأزهرية ، وقد جاء في ثمانية فصول و ٢٦٨ صفحة من القطع المتوسط . قدم له بمقدمة بليغة حاول فيها أن يسكو الفقر بمرقعة جديدة ، .. وأتبعها بمقالة في غرض الكتاب الذي أوجزه في الصبر على الفقر ، والعزاء عنه ، « فقد تكون صاحبة البائس ثروة نافعة لاثنيهما في معاملة الزمن » .

ثم عقد الفصل الأول لشخصية الشيخ علي الجناجي - الفيلسوف الصامت ، الذي كان له معه حديث الروح والقلب ، وفلسفة الرضا والقناعة ، .. وهو على ما يخيل لي يشبه الى حد شخصية الشيخ طه الفريح - رحمه الله - المجذوب الذي كان الى سنوات ممن يهبط في قرى سامراء ، وتظهر له الكثير من الكرامات التي يعتقدها الناس .

وكذلك عرف الرافعي الشيخ علي الجناجي - وقد سدت في وجهه منافذ الجهات كلها إلا جهة السماء ، وهو يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الالهية التي لا تغدوها مادة الأرض » .

(١) الرافعي - إعجاز القرآن ص ٣٦٤ .

وأضاف للطبعة الثانية مقالته الفلسفية « في وحي الروح » التي صور نفسه فيها تراباً متكلماً أمام تراب أخيه الصامت محمد الكامل الرافعي ، وكانت مادتها من وحي ذلك الروح الأثير عنده ، الذي كثيراً ما نحله أفكاره .

« إن أحزاننا ودموعنا هي كل المحاولة الانسانية العاجزة التي نحاول بها أن نكون في ساعة من الساعات مع أمواتنا الأجزاء ! »

أما الفصل الثالث ،.. فقد كان خطبة اجتماعية ألقاها في جمعية الاحسان بطنطا في نيسان ١٩١٣ م ، تحدث فيها عن أخطاء الناس في فلسفة الاجتماع ،.. وتصدى لبعض الحلول القاصرة في حل مشكلة الفقر وقد أدرك عصر الاشتراكية العلمية ، تمحق رأس المال ، لتصل معنى إلهياً في محق الربا ،.. النبي وجدها ولكنه وجدها أيضاً تنغابي عن تربية الصدقات ،.. وتنعامي عن نظام الزكوات ، ولو أخذ بهذه الأصول الانسانية العامة للدين الاسلامي العظيم ، لأصلح الفقر والغنى معاً .

« أنظروا في باطن الانسان بالفضيلة التي هي من نور الله ، وبالحقيقة التي هي من نور الطبيعة ،.. فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار شبر واحد : هو ملء هذه المعدة ! » ، ولكن متى لم يؤمن الغنى .. ككفر الفقر !! »

وكان قد أردف هاتيك الخطبة بقصيدة فيها قصة « دموع الهرم لدموع الصبا : من الشيخ البائس لحفيدته » ،.. ولكنه لم يلحقها بهذا الفصل من الكتاب . وتحدث في الفصل الرابع عن « مسكينة » وصف فيها فتاة بعينها تهبط الى أهل الغنى تلمس الحياة بسد الرمق ! .

وتحدث عن تفاوت الناس في العيش ومقداره بفصل « لؤم المال ووهم

التعاسة « كما عرض للحياة والسعادة بفصل وجدها فيه » لم تعد في إشباع العواطف ،  
وتغذية الشعور ، وليست في موضعها الذي هو بين الضمير والعقل « ذلك أن  
السعادة في رأيه « كل ما استشعرت النفس أنها زادت فيه » .

وكان قد كتب للبيان مقالة يصف فيها « البخيل » قدم لها بمحدث الشيخ  
علي وأتبعها بقصة مترجمة صاغها بأسلوبه الشعري ، وتصرف بها ، مصوراً مأساة  
جميلة ساذجة مع كونت غني بخيل في فصل « سحق اللؤلؤة » .. وقد حول  
بعض مشاهد القصة الى صور بيانية هائلة نفذ فيها الى الحب وفروقه بينهما  
في الحفلات والمراقص ، والموسيقى وعلى المائدة ، وشهر النحل .. ثم ختمها  
بقولتين على لسانيهما .

الفقر خلو من المال ، ولكن أقيح الفقر الخلو من العافية - فكتور .  
الغنى أن تملك من الدنيا ، ولكن أحسن الغنى أن تهنأ في الدنيا - لويز .  
ومن اتمتع فصول الكتاب ما كتبه عن « الخط » تلك الكلمة التي وجدها  
« يستوي عندها خطأ الانسان وصوابه » .

ثم تحدث عن الحرب وجبهتها الشيطانية والالهية ، .. واتبع الفصل بقصيدة  
« على الكواكب الهاوية » التي حكى فيها قصة حسناء افقرتها الحرب وكيف  
تلقاها الحقيقة :

وكم قيل إنسانية ومحبة وعلم وتمدين ، وأشباهاها الكثير  
فلا تخدعوا الانسان عن نزعاته فما الناس إلا ما أساءوا وما سرّوا  
ولا بد من ضدين في كل حالة وبينهما إما النجاة او الأسر ..  
ونقل في الطبعة التالية فصلاً في الجمال والحب عن كتابه « السحاب الأحمر »

الذي وضعه لمساكين الحب ، لمناسبته مع هذه الفصول ، ..  
واختتم الكتاب بمقالة « الدين ولادة ثانية » ترك فيها الشيخ علي لينقل  
عن نفسه باعتباره صاحب المساكين !.. وقد وصف أغرار دعوة التجديد ،  
فوجدهم أحد أربعة ، الأول ملحد أديب معني بجمع كل نفيس من الكتب ،  
ولكنه يزعم أنه نبذ الدين بالخلق ، .. والثاني متفلسف انقلبت عقيدته الى زيغ  
فله رأيان في أمور الحياة ، يستمتع بالحرام والحلال ، ثم يرجع الى ضميره فيتألم !!  
والثالث ، يزعم أنه مصلح يركب الناس بمزاعمه وخرافاتهِ وبث أوهامه ، ..  
والرابع جعلته الكتب عالماً وقسمت له ما شاء ، ولكن الله لم يقسم له شيئاً !!  
ولو مد الله في عمره ، لآضاف الى المساكين مراته لسعد زغلول « أكانت  
مصر في حلم .. وهذه دهشة الحلم » ، .. ودموعه في « وحي نعش زين الشباب  
امية الرافي » ومرثاته لمحمد نجيب باشا والملك فؤاد .. الخ .

• • •

#### ٥ - النشيد الوطني المصري :

وضعه نابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها ، ونشرته المكتبة الأزهرية  
بمصر عام ١٩٣٩ هـ - ١٩٢٠ م وصدر في ٩٦ صفحة من القطع المتوسط .  
حين نهضت مصر عام ١٩١٩ م تنشد استقلالها ، تلفت القوم يبحثون  
لهم عن هتاف يكون لسان الثورة والغداء ، وسبقت المرحوم جعفر والي بين الشعراء  
لنظم نشيد وطني ، فتقدم الرافي بنشيدهِ :

الى العلاء .. الى العلاء : بني الوطن الى العلاء .. كل فتاة وفتى  
الى العلاء في كل جيل وزمن فلن يموت مجدنا .. كلاً ولن

وفي مقطع منه يثير الأدباء والفقهاء معاً حيث يصور الوحدة الوطنية :  
إيماننا كنيسةً ومسجداً دين اتحاد للبلاد وهدى  
وكل ما في العمر يوماً وغداً وكل ما نملك للمجد ثمن  
وحدث أن اللجنة حاولت أن يسبق نشيد أحمد شوقي - رح - فما كان  
من الرافي وجريدة الأخبار غير الثورة على اللجنة وشوقي نفسه بمحركة أدبية لها  
مكانها من تاريخ الأدب الحديث .

وقد كتب عن نشيد الرافي أساطين البيان ، وفحول السياسة ، والأدباء  
فعمد الرافي الى هذه الكلمات يجمعها كلها - وهي من وحيه وإملائه - فأخرجها  
في السكتيب هذا .

على أن النشيد هو أحد أغاريد الرافي القومية الموفقة ، التي كان لها  
دوي خاص في النهضة المصرية الحديثة .

\* \* \*

٦ - اسلمي يا مصر - نشيد سعد زغول :

صدر عام ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م ، في بضع وستين صفحة عن المطبعة السلفية .  
كان لتوفيق الرافي في النشيد السابق ، ولظهوره على نشيد أمير الشعراء  
أحمد شوقي ، .. ولتطور الحركة الوطنية ، وبروز سعد زغول على أساس من  
الواقع الفعلي في النهضة ، .. ما حفز الرافي على المضي في هذه السبيل التي اختطها  
لفنه الشعري المررد شعارات على أسنة الجماهير .

ولا سيما أن ملاقاه من إقبال أبناء الأمة ، ورجال نهضتها ، قد بعث  
فيه الهمة لكي يعود الى موضوعه « أغاني الشعب » التي حاولها غير مرة .

ويوم نالت مصر الحديثة حظاً من الكيان الجديد ، وأضحى لها دستور  
أرسل الرافي نشيده يقول :

إسلمي يا مصر .. إتني الفدا      ذي يدي إن مدت الدنيا يدا  
أبدأ لن تستكني أبدأ      أني أرجو مع اليوم غدا  
ومعي قلبي وعزمي للجهاد      ولقلبي أنت بعد الدين دين  
لك يا مصر السلامة      وسلاماً يا بلادي  
إن رمى الدهر سهامه      فأتقيها بفؤادي  
واسلمي في كل حين

وقد طبع مراراً ، وأنشد في حفلات وطنية ، تبارى رجال الفن والموسيقى  
في أساليب تلحينه ، وبث أنغامه ، وترديده ، فكان من وسائل الدعاية لأدب  
الرافي نفسه بالإضافة الى مكانته في الروح القومية .

وعلى هذا الأساس أخرج الرافي النشيد في طبعة خاصة ، قدم له فيها الشيخ  
محب الدين الخطيب فقال فيها « إذا صاغ الشاعر معنى من معاني القلوب في أبيات  
كان ذلك لسان الأفتدة وقيثارة العواطف .. والنشيد بعد فريدة من الفرائد  
التي يجب أن تترنم بها الحناجر ، وتشترك في تصويرها أعصاب القلوب وأوتار  
الموسيقى حتى تكون أنشودة العاطفة الوطنية من ينبوع النيل الى مصبه » .

وأتحفه شيخ العروبة أحمد زكي ( باشا ) برسالة تاريخية مسهبة في الموسيقى  
والأنشيد وفعالها في النفوس ، .. آتياً على صيحات العرب ونخواتهم وما لدى  
الفرنجية من أوضاع الشعارات ، مبيناً أهمية النشيد القومي للأمة .

ولما كان موضوع النهضة ما يزال على أوجه ، .. فقد ألحق به رسائل

أخرى وفصل مشور وصف فيه كيف أن روح العظيم تبث في النفوس من أشعتها  
فنعظمها .. وقال في سبب عروبه الفصحى :

« نحن نريد إرجاع اللغة الى منزلتها الأولى أو قريباً منها ، إذ القوة  
والحماسة من استعداد النفس بالتربية الوطنية للتأثر ، والعمل على تربية النشء  
تربية لغوية .. إذ ليس النشيد لهذه الأيام .. ولكن للشرق كله » (١) .  
وهكذا كان .. رحمه الله - يتوخى العربية الفصحى في الأغاريد لتكون  
اللسان القومي الجامع للأمة في شعاراتها ومردداتها وأسلوب تفكير أبنائها .  
على أن خير ما في هذين الكتابين سيجتمع في « أغاريد الرافعي » بإذن  
الله وتوفيقه

\* \* \*

## ٧ - رسائل الأحزان

مرّ بنا في الفصل الذي تحدثنا فيه عن الحب في حياة الرافعي ، شيء من  
خبر هذه الرسائل ، حيث كانت تقنازعه الأفكار ، وتنتال عليه المعاني فيحاول  
معارضة جوته في آلامه ، أو كتابة قصة شقاء وحزن وهوس ..  
ثم « حدثت له أمور غريبة قطعة عن كثيرين ، وكانت رسائل الأحزان  
نتيجة لها » (٢) .

زعم أنه تلقى هذه الرسائل عن صديق « إجتمع من تاريخه إنسان بلغ  
الزمن تحت عينه نيّفاً وأربعين سنة ، تلك السنة التي ينقلب فيها الأدمي من

(١) لغوي - المقطم - ٢٦ شباط - فبراير ١٩٢٣ م .

(٢) رسائل الرافعي ص ١٦٨ .



وفرة القوة ليثناً ، ويرجع من قوة الحكمة نبياً ، ويعود من تمام العقل إنساناً « (١) ..  
غير أن هذه الأربعين بما تعاورت عليه ، قد هدم فيه بعضها بعضاً ، فجاءت  
« هي » تبنيه وتشد منه وترمم بعض نواحيه المتداعية ، وتقيمه بسحرها  
بناءً جديداً .

فتحدث عن الذكرى ببقايا آلام كأنها أشلاء من فريسة تشير الى تاريخ  
من الموت والألم والتمزيق ، تركته يتحدث عن أنه أحب فتاة كأنها قصيدة  
غزلية في ديوان ..

وفي رسالة قال : « الحب الصحيح إنما هو كالطفولة ، لا تعرف الفتى إلا  
شبيهاً بوجه الفتاة ، حالة متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيء  
الحس فيها إلا من جهة القلب » (٢) .

وكانت « حيلة مرآتها » موضوع الرسالة الثالثة في قصيدة من أروع شعر  
الغزل وأصفاه روحاً ، وأجددهً ديباجة ، وإن التزم فيها ما لا يلزم من القافية :  
حسناء خالقها أتم جاهلها      سألته معجزة الهوى فأناها  
وبعد أن أفاض في وصفها ونعت حسننها ، عرض لها أمام المرأة ، بعد أن  
لم يجد لها مثلاً في غيرها وقد :

نظرت لها حسناً إذا ما احتل في      دول النهى سلب النهى استقلالها  
فتذكرت شمس الجلال متيماً      تركته من فرط النحول هلالها  
ورأت صفا المرأة يشبه قلبه      مها تحمّله يكن حمّالها

(١) رسائل الأحزان ص ٢١ .

(٢) «      » ص ٤٧ .

الى ان يقول :

كادت تقول رضيت عنه فأمسكت ومضت على عجل لتخفي حالها  
أواه .. لو مرآتها نجحت ولو فها تبسم عند ذلك وقالها  
واستعرض الصورة الأدبية في الحب وقد رأها : « تريد أن تجمع الى صفاء  
وجها وإشراق خديها وخلابة سحرها ، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن  
المعرض وجمال العبارة » وحسب أن الحب عندها كالكلمة التي يكتبها أو المعنى  
الذي تتخيله » (١) فكأنه يريد البلاغة بفرن جديد ..

وتدركه المقارنة بينها وبين القمر ، فيذكر لبنان وأيامه :

يا نفضة الجنات من تلك الربى كم ذا بطول تلهفي وهيامي  
وفي رسالة اخرى تحدث عن فتنها التي خلقت الهوى في امرأة ، ..  
واكتشف في الرسالة الثامنة أن « الرجولة والضمير والدم الكريم - وهي عناصره  
هو - اذا اجتمعن في عاشق هلك بثلاث : بتسليط الحبيبة عليه ، ثم فتنته بها ،  
ثم إنقاذها منه - وكل ذلك هلاك - إلا أن شرف الهلاك خير من ندالة الحياة » (٢).  
وفي التاسعة تحدث عن القلب الكريم المتألم فكان قلب مجنون ليلى  
هو المثال .

وفي العاشرة أراد أن يسمي الجمال بعلم تجديد النفس ، ففيها الفكر والجمال  
وفيه الخيال والحب .

والأخرى وجدها تخشى غضبه ولكنها تراه يحمل اليه ملك الوحي الذي

(١) رسائل الأحرار ص ٦٨ .

(٢) « « ص ١٠٣ .

لا ينزل عادة إلا في جو من البرق والرعد .

ونقل من سطورها وحديثه محاورة ، فيها نشوة الحب المفتون بـ « قلت وقالت » .. حتى لمست روحه روحها في الرسالة الأخرى ، حين وجد اللغات تعجز أحياناً فلا تحسن التعبير .

والرابعة عشرة في الورد ولفظها له وقد تضامت شفتها كأنها تهم بقبلة ، حسبها تقول له اسمه ، ..

وفي الرسالة الأخيرة قال « كل ما سطرت كان عجاجة ثائرة في حرب الهوى ، ليس تحتها في حومة القاب إلا ألم كضربة سيف او طعنة رمح او كية برصاصة ملتبهه » (١) ص ١٥٧ .

وقد رأى « أن مس » استقلال دولة من الدول العظمى قد يكون أحياناً أيسر وأهون من مس استقلال نفس من النفوس السكرية » ..  
ولكن « ساعة من الضعف الإنساني تنشيء للقلب تاريخاً من العذاب » .  
فقد كان في « تدبيره والرأي فيه كمن يؤرخ عهداً من شبابه بعد أن رقت سنه ، وذهب يقينه من الدنيا ولم يبق إلا ظنه ، فهو يكتب والكلام يحن لديه والقلم يئن في يديه » .

قال الغافلون اني اتكلف لها خيالاً ورواية ، وقال العاشقون إنها كلام قلوبهم ، وقال الذين يفهمون الكلام : إنه هو في كلامه ! وكنت في ذلك شاعراً ، وحب الشاعر لا يخلو من الوزن .. ووقع القضاء في الحب على الفدر « (٢) .

(١) راجع الرافعي — الرسائل ص ١٦٨ .

(٢) الرافعي — السحاب الأحمر ص ١٢ .

والكتاب بعد محاولة قومية في تجديد البلاغة العربية ، وسمو بعاطفة الحب في صورة من التحدي الاعتقادي ، والانتصار البياني والاشراق الروحي ، . . . وقد ضمنه الكثير من الحقائق العلمية . ولكن لم يدرك ابعاده الكثيرون . وبالرغم من طبعه غير مرة ، فإن تاريخه لم يكتب (١) .

## ٨ - تحت راية القرآن

### المركة بين القديم والجديد

كتاب في أربعمئة صفحة من القطع الكبير ، طبع غير مرة . جمع الرافعي فيه مقالات له عن الأدب في الجامعة المصرية وسواها ، وأضاف اليه فصولاً من ملاحظاته للدكتور طه حسين وكتابه « في الشعر الجاهلي » . وقد نبه فيه الى العمل على إسقاط فكرة خطرة ، ونزع في اسلوب الكتاب الى منحى بياني يديره على سياسة من الكلام بعينها ، .. « ولو كان اصحابنا غير من هم في الأثر والمنزلة لكان اسلوبنا غير ما هو في النمط والعبارة » ص ٣٠ . وقدم له بدعاء ، وقد رأى فئة « المجددين » يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعاً ، وأن أستاذ الجامعة إنما يقلد الهدامين من جبايرة العقول في أوربة ، وأنه وأمثاله غلطات إنسانية تخرجها الأقدار لتعارض بها صواباً كاد يهمله الناس . وفي المقالة الأولى - التي كانت رداً على سلامة موشي حين نخله زعامة المذهب القديم (٢) - تحدث عن مفهوم القديم والجديد بغير قليل من المقابلة والتحدي ، والإيجاز على دعوة التجديد وطيشها وجهلها ..

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٦٨ .

(٢) الهلال - يناير ١٩٢٣ م .

وفي الثانية تحدث عن الميراث العربي ، وكأنما امتد بها قومياً ليكمل شيئاً مما فاته قوله للمجددين الجبهة .

وفي الثالثة وضح هدفه في « الجملة القرآنية » وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في تربية المسلمة وإرهاق المنطق وصقل الذوق .. فلا يسف إلى الرطانة الأعجمية ، فيتبع الترجمة في الجملة الانجليزية !.. وقد تلقى تعقيماً من الأمير شكيب أرسلان على هذه المقالة المتحدية يكشف فيه عما « وراء الأكمة » .

ثم ينتقل إلى موضوع الفصحى ، فينقل رده على لطفي السيد ودعوته إلى العامية المصرية الذي كان قد نشره افتتاحية للبيان عام ١٩١١ م .

وفي هذا الرد البليغ كان قد قرر « إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطى هذا البسيط » ص ٤٧ .

وبثبات قومي هادف يقول « ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس ، وردم إليها ، وأوجبها عليهم .. لما اطرد التاريخ الإسلامي ، ولما تماسكت أجزاء الأمة ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية » .

وكان قد أتبع ذلك بمقال آخر في « تمصير اللغة » سخر فيها من دعاة الصلح بين اللغتين : الفصحى والعامية ، « وليس عندنا في وجوه الخطأ اللغوي أكبر ولا أعظم من أن يظن امرؤ أن اللغة بالمفردات لا بالأوضاع والتراكيب » ص ٥٦ حتى صرح بقوله « لن نجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة ، .. وإن أصحابنا لا يجهلون أن الأصل في التربية بالحمل على الأخلاق وعلى روح الأمة التي تتميز بها » ص ٦٣ .

وكان قد أجاب جريدة السياسة عن سؤالها ما الجديد وما القديم ؟ وقد رأى « فئة من الصحفيين ترى في كلمة الجديد معنى بديعاً من معاني » لفئة الاعلانات » وهذه لا تبالي ما ينفع مما يضر .. ولكن ما يروج وما يكسد ، فالجديد عند هؤلاء إنما هو كذلك في تسميته ، أما في معناه فهو جديد « أمريكياني » !! من الخلط والركاكة والتحامل والظعن والعيب .. من أساليب جراميق أمريكا .. الخ .

ثم انتقل الى موضوع الأدب العربي في الجامعة المصرية ، ومهد له تاريخياً ، بما ثبت فيه أنه السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة .  
ففي المقال الأول عرض لما نصّ في دستور الجامعة على نوعين من الآداب الأجنبية وليس بينها آداب العرب ، .. ورأى أن الجامعة لن تكون مفلحة في الأدب إذا هي لم تحيي ذلك العهد من الرواية بأنواعها بحثاً وشرحاً وإيراداً وتمحيصاً .. « فإن الأمة لا تحيا إذا ماتت لغتها ، ولن تموت لغة أمة حية .. وما دامت العربية على أصلها فأدبها ما أخرجت لنا السلف ، لا ينقص منه ولكن يزداد عليه بما تمثله الأيام ، وتبدعه الأفهام ، وتستأنفه القرائح ، وتتدبره العقول ويمحصه التحقيق ، وتبدعه مذاهب النقد .. » ص ٧٥ .

والمقال الثاني كان جواباً على خطاب صديق تحدث فيه عن طريقة التأليف الميثة في « الأدبيات » او التحرير بالمقص .. وكيف يتبها الكتاب الممتع في الأدب ، الذي يوفي على الغاية ..

ثم نقل مقالة الأستاذ عباس فضل في « الدكتور طه حسين وما يقرره » التي كانت سبباً في إسقاطه ما كان قرره عن الشعر الجاهلي ، .. بما تستطيع أن

وتقل كذلك مقالة الأمير أرسلان « التاريخ : لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم » وقد كان احتال على الدكتور طه حسين محرر الصفحة الأدبية في السياسة برسالة ورطه بنشرها ، وقد سخر منه ومن أسلوب تجديده بما يثير الضحك والاشفاق معاً ، بحيث تقع يدك على مكان التمزيق من تلك المرقعة !

ويظهر أن الدكتور طه حسين كان يحمل في صدره ضغينة ما على الرافي وما قد خشي على نفسه من أن يقرر كتابه « تاريخ آداب العرب » على طلبة الجامعة ، فلا يتبأ له استيعابه ، او الطراد مع أشواطه ، .. فكان منه أن أشهد الله والناس على أنه لا يفهمه ، .. ويوم أخرج الرافي « رسائل الاحزان » عاد طه الى علة فهمه ، .. فما كان من الرافي غير الرد بقسوة ، شبهه فيه بدءاً بكيسان مستملي أبي عبيدة الراوية ، الذي كان يكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ ، .. وعلل ذلك بثلاثة :

« إما طبيعة في النفس مبنية على المكابرة والمراء في اللجاج والفسفسطة كما يفعل أهل الجدل في غلبة ثرثرة ، .. وإما طبع مستوخم في الخيال والفكر ، لا يرتفع وإما يسف ويخبط ، .. وإما عقل لا كالعقول .. » ص ١٠١ .  
ثم مضى يناقش نقد طه مناقشة علمية ومنطقية أظهر فيها علله جميعاً ..

ومن هنا تهيأ الرافي للملاحقة طه ، وكأنه كان ينتظر ظهور كتاب « في الشعر الجاهلي » فوجه الى الجامعة المصرية خطابين مفتوحين أخرجها فيهما بأسئلته ، ومقالين آخرين « وشهد شاهد من اهلها » و « فلسفة كضغ الماء » كان قد نشرهما في « كوكب الشرق » وقد ضايق بهما أهل السياسة والجامعة معاً ، .. في حكاية طه وكتابه وعندما تهيأ له يقرأ الكتاب أدرك طه متمثلاً بقوله

بقوله تعالى « قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة » الآية . فقد لاحظ عليه تلاعبه بالنصوص بالحذف والاصلاح ومتابعته لخدعة المستشرقين بالعلل الخلقاء .. التي يتجرأون فيها بالكذب على التاريخ ، وزعمهم أن النبي نهى عن رواية شعر النصارى ، واليهود .. الخ ، . وكيف ان طه غير أمين في نقله عن ابن سلام والمرزباني وسواهما ، . وفج له دعواه في التجرد من دينه عند البحث وقد ناقشه بعلمية ومنطق في كثير من موضوعاته وأحكامه .

وعندما لج زبانية طه في طغيانهم استعدى الرافي مجلس إدارة الجامعة وهيئة كبار العلماء « على أستاذ الآداب ، بسبب من موقفه من القرآن الكريم في كتابه ، وأبرز لهم تخطيطاته ووقاحاته ، وما تورط فيه من آراء فكرية ، . . . حيث تبين له انه « مجموعة اخلاق مضطربة وأفكار متناقضة ، وطباع زائفة » ص ١٥٦ .

ثم مضى يؤرخ للمعركة في جبهاتها وكيف طارد العلماء الإلحاد ، ورأى لجنة العلماء في الكتاب ، وكتاب طه الى مدير الجامعة نفسه بعد ما أدركه الفرق وحرارة موقف الوزارة والجامعة .. الخ حتى « قد تبين الرشد من الغي » ص ٢١٣ . ومن تحقيقات الرافي في هذا الشأن ما زعمه من نسخة فريدة من كتاب كلية ودمنة يحتفظ بها ، فأراد أن يتحف القراء بقصول منها ، مبالغة في التهمك والنقد والايذاء ..

وعندي أن لو مد الله في عمر الرافي لعمد الى هذه الفصول مستخرجاً النقد العلمي الوثيق ، مطرحاً تلك الاستطرادات والعواطف ، .. إذ لو تجرد الكتاب منها لكان نقداً لا يبقى لظه ولا ينذر ، .. ولكن هكذا كان فالدكتور طه حسين



رجل محظوظ حقاً كما يقول الرافي ، ..

وعسى أن تتمكن من توزيع بعض مقالات الكتاب على أبواب  
(وحي القلم) التي تهتم بها بإذن الله ، .. ليكون كل شيء عند موضوعه  
٩ - السحاب الأحمر

بضعة وثلاثون ومئة صفحة من القطع الكبير - وقد طبع عدة مرات  
قدم له بما شرف فيه عن قصة حبه التي حاول عرضها في « رسائل الاحزان » وأرخ  
له من شبابه بعد أن رقت سنه ، .. فأعطى الأدب الحديث روحاً من البيان ،  
ومده بدفقات من المعاني ولوحات من الصور ، وآيات من الفن .

ثم إنه عاد يستمطر « السحاب الأحمر » معاني أخرى ، يستوفي فيها  
السكلام عن الحب ، ويستمد الالهام من أرواح أخرى غير الروح التي أملت  
عليه الاحزان ، .. فكان في هذه الأرواح الحبيب الحلو ، والبغض القبيح ،  
والصديق المؤمن ، والمنافق الأثيم ، والمظلوم والظالم لنفسه ويستمد كذلك ممن  
عقله وقلبه ، ومن حبه منفعته ، .. حتى يشهد أنه في بعض فصوله كان يحامي عن  
الحب أن ينتقص فيدير الكلام على ذلك فيلتوي ، .. ثم يراه لا ينقاد ولا يتابع  
إلا على خلاف ما يريد .. حتى جأ بالشكوى :

من للمحب ومن يعينه      والحب أهنوّه حزينه  
أنا ما عرفت سوى قسا      وته ، فقولوا كيف لينه  
قلي يجب وإنما      أخلاقه فيه ودينه

.. وفي كلمة سبق بها فصول الكتاب اكتشف حقيقة عليا حين يضجر  
أهل الخيال من الخيال فلا يصلحهم إلا الحب ، لأنه ناموس التطور للقوة المتخيلة ،

فالمرأة تلد الانسان ، ولكن حبها النابغة .

ويعقد الفصل الأول للقمر الطالع، ويستهله بآية النور الكهربائي التي يكتب على ضوئها وقد طارت منه نظرة رأى فيها حسناً ، كأنما تتناثر ضباباً من بخار الذهب ، ٠٠ وراعه أن ينقلب النور متضمرماً ثم يعود لجة من « السحاب الأحمر » كالحب المتوهج يملاً فراغ القلب .

ثم إذا بالسحاب الأحمر يعطر عليه بالحواطر والكلمات ، فتعود به الذاكرة الى فتاة عرفها في ربوة من لبنان ، كانت روحها عطرة تنفح تنفح المسك إذا تشامت الأرواح الغزلة بالحاسة الشعرية « ص ٢٤ .

وقد تمخض فتاته تلك المثال ، فما نظر الى النساء حولها إلا وجد من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعف ، فهو يعقد المقارنة بينها وبين من أذاقته عمراً من الأحزان .. بعد بضعة عشر عاماً ، .. فينازعه الحب في قلبه .

« إن من المرأة ما يجب الى أن يلحق بالإيمان ، .. ومن المرأة ما يكره الى أن يلتحق بالكفر .. » ص ٢٩ .

وفي الفصل التالي تتثال الحواطر عليه فيرسلها - النجمة الهاوية - في طائفة من النساء يدرك بعدها أن « في المرأة حقيقة ، لا تعرفها إلا بفكر رجل ، .. وإلا أساءت الى حقيقتها » ص ٣٣ .

« يا هذه لا أدري ما تقولين ، ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة الى أن يغسل بالماء والصابون .. وهيهات .

وهناك فصل « السجين » الذي يعد من أروع فصول الأدب الانساني الذي يتسامى فكرياً بمعالجة مشكلة اجتماعية خطيرة ، وقد عرض لمأساة بعينها ،

وصور فيها السجين وهو يودع ذويه من وراء شبك الحافلة ، .  
« .. أما اهل الرجل فتهالكوا وراء العربة ، فالشباب يخطف عدوه خطفاً  
منكراً ، كأن قربه منها يوصل بعض أنفاس الحرية الى أخيه ، .. والنسوة يهتلكن  
في جريهن ، .. وكلما أبعدت الحافلة علاصر اخهن ليبلغ السجين منهن شيء ما ، ..  
أما الطفلان وجدتهما فوقفوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم ، .. أما الرضيع  
هذا اليتيم في حياة أبيه ، الذي تُدق فيه مسامير الفقر واليتم والضياع ، .. فكان  
وحده دليلاً على الامل الانساني في رحمة الله .. إذ فتح عينيه للنور وابتسم ! ..  
ما الفراق إلا أن تشعر الارواح المفارقة أحببتها بمس الغناء ، لأن  
أرواحاً أخرى فارقتها » .

وفي فصل يتحدث عن طاعون الزواج في جنس من النساء تكون زوجة  
ولا كالزوجة نفسها ، .. فهي البغي - الربيطة - التي بأجر او بعقد مدني او متعة  
( زواج عرفي ) في بيت رجل ! .. وقد أجهز فيه على واردات أوربة ونقله رذائل  
مدنيتها ، ممن اضافوا لرذائل الشعوبية تاريخاً حضارياً آخر .

وعقد فصلاً ممتعاً حقاً للمناقق فقد حسبته فيه « سياسي الحب والصدقة  
يضع المنفعة بين عينيه ثم تتوزع على جوارحه كل اساليب الكلام والعاطفة » .  
ثم يقسم أنه ما رأى كالمناقق رجلاً « إلا ذلك الواقف يدبر وجهه بين  
مراي عن يمينه وشماله ومن ورائه وبين يديه ، فله في كل واحدة وجه ، وبتعدد  
الرجل وهو شيء واحد » ! .

وبخيل إلي أنه كان يصف فيه مجموعة الساسة في تلك الأيام - وهو يستمدده  
معاني الحب في نفسه ، وكيف تتبدل القيم الانسانية العليا عندهم .

أما الصغيران من أبناء الأديب المدمن ، فقد شغلاه عاطفة ، وانفجر قلبه  
آلاماً وسروراً ورحمة لها في ساعة واحدة ، .. وقد أضحكه منها اصطحابها وأمهما  
لأبيهما السكير من سقطته في ساقية المدينة .

ثم تطل عليه روح الشيخ علي الجناحي فيستلمها أيضاً من الأفكار في الحب  
والمرأة ، وشهوات الناس ، وأمزجة الأمم .

أما صفيه الشيخ أحمد الرافعي فكان حزن الرافعي عليه عظيماً ملاً عليه  
الفصل الثامن كله « فقد كان دينه غضاً كهده الدين بأيام الوحي ، لا تزال تحفه  
رقة قلب المؤمن ، وفوقه رقة جناح الملك يخالط نوره القلوب » ص ١١٧ .

« آه لو عرف الحق أحد لما عرف كيف ينطق بكلمة تسيء ، ولو عرف  
الحب أحد لما عرف كيف يسكت عن كلمة تُسرُّ ، .. ولا يكون الصديق صديقاً  
إلا إذا عرف لك الحق وعرف لك الحب » .

وحين تأق بسحابه على روح الشيخ محمد عبده كان يشعر وكأنه « مرتقي  
في صعداء مطلبها طويل بعيد ، .. فلا يخطو خطوة إلا مدافعاً جاذبية الارض » ص ١٥ .  
فقد كان للشيخ الإمام عقل لو وُزن في رجحانه لعدَّ بين العقول من  
موازن التاريخ ، وقلب إن يكن في جنبه كالقلوب التي وُضعت على منحدر  
المعاني الارضية فانه كان دون القلوب على مهبط السموات ..

وهكذا يستلمهم هؤلاء جميعاً معاني الحب ، وفكر آ في النساء ، وخواطر  
للناس ، وحكماء وروائع في الحضارة والحياة ، وآراء ونظرات في الاجتماع الانساني  
بصورة من البيان ، تدق أحياناً حتى لتستغلق ، وتصفو حتى تتصل بال لوح !

وقد عقب على ملاحظات المقتطف بما كشف فيه شيئاً من هدفه القومي  
في هذا النحو الممتاز من الفن البياني ، والادب الاعتقادي البار

١٠ - على السفود

نقد تحليلي - الجزء الاول - دار العصور - كانون الاول - ديسمبر

١٩٣١ م .

كانت للرافعي يد على الفتى الأسواني - عباس محمود العقاد (١) ولكنه  
ما كاد يشب عن الطوق ، ويتعلق بأذيال السياسة يتشبث بها متسلقاً بالكتابة  
والترجمة لصحفها .. حتى تنكر لجيل من أدياء العصر ، بصورة من التصدي  
والمكابرة والانتقاد المؤذي ، .. ونال الرافعي فيمن نالهم قلمه السليط (٢) .

وقد أهمله الرافعي في باديء الامر ، حتى لجَّ في التحرش ، وحاول  
الخصومة غير مرة (٣) وكان آخرتها رأيه في الرافعي وكتابه إعجاز القرآن ، التي  
كان منها سقطته العلمية التي لم يستطع القيام منها حتى إخراج « الفلسفة القرآنية »  
.. وكانت فرصة اهتبلها الرافعي لينال منه نقداً وإيداءً ، ويجهز عليه من  
ثم ، .. فعرض عليه المرحوم اسماعيل مظهر أن ينشر مقالات نقدية فيها تحليل

---

(١) راجع البديري - رد على تعقيب الأقلام - الجزء الأول - ١٩٦٧ م .

(٢) أنظر العقاد - الديوان - الجزء الثاني - أبو عمرو .

(٣) حاول مرة أن يدس أنفه بين الرافعي وسلامة موشي عام ١٩٢٣ م ،

وأخرى بينه وبين طه حسين في موضوع « الشعر الجاهل » .

وتدقيق يتناول العقاد وديوانه بمنهاج علمي يعمل فيه على هدمه جملةً وتفصيلاً .  
وحين اجتمعت هذه المقالات في « العصور » على دورة العام أخرجها ،  
متغافلاً عن مكانة العقاد من حزب الوفد ٠٠١ وقد سماها بصورة شيخ غليظ  
القلب ، وضع طفلاً في سفود - سيخ - يقلبه على النار والشواظ كالذي يشويه :  
وللسفود نار لو تلتقت بجاحها حديداً تُظن شحماً  
ويشوي الصخر يتركه رماداً فكيف وقد رميتك فيه لحماً؟!  
إمام من أئمة الأدب

ويبالغ في السخرية والتهمك فيجتزئ كلاماً للعقاد نفسه كان قد نشره  
في جريدة مصر عام ١٩٢٩ م يتخذ منه كالمقدمة للكتاب ، ايدور بفصوله من  
حولها ، حيث يقول العقاد :

« وفي الغرب طائفة من أدياء الفكر - مثل العقاد - يسمونهم ( انتلجنيزيا )  
ويعنون بها المتحذلقين والمتفقيهن ، . . وهذه الطائفة على شيء من بريق الذكاء ،  
وقدرة على التلفيق والانتحال ، . . يفترون بها من ينخدع بشقشقة الاسان وسلمات  
الوقار ، . . فهي سطحية ، لا تنفذ الى قرار ، ولا تحيط بفكرة ، ولا تفهم شيئاً  
على استقامته الطبيعية ، لأن الفهم عمل يشترك فيه الادراك والذكاء والنوق ،  
والفطرة والبصيرة ، . . وليس عند هذه الطائفة من هذه غير وميض الذكاء  
والتلفيق - دون الاستيعاب .

إن أنانية هؤلاء المجرمين عمياء ، لا تدرك أن الإحراق يؤلم ، حتى  
تحرقها النار - نار السفود - وترمضها أيما إرماض ، . . الخ » .  
وبعد أن يعرض الرافي لمعنى السفود ، ويسبب استعارته في النقد

« لأن بعض المعرورين من أدباء هذا الزمن لا يصلح فيهم من النقد، .. إلا ما ينتظمهم ناراً كثار اللحم يشوى عليها، .. فقد أُعِينُوا من الصفاقة والدعوى والخداع ولوؤم الطبع والعُجب بما لا تدبير فيه إلا حال كنتك » .

ويعرف مظهر بالكتاب فيقول: « أن السبب الذي حدا بنا الى نشر (على السفود) أن نرضي ضمائرنا، .. بأن نفسح لعلم من أعلام الأدب، وحنة ثبت من رجات العصر أن يعبر في صراحة عن رأيه في أدب تميز بشيء من الصلف عرف به، وبقدر من الزهو والاغراب في تقدير الذات » .

إذ « من الأسف أن الطريقة التي اتبعتها الصحف في المدح والذم هي لمجرد النفع المادى، فسمي النقد تقريظاً، والاستجداء تقديرآ، والتمسح تقويماً، .. لهذا أردنا تحرير النقد من عبادة الأشخاص، ذلك الداء الذى كان سبباً في تأخر الشرق » .

وفي مقدمة هذه المقالات - التي هي عند الرافي مُسئَل وعينات تؤول الى حقيقة هذا الأديب من كل نواحيه، .. يـرجو أن تكون قد وجهت النقد فى الأدب العربى، وأقامته على الطريق السوية، ..

والرافي يبدو وكأنه يتوثق منهاجاً علمياً فى النقد كالذى يجده عند (جول لمر) وشعوره إنبىل القائم على الفهم، .. وما يقابله عند العقاد، .. فيعرض لأخلاق السوق عنده، ولطبعه الجلف، وسفاخته، وكيف يخاطب الأدباء بمحاثاته وكلماته .. وكيف أن الرافي أراد أن يواجهه بلؤمه فى مجلس المقتطف، فكأنما ألقى بحجر فى ماء آسن، حيث ثار العقاد فى وجهه، وكتب

له بخط يده يجبه بنعوب الوقاحة والبذاءات الاخرى ..  
فيذهب الرافي مع ( سنت بوف ) في تحليل كلماته هذه مع آثاره الادبية  
مستعيناً بها على أحواله العصبية وما في داخله الذي يصنع ما في خارجه ..  
ومع ذلك فإنه يقف قليلا ليقول : إن العقاد لورضي أن يقال عنه أنه  
( مترجم ) لأنصف نفسه ، ولكنه يزعم أنه لا عبقرى غيره ، وهو من أجهد  
الناس في اللغة العربية وأسرارها ، في علومها ، فيعود به الى ( الانتلجيزيا ) .  
ثم يتناول ديوانه بأجزائه الاربعة وطبعها الثانية .. فيعرض لفنون  
ونماذج من سرقات العقاد المترجمة ، التي يخفق في استياب المعاني فيها فيظهر  
كالمتلبس بها في الضحى ، ..

والاخرى التي يأخذها عن شعراء العرب ، فيكشف عن اضطرابه في  
النقل ، ويظهر سطوه غير الموفق ، بأن يتنقل في المعنى الواحد من شاعر الى آخر  
بأوسع ما في هذا الباب الذي ما غادره النقاد منذ أيام علوم البلاغة ، وكيف كانت  
تجري المعاني سائلة على السنة الشعراء الاقدمين وكأنها لا تغادر متردماً ، ..  
ولعل من أغرب ما في الكتاب تصديه لمعاني مترجمة عن آداب الامم  
الاخرى ، مما يدل بوضوح على أن هناك من يعين الرافي عليها ، من أصدقاء  
العقاد نفسه ٠٠١١

والكتاب بعد فريد في باب النقد الأدبي الحديث ، ولولا أن العقاد  
كان بادئاً بالتصدي والشتم والإيذاء ، .. لخلص من ظلم الرافي له بعبارات  
كان فيها بعض جواب على كلمات العقاد في الورقات ، والصحف ، .. ولو ترفع



الرافعي عنها وعف ٠٠ لهدم العقاد حقاً ٠٠١ ولا سيما في ملاحظته له في أفكاره  
نفسها ، ومسلّماته وآرائه ٠٠١

ويقول المرحوم العريان أن الرافعي لم يتصد للعقاد بهذه القسوة ٠٠ إلا  
بعد أن تجاوزت محرّشات العقاد حدّ الخسومة الأدبية واللياقة ٠٠١

• • •

ولقد تابع الرافعي نقده للعقاد في آثاره بعد هذا الكتاب ، تصدى فيها  
لكتابه عن ابن الرومي ، ولديوانه ( وحي الاربعين ) ٠٠ ولكن العقاد لم يستطع  
الثبات أمامه ففرّ من المعركة ناجياً بجلده بعد أن أضحي ( أحق دولة ) وقد  
اجتمعت لدي هذه المقالات جميعاً ، وعسى أن أتمكن من إخراجها في كتاب على  
حدة ، ليقف التاريخ الأدبي على حقيقته فلا يستطيع أن يطمسها مرجف ولا  
منافق م

\* \* \*

## ١١ - أوراق الورد

رسائلها ورسائله

ثلاثمئة و بضع عشرة صفحة - المطبعة السلفية ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م وأعيد  
طبعه مرات .

كتاب فريد في العربية ، يؤلف ديواناً من الرسائل تطارحها شاعر فيلسوف  
روحاني ، وشاعرة فيلسوفة روحانية ، ٠٠

صدره بتاريخ آخر جعله تكملة على كتابيه : رسائل الأحران والسحاب  
الأحمر ، وقال : إن فيها جملة آرائه في فلسفة الجمال والحب ، ٠٠

وما عرف أدب العربية رسالة كتبت من هذا الطراز ، على كثرة كتبها  
 وكتبها ، .. وقد دار الرافعي دورته المعروفة في تاريخه لآداب العرب يستقصي ، ..  
 فما وقف على اسم كتاب أفراد لرسائل الحب ، .. ومرّ على ننف ومستظرفات  
 لا تسمى رسائل حب ، . وإن حفل التاريخ برسائل الاخوان والوجدان والديوان .  
 وهكذا انطوى على محجوبة من هذا الفن بقيت في الغيب الى عهده  
 الذي رجا فيه أن تكون كتبه قد أظهرتها واستعلنت بها ، وأن تقول العربية  
 « هاؤم اقرؤا كتابية » ص ٢٨ .

وعرض لتاريخ الحب عند صاحب الرسائل الذي « كان عن نمائه وجماله  
 وطهره كأنما أزهرت به روضة لا امرأة من النساء ، وكان من مساهه وحلاوته  
 ولذاته البريئة ، كأنما أثمرت به شجرة خضراء تعتصر الحلاوة في أثمارها أصابع  
 النور ، فأنت لا تجد في هذه الرسائل معاني النساء متمثلة في امرأة تنصبي رجلا ، ..  
 ولكن معاني الحب والجمال متأهة في إنسانية تستوحى من إنسانية أو توحى  
 لها » ص ٣٢ .

« والحب الصحيح إذا سلمت فيه دواعي الصدر ، واعتدات به نوازي  
 الكبد وتوثق فيه عقد النية ، واستوى غيبه ومشهده ، .. كان أشبه بقوة سماوية :  
 تعمل لتبدع في الانسانية شعراً أسمى من حقائقها » .  
 والكتاب بعد « خالص للجمال بذاته ، دافع من الحب في خاص  
 معانيه » ص ٣٦ .

يستهل الديوان بنظرته إليها :

تالله لو جددوا للبدر تسمية لأعطي اسمك يا من تعشق المقل

كلاهما الحسن فتاناً بصورته وزدت أنك أنت الحب والفزل  
ويراها في بعض ساعات قلبه تظهر له وكأن سرّاً من الكون يتجلى بها ،  
ويقول له من عينيها : إلسني وانظري فيها « ص ٤١ .  
ويرى العطر الذي أهدها لها « سيعلم حين تسكبه على جسمها الفاتن أنه  
رجع الى أجل من أزهاره ، وأنه كالمؤمنين تركوا الدنيا ، ولكنهم نالوا الجنة  
ونعيمها ص ٤٥ .

ويوم بعثت اليه برسمها كتب يقول :  
« وهل في الحسن أحسن من هذا الوجه الذي يرف على القلب بأندائه ،  
ويتلألاً بنضرته ، حتى لكأنه خلق من نور الفجر ، وكان علامة الفجر فيه إنما  
هي هذا الروح الذي يحيط القلب من وجهك ، بمعان كنسمات الصبح ، عليلة  
من شدة الرقة ذابلة من فرط الجمال ، مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس  
كأنها جو من شعور حي فرح لا نسمات في الجو » ص ٤٨ .  
وعلى أن هذه الرسالة جواب على رسالتها في ٢١ - ٦ - ١٩٢٤ ، فإن  
الهلال حين نشرتها ، رمزت لها بصورة تشبه « مي » الى حد كبير .  
ومن وراء البحر تتحدث اليه بحروفه ، وتحسب أن سعادة الفكر المتصل  
بها منه ، تخفف عنها بعض ما تجد ، فتقطع المسافة المترامية بقوة الأحلام وتتنهد :  
« الحياة مادة يا صديقي ، فاذا لم أقل كلمة واصمع ردّها أو أخط سطرّاً  
وأقرأ مثله ، فإن الفكر الذي يسعدني في كل شيء هو نفسه الذي يعذبني بك  
حتى لا أراك » .

فيجيبها : أما والله إن في دون هذا للبلاغة ، . . فكلامك بيان مشرق

كإشراق الضحى ، بل لا أراك تجمعين ضميري وضميرك معاً في كلمة .. إلا  
أحسست أنه لقاء بيننا في لفظ ..!

الحياة مادة ، فأين أنت يا مادة الروح المنسكبة في روعي ؟! ص ٥٧  
ويعود الى دمه الكريم يعتصر عروقه السماوية ليتضرم بالشعاع القدسي من  
أقصى التاريخ فيكون سرّاً من خلافة خليفة وملك ملك ص ٦٣ (١) .  
ليت شعري ! أتقوم العاصفة الهوجاء من خطرات مروحة الحبيبة ؟!  
ويقع الزلزال المدمر من رجرجة كلمة من فيها ؟! لا أدري .. ولكن ربما ..  
ولا يكاد يصور معنى من المعاني في حالتي الصد والهجران ، حتى يردفه  
بمعاني من الرضا والوصال ، .. وكأنه يقارن بين اثنيهما :

« تلك التي يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة (١) معاني الحب  
التي تملأ النفس بأفراح الحياة ، .. وهذه يستوحياها معاني الكبرياء والصد  
والقطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم » (٢) .  
فهو حين يرى القمر « طابع الله على أسرار الليل في صورة وجه فائن ،  
كما أن كل وجه معشوق هو طابع الله على أسرار القلب الذي أحبه » .. تهيمجه  
الأشواق فيدارها ويتأمل القمر (٣) :

---

(١) هكذا يعتقد بنسبه الكريم الذي ينتهي بالإمام العادل عمر الخطاب

(رض) كما مر بنا .

(٢) راجع العريان - حياة الرافعي ص ١٠٤ .

(٣) جواباً على رسالتها في ٢٠ شباط ١٩٢٥ م وقد حدثته عن « مي »

التي جرحته ليخرج عصاراة الأحزان ..!

يقول للعاشق المهجور مبتسماً خذني خيلاً أتى من تسميتها  
.. أما أنا فأتاني البدر مزدهيا وقال جئت بمعنى من معانيها  
وبعد أن يسأله عما جاء به - وهو صامت - .

كن مثلها لي جذبا في دمي وهوى أو كن دلالة وكن سحراً وكن تيبا  
فقال وهو حزين - ما استطعت سوى أنني اختطفت ابتساماً لاح من فيها  
ولا يكاد يتحدث عن « نظراتها » حتى يقول :

« لو سألتني من هو العاشق لأجبتك : من أحس أنه قذف به في  
الابتسامات والنظرات مرة واحدة الى مهبط السموات ، فيشعر أن نعيمه أهناً  
من نعيم أهل الأرض ، وأن عذابه أشد ، .. وكأنه إذ يتنعم لم يصب أسباب  
النعيم ، بل أسباب الخلود في الجنة ، .. وإذ يتألم يجد مادة نارية خالدة على  
قلبه » ص ٨٢ .

أما ألم الحب فذاك « حين يأتي على اللحم والدم معنى ، لو تجسم لكلف  
هو الذي يصهر الحديد في موج من لهب النار ، ويحطم انصخر في زلزلة من ضربات  
المعاول ، وهو الألم المدمر الذي يهدم ويبنى ، .. وأعظمه لأعظم الحكاء  
والشعراء » ص ٩٠ .

حقيقة الحب فيها .. ثم تظهر لي كأنني عالق منها بأوهام  
ويظهر أن « مي » كانت تشبهه بنا بعة فرنسي ولد في الحياة مراراً ، ..  
فيطرب لذلك ويرى « أن الشاعر العظيم تلد أمه منه الجزء الأرضي ، .. أما  
الأجزاء الروحية فهذه تلدها الحبيبات ومصائب الدنيا » ص ٩٧ .

و حين تجذبه فتنتها إليها يقول : « .. ومع جاذبية الألوان والعمور

في ثيابك وحلاك، .. جاذبية أعطر وأزهى في ملابس معانيك من العواطف ، وفي  
ملبس روحك من الدلال ولا يعدلك في هذه الفتنة الكاسية إلا السماء  
في فتنها للرجال الإلهيين حين تلبس حرائقها من شفق الصباح « ص ١٢١ .  
وفي نار الكلمة يتساءل : أكون الحب تنقيحاً في معاني الكون بالنفس

وخيالاتها! أم في معاني النفس بالكون! أم في كليهما!؟

وحين تضيق من بعض ظنه يقول لها « لا تزال حقيقتك وراء آلاف  
من ظنوني كأن لها معنى اختباء الوحش في ألغاف الغابة وأشجارها، .. ويستعير  
بعض كلامها ليقول : « فإذا رضيت فإنك جذابة بل متوحشة في الجاذبية »  
ويقابل بينها وبين الثقيلة ( مي ) فيحسبها واحدة « ٠٠ » وإن هجرت فانك في المهجر  
بلا رحمة ولا شفقة .. متوحشة متوحشة « ص ١٤٨ .

وحين تكتب اليه « أنا مقصرة ، أنا مذنبه ، فساح التقصير ، وأعف  
عن الذنب وأنظر الى العاطفة التي تأتي إلا أن تحترمك ، وأن تبقيك على عرشك  
الذي ملكته باستحقاق » (١) يسارع فيعقب :

أما قبل .. فقد اجتمعت عندك بالحب ، وكشف لي عن مخلوقات الكون  
الشعري الذي تملؤه ذاتي فلا ينقص أبداً ، ..

ورأيتك يا فجري وربيعي وشبابي وحيي .. فلن أنساك أبداً « ص ١٥٥  
وهكذا يمضي ، يصوغ هذا الآيات الفريدة في رسائل ، يمزج قلمها بقلمه ويحول  
لغتها الى لغته حتى يشرف على الغاية ، ..

ولا تكاد (مي) تهديه كتابها « ظلمات وأشعة » حتى يلقف فيها رسالتها ،

(١) رسالتها في ٢٧ كانون الأول ١٩٢٥ م .

التي تنتهي بقولها :

في أعماق نفسي يتصاعد لك الشكر بخوراً لأنك أوحيت إليّ ما عجز  
دونه الآخرون أتعلم؟! انت الذي لا أريد أن تعلم « ص ١٦١ .  
وهكذا يمضي في الموازنة بينهما ، في رسائل غاديات رائحات ، .. يضم  
اليها فكراً وخواطر مما يقنأثر بين معانيه ، ..

ومن بينها رسالة في العتاب ، كان قد بعث بها إلى جريدة « السياسة »  
فرأى فيها طه حسين أسلوباً لا يليق بالعصر ، فيناوشه الراقعي بمعركة الأسلوب .  
التي يجهز فيها على الترجمة ممن ارتضخوا رطانة العجمة الجديدة (١) ولكن  
رسالة العتاب تبقى فناً بلاغياً لا يستطيل الى مثاله هؤلاء .

تبلغ به الظنون حالة يريد فيها أن يسلو فلا يستطيع غير أن يهرع الى شجرات  
له عند النهر يقيم عندها « صلوات في المحراب الأخضر » ويتهل بمثل قوله :  
« يا من خلقتني إنساناً ، ولكنه قضى عليّ أن اقطع الحياة كلها أنعلم كيف  
أكون إنساناً » ص ٢٠٢ .

ولا يكاد يعودهن شتاء حتى يتندر القول :

لهفي لأشجار المحبة      مرّ فصل ربيعها  
جدّ الهوى في غرسها      ليجدّ في تقطيعها

ولا يكاد يحاول النسيان ويسدل الستار على الذكريات ، .. حتى يقتحم  
عليه طيف الحبيبة زائراً ، يهدم جدار النسيان الذي رفعته بينها وبينه :

(١) راجع أنور الجندي - المعارك الأدبية .

حيا وسلم ثم غادر تاركاً يده على الكبد التي أدامها  
ودنا ليعترف الهوى فتهاكت أسراره فرمت به فرماها  
.. فيجثم على ظلمة الصد بألوان من النهار يموت قبل أن يولد النهار ص ٢٢١  
ولا يكاد يستجيب لندائها فيكتب في معاني التنهدات لتنظمها شعراً بالفرنسية ،  
حتى تعود إليه تلك المعاني بجر وفه ، ولكن بخط يدها ١١. فيتأوه ويتلوى ونجده  
محباً « يشعر أحياناً من شدة القلق والاضطراب أن فكره يعدو بين الأشياء  
والحوادث وراء الاطمئنان الذي فرغ من قلبه ص ٢٦٤ .

ويأخذ قبضة من سطور قلبها ، ونشراً من أحاديثها ، يجعل منها فصلين  
ممتعين غاية من الأخذ والتوزيع الفني ، .. ويلاحظ عليه إبقاء كلامها على حروفه  
من غير تعديل ولا تبديل بخلاف الرسائل المتقدمة .

وهكذا حتى استطاع سد المكان الخالي في الأدب العربي بما يقابل بل  
يفوق ما في اللغات الأخرى ، بعمل فصل فيه النزاع بين القديم والجديد ،  
بتطهير فكرة الحب وتهذيب معانيه في نفوس الشباب والبنات .. لتسمو بها  
النفوس فلا تسقط ، بتصوير العواطف وتحليلها (١) .

° \* °

١٣ - رسالة الحج

فلسفته وأسراره

بضعة وخمسون صفحة من القطع المتوسط - مطبعة المستقبل بالاسكندرية .  
رسالة قيمة في الفريضة الاسلامية الخامسة التي عليها تمام الأركان الخمسة ،

(١) رسائل الرافعي ص ١٩٤ .



كما يتم الانسان برجولته الناضجة، ..

فلفظة الحج العربية من أدق الألفاظ : تتسع لكل معنى في توجه الانسانية نحو مركزها . وقد كان « الحج عند عرب الجاهلية رمزاً نفسياً إلى استجماع الأرواح كلها في معنى إنسانيتها تبطل المنازعات في أشهره وتسقط الشهوات » ص ١٢ .

وبعد أن أتى على الفرائض الأربعة من الشهادة والصلاة والصوم والزكاة ، تحدث عن المساواة في الاسلام ، ومقاصد الحج ، وقارن بينه وبين أنظمة الفتوة والكشافة ، وبين العلاقة بينه وبين الجهاد ، وعرض المنافع الحج التي وردت في الآية الكريمة فأبان عن سرٍّ من إعجازها ، الذي صرّح بإنسانية الفريضة قبل أن تكون عبادة .

وتحدث عن مناسك الحج بتفسير جديد ، .. ثم أورد مقترحات عملية لتنظيم هذه الفريضة ، واغتنامها فرصة لمؤتمر السياسة والاجتماع والاقتصاد بشكله العلمي والدولي ، وتنظيم هيئة مؤتمر الحج في كل قطر .. الخ .  
وقد نسب الكتاب في طبعته الأولى الى الأستاذ حافظ عامر - رح -  
فنصل مصر في جدة والعراق وصيدق الرافي .

ولكن العريان - الذي كاد لا يسميه في الطبعة الأولى من حياة الرافي ، عاد في الثانية فسمّاه واعتبره من المقالات المنحولة (١) وعقب على رسالة حسين نصيف من أن أصل الرسالة بالأردنية ، نقلت عن ترجمة انجليزية مخطوطة ، .. فعدّ عمل الرافي فيها عمل المنشئ ، وصاحب البيان لفكرة زعم صديقه أنها فكرته .

(١) العريان - حياة الرافي ص ٣٢١ .

ولكن ما جاء في رسالة الرافي نفسه وهو يقدمها لصديقه وقوله :  
« رسالة الحج يتكلم الحج نفسه فيها حتى لو أوحيت لما جاءت إلا هكذا ،  
ولما أشبه مؤلفها بالجندي المجهول - تأمل - يجتمع التقديس عليه فيصبح في الحقيقة  
هو القائد المجهول ليس له فخر النصر ،.. ولكن له المجد » (١) .  
يكشف عن الحقيقة أكثر ، وأسلوب الرافي معروف في المقالات  
المنحولة (٢) .

على أن فكرة تجديد معاني الحج قديمة قدم الحج نفسه ،.. وقد ألحّت  
على الأمة العربية - الاسلامية بعد ذهاب وحدتها ،.. والحج بعد هو المؤتمر  
القومي الأعظم لقوى الأمة الذي أريد به الاجتماع لا التفريق ، والقوة لا الضعف  
والسياسة النفسية القويمة لا الاهواء والمفارقات ،.. فلا بدع أن يكون الرافي  
في بيانه العالي من أوائل الملبين لهذه الفكرة

• • •

### ١٣ - وحي القلم

الجزء الأول في ٣٩٤ صفحة من القطع الكبير ، والثاني في ٤١٤  
صفحة من القطع الكبير أيضاً صدر عام ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م  
عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة . وأعيد طبعتها  
دورات مع الجزء الثالث الذي أخرجه العريان : ٤٨٠ صفحة  
عن مطبعة الاستقامة .

كان المقالة البيانية التي ظهر بها الرافي وقع خاص في نفوس الادباء  
والنقاد ،.. وهي التي ميزته على سائر معاصريه ،.. بما كان يحتفل لها من

---

(١) رسالة الحج ط ٢ ص ٣٥ . (٢) العريان - حياة الرافي ص ٣٢١ .

فنون الكتابة وأساليبها التي طوعها لقله البليغ ، وأدبه الاعتقادي العالي .  
وكان لقهره خصومه بقوته العلمية ، وتحدياته السافرة ، والانتصار الادبي  
الذي حققه في خماسيته الانشائية الفريدة ، مما دعا الاستاذ لطفي جمعه أن يصرح  
عقب صدور كتابه الاخير « .. وجدنا الاستاذ صادق الرافي قد قطع شوطاً  
بعيداً في التجديد من حيث لا يدري » (١) وبذلك أظهر قوله « أنه لا يوجد  
في العربية قديم وجديد ، ولكن يوجد أسلوب واحد فصيح ، من ذاق حلواته ،  
ووصل القدرة على احتلال ناصيته .. لا يسلوه ، ولا يستطيع التحلي عنه مهما  
أعطي من المزايا » حث قرر الرافي بعدها : أن البيان في العربية أسمى وأدق  
وأظرف من البيان في لغة باريس ولندن وبرلين وسواها .

ومن هنا نشأت فكرة الكتاب الذي يضع الادب العربي الحديث على  
جادة المسؤولية الاعتقادية للفكر في وضوح وجلاء ، فتارة يدعوه « بالادبيات » ،  
وأخرى « بالورقات » وثالثة « قول معروف » ورابعة « الكتاب النبوي » (٢)  
وأخيراً « وحي القلم » حيث جرى على لسان احد الادباء الشبان فكتب اليه  
يطلب التنازل له عن الاسم ، او يبحث له عن اسم سواه (٣) .

وقد طلب الى الشيخ محمود أبي ربة وسعيد العريان وأمين شرف وغيرهم  
من محبيه وتلاميذه أن يبعثوا له نماذج من مقالاته الادبية ، او يدلوه عليها

(١) لطفي جمعة - المساء ١٩ نيسان - ابريل ١٩٣١ م .

(٢) راجع الرافي في رسائله للشيخ أبي ربة ، وقد جرت التسمية

الأخيرة على لسان العريان .

(٣) من رسالة الأديب « عيسى متولي » ..

في مكانها من أنهر الصحف وأجزاء المجلات فتوفر له أكثر من مئة مقالة وحدث ،  
انتقى منها ما أخرج به الجزء بين الأولين ، وابقى الاخرى لينتظمها جزء ثالث  
او كتاب آخر .

وعلى ذلك جرى ترتيب الكتاب لا على سبيل الابواب والفصول ،  
وإنما على ما عن له من فكرة الجمع والضم في وقتها ، ولو مد الله في عمره ، لأعاد  
ترتيبها بالشكل الآخر الذي حدث الشيخ ابارية والمرحوم العريان عنه ،  
والذي اهتم الآن بالإعداد له ، ولا سيما ان العريان (رح) لم يأت بجميع المقالات  
الباقية في الجزء الثالث ، وإنما بقيت هنالك احاديث وتعقيبات وكلمات تؤلف  
جزءاً و آخر .

وقد صدر الكتاب بمقدمة بليغة تحت عنوان « البيان » فيها القول الفصل  
في القدامى والمحدثين وما انتهت إليه معركتهم ، وفيها تعريض بخصوصه حيث  
يقول :

« في الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظهم فناً عقلياً غاية صحة  
الأداء وسلامة النسق ، فيكون البيان فيهم على ندرية كوخز الخضرة في الشجرة  
اليابسة هنا وهنا .. ولكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الأداء  
مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة »

اولئك في السكتابة كالطير له جناح يجري به ، ويدف ولا يطير ، ..  
وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري ، .. ولو كتب الفريقان  
في معنى واحد لرايت النطق في أحد الأسلوبين وكأنه يقول : أنا هنا  
في معان والفاظ ، وترى الإلهام في الأسلوب الآخر أنه هنا في جلال وجمال

وفي صور وألوان .

وكانما يدرك موقف هؤلاء من أدبه بالذات ، فيعرف بالكتابة المفيدة التي هي مثل الوجهين في خلق الناس « ففي كل الوجوه تركيب تام تقوم به منفعة الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع الى تمام الخلق جمال الخلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة ، وهو لذلك وبذلك يُرى ويؤثر ويُعشق » .  
ثم يصل بيت القصيد فيدافع عن أدبه وفنه بمثل قوله :

« ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ، .. وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ، .. وبأنه محيّر ، ولكن الحسن كذلك ، .. وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك » ص ٨ .

وبعد ذلك تأتي أحاديث الكتاب ومقالاته متتابعة ، فيها القصة التاريخية « اليمامتان » والفتح العربي لمصر ، وخبر مارية القبطية ونشيد اليمامة ، .. ويحتلي العيد ، ثم يبحث عن المعنى السياسي فيه الذي لا يراه « إلا إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي ، مفصولة من الأجانب ، لابسة من عمل أيديها ، معلقة بعبيدها استقلالين في وجودها وصناعتها ، ظاهرة بقوتين في إيمانها وطبيعتها مبهجة بفرحتين في دورها وأسواقها ، .. فكان العيد يومٌ يفرح فيه الشعب كله بخصائصه » ص ٢٧ ويشهد « الربيع » ليدرك أن الحياة إذا لم تفسدها جاءتك هداياها ، .. وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن » ص ٣٢ .

وتعرس ابنته « وهيبة » وينتظم لها « عرش الورد » ليلة زفافها فيحلق

بدعاء :

( يا نسيمات الليل الصافية صفاء الخير ، .. أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلة في جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المبهج ، والعطر المنعش ، والضوء المحيي ، فإن هذه العروس المعتلية عرش الورد .. هي ابنتي ) ص ٣٧ . ويحتمد الصيف فيذهب الى الربيع المائي عند البحر ، ويرسل من هنالك خواطره :  
« ما أجمل الأرض على حاشية الأزرقين : البحر والسماء ، لا يكاد الجالس هنا يظن نفسه مرسوماً في صورة إلهية وتأخذه « طفولتان » بمعناها الاجتماعي ، فيتحدث عن فساد النظام الإداري وتخلف القوة الشعبية ، وضياح الأحلام في القصر وبنت « الباشا » والزبال الفيلسوف .. وكأتما طارت منه « ورقة ورد » فلاحقها في ( اللطائف المصورة ) حيث جعلته يرى الابتسامة الجميلة أقوى حكومة في الأرض .

ويعود الى التاريخ ليشهد ( سمو الحب ) في قصة عبد الرحمن القس وسلامة ، ويفلسف للمهر في الشريعة السمحاء في قصة زواج ابنة سعيد بن المسيب من تلميذه الذي فضله على ابن عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين كله ! .. ثم يقص خبر زوجه إمام فيفسر بعض الحديث النبوي في صور من أخلاق التابعين ومزايامهم . ثم ينتقل الى موضوع المرأة في العصر ودعوة ( تحريرها وتحويرها وتجربها .. الخ ) في ( الطائشة وفلسفتها ودموعها والتربية الأوثوية .. » ومذهبتنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذ من أخطأ » ص ٢٠٥ ، وينعطف نحو تلامذته وقد جمعهم صفة العزوبة ، فيبحث عن عليها ويحاول حل معضلاتها حينما استنوق الجمل أو كان ( أرملة حكومة ) .  
ثم يعود الى القصص ليتحدث عن أبي خالد الأحول الزاهد في

(رؤيا في السماء) وعن أبي يحيى مالك بن دينار و « بفته الصغيرة » .. لينقلب الى « الأجنبية » التي تقتحم بوجودها أخلاقنا، وتبور بسببها نساؤنا، وتدمس في دماننا جريمة إجتماعية ، وتمكّن للأجنبي من بيوتنا ص ٢٧٤ .

ويحذر الشرقية من «عري البحر» يا لحوم البحر سلخك من جلدك جزار « حتى يأتي على «الجمال البائس» وقصته الانسانية الخطيرة، التي حدثنا العريان بخبرها .. ثم مشكلة تلميذه الأديب كامل محمود حبيب .. وهكذا تتابع أحداث الكتاب وقصصه ومقالاته في أجزائه الثلاثة ..

وفي رأبي أن بقاء «وحي القلم» على هذه الصورة من الجمع والخلط في الموضوعات يقلل من خطورته الأدبية وأهميته البيانية، وروحه الاعتقادية، .. ولو وزع حسب الموضوعات - وهذا ما أميل اليه - لجاء وحياً آخر فيه من قوة الإبصار ووضوح الرؤية وحسن التوجيه، .. ما يُلهم ويأتي بالحوارق المرجوة من فوائد الأدب الرافعي الاعتقادي .

وعلى ذلك نكتفي بتعريف الجزء الأول حسب ، ونرجي الحديث عن الآخرين حتى نعرف بآثاره الثرية الأخرى غير المطبوعة .

\* \* \*

## ١٥ - تاريخ آداب العرب

الجزء الثالث - تاريخ الشعر ومذاهبه والفنون المستحدثة منه .. الخ  
أخرجه المرحوم محمد سعيد العرياء عن مطبعة الاستقامة عام  
١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م .

مرّ بنا في تعريف الجزء الأول، أن الرافعي حين همّ بوضع مؤلفه الفريد

في تاريخ الآداب العربية إقطع لذلك من أواسط عام ١٩٠٩ م .. وبعد أن توفر له جمع المادة العلمية وتصنيفها وتوزيعها بحسب موضوعاتها .. اختط لنفسه ذلك المنهاج الواضح الذي يجمع ولا يفرق .. بعيداً عن محاولات المستشرقين وتابعهم في تليفق « الأدبيات » .

وقد ظهر له أن ذلك يستغرق تأليفاً في اثني عشر باباً .. ما كاد يصدر الجزء بين الأول والثاني وفيها ثلاثة أبواب فقط حتى بدأ عظم المشروع .. وعلى هذا الأساس فإن الأبواب التسعة الباقية كانت ستستوعب أجزاء أخرى لا تقل عن ثلاثة ، فيما لو استمر على منهجه ومذهبه في التأليف . ولكن حدثت له أمور صرفته عن أدب التأليف والتأريخ إلى النقد والانشاء وتعجيز شائيه وخصومه الكثير .

وبالرغم من إلحاح محبيه من رفاقه ورفيقاته وتلامذته ، واهتمامه هو بالذات ، فإنه لم يجد الوقت الكافي الذي يستطيع فيه العودة إلى ذلك الفن من العلمية الموفقة .

ولم يكده يلحق بالرفيق الأعلى حتى ألحقت على العريان جهات تستنجزه الوعد في إخراج بقايا التاريخ التي كان يحسبها تامة التأليف والتبويب .. ولكنه عانى الأمرين في الوقوف على أصولها ، وجمعها وإخراجها بهذا الشكل الذي جاءت تم الكتاب بجزء ثالث فقط ..

تحدث في الباب الرابع عن تاريخ الشعر العربي ، فعقد لنشأة الشعر عندهم فصلاً مهماً ، أتى فيه على ما للعلماء من تحقيقات في أولية الشعر العربي .. ورجح هذه الأولوية بالمثلث السابقة للبعثة الحمديّة .. وهو ترجيح له وجهته في وقته ،



وإن كان لا يقف أمام المنطق العلمي إلا إذا تحول إلى المثات السابقة للميلاد  
العيسوي ..

وفي الفصل نفسه درس الباعث الفني والنفسي على اختراع الشعر ، ..  
وفرق بين الرجز والقصيد وتكلم عن الأبيات المرسلّة الخ ..  
ثم استرسل في الحديث إلى أول من قصد القصائد واعتبره غير  
امرئ القيس والمهلهل ، .. ثم تحدث عن الشعر في قبائل العرب ، ومكانة الشعراء  
عندهم . لينتهي إلى بيوتات الشعر والمعروفون فيه .

والفصل الثاني عقده لسيما الشعراء ، فعرض لألقابهم ، وحالات الانشاد  
كما مرّ بمقلبيهم ومكثريهم ، وحالاتهم النفسية في الارتجال والبديهة والروية .  
ثم نظر في النبوغ وألقابه في الشعراء ، وفرّق بين الاختراع والاتباع  
وأنواعه ، .. وبعد أن عرض لشياطين الشعراء ، تحدث عن طبقاتهم عند الرواة  
والمصنفين . وأفرد موضوعاً خاصاً عن الشاعرات عندهم .

وفي الفصل الثالث أرّخ لفنون الشعر العربي وتنوعها على مدى الأيام ،  
فلم يستنكر الهجاء عليهم ، وعده من قبيل التهذيب النفسي والاجتماعي لقيمهم  
وأخلاقهم فعرض الأثر في القبائل والشعراء وأشهر الهجائيين .  
وكذلك رأى المديح صمواً في الاعتبار النفسي عندهم ، .. ولم ينس الأخلاق  
الطارئة على المادحين من أثر الكدبية الساسانية .

وهكذا مضى يتحدث عن الفنون الباقية في الفخر والحماسة والرياء ،  
والغزل والنسيب والوصف ، وفات العريان أن يقف منها على شعر الترفيص .  
ثم تكلم عن الشعر الأخلاقي والمبدي والاجتماعية عندهم ، التي وجدها

من أرقى وأسمى ما وصلت اليه الفلسفات الانسانية المعاصرة .  
وبعد أن عرض للحكمة ، والنضج العقلي في تجارب الحياة ، والشعر الإلهي ،  
والمحمي والعرفاني- الصوفي .. تكلم عن هزة النفس في الشعر الهزلي والقصصي ،  
وكذلك نظر في المنظومات العلمية .

وبعد ذلك انتقل الى تاريخ الفنون الحديثة في الموشح وسبب اختراعه ،  
والملاحون فيه ، وأنواعه ، وأشهر الوشاحين وكتب التوشيح ، مما لا يزال الحديث  
عن هذا الفن لا يزيد عما جاء به الرافعي نحال .  
وكذلك عرض للصناعات التي أولع بها المتأخرون كاللوبيت والمواليا ،  
والزجل والفنون العامية الأخرى .

وفي الباب السادس فصل القول في حقيقة المعلقات ، وتحدث عن  
امرئ القيس وشاعريته وشهرته ، وقارن بين معلقته وقصيدة علقمة ، ونظر  
في طرفة بن العبد ومذهبه الشعري ، وكذلك وقف مع حكيم الشعراء زهير بن أبي  
سلمى ، ليصف من ثم خشونة الشعر الجاهلي .

وجعل الباب السابع للعربية وآدابها في الاندلس ، وهو يؤلف كتاباً  
قائماً بذاته يتحدث فيه عن عروبة الاندلس وحضارتهم فيها ومبلغ عنايتهم بالعلم  
والادب في القرون : الثالث والرابع والخامس .. وما بعد السادس .

فتكلم عن أدباء ملوك الاندلس ، وعصر الوزراء ، ونكبة ابن رشد ،  
وأدباء الاندلس وعلماؤها ، والعلوم الفلسفية ومقاومتها وانتشارها ثم آخرتها ! ..  
حتى مصرع العربية في الاندلس ، وتنصّرها وترجمتها في أوربة وديوان  
التفتيش .. الخ .

أما الباب العاشر في التأليف وتاريخه عند العرب،.. حيث عرض لكتب الطبقات والتراجم، والمختارات والحماسات.. الخ.  
والباب الحادي عشر في الصناعات اللفظية التي أولع فيها المتأخرون من لزوم ما لا يلزم، والقوافي المشتركة والمعراة.. والتخميس والتشطير.. الخ.  
ولا تكاد تنتهي من المطبوع حتى يبلغ بك الحزن مدى غير قريب،..  
لضياع بقية الأبواب والفصول،.. وعدم وجود «رافعي» آخر يتولى استكمال ذلك ليخرج المصنف الفريد هذا بصورته التي أرادها له رحمه الله

#### ١٦ - رسائل الرافعي

٣٠٠ صفحة من القطع الكبير أخرجها الشيخ محمود أبو رية - مطبعة الحلبي

بالقاهرة - ١٣٧١ هـ - ١٩٥٠ م .

من الخصال الحميدة التي اتصف بها الرافعي علاقته مع القراء،.. فقد كانت ترتقي أبداً حتى تنمو وتتحول الى صداقة ورفقة ومحبة،.. ومن هنا لم يكن يهمل رسالة ولا سؤالاً يتوجه اليه به قارئ او سائل حتى يجيب عليه وبفيه حقه .

وفي مطلع العقد الرابع من القرن الرابع عشر الحلي كان هنالك شاب يملأ قلبه حب الأدب، ويتوسل اليه الوسائل،.. فكتب يستطلع رأي الكاتب العثماني الكبير - الأمير شكيب أرسلان (رح) - في أحسن كتب الأدب،.. وكان الرافعي يومها قد أخرج الجزء الأول من كتابه « تاريخ آداب العرب»، وقد حظي بالاستقبال العلمي الكبير،.. فأشار الأمير علي أبي رية بأن يعكف عليه.

ولما كان طموح الشباب أكبر من أن يكتفي بذلك فقد كتب أبو رية الى الرافي نفسه يسأله عن كتب العربية ، وكيف يمتلك ناصية الأدب ، .. حيث رد عليه الرافي بجواب ثمين فيه توجيه وفيه دراية علمية عاملة .

ولم يكتف أبو رية بالجواب فتابع رسائله اليه ، وتلقى أجوبتها السديدة وارتفع بها الى مصاف الحواريين من تلامذة الرافي ومحبيه ، وتوطدت أسباب الصداقة والمحبة بينهما ثلث قرن من الزمن تلتق فيها عن الرافي جملة صالحة من الرسائل فيها أدب وعلم ومعرفة ، وتسجل إنباتاً للتاريخ في تلك الأيام .

فلما رأى الشيخ أبو رية ما رأى من إهمال للرافي بعد موته ، واطراح لأدبه ، والتجني عليه بزعم ملفقات تاريخية ، وأخرى أدبية ، ونالته تزعم النقد عمد الى ما كان قد تلقاه من « رسائل الرافي » فأخرجها وفاءً لذكراه ، ولم يحجب منها غير عبارات قليلة جداً لم يجد من اللياقة أن تكون فيها ، ورسالة او اثنين كما حدثني .

وفي هذه الرسائل يبدو الرافي على سجيته إنساناً أدبياً ، متمكناً من فنه ، يصون نفسه فلا يندلج ، ويرتفع فوق العصر وأسوائه ومرذولاته .. بقيم عليا ومثل وروائع خلقية وعلمية .

وفيها أخبار توفيقه الأدبي وتزوده بالمعرفة الواسعة ، وصفحات من أيامه وحياته ، وحديث كتبه وتأليفه وتصنيفه ، بما مرّ بنا في هذه الدراسة شأنه .

وفيها أيضاً أخبار علاقاته الأدبية والخاصة برجال جيله ، من زعماء السياسة ، والأدباء والفنانين والناس الآخرين ، .

ومن صفحاتها نستجلي الكثير من الوقائع والاحداث بتوثيق آخر ليست

منه شهوات التلفيق والاجترار التي يعمد اليها خصومه ومناوئوه ..  
وقدمهد لها الشيخ أبو رية بما كشف فيه عن علاقته هاتيك وأشار  
الى طرف من قصة حبه ، وكيف أنه أراد أن يرتفع بعلاقته مع « مي » الى ما  
فوق مستوى الشبهات من سموّ بالعاطفة والاشراق الوجداني ، والانتظام  
الروحي في صفو وخيلاء .. ولكنه لم يشر الى عقوق « مي » في هذه الناحية ..  
وإن غمزها بقوله : ليتها جاذبته جل المراسلة ..!

وخلاصة القول أن هذه الرسائل ورائق تاريخية قيمة ، قد لا نعد لها مثل  
الروايات التي تدخلها وجهات النظر والعواطف .

ولو تفضل أصدقاء الرافعي وتلامذته ممن تلقوا عنه مثل هذه الرسائل  
وسواها ، فأقدموا على إخراجها وفاءً ، أو تقدموا بها إلينا فألزمونا ذلك واجباً ،  
لقدموا خدمة للأدب والفن والتاريخ لا تعدها الدراسات ! ..

عسى أن يصل صوتي إليهم .. في أسمعهم ، أو آذان ذويهم وأبنائهم  
وتلامذتهم ودارسيهم ، .. قبل أن أسميهم بأسمائهم فأطلب اليهم ذلك

## آثاره الثرية غير المطبوعة

كان الراقعي غزير الانتاج بشكل يبعث على الإعجاب والاكبار معاً،  
وحين يقف المرء على ثبوت مؤلفاته المطبوعة وحدها ويصبر في قيمتها الأدبية  
والحضارية يدعش لتوفره على أسبابها مع ما كان عليه من هم الوظيفة، التي  
استهلكته منه زهرة النهار أربعين سنة، والانحراف الغالب على صحته الذي  
لم يكن يترك له العافية يتنهأ فيها إلا لماماً، بالإضافة الى هم الأسرة والاولاد  
والعيال الآخرين الذين كان يلزم نفسه بإطعامهم وكسوتهم، وتربيتهم وتأديبهم  
على ما مر بنا بعض خبره.

وعلى أن ما طبع له من مؤلفاته بعد وفاته لم يكن يتعدى جزء من  
« وحي القلم » وآخر من « تاريخ آداب العرب »، فإن له مؤلفات ثرية أخرى  
ما وجدت يد العناية التي تهتم بإخراجها الى اليوم ومنها:

### ١ - موعظة الشباب

هي قصة تمثيلية ورواية في آن واحد، كتبها شعراً ونثراً ونشر في الجزء  
الثالث من ديوانه شيئاً منها، كما أعلن عنها بأن روح الشعر تنبع في كل فصل  
من فصولها.

وقد وقفت على رسالة للمرحوم سلامة حجازي يطلبها منه اليه، كي  
يتمكن من عرضها وتمثيلها، ويظهر أن المنية قد تخطفته قبل أن ينظر فيها، وربما  
بقيت ضمن مخلفاته، وكم يكون جميلاً لو أن من عُمنوا بأثار الحجازي قد وقفوا  
عليها فأعادوها الى أهله، لنتمكن من إخراجها.

وكان صاحب الأعلام الشرقية قد نسب إليه رواية مماها «حسام الدين»  
حسبها الأستاذ أنور الجندي أنها هي ! ولكن لا أستطيع أن أقع يقول فيها  
ما لم أرهما، ولعلمها لرافعي آخر سواه .

• • •

## ٢ - ملكة الانشاء

يخيل إلي أن الرافعي لو تهيأ له أن يكون معلماً في مدرسة أو أستاذ جامعة  
لأثر في تلامذته وأولاده ثمار البلاغة والبيان العربي بأعرس ما كان يحتفل له بنفسه .  
.. فهو منذ صباه اهتم بصياغة الجملة العربية ، ليرتفع بها عن العامية وصيغها  
المتبدلة ، والترجمة وعباراتها المرذولة ، . . . والعجمة ورتانها الشعبية والصليبية ،  
متموّاً باللسان العربي الى الوحدة اللغوية التي هي قوام الوحدة الفكرية التي تنشئ  
الجيل المستقل .

ومنذ أوائل القرن شرع في كتابة موضوعات يجعل منها كالتماذج لتربية  
ملكة الانشاء ، . . . ومنها ما نشره في الجزء الثالث من الديوان ، ومنها ما نشره  
في الجزء الأول من ديوان النظرات عن « الحسن المصنوع » .  
ولكن العريان - رحمه الله - لم يقف على بقية فصول هذا الكتاب ،  
ويحسب أن الرافعي قد استعاض عنه بكتابه « حديث القمر » .

• • •

## ٣ - شعراء العصر وطبقاتهم

قد يكون اهتمام الرافعي بالشعر والشعراء أكثر من اهتمام سائر معاصريه  
من الأدباء والنقاد ، . . . فهو منذ استطالته الى شاعرية الحسن . . . الى نقده لشعراء

جيله ، وسعيه وراء إمارته ، .. وإيدائه للعقاد وشوقي وسواهما .. كان يتم بتقويم الشعر العربي الحديث ليأخذ مكانته في الشعر الانساني ، .. وهكذا عقد النية على وضع كتاب خاص في هذا الشأن ، وقد جاءت الإشارة اليه في إحدى هوامش « حديث القمر » .. ولكن لم يقف العريان على أصول خاصة له في ملف أو نحوه ..

ولكنني أحسب أن معظم فصوله منشور له في الصحف والمجلات ، وقد توفرت عندي بما يؤلف هذا الكتاب بشكل أو آخر ، .. وربما أخرجته جزءاً خاصاً من « وحي القلم » يضم اليه بضعة وعشرين فصلاً ومقالة ، فيها نقد وتعقيب وترتيت ، وفيها جملة رأيي الرافي في الشعر والشعراء المعاصرين .

• • •

#### ٤ - فصح الكلام

« كتاب في اللغة يجمع اليه فصح الكلام مما ورد في الكتب المختلفة » كان في عام ١٩٢٨ م أوراقاً غير مرتبة ولا كاملة ، .. وقد ترك العمل فيه من زمن ، .. فقد أدرك أنه يحتاج لإتمامه الى مطالعة سنة أو سنتين ، ثم أنه يحتاج بعد ذلك في ترتيبه الى وقت وتعب .. »

ولم يطلع الرافي عليه أحداً ، حيث آثر أن يتمه أولاً ، إذ ليس من عادته أن يتحدث عن أعماله أو يريها أحداً قبل تمامها (١) .

ولا أدري إن كانت تلك الأوراق مما لا يزال في مكتبته الى الآن أما أنها لحقت مأساة تلك المكتبة ١؟

---

(١) أنظر رسائل الرافي ص ١٣٧ .



## ٥ - أسرار الاعجاز

كان للتوفيق الذي حالف الرافعي في تاريخه للقرآن الكريم وإظهاره لوجوه إعجازه ، ولا سيما في القيمة الأدبية والناحية البيانية التي غفل عنها سابقوه ، ٠٠٠ وإعادة طبع الكتاب غير مرة ، ٠٠٠ ولسكون فصوله وهوامشه لم تعد تحتمل زيادة البسط والايضاح والزيادة ، ٠٠٠ فقد عزم - رحمه الله - على أن يضع كتاب البلاغة الجديد في « أسرار الاعجاز » . فكان « مشغول الفكر به دائماً » ولا سيما حين اكتشف أن « الناس متهبثون للإيمان ، ولكن ينقصهم من يكشف لهم عن أمأكنه » وهذا كله يجعله لا يستريح إلا إذا أخرج لهم « أسرار الاعجاز » (١) .

ولما جاءت كلمة يوسف حنا أنه المختار لحراسة لغة القرآن ، حسبها إنباء من الغيب (٢) فقد ازداد همته في « كتاب بوضع ليقاوم التاريخ المنذفع بالناس إلى المنحدر » .

وكانت طريقتة تجتمع في « التفكير المستمر قبل الاقدام على العمل لأنها أنفع وأفضل » (٣) وكان يعتد بهذا الكتاب اعتداداً كبيراً . وبعد وفاته - رح - كان الكتاب يكاد يكون تاماً في أبوابه وكثير من فصوله ، ٠٠٠ وفصول أخرى أجمل فكرتها في كلمات على أوراق ، أو أشار إلى مصادرها .

وقد اطلع العريان على فصول منه وذكر نهجه في تأليفه الذي لخصه بما يلي :

---

(١) رسائل الرافعي ص ١٩٠ .

(٢) ، ، ص ١٩٣ .

(٣) ، ، ص ٢٢٣ .

أ - يتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية فيردها الى أصول غير الأصول التي اصطلح عليها علماءها منذ كانت ، ويضع لها قواعد جديدة وأصولاً أخرى .

ب - ويتحدث في الباب الثاني عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه مسترشداً في ذلك بما قدم في الباب السابق من قواعد .

ج - يتناول في الباب الأخير آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة .

ويعتبر هذا الباب صلب الكتاب وأساسه ، وقد أتم الى آخر يوم كان العريان معه بعضاً وثمانين آية على هذا النسق (١) .

وقد نشر بعضها في « كوكب الشرق » والمقتطف وضمن تفسير البعض الآخر أقاصيصه التي كان ينشرها في « الرسالة » ، والتي اجتمع بعضها في وحي القلم .

على أن ما وقفت عليه من خير الكتاب أنه كتب على الآلة ، وأودع كلا من العريان - رح - والشيخ محمود محمد شاكر والاكثور محمد ولده ، بعد توالي ندوات القراءة لإخراجه ، ولكن الايام ما زالت تغلت من أيدي هؤلاء جميعاً فلم يرَ النور حتى اليوم .

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٥٢ .

(٢) أنظر الرافعي - كوكب الشرق - ٤ نوفمبر ١٩٢٩ ، يناير ١٩٣١ م ،

والمقتطف - يناير وفبراير ١٩٢٩ م .

## ٦ - الكتاب النبوي

لقد بلغ الراجعي بأدب الانشاء ، غاية لم يسبق لها قبله أديب في تاريخ العربية كنهه ، .. وأوفى عليها بما عرف عنه من النظرة الحارقة في التفسير والتحليل العلمي ، .. والوصول الى حقائق ودقائق في كثير من الموضوعات التي يتصدى لها .  
ويوم انتهى من خماسيته في « أوراق الورد » ووضع الحد الفاصل بين زعم التجديد والاثمار الحق فيه ، .. كان كالذي أحس أن هنالك من ينتظر منه البناء بعد الانتصار .

وتوالت رسائل القوم عليه تستحثه على الكتابة التي يجدون فيها أنفسهم مصورة في أفكارهم وما يتطلعون اليه من مغام المعرفة ، وأبعاد الاعتقاد ، وأفواف الأدب وروائع الفن ، وثمار القرائح ..  
وكان للاستاذ كمال الدين الطائي السبق في هذا الحث ، ولا سيما حين راح يلحف عليه بالطلب للكتابة في الموضوعات النبوية عند ذكرى المولد .

وقد مر بنا أن الراجعي كان قد أرخ للبلاغة النبوية في القسم الثاني من كتابه « اعجاز القرآن » ولكن بقيت معاني أخرى لم يتصد لها حداً للتاريخ ، .. وإن كان حرصه عليها أكبر وأشد ، ..

ولما وجد في كتابة طه حسين « على هامش السيرة » لونا من التهمك الصريح (١) أراد أن يكون له أسلوبه الذي يتفرد به في هذا الشأن فيكون كلارد الحاسم على هذا وأمثاله ممن يتاجرون بالسيرة العطرة ..  
وكانت للراجعي توسلاته بصاحب الشفاعة العظمى في مطلع حياته الشعرية

(١) رسائل الراجعي ص ٢٦٩ ، وقد مر بنا خبر ترجمتها !!

ومنها قوله :

رعاك الله هل مثلي محبٌ وقد أمسى محمد لي حبيباً  
.. وسواها مما يظهر لنا الأساس الاعتقادي الذي يصدر عنه بأدبه النبوي ..  
وهكذا عاد فكتب في سمو الروحي الأعظم ، والجمال الفني في البلاغة  
النبوية ، .. وكان كالذي يفجر في الحديث النبوي طاقات ذرية هائلة تكشف  
عن قوة الاعتقاد ومكانة الرسالة من الأمة ، ..

وفي الوقت الذي كان يكتب فيه فصولاً من « أسرار الإعجاز »  
وتتكشف له الحقائق في تفسير الآيات القرآنية ، ويتوصل الى أسرار جديدة  
في إعجازها لم يدركها سابقوه ، .. كان من الناحية الثانية ينظر أثر التربية القرآنية  
في السيرة النبوية العطرة ، .. ويتسامى في جوٍّ روحاني خاص يتهيأ للأعمال  
الأدبية فيه (١) .

وما كاد يكتب عن « الاشراف الإلهي » ويصور روح الفلسفة الاسلامية  
حتى بادر يقول : « هذه المقالات هي النمط الذي كنت أريد كتابة السيرة به » (٢) .  
فلما كتب بضعة مقالات منها وهم أن يخرج كتاباً أدبياً آخر جرت علي  
فم المرحوم العريان تسميته بـ « الكتاب النبوي » فاستحسنها وعدها إلهاماً  
وفاتحة بشرى .

« ولا بد من الصبر عليه وإيقافه لخدمة النبي ( صلى الله عليه وسلم ) تكون  
شيئاً ، .. ولعل الله يتقبلها ويكتبها عنده حسنة في سيأتي الكثيرة » (٣) .

(١) الرسائل ص ٢٦٩ . (٢) الرسائل ص ٢٧٣ .

(٣) « ص ٢٧٥ .

وما زال كذلك يكتب في « وحي الهجرة » و « حقيقة المسلم » .  
ويدرك « الحقيقة أن الشباب الاسلامي في حاجة شديدة الى كتابة من هذا  
النوع وفي كل وقت أتمنى أن يوفقني الله له » .  
ولكنه بعد المعاناة في التأمل ، وإغراقه في إيذاء نفسه وعافيته في الصياغة  
الفنية لهذا الأدب النبوي .. وجد أنه صعب جداً .. وليس في العربية مقال  
واحد منه (١) .

ثم ظهر له أن (الكتاب النبوي) كلما كان صغيراً كان أقوى في تأثيره  
وكان اجمل وأبلغ (٢)، فبعد ان همّ بكتابة اثنتي عشرة مقالة من هذا النوع (٣)  
عاد حين ادرك انه يلح على نفسه بالأذى وهو يعتصر المعاني « .. لهذا سآمه  
مقالات بأربع اخرى .. ثم مقدمة صغيرة فيجيء في حجم « السحاب الأحمر » .  
ولكنه حين همّ بإخراج « وحي القلم » جعل من تلك المقالات أول الجزء  
الثاني، وجعل العريان إحداها أول الجزء الثالث .

ولكنني أجد من الصواب الأجدى أن تعود هذه المقالات مع تاريخ  
البلاغة فتنظم « الكتاب النبوي » وتكون جزءاً خاصاً من وحي القلم ، .. وعلى  
هذا الأساس أفردنا التعريف بها :

في مقالة « الإشراق الإلهي وفلسفة الاسلام » يتحدث عن النبوة في  
الفكر الانساني ويعقد المقارنة بينها وبين الأنواء ، فالنبي إشراف إلهي على

(١) الرسائل ص ٢٧٧ .

(٢) الرسائل ص ٢٧٨ .

(٣) ، ص ٢٧٣ .

الانسانية بقومها في فلکها الأخلاقي ، ويجذبها الى الکمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في السکواکب ، ويجيء النبي فتحيي الحقيقة الالهية معه في مثل بلاغة الفن البياني لتكون أقوى أثراً ، وأيسر فهماً وأبداع تمثيلاً .

ثم يمضي في هذا الموضوع يفلسف فكراً جديداً للدين الاسلامي ، ويجعل النبي العظيم مثله الأعلى الذي يعيش معه مسلماً ، ويذكره كل حين كأنه بين يديه ليكون دائماً ابن العجزة .

وفي « حقيقة المسلم » يستهل الحديث بقوله :

« لا يعرف التاريخ غير محمد ( ص ) رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الانساني كله ، كما تنصب المادة في المادة لتمرزج بها ، فتحولها فتحدث منها الجديد ، .. فاذا الانسانية تتحول به وتنمو ، وإذا هو ( ص ) وجود سار فيها فما تبرح تنمو به وتتحول » .

وما الاسلام عنده إلا « مبدأ إنكار الذات و ( إسلامها ) طائفة على المنسبط والمكروه لفروضها وواجباتها ، .. كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها الى الانسانية تصرّفها وتعتملها في كمالها ومعاليها » .

وعلى هذه الحقيقة المسلمة يمضي في تفسير العبادات والفروض بفلسفة

جديدة ..

وفي « وحي الهجرة » يجد أن « تاريخ ما قبل الهجرة وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الاسلام في الارض » فقد « بدأ الاسلام في رجل وامرأة وغلّام ثم زاد حراً وعبداً ، .. أليست هذه الجنس هي كل اطوار البشرية في وجودها؟! » .

وفي « فلسفة قصة » يفسر قصة انفراد النبي (ص) بعد موت زوجته خديجة الصديقة وعمه أبي طالب ، حيث وصل القوم من أذاه أن حثوا التراب على رأسه ، .. فكانت إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي .. فيقول لها النبي : يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك ، ، فيمضي في تحليل هذا القول الآبد ، ويعجب لرموز القدر في هذه القصة .

« ألا ما أكل هذه الانسانية التي تثبت أن قوة الخلق هي درجة أرفع من الخلق نفسه فهذا فن الصبر لا الصبر وحده ، وفن الحلم لا الحلم وحده .

و « فوق الآدمية » يعرض لقصة « الاسراء والمعراج » التي يضطرب في تفسير واقعها وحقيقتها كثرة من فقهاء المسلمين أنفسهم ، .. فيرى في كثير مما وصل اليه العلم من الاختراع والاكتشاف في المادة والنفس بعض تفسير لتلك الواقعة ، فهو على الرأي الذي عليه الجمهور من أن الاسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً ، فيكشف عن أسرار الإعجاز في الآية « ما زاع البصر وما طغى » وقوله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » فيثبت أن الطبيعة الآدمية كانت فيه كالنائمة عن حياتها الارضية بحقيقتها ، .. إذ من الممكن أن تتحول الأجسام الى حالتها الأثيرية في بعض الاحوال الخارقة .. الخ .

وفي « الانسانية العليا » يجمع أوصاف النبي (ص) من روايات مختلفة ويجعلها كالحديث الواحد .. فيكشف به عما يدهشه من مجموع صفاته بأن يتبين فيها « دليلاً بيناً على أنه مخلوق خلقه متميزة بنفسها كخلق القلب الانساني نظامه حياته ، وحياته نظامه .. فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والبصر » .

وفي « سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم » يقول :

« ليس هناك خبز الشعير ، ولا الجوع ، ولا رهن الدرع عند اليهودي ،  
كلا . . . كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ثابتة متزنة قائمة بعناصرها  
السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، . . . الى الرفق والحلم والتواضع تجبزه هذه  
الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي التام  
بأخلاقه وفضائله ، . . . وهو الذي بعث لتنقيح غريزة التنارع من أجل البقاء  
وكسر هذه الحيوانية ، وقمع نزواتها وإماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها ،  
فهو بنفسه صورة السكالم الذي بعث لتحقيقه وإثبات أنه الممكن لا الممتنع  
والحقيقي لا الخيالي » .

وفي « درس من النبوة » يفسر قوله تعالى « يا أيها النبي قل  
لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعهن وأمرحكن  
سراحاً جميلاً » .

.. ليقول من ثم « ليست قصة التخيير هذه مسألة الغنى والفقر في معاني  
المادة ولكنها من مسائل السكالم والنقص في معاني الروح ، فهي صريحة أن  
النبي (ص) أستاذ الانسانية كلها ، واجبه أن يكون فضيلة حية في كل حياة ،  
وأن يكون عزاء في كل فقر ، وأن يكون تهديباً في كل غنى ، ومن ثم فهو  
في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع » .

وفي « سمو الروحي الاعظم والجمال الفني للبلاغة النبوية » نظرة  
تفسيرية جديدة أخرى في الحديث النبوي الشريف غير التي تحدث عنها في  
« البلاغة النبوية » مع الاعجاز ، . . . فيحلل حديث السفينة ، وحديث الغار ،



وما يلحق بهما من أحداث أخرى ، ويكشف عن أسرارها بتأمله ، ليقول  
من ثم :

« إن كلام نينا (ص) يجب ان يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستراه  
حيناً كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة ، وستراه في شرحه الفلسفي كالأزهار  
الناضرة : حياتها بشاشتها في النور ، وتعرفه إنسانية قائمة بذاتها تصحح  
أغلاط الزمن في أهله ، وأغلاط الناس في زمنهم ، وتجدده يرف على البشرية  
المسكينة بخنان الأم على أطفالها ، والناس الآن كالأطفال غابت  
أهمهم فهم في تنافر صبياني ، فخان قلب الأم الكبير هو القانون لكل قضايا  
القلوب الصغيرة » .

وهكذا كان - رحمه الله - يسعى لكتابة صور من السيرة العطرة ،  
ولكن بدا له أن ذلك الأسلوب عسر الهضم ، وفيه اعتصار لروحه يؤذيه  
في جميع أحيائه فانصرف عنه الى موضوعات أخرى لم يكن يخلجها من خلق  
نوبي أبداً .

وهذا الكتاب كالحلاصة لأدب الزايعي وفنه ، وما كتبه في فنون  
البلاغة والانشاء جميعاً

... وآثار أخرى

كان العريان - رح - قد عرض لجانب من حياة الرافي الفكرية ، كان فيه يعين ذوي المواهب الأدبية على أعمالهم ، .. وأن ذلك العون يتعدى حدود الأدلاء والمنهجة الى الكتابة والتصنيف ، ونحل بعض مقالاته وكتبه لهؤلاء وأولئك من اصدقائه وتلامذته ومجبيه ، ..

وأشار الى بعض أحاديثه التي كان يكتبها لمجلة البيان بخاصة ، او يملئها على محرري الصحافة الأدبية أمثال يوسف حنا وأسعد حسني والعريان نفسه وسواهم كثير ..

وقد كشف العريان النقاب عن حقيقة «رسالة الحج» التي قدمنا التعريف بها ، .. ولكنه أشار بجفاء الى « شرح ديوان المتنبي » وسواه من المصنفات المنسوبة الى صهره الشيخ عبد الرحمن البرقوقي .

وكان قد حدثني يوماً عن « المقتطف » وجزئه الخاص بالمتنبي ، الذي كتبه الشيخ محمود شاكر وكيف أعانه عليه ، ..

وبوم استوضحته عما يذهب اليه الأستاذ أنور الجندي من أن الرافي كانت له اليد الأولى في اخراج المكتبة الأزهرية لبعض الكتب الجليلة ، وبراعته في التحقيق ، .. لم يزد العريان - رح - عن القول « كان ذلك في مطلع حياته الأدبية » وربما بريء منها لو نسبت له فيما بعد ، لأنها لم تكن على الصورة المرجوة التي كان يتوخاها ! ..

على أن - حفيد الشيخ محمد سعيد الرافي - ينسب الى جده طول الباع في تحقيق هاتيك الكتب .

فهناك تراث آخر يحتاج الى عناية خاصة في التحقيق والنسبة ، وإن كان  
بعضه معروفاً له ، .. ومنه :

١ - إفتتاحيات مجلة البيان - او معظمها - ومقالات في النقد تناول  
فيها شعراء العصر وأدبائه وآثارهم ، بغير قليل من التحليل والتصويب  
وربما الايذاء .. ومنها ما يؤلف فصولاً من كتابه « شعراء العصر » الذي  
عرفنا به آنفاً .

٢- شرح ديوان : المتنبي وقد صرح العريان بنسبة مقدمته اليه ، وتغاضى  
عن يده في الشرح والمفردات والفوائد والتخرجات .. وما يزال معروفاً أنه  
للشيخ عبد الرحمن البرقوقي .

٣ - المتنبي : جزء خاص من المقتطف كتبه الاستاذ محمود محمد شاكر ،  
بعد أن خرج على كلية الآداب وأستاذ الأدب فيها . وكان الرافعي أراد بهذا  
الكتاب فتح جبهة اخرى على الدكتور طه حسين والجامعة ، ..

وقد وردت إشارته في قوله « لست أغلو إذا قلت إن روح المتنبي قد  
أظهرت كبرياءها ، فاعتزلت المشهورين ولزمت صديقنا المتواضع محمود محمد شاكر  
مدة كتابته هذا البحث النفيس ، حيث كتب تاريخ المتنبي ولم ينقله . وقد وضع  
لشعره تفسيراً جديداً من المتنبي .. الى أن قال « من أعجب ما كشفه من أسرار  
المتنبي سرٌ حبه ، فليس من احد يعلم هذا السر او يظنه ، .. والأدلة التي جاء  
بها تقف الباحث المدقق بين الاثبات والنفي .. وهذا حسبه فوزاً » .. وهي كما

ترى تشبه إشاراتهِ الى مضمون رسالة الحج .

٤ - شرح ديوان حسان بن ثابت : وهو المعروف للشيخ البرقوقي أيضاً .

٥ - شرح أدب الكاتب لابن قتيبة :

كتبه الجواليقي ، وعرضه المقدسي على الرافي لتحقيقه وإخراجه ، ثم اختلفا فأصدره الكتبي بمقدمة الرافي ، وفيها رأي جديد في كتب الأدب القديمة من ابرع وأدق ما كتب في توثيق النصوص .

٦ - أمير الشعر في العصر القديم :

وضعه الاستاذ محمد صالح سمك ، وكتب الرافي مقدمته ، وفيها ما يشف عن انه كان وراءه في منهاج البحث ومصادره ومراجعته .

٧ - الفاروق - عمر بن الخطاب - :

كتبه الاستاذ محمد ذياب ، وطلب الى الرافي كتابة مقدمته التي لم تشر الى الكتاب من قريب ولا بعيد .

٨ - أعجب العجب من احوال العرب :

منظومة شعرية وضعها المرحوم عبد الحق الأعظمي الاستاذ بجامعة علي الأغر (عليكر) في الهند .

وقد كتب الرافي لها مقدمة قومية رائعة ، بعد مراجعته لها في ابوابها وأبياتها ومعانيها .

... وهناك بحوث ومقالات في جريدة الأخبار، والسياسة والمقطم  
والبلاغ وكوكب الشرق وسواها، غفل من التوفيق او مستعارة الإيمضاء،  
او منحولة لأدباء وكتاب وغير هؤلاء من مرتزقة الصحافة الآخرين، ..  
هي الأخرى تحتاج العناية الخاصة لجمعها وتصنيفها وإخراجها بشكل او آخر ..



# الخاتمة

.. أما قبل

فهذه هي الدراسة المنهجية الاولى في حياة الامام مصطفى صادق الرافعي وآثاره ، تدل على أدبه وفننه ، وتسهم في جلاء الكثير مما انبهم من أمره ، وتنصفه من أيامه في زمان تنكر له وفننه ، وتعرض لمجالي من حياته الخاصة وروحه الشاعرة .

لقد قرأت الرافعي شاعراً وتغنيت معه ، وأديباً خلقت في آفاق خياله ، وآمنت بآيات فنه ، وانتصرت له بحماسة وعاطفة بعد أن ملأ علي آفاق الأخذ العلمي ، والعطاء الأدبي ، والاشراق البياني ، والمذهب الاعتقادي في رسالة العروبة الفكرية ، وحفظت له العهد والوداد .

ثم عدت اليه دارساً جوانب من حياته الشاعرة ، وروحه الثائرة ، أجول معه في أيامه الحائرة ، ونزواته العائرة ، وانطلاقاته الكائرة والسادرة ، ومجالي عصره في فنونه وآدابه ، ومرامي وجدانه ، وآيات إلهامه ، فأستوت لحياته غير المعافاة ، وحاولت أن أنصفه من أيامه في تاريخ الأدب الحديث ، بصفحات من تاريخه أجلوها لأول مرة ، أو أوضح منها بعض ما يغمض او ينبهم ، او يلتبس مع الأنواء !

ثم وقفت معه أمام جيل يصارعه ، ويعاديه ، ولا يحاول دراسته او فهم

مذهبه ، وحاورت رفقة ما وفتة حقه من عرفان الجميل ، وعابت تلمذة ما برت به ، وتناست ذكراه .

وقد حاولت في ذلك كله أن يتحدث هو عن نفسه ويجلو بعض ما فات على معاصريه فهمه من جوانب أدبه ، وخطرات شعره ، وسرحات بيانه بما بثته في ثنايا الدراسة من شواهد كله ، وأبيات نظمه ، ونثير قلعه ، ودقة نقده ، وفريد رأيه وفلسفته .

ولم ينس في غمرة هذه الدراسة المضيئة أن أقف معه لحظات في مناقشة هادئة ، ومحاوره عائدة ، ومحاوله تستهدف الإصاغة في الهدف ، ورد الخطل في الاتجاه ، وتصحيح ما ينغمر في وجهات النظر ، ويلتبس بالمفهومات المخالفة . وما سمحت لنفسي أن أدافع عنه بحماسة العاطفة ، وإنما تركت ذلك كله لبعض أحاديثه وأحكامه نفسها تجتمع له في حيثيات ، وتنتظم في مفهوم ، أو تفترق عنه في دلائل فتخذه في بينات أو تتعلق عليه بشواهد ... حتى تسعفه آراء بعض معاصريه فيه ومحاولاتهم تقويم أفكاره وشمين أحكامه بلفئات دراسية مبثوثة هنا وهناك .

ففي عصر الرافي ، الذي وافى بخمسة فصول تناول الأول منها صدرآ من تاريخ الحال السياسية في نصف القرن الأخير ، فعرضه من جديد بمناقشة علمية قد تشتد أحياناً وهي تفف على خلط بعض المؤرخين وغفلتهم ، ووقف على حيثيات جديدة فيها إعادة النظر في كثير من القضايا المعلقة .

وكان الفصل الثاني في البيئة الاجتماعية استعراضاً آخر يكشف عن مآس ، ويفضح مغالطات .



أما الحياة الثقافية والفكرية فقد كان لها تاريخ آخر فيه ميزات من التثبت  
ورد الاعتبار وتقوم الآراء .

وكذلك الحال مع الحركة الأدبية ، ويمث الشعر العربي الحديث ، . .  
فقد أسهمت في الكشف عن كثير من خبايا الإدعاءات العريضة ، ورددت  
بعض الأصول الى مظانها من التاريخ الأدبي بصورته العربية والأخرى  
الترجمة عن آداب الامم الاخرى ، ما تيسر لي ذلك .

أما الباب الثاني فهو في خمسة فصول أيضاً ، أرخ الاول منها للرافعي  
والرافعيين وترجم لأشهر علماءهم ، وتحدث الثاني عن سيرة الرافعي وحياته في  
الوظيفة والبيت ودنيا الأدب والفن .

وعرض الثالث لصودته الخلقية والنفسية كما اهتم فصل بثقافته وروافدها  
في الوقت الذي عرض الآخر لقصة حبه التي وثقها بمجديد الكتب والرسائل لتوافي  
القراء بأضواء أخرى على هذا الخائب الذي اضطرب فيه ذوو الآراء وأصحاب  
وجهات النظر ، والقلقون على مصائر بعض العواطف ١ .

كل أولئك وسواها من القضايا والافكار حتى يظهر لنا الرافعي  
متفاعلاً مع عصره ، ومرتفعاً على هذا العصر بعبقرية خارقة ، وذكا نفاذ  
وقوة وثبات .

وكان هنالك باب ثالث لآثار الرافعي ، . . فيه تعريف ونقد ، وتقوم  
بعد مناقشات وردود على بعض معاصريه . . .

ولكن ظهر لي أنه يستوعب كتاباً برأسه ، .. فأثرت اختصاره  
والحافه بالباين السابقين مقتصرأً على التعريف وشيء من المناقشة ، مرجئاً  
التفصيل لطبعة تالية .

في الوقت الذي أرجو أن أكون قد أدبت بعض الواجب الذي أُلزمت  
عني به أمام الامة تجاه الرافعي وآثاره .

.. وكم هو جميل أن يمد لي أدباء العربية يد العون ، فيبعثوا لي بما يعرفونه  
أو يلقونه من آثار الرافعي الأخرى ولا سيما رسائله وتمقيياته ، ولو بصورة منها ،  
أو يشيرون إليها في مظانها من خزانات كتب الأصدقاء والمعارف أو الصحف .  
وعسى الله أن يفتح علينا بها جميعاً إنه هو الفتح العليم

دائرة اللغة العربية - جامعة بغداد

مصطفى نعمان حسين البدرى



## ثبت بأهم المصادر والمراجع

- |                                   |                                  |
|-----------------------------------|----------------------------------|
| ١١ - السحاب الاحمر                | ١ - المصادر الأصلية -            |
| ١٢ - على الشفود                   | مؤلفات الرافعي حسب تسلسها        |
| ١٣ - أوراق الورد                  | التاريخي                         |
| ١٤ - وحي القلم - ثلاثة أجزاء      | ( أ ) المطبوعة                   |
| ١٥ - رسائل الرافعي                | ١ - ديوان الرافعي ثلاثة أجزاء    |
| ( ب ) المخطوطة - التي جهزت        | ٢ - ديوان النظرات ..             |
| للطبع الآن                        | ٣ - تاريخ آداب العرب ثلاثة أجزاء |
| ١ - النظرات - الجزء الثاني        | ٤ - إعجاز القرآن                 |
| ٢ - أغاريد الرافعي                | ٥ - حديث القمر                   |
| ٣ - بقايا ديوان الرافعي           | ٦ - المساكين                     |
| ٤ - الفؤاديات ( المدائح الملكية ) | ٧ - النشيد الوطني                |
| ٥ - شعراء العصر                   | ٨ - نشيد سعد زغلول               |
| ٦ - أسرار الإعجاز                 | ٩ - رسائل الاحزان                |
| ٧ - الكتاب النبوي                 | ١٠ - المعركة تحت راية القرآن     |
| ٨ - قصص الرافعي                   |                                  |

## المصادر والمراجع

- ٢ - المؤلفات الخاصة  
 جميل جبر - مي في حياتها المضطربة  
 عبد السلام هاشم حافظ - الرافي  
 ومي  
 محمد سعيد العريان - حياة الرافي  
 نعمت أحمد فؤاد - دراسة في أدب  
 الرافي  
 ٣ - الفهارس والمعاجم  
 أحمد أدم الجندي - أعلام الأدب  
 والفن .  
 خير الدين الزركلي - الأعلام  
 حاجي خليفة - كشف الظنون  
 الحسيني - طبقات الشافعية  
 السبكي - « «  
 زكي محمد مجاهد - الاعلام الشرقية  
 في القرن الرابع عشر ( أربعة جزاء )  
 عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين  
 محمد فريد وجدي - دائرة معارف
- القرن العشرين  
 يوسف أسعد داغر - مصادر  
 الدراسة الأدبية - جزاءان  
 يوسف إلياس سركيس - معجم  
 المطبوعات العربية  
 ٤ - الكتب والدراسات القومية  
 أجمد الطرايلسي - شعراء الحماسة  
 والعروبة في الشام  
 ساطع الحصري - القومية العربية  
 محمد عزة دروزة - الوحدة العربية  
 صديق شيبوب - القومية العربية  
 حمدي طربين - الوحدة «  
 مصطفى الشهابي - القومية «  
 مصطفى الخالدي وعمر فروخ -  
 التبشير والاستعمار  
 محمد سعيد العريان - أحداث قومية  
 عبد القديم زلوم - كيف هدمت الخلافة  
 جواد رفعة - الخطر المحيط بالاسلام

## المصادر والمراجع

- عمر أبو النصر - جهاد فلسطين العربية
- عبد العزيز الرفاعي - أصول الوعي القومي
- محمد زغلول - القومية العربية في الأدب الحديث
- محمود كامل - عربتنا
- ٥ - التاريخ العام والمذكرات : أحمد جمال باشا (السفاح) - مذكرات أسعد طلس - تاريخ الأمة العربية - الجزء الأول
- أسعد طلس - مصر والشام في الغابر والحاضر
- اسحق موسى الحسيني - الاخوان المسلمون - كبرى الحركات الاسلامية أمين سعيد - ثورات العرب في القرن العشرين
- توفيق علي برو - العرب والاتراك
- حسين مؤنس - الشرق الاسلامي في العصر الحديث
- جورج أنطونيوم - ترجمة علي حيدر الركابي ، و ترجمة إحسان عباس - يقظة العرب
- ذبيح الله - مآثر الكبراء في تاريخ سامراء ( ثلاثة أجزاء )
- ساطع الحصري - الدولة العثمانية والبلاد العربية
- محاضرات في نشوء الفكرة القومية - يوم ميلون .
- عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار في التراجم والأخبار
- عبد الرحمن الرفاعي - أحمد عرابي - الثورة العراقية
- ثورة ١٩١٩
- عصر اسماعيل
- محمد فريد

## المصادر والمراجع

محمد ناجي القشطيني - تاريخ  
المدرسة الحميدية (مخطوط) .

وليم ثل - ترجمة عجم نويهض -  
حاضر العالم الاسلامي (تعليق الامير  
شكيب ارسلان) .

٦ - مصنفات عامة

اسماعيل عبد الحميد - الأدباء الخمسة  
اسماعيل اليوسف - وحي الأدباء -  
منشورات بيروت

أنور الجندي

- أضواء على حياة الأدباء .

- الحب والمجد

- الشعر المعاصر

- المعارك الأدبية

- نساء في حياة الأدباء

جورج زيدان - تاريخ آداب اللغة  
العربية (اربعة أجزاء)

سعد ميخائيل - آداب العصر في

عبد الرحمن الرافعي - مذكراتي  
مصطفى كامل

مقدمات الثورة

عبد الرزاق الحسني - تاريخ العراق  
الحديث (ثلاثة اجزاء) .

عبد الرزاق الظاهر - الاقطاع  
والديون في العراق .

عبد العزيز عرابي - الثورة العراقية  
(ترجمة) .

كمال رفعة - الاستعمار والصهيونية .

كرومر - مصر الحديثة (ترجمة) .

محمد رشيد رضا - تاريخ الامام محمد  
عبد (ثلاثة اجزاء) .

محمد رفعة - تاريخ مصر السياسي

محمد صبيح - قصة الأرض في مصر

محمد عبد الله عنان - مأساة مايرلنج

محمد مهدي كبة - مذكراتي

في صميم الأحداث .

## المصادر والمراجع

- شعراء الشام والعراق ومصر  
عبد السميع المصري - في موكب  
الخالدين
- عمر الدسوقي - في الأدب الحديث  
- نشأة النثر الحديث وتطوره  
- المسرحية
- محمد سليمان - آداب العصر  
محمد صبري - شعراء العصر  
محمود ابراهيم وبدوي طبانة - تاريخ  
الأدب الحديث - بغداد  
مصطفى لطفي المنفلوطي - مختارات  
المنفلوطي .
- ٧ - كتب التراجم والدراسات  
الأدبية والنقدية  
ابراهيم عبد القادر المازني - مع  
العقاد - الديوان جزءان  
احسان عباس - فن السيرة ، فن  
الشعر ، فن المقالة  
أحمد حسن الزيات - في أصول الأدب - جزءان
- دفاع عن البلاغة  
أحمد الشايب - الأسلوب  
أحمد الشرباصي - شكيب أرسلان  
( جزءان )  
أحمد عبد الستار الجوارى - نشأة  
الحب العذري  
أحمد الحوفي - اللغة والوطن  
في الأدب العربي  
- شوقي وشعره الاسلامي  
إسحق موسى الحسيني - محاضرات  
الموسم الثقافي في الكويت  
إسماعيل أدهم - خليل مطران  
- توفيق الحكيم  
اليزابث درو - ترجمة محمد ابراهيم  
الشوشي - الشعر كيف نفهمه ونتذوقه  
أنيس المقدسي - الانتجات الادبية  
الحديثة - جزءان  
حسين المرصفي - الوسيلة الادبية

## المصادر والمراجع

- |                                     |                                  |
|-------------------------------------|----------------------------------|
| - ساعات بين الكتب ..                | جميل جبر - مي في حياتها المضطربة |
| - شعراء مصر في الجيل الماضي         | زكي مبارك - الموازنة بين الشعراء |
| عبد العزيز البشري - المختار - جزءان | ستانلن هايمن - ترجمة احسان       |
| عبد اللطيف حمزة - الصحافة           | عباس - النقد الادبي - جزءان      |
| والادب في مصر                       | سلامة موسى - البلاغة المصرية     |
| عز الدين الامين - نشأة النقد        | شكيب أرسلان - شوقي - أو          |
| عمر الدسوقي - في الادب الحديث       | صداقة أربعين عاماً               |
| - جزءان                             | شوقي ضيف                         |
| - الفتوة عند العرب                  | - دراسات في الشعر المعاصر        |
| - محمود سامي البارودي               | - شوقي شاعر العصر الحديث         |
| - النابغة الذبياني                  | - مع العقاد                      |
| - مذكرات في مناهج البحث             | طه حسين - حديث الاربعاء -        |
| (أمالي)                             | ثلاثة اجزاء                      |
| - نشأة النثر الحديث وتطوره          | - مستقبل الثقافة في مصر          |
| - تطور المقالة - بحث خاص            | طاهر الطناحي - الساعات الاخيرة   |
| مرسل الى جامعات امريكا              | من حياتهم                        |
| ماري زيادة (مي) - ظلمات وأشعة       | عادل الغضبان - نجيب الحداد       |
| - عائشة التيمورية                   | عباس محمود العقاد - حياة قلم ..  |



## المصادر والمراجع

- |  |   |
|--|---|
| مصطفى عبد اللطيف السحرتي - الشعر<br>المعاصر على ضوء النقد الحديث   | محمد خليفة التونسي - فصول من<br>النقد عند العقاد  |
| مصطفى ابو طالب - تراجم علماء<br>طرابلس   | محمد حسين هيكل - ثورة الادب<br>- في أوقات الفراغ  |
| نعمات أحمد فؤاد - أدب المازني<br>« « « - دراسة في أدب<br>الرافعي   | محمد رشيد الرافعي - عبد القادر<br>الرافعي - الثاني<br>محمد صادق عنبر - ذكرى أمين<br>الرافعي   |
| نجيب جمال الدين - خليل مطران<br>شاعر العصر   | محمد صالح ميمك - أمير الشعر في<br>العصر القديم  |
| يوبيل عبد الحميد الرافعي<br>مهرجان الخليل<br>مهرجان البارودي   | محمد صبري - أدب وتاريخ<br>محمد عبد الغني حسن<br>- الفلاح في الأدب العربي<br>- مي أدبية الشرق<br>محمد مهدي البصير - الموشح<br>محمد يوسف نجم وآخرون -<br>- الادب العربي في آثار الدارسين<br>محمود محمد صادق - من أدب<br>الثورات القومية |
| ٨ - كتب في علم النفس والادب<br>حامد عبد القادر - العلاج النفسي<br>محمد خلف الله أحمد - من الوجة<br>النفسية في دراسة الادب<br>مصطفى سويف - الاسس النفسية<br>للإبداع الفني - في الشعر خاصة<br>يوسف مراد - شفاء النفس |   |

	١٧ - الثقافة	٩ - الصحف
٣٥ - السيدات والرجال	١٨ - الثقافة الاسلامية	والدوريات
٣٦ - الشباب	- البغدادية	١ - أبولو
٣٧ - الشعب	١٩ - الجامعة	٢ - الاحسان - السورية
٣٨ - الضياء	٢٠ - الجمهور اللبنانية	٣ - الأخبار - الرافعية
٣٩ - صوت الاسلام	٢١ - الجمهورية البغدادية	٤ - آخر ساعة
- البغدادية	٢٢ - الجواب	٥ - الاخوان المسلمون
٤٠ - الظاهر	٢٣ - الحارم البغدادية	٦ - الآداب البيروتية
٤١ - العمل التونسية	٢٤ - الحال	٧ - الأسبوع
٤٢ - العربي	٢٥ - الحديث	٨ - الانصار
٤٣ - فتاة الشرق	٢٦ - الحرية	٩ - الاشاعة
٤٤ - الفتح	٢٧ - الدنيا المصورة	١٠ - الاهرام
٤٥ - الفكر المعاصر	٢٨ - الرابطة العربية	١١ - البصير
٤٦ - الكاتب المصري	٢٩ - الرسالة	١٢ - البعث - السورية
٤٧ - الكتاب	٣٠ - الزهراء	١٣ - البلاغ
٤٨ - كل شيء	٣١ - الزهور	١٤ - البيان - البرقوقي
٤٩ - المسلمون	٣٢ - سر كيس	١٥ - التربية الاسلامية
٥٠ - المقتبس الامشقية	٣٣ - السفور	- البغدادية
٥١ - المقتطف	٣٤ - السياسة	١٦ - التريا
٥٢ - المقطم	الأسبوعية	

# المحتوى

الصفحة

الموضوع

المقدمة : للاستاذ الكبير محمد بهجة الأثري

١٧	الباب الأول - عصر الرافعي
٢١	- الفصل الاول - الحالة السياسية
٧٥	- الفصل الثاني - البيئة الاجتماعية
١١٥	- الفصل الثالث - الحياة الفكرية والثقافية
١٤٥	- الفصل الرابع - الحركة الأدبية
١٧٣	- الفصل الخامس - إنطلاقة الشعر العربي الحديث
٢٠٧	الباب الثاني - الإمام مصطفى صادق الرافعي
٢٠٩	- الفصل الأول - الرافعي والرافعيون
٢٢١	- الفصل الثاني - سيرة الرافعي
٢٤١	- الرافعيون في التاريخ

ملاحظة: لم نثبت أجزاء	٥٧ - منيرفا - اللبنانية	٥٣ - المعرفة
الصحف والمجلات	٥٨ - الوعي الاسلامي	٥٤ - المعرفة البغدادية
الدورية هنا، وحسبنا	٥٩ - الهلال	٥٥ - المنار
الاشارة اليها في مكانها.	٦٠ - اليقظة - البغدادية	٥٦ - منبر الشرق

٢٧٩	- الفصل الثالث - الرافي والحب
٣٣٥	- الفصل الرابع - صورته النفسية والخلقية
٣٦٧	- الفصل الخامس - ثقافة الرافي وروافدها
٣٨٧	الباب الثالث - آثار الرافي
٣٨٩	- الفصل الاول - آثاره الشعرية المطبوعة
٣٩٦	- الفصل الثاني - آثاره الشعرية غير المطبوعة
٤٠٤	- الفصل الثالث - آثاره النثرية المطبوعة
٤٥٨	- الفصل الرابع - آثاره النثرية غير المطبوعة
٤٧٠	- الفصل الخامس - الآثار الأخرى
٤٧٤	الخاتمة
٤٧٩	ثبت المصادر والمراجع



٢٦ / ١٢٠٠ / ١٥ / ١٢ / ١٩٦٨ م

مطبعة دار البصري - بغداد



مكتبة  
المكتبة المركزية  
جامعة بغداد

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036762059

PJ  
7860  
.A34  
259

